الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود

دلائل النبوة
ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم



دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبيـــاء والمرسلين ﷺ وعلى آله وصحبِه ، والداعينَ بدعوته إلى يـومِ الدين .

﴿يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرا ونذيرًا (٤٥) وداعيًا إلى الله بإذنِهِ وسراجًا منيرًا (٤٦) وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرًا (٤٧) ولا تُطِع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا (٤٨)﴾[1] .

[صدق الله العظيم]

(١) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٨ .

مقدمة المؤلف

إن مسألة إثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، ليست مشكلة دينية ؛ لأن وجود الله سبحانه مركوز فى الفطر الإنسانية . إنه سبحانه ، سمى نفسه الظاهر . إنه ظاهر أينما وجه الإنسان بصره فى الآفاق . وهو ظاهر إذا وجه الإنسان بصره فى نفسه ، ففى كل شىء له آية :

﴿سنُريهم آياتِنا فى الآفاقِ وفى أنْفُسهِم﴾ . « فصلت ٥٣ »

﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ . « الذاريات ٥١ »

ولابن عطاء الله السكندرى فى ذلك جمل رائعة ، ولأبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى فى ذلك أيضًا ، آراء فى غاية النفاسة ، يعبر عن زاوية منها قول ابن عطاء الله السكندرى :

« إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، فيكون هو المظهر لك ؟

متى غبتَ حتى تحتاجَ إلى دليل يدل عليك ؟

ومتى بَعدتَ حتى تكونَ الآثار هى التى توصل إليك ؟ » أ هـ

والواقع أن محاولة الاستدلال على وجود الله إنما هى : انحراف فى الفطرة ، وشذوذ فى الطبائع .

أما المسألة الأساسية للدين :

فهى البرهنة على صدق النبى ﷺ :

ومن أجل ذلك ، كتب أسلافنا رضوان الله عليهم ، فى هذا الموضوع كثيرًا من الكتب تحت عنوان : « دلائل النبوة » . أو « أعلام النبوة » ، أو « الشمائل » .

والواقع أن كل كتاب صحيح فى رسول الله ﷺ ، إنما هو كتاب فى دلائل النبوة ، لأنه يصور حياة فاضلة لشخصية كاملة : لا يمكن أن تتطرق إليها رذيلة الكذب بأى حال .

وإن من أجمل الكتب فى دلائل النبوة : كتب الصحاح ، أمثال صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، إن فيها من السيرة الطاهرة ، ومن المعجزات الحسية ومن أحاديث الأخلاق

الكريمة ، ما يدل – فى وضوح لا شائبة للشك فيه – على صدق سيدنا محمد ﷺ فإذا قرأت أى كتاب من كتب الإمام البخارى فى صحيحه ، فستجد ما يرضيك من ناحية الاطمئنان إلى صدق نبوة محمد ﷺ .

ولقد قسم الإمام البخارى رضى الله عنه ، صحيحه ، إلى كتب يتعلق واحد منها : بالعلم ، وثان : بالإيمان ، وثالث : بالصلاة ورابع : بالزكاة ..

تعددت الكتب بحسب الموضوعات التى دار عليها حديث رسول الله ﷺ وهى أحاديث تحدد صلة الإنسان بربه ، وصلته بأخيه المسلم ، إنها تتعلق بالعبادات ، وبالمعاملات ، وبالمجتمع على وجه العموم ، فى صورته التى رسمها الله سبحانه ، على لسان رسوله ﷺ ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحىٌ يوحىَ﴾ (النجم ٣ ، ٤) .

فإذا ما تدبر الإنسان أى كتاب من هذه الكتب ، وكان صافى البصيرة لا يغشى قلبه شيء من الران ، ولا يتمذهب بمذهب يطمس فطرته ، ولا يقول كما قال بعض من سلف : ﴿إنَّا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مُقْتَدُون﴾ . (الزخرف ٢٣)

فإنه – لا شك – سيؤمن بأن محمدًا ﷺ من لدن الحق سبحانه .

❑❑❑

ونحن لا نعالج الكتابة عن الرسول ﷺ ، لأول مرة ، كلا . فقد سبق أن اشتركنا فى ترجمة كتاب « محمد رسول الله ، ﷺ » ، واضطررنا فى أثناء الترجمة إلى الرجوع باستمرار إلى السيرة ، فى مختلف كتبها ، لنقل النصوص ، عن أصولها . ثم ألفنا كتاب : « الرسول ﷺ : لمحات من حياته ، وأضواء من هديه » . وهو : لمحات موجزة ، وأقباس يسيرة من سيرته المشرقة ، صلوات الله وسلامه عليه وألفنا فى الإسراء والمعراج .

وكانت قراءتنا فى السنين الأخيرة : تتجه فى كثير منها إلى سيرة رسول الله ﷺ . وهذا الكتاب – الذى بين يديك – أشبه بثمرة لفترات طويلة ، قضيتها سعيدًا بين كتب الأحاديث وكتب السيرة ، ولما كان الموضوع من السعة بحيث لا يستقل به مثلى ، فإنى أعلن هنا أنى أشركت معى آخرين فى هذا المؤلف . لقد أشركت معى الإمام البخارى ، والإمام مسلم ، والإمام البيهقى . وأشركت معى ما كان بين يدى من كتب السيرة ، وكتب الشمائل ، أو الدلائل وذلك أنى قد اغترفت من أسلافنا رضوان الله عليهم ، وأخذت فى التنسيق والاستنتاج ، أو بيان العظمة والعبرة ، وفى كثير من الأحيان ، تركت هؤلاء الأعلام يعبرون بأقلامهم عما رأيت أنه الحق ، وأنه يعبر فى وضوح لا لبس فيه ، أو فى إشارة لا تخفى

على لبيب ، عن زاوية من زوايا دلائل النبوة .

ولقد كان لبعض من لم يوفقهم الله إلى الإسلام من القدماء ، لمحات دقيقة فى سيرته ﷺ ، كان من الممكن أن تؤدى بهم إلى الإيمان .. هذه اللمحات ذكرت بعضًا منها ، ولقد كتب بعض الغربيين عن الرسول ﷺ ، آراء قامت على أساس من الأنصاف ، واستندت إلى أصول من الوثائق الصحيحة .. وقد ذكرت بعض ذلك أيضًا ، ولقد طوف معى هذا الكتاب ، وطوفت مراجعه معى فى بلاد كثيرة ، كنت فيها أتأمل فيه وأفكر فى موضوعاته ، ولقد تعمدت أن أقلب فى مراجعه وفى صفحاته وأخط بعض سطوره بجوار الكعبة الشريفة : رجاء أن ينال بعض أنوارها وتعمدت أن أحمله إلى الروضة الشريفة ، بجوار حضرة المصطفى ﷺ ، رجاء أن يفتح الله ببعض فتوحاته !

وإنى أحمد الله على ما من به من توفيق .

وأحمده على منحه التى توالت أثناء تأليف هذا الكتاب ، وأحب أن أنبه إلى أن بعض فصول هذا الكتاب ، يعتبر كتابًا مستقلاً فى دلائل النبوة ، وذلك أنى تركت بعض الأبحاث يأخذ مجراه فى الاستفاضة ، دون الحد منها .

ولم أشأ أن أقف مع القارئ فى ختام كل فصل ، فأنبه على دلائل النبوة فى هذا الفصل ، وكل ما أرجوه من القارئ أن يقف وقفة المتدبر عند نهاية الفصل ، ليرى بنفسه دلائل النبوة من خلاله ، وارجو الله فى ختام هذه المقدمة : أن يكون قد كتب لى التوفيق فى هذا الكتاب ، وأن يشرح له صدورًا ، وأن يهدى به قلوبًا ، وأن يجعل نفعه عامًا ، إنه سميع قريب مجيب .

الدكتور عبد الحليم محمود

﴿لكـــن الله يشهد بما أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمـــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الأول عن :

صورة رسول الله ﷺ

– ١ –

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فى كثير من سوره . يقول سبحانه :

﴿يأيها النبى إنا أرسلناكَ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنِهِ وسراجًا منيرًا﴾[١] .

ويقول سبحانه :

﴿مَنْ يُطعِ الرسولَ فقد أطاعَ اللّهَ ، ومَن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظًا﴾[٢] .

ويقول سبحانه :

﴿قل إن كنتم تُحبونَ الله فاتَّبعونى يُحْبِبكُمُ اللّهُ ويغْفِرْ لكم ذنوبَكم﴾[٣] .

لقد كان رسول الله ﷺ ، متصلا بربه صلة عبودية وحب ، وكان الله – سبحانه وتعالى – متصلاً بالرسول صلة عناية ورعاية وتوفيق .

ومن أجل هذه الصلة ، أرشدنا الله – سبحانه وتعالى – إلى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كان يرجو اللّهَ واليومَ الآخِرَ وذَكَرَ اللّهَ كثيرًا﴾[٤] .

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ منه ما آتانا ، وأن ننتهى عما نهانا عنه ، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :

﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فَخُذوهُ وما نَهَاكم عنه فانْتَهُوا واتقوا الله إن الله شديدُ العقاب﴾[٥] .

– ٢ –

أما السر فى ذلك فهو :

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) النساء آية : ٨٠ .
(٣) آل عمران آية : ٣١ .
(٤) الأحزاب آية : ٢١ .
(٥) الحشر آية : ٧ .

١ – أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لا ينطق عن الهوى ، ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه :

﴿والنجم إذا هَوَى . ما ضلَّ صاحِبُكُم وما غَوَى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وَحْىٌ يُوحَى﴾[١] .

٢ – كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى جميع أحواله – حركة وسكونًا ، إشارة ؛ ونطقًا ، قلبًا وقالبًا – يمثل القرآن الكريم :

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، تطبيقًا للقرآن : لقد لبس القرآن ظاهرًا وباطنًا ، لقد كان قرآنا :

ولقد وصفته السيدة عائشة – رضى الله عنها – وصفًا دقيقًا حينما سئلت عن خُلُقِه ، فقالت : « كان خُلُقُهُ القرآنَ » .

ومن كان خلقه القرآن ، كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان على خلق عظيم .

ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له ، بقوله :

﴿وإنك لَعَلى خُلُقٍ عظيم﴾[٢] .

– ٣ –

والحق أننا حينما نريد أن نكوِّن صورة واضحة ، عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإن الطريق الوحيد لذلك : إنما هو الإحاطة بالقرآن ، إحاطة واضحة .

والإحاطة بالقرآن على هذا النسق ، ليست من السهولة بمكان :

فالقرآن فى كل يوم يفتح عن معان جديدة للإنسانية ، ويتفتح عن معانٍ جديدةٍ للشخص المتأمل فيه المتدبر له ، وهذه المعانى الجديدة – إنسانية عامة ، أو فردية شخصية – إنما هى إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .

والمقابل أيضًا صحيح ، فإن المتدبر المتأمل فى الصورة النبوية الكريمة – عن طريق السيرة الصحيحة ، والأحاديث المعتمدة – يفهم عن الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديدًا ، وهذا الفهم ، إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم .

(١) النجم آية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٢) القلم آية : ٤ .

لقد امتزج الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن – كما قدمنا – رُوحًا وقلبًا وجسمًا ، وامتزج القرآن به عقيدةً وأخلاقًا وتشريعًا .

فكان صلوات الله وسلامه عليه : قرآنًا يسير فى الناس ، وكان القرآن روحًا ينتقل ، وكان قلبًا ينبض ، وكان لسانًا ينطق بالهداية والإرشاد .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، حريصًا كل الحرص ، على أن يكون خُلُق الأمة الإسلامية .. القرآن ..

لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه من الأمة ، فيقول سبحانه :

﴿لقد جاءكُمْ رسولٌ من أَنْفُسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾(1) .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يارسول الله .

ويتحدث صلوات الله وسلامه عليه ، عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول : (مَثَلى ومَثَلُكُم : كمثل رجلٍ أوقد نارًا ، فجعلِ الجنادبُ والفِراشُ يقعن فيها ، وهو يَذُبُّهُن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تفلَّتون من يدى)(2) .

هذه هى صلة الرسول ﷺ بربه . وهذه هى صلته بأمته .

لقد ارتفع صلوات الله وسلامه عليه إلى السماء ، بل وتجاوزها إلى سدرة المنتهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى .

ولقد تجاوز سدرة المنتهى ، إلى مقام ﴿قَابَ قَوْسين﴾ ثم إلى مقام ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ « النجم ٩ ».

لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى ، وتجاوز بذلك النهاية الكونية ، لقد كان فعلاً : أدنى من قاب قوسين ، فانغمس فى الأفق الأعلى ، وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به ، وهى الصلاة ، ثم ... ثم أشرق فى الأرض سراجًا منيرًا ، رءوفًا رحيمًا : هاديًا يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين :

---

(1) التوبة ١٢٨ .

(2) رواه أحمد .

« صعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، إلى السماء ثم عاد إلى الأرض .. أقسم بالله ، لو صعدت إلى السماء ما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، نبى ورسول ، فهو متصل بالله دائمًا .. إنه فى السماء على الدوام :

إنه « نبى » وهو متصل بالبشر ، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة :

إنه « رسول » ثم إنه على حد تعبير القرآن ، ﴿بشرًا رسولاً﴾ (١) فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله : إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره .. إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته .. إنه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : إنه دائما مع الله ، ويمكننا أن نقول :

إنه – منذ اللحظة الأولى للبعثة كان دائمًا مع الله سبحانه وتعالى ، حتى إنه ليبيت عند ربه ، يقول ﷺ :

« لست كهيئتكم : إننى أبيت عند ربى » .

– ٤ –
بشر رسول

يقول تعالى :

﴿قل إنما أنا بشر مثلكُم يُوحَى إلىَّ﴾(٢) .

إنه صلوات الله وسلامه عليه : « بشر » وما يجول فى خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ولكنه صلوات الله وسلامه عليه :

بشر يوحىَ إليه

وما يتأتى قط أن يوحىَ الله إلى بشر ، إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

فمبلغ العلم فيه أنه بشر   وأنه خير خلق الله كلهم

– ٥ –

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن ، فتمر عليه الآية الكريمة :

---

(١) الإسراء : ٩٤ .
(٢) الكهف : ١١٠ .

﴿قل إنما أنا بَشَر مثلكم يُوحَى إلىّ﴾[1] .

يقف عند كلمة : « بشر » فيحاول التركيز عليها ، وتوجيه الانتباه كله إليها ، وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف ، اندفاعًا لا يتناسب قط مع قوله تعالى : ﴿يوحى إلىّ﴾ بل إنه – فى اندفاعته الهوجاء – ينسى « يوحَى إلىّ » ويهملها إهمالا .

إنه ليس بنادر فى العصر الحاضر ، أن يجرؤ بعض الناس ، فيتحدث عن الرسول ﷺ ، وعن خطئه – معاذ الله – فى الرأى ، وعن إصابته فيه ، ويسير هذا البعض – فى حديثه – أو كتابته –مستنتجًا ومستنبطًا وحاكمًا وينسى فى كل ذلك :

﴿وَمَا ينطق عن الهَوَى﴾[2] .

وينسى فى كل ذلك :

﴿يوحَى إلىّ﴾ .. وينسى : « لستُ كهيئتكم » .. وينسى :

﴿لا تجعلوا دعاءَ الرسول بينكم كَدُعَاء بعضِكم بَعْضًا﴾[3] .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة ، كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وأن الله سبحانه وتعالى ، قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله ﷺ – وهو على صواب دائمًا – إنما يتخذ الحل الذى يتناسب مع ما حلاّه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة ، وهو الحل الذى يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام :

﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾[4] .

والله – سبحانه – ببيانه ذلك فى هذه المواضع ، التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول ﷺ ، مع الحسم الشديد ، فعدل عن ذلك إلى الرأفة الرحيمة – إن الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك – إنما يمدح الرسول ﷺ ؛ ويبين أن منزع الرحمة ، إنما هو الغالب عليه ؛ فإنه ﷺ ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[5] .

---

(١) الكهف : ١١١ .
(٢) النجم : ٣ .
(٣) النور : ٦٣ .
(٤) الأنبياء آية : ١٠٧ .
(٥) التوبة : ١٢٨ .

ولم يلغ الله سبحانه اتجاها عامًا سار فيه الرسول ، ولم ينقض قضية كلية أقرها ، ﷺ ، ولم ينف مبدأ أثبته رسوله ، فما كان صلوات الله وسلامه عليه ، يسير إلا على هدى من ربه ، وعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له بذلك حيث قال :

﴿وإنك لَتَهدِى إلى صراطٍ مستقيم . صراطِ الله ...﴾[1] .

وما فعل الله في كل ما تمسك به المنحرفون ، وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول ، ﷺ ، وأنه –كما وصفه سبحانه – : على خُلقٍ عظيم .

والبون : شاسع بين هذه التوجيهات الربانية ، وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها – ولنضرب لذلك مثلا :

إن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيرًا ، عن قوله تعالى :

﴿عفا اللّهُ عنك لِمَ أذِنتَ لهم ؟﴾[2] . ويقذفون بضلالهم مباشرة : فيقولون :

إن العفو لا يكون إلا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول :

إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ، ومنها قولهم مثلاً : غفر الله لك ، لماذا تشق على نفسك كل هذه المشقّة ؟

عفا الله عنك . لِمَ تُعنِّى نفسك فى سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول :

رضى الله عنك ، لِمَ ترهق نفسك كل هذا الإرهاق ؟

إن الآية القرآنية من هذا الوادى .

وضم هذه الآية الكريمة إلى أختها التى فى سورة النور :

﴿فإذا اسْتأْذَنوكَ لبعضِ شَأْنِهِم فَأْذَنْ لِمَنْ شئتَ منهم﴾[3] .

تجد المعنى واضحًا جليًا ، وهو أن الله سبحانه ، فوض الأمر لنبيه ، ﷺ ، فى أن يأذن لهم أو لا يأذن .

ليس النبى إذن معاتبًا بهذه الآية – وحاشاه – بل كان ﷺ مخيرًا ، فلما أذن لهم أعلمه

---

(١) الشورى آية : ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) التوبة : ٤٣ .
(٣) النور آية : ٦٢ .

الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا ، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وأنه – مع ذلك – لا حرج عليه فى الإذن لهم . إنها آية مدح للرسول غاية فى الرقة ..

ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قَلب رحيم .

وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول ﷺ ، يصدر فى أحكامه ، وما كان فى ذلك إلا متناسقًا مع قوله تعالى :

﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالَمين﴾[1] .

وهكذا الأمر فى كل ما يمارى فيه الممارون .

– ٦ –

ومع ذلك ، فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحًا فى الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يُوحَى إلىّ » لأهميته الكبرى ، فنقص القصة التالية ، ذات المغزى العميق .

والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه ، فى شرحه لقصيدة ولىّ الله : (أبو مدين) رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ، ضريح أبى يزيد رضى الله عنه – وقال :

هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟

فأشير إلى شيخ كبير فى السن ، كان حاضرًا هناك .

فقال له : هل سمعت شيئًا من كلام أبى يزيد ؟

فقال : نعم ، سمعته قال : (من رآنى لا تحرقه النار) .

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال :

كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى ﷺ وتحرقه النار ؟ .

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى ﷺ ، إنما رأى (يتيم أبى طالب) ، ولو رآه – ﷺ – لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، أى أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله .. ولو رآه بهذا المعنى ، لم تحرقه النار ، لكنه رآه باستخفاف ، واعتقاد أنه (يتيم أبى طالب) فلم تنفعه تلك الرؤية .

---

(١) الأنبياء آية : ١٠٧.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد رضى الله عنه ، وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان ، من أن أبا جهل لم ير النبى ﷺ ، وإنما رأى (يتيم أبى طالب) .

هذه النظرة ، نظرة أبى جهل ، هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها .

والمؤمنون – بحمد الله لا يقعون فى الإثم متعمدين ، وإنما يتسلل هذا الإثم إلى بعض النفوس فى صورة لا شعورية ، عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول ﷺ ، وكأنه لا شىء فيه غير البشرية .

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ، ويركزون عليها – يعتبرون أنفسهم تَقَدميين متطورين ، وفاتهم أن هذه النظرة إنما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ؛ ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر– فى هذه النزعة – وهو أبو جهل .

وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين ، إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل .

وهم فى كل ذلك – ليسوا تقدميين ولا متطورين ، وإنما هم من الرجعيين ، حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنًا مضت ، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !! ! أبو جهل ...

ليس هناك إذن اجتهاد وخطأ وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله مبينًا طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ، ورأفته الواضحة ، ويبين فى الوقت نفسه :

إن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ، ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها ، لفساد فطرهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على : « بشر » أو على « يوحَى إلىّ » حسب قوة شعوره الدينى وضعفه ؛ فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، ومَن ضعف إيمانه يركز على البشرية .. ويخف التركيز على البشرية كلما قوِىَ الإيمان ، ويزداد التركيز على : (يوحَى إلىّ) كلما ازداد الإيمان ، حتى يصل الإنسان إلى ألاّ يرى – أو لا يكاد يرى – إلاّ « يُوحَى إلىّ » .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله :

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس : طرف يتمثل « بشرًا » أو « قل : إنما أنا بشر مثلكم » .

وطرف يتمثل : « يوحَى إلىّ » أو (رَسُولا) وبين الطرفين يتأرجح إيمان المسلمين نزولاً وارتفاعًا : انخفاضًا وسموًا .

فإن مقياس الإيمان قوة وضعفًا – مقياس درجة الإيمان ، الذى لا يخطئ – إنما هو ما وقر فى القلب أو غلب عليه من « البشرية » أو من « يُوحى إلىّ » إنهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان :

دع ما ادعته النصـــارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحْتِكم

– ٧ –

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى – أو لا يكاد يرى – إلا « يوحى إلى » ، ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟ .

ما هى النظرة التى تنأى بنا عن « يتيم أبى طالب » لتقربنا من : « الأسوة » ؟ .

كيف ينبغى أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله ﷺ ؟ .

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله ﷺ ، يلزم لها أن يصل الإنسان إلى مستواه ﷺ ، أو إلى ما يقرب من مستواه ، وذلك لا يتأتى .

بيد أنه إذا استحال ذلك – فإنه من الميسور أن نورد بعض الصور عنه ﷺ .

منها صُورَتَانِ : إحداهما جاهلية ، والأخرى إسلامية ، وكلتاهما لسيدنا عمر ، رضى الله عنه .

أما الصورة الأولى : فإنها « يتيم أبى طالب » كان سيدنا عمر ، يراها قبل أن يهديه الله للإسلام . وأراد عمر أن يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله له :

« اللهم أعِزَّ الإسلامَ بأحَبِّ هذين الرجلين إليك : بعمرو بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر ، فهداه الله للإسلام ، ولازم الرسول ﷺ عليه ، فناله من بركاته ومن خيره ، ما هيأه لأن يكون الخليفة الثانى للأمة الإسلامية أجمع ، وأن يعز الله الإسلام به : فى حياة الرسول ﷺ ، وبعد وفاته » .

إن سيدنا عمر هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، والذى كان إذا سلك طريقًا سلك الشيطان طريقًا آخر : خشية منه ورهبة ، والذى نزل القرآن أحيانًا مصدقًا لما رآه – إن سيدنا عمر صاحب : « يا سارية الجبل » – يرسم لنا صورة إسلامية لسيده وحبيبه وصديقه ونبيه ورسوله ﷺ .

ولكن هذه الصورة : هى صورة سيدنا عمر ، إنها تتناسب مع مستوى سيدنا عمر وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه ؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا على رضى الله عنه ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى يقول عن نبيه ، ﷺ ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] .

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » إلا تفسيرًا لما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة . أيمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟

أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ؟ أستغفر الله وأتوب إليه .

ولنعد إلى الصورة التى رسمها صاحب : « يا سارية الجبل » ، لنعد إليها ، لنثبتها شارحين لبعض حوادثها ، موضحين لبعض أنبائها . وسنجعل الإيضاح بين أقواس .

بعد موت رسول الله ﷺ ، سُمع سيدنا عمر يبكى ويقول :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبرًا لتسمعهم ، فَحَنَّ الجذع لفراقك ... حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لَمَّا فارقتها » .

يروى البخارى ومسلم ، وكتب السنة كلها تقريبًا وكتب السيرة ، حادث حنين الجذع ، بعدة روايات – وننقل هنا إحدى روايات البخارى :

« عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : كان النبى ﷺ ، يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فَحَنَّ الجذع ، فأتاه فمسح يده عليه » .

---

(١) القلم آية : ٤ .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :

﴿مَن يُطع الرسولَ فقد أطاعَ اللّهَ﴾[1] .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال عز وجل :

﴿وإذ أخذنَا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم﴾[2] .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون .

﴿يقولون يا ليتنا أطَعْنَا اللّهَ وأطعنا الرسولاَ﴾[3] .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجرًا تتفجر منه الأنهار ، فماذا ؟ أىْ فليس ذلك – بأعجب من أصابعك حين نبع الماء منها .

صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله .

إن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، ﷺ ، لم يحدث مرة واحدة ، وإنما حدث عدة مرات ، كما روى البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة ، فى ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه .

وننقل هنا إحدى روايات البخارى :

« عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : عطش الناس يوم الحديبية ، والنبى ﷺ ، بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس ، فأسرعوا وتكاثروا نحوه . فقال : ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا » قلت : كم كنتم ؟ .

قال : (لو كنا مائة ألف لكفانا !! كنا خمس عشرة مائة) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غُدُوّها شهر

(١) النساء آية : ٨٠ .
(٢) الأحزاب : ٧ .
(٣) الأحزاب آية : ٦٦ .

ورواحُهَا شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سَرَيت عليه إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح !!

صلى الله عليك .

(سنتحدث فى فصل خاص ، عن الإسراء والمعراج ، إن شاء الله تعالى) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لئن كان عيسى بن مريم قد أعطاه الله ، إحياء الموتى ، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية ، فقالت لك الذراع : لا تأكلنى فإنى مسمومة .

يروى ابن سعد فى طبقاته :

(أخبر سعيد بن محمد الثقفى ، عن محمد بن عمر ، عن أبى سلمة قال : كان رسول الله ﷺ ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهودية شاة مَصْلِيّة[1] ، فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه ، فقالت : إنى مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة .

قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ ؟

فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبيًا لم يضرك ، وإن كنت ملِكًا أرحتُ الناسَ منك ، قال : فأمر بها فقتلت » اهـ .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لقد دعا نوح على قومه فقال : ﴿رب لا تذرْ على الأرض من الكافرين ديَّارًا﴾[2] .

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا : فلقد وُطىء ظَهرُك[3] ، وأُدْمِىَ وجهك ، وكُسِرت رباعيتُك ، فأبيتَ أن تقول إلا خيرًا ، فقلت :

« اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

(لقد دمى وجهه ﷺ وكسرت رباعيته فى غزوة أحد .. روى ذلك البخارى ومسلم .

---

(١) مصلية : مشوية .

(٢) نوح : ٢٦ .

(٣) تروى كتب السيرة : أن عقبة بن أبى معيط ، وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة ، حتى كادت عيناه تبرزان .

أما حديث : « اللهم اغفر لقومى ، فإنهم لا يعلمون » فقد رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لقد اتبعك فى قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحًا فى كثرة سنه ، وطول عمره ولقد آمن بك الكثير ، وما آمن معه إلا القليل .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس إلا كفئًا لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئًا لك ما نكحت إلينا . ولو لم تواكل إلا كفئًا لك ما آكلتنا . فقد والله ، جالستنا ، ونكحت إلينا ، وآكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعًا منك ﷺ .

هذه صورة !

❑❑❑

ومن الطريف أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول ﷺ ، ولكنه رجل واسع الأفق ، رحب الخيال ، دقيق التفكير .

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى مطعن ، هذا الرجل هو : (هرقل) .

أتاه كتاب رسول الله ﷺ ، يدعوه إلى الإسلام فلم يهمل الكتاب ، ولم يمزقه ، وإنما قرأه فى عناية وانتباه ، ثم أراد أن يُكَوِّنَ صورة صحيحة عن صاحب الخطاب ، فسأل عما إذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول ؟ فقيل له : إن بالمدينة تجارًا من مكة يعرفون محمدًا ، باعتباره من مواطنيهم ، فأمر بإحضارهم ، وكان منهم أبو سفيان ، وسأل هرقل عن أقربهم نسبًا إلى الرسول ، فكان أبا سفيان ، فقربه منه وأدناه ، وقال لهم : إنى سائله عن أمور ، فإن كَذَبَنى فكذِّبوه :

يقول أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبًا ، لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى : لأنها واضحة من النتائج التى انتهى إليها هرقل ! .

إن هرقل – بعه أن انتهى من الأسئلة – بدأ عن طريق الترجمان ، يقول لأبى سفيان ، على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ؛ ومن أصحاب أبى سفيان :

« سألتك عن نسبه : فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك « هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن : لا .

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله .

فذكرت أن : لا .

قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه –

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ .

فذكرت أن : لا .

فقد أعرف أنه لم يكن ليذَرَ الكذبَ على الناس ويكذب على الله !

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت أن : لا .

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت أن : لا .

وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة . والصدق ، والعفاف .

فإن كان ما تقول حقًا ؛ فسيملك موضعَ قدمَي هاتين .

وقد كنتُ أعلم أنه خارج ... لم أكن أظن أنه منكم . فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه . ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ... » .

هذه الصورة التى كَوَّنها هرقل بمنطقه ، يمكن أن يكوّنها أو يكوِّن مثيلاتٍ لها كل إنسان اتسع أفقه ، ورحُبَ تفكيره .

وكل إنسان يصدق الله والحق ، لابد أن ينتهى إلى ما انتهى إليه هرقل من قوله :

« **لو كنت عنده لغسلت عن قدميه** » .

وإنما يغسل عن قدميه ، من أجل : « يوحَى إلىّ » .

إذ أن مَن اصطفاه الله لرسالته ، جدير بأن يكون أهلا لذلك .

بيد أن هذه النهاية التى انتهى إليها هرقل ، إنما هى الشعار الدائم ، الذى لا ينتهى بانتقال الرسول إلى الملأ الأعلى .

فالرسول حىّ بيننا الآن : برسالته وهديه وتعاليمه ، والغَسلُ عن قدميه الآن -- أو بتعبير آخر : احترامه -- إنما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديرًا يتناسب مع اصطفاء الله له ، ﷺ .

ولقد ركز هرقل نوعًا مّا ، على الصدق والإخلاص .

والواقع أن صورة الصدق والإخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول ﷺ ، ولم تُعْمِه عصبية ، أو حسد ، أو هوى .

على أن صورة الصدق والإخلاص ، كانت سمةً من السمات التى اتّصف بها الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته -- صلوات الله وسلامه عليه -- لقد لازمته طيلة حياته ، ولقد كان مجرد الخبر يُلقِيه صلوات الله وسلامه عليه ، يأخذه أعدى أعدائه ، على أنه واقع لا محالة .

فهذا أمية بن خلف -- عدوٌّ لدود -- يتلاحى مع سعد بن معاذ رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ فى حدة المناقشة :

لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه قاتلك ، ويضطرب قلب أمية بن خلف ، ويسأل فى لهفة وضعف وتخاذل : أهو قال ذلك حقا ؟ .

فلما أكّد له سعد بن معاذ الخبر سُقِطَ فى يده ، وقال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق .

وقتل أمية بن خلف يوم بدر .

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بَيِّنٍ ، حينما أعلن رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه ، إلى قريش نبوته ، فقال لهم :

« **أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقوننى ؟** » .

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التى لمسوها فيه .. لقد قالوا :

« نعم أنت عندنا غير متهم . وما جرَّبْنَا عليك كذبًا قط » .

وصورة أخرى :

صورة لم يرتب لها ترتيب مُرَوًّى ولم يؤد إليها منطق مُحْكَم .. صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ولا رفقة قريبة ، وإنما جاءت على البديهة ، وأوحت بها الملاحظة السليمة .

إنها الصورة التى كوّنتها عنه صلوات الله وسلامه عليه ، أم معبد الخزاعية .. وهى صورة لا تخص الجانب المعنوى منه ، وإنما تتصل – على الأخص – بالجانب الظاهر ، وأردنا أن نثبتها هنا ؛ لنثبت بها هيئة وظاهرًا ، بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير وأجلال .

إن الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف .

إنها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه ، من مكة إلى المدينة ، يرافقه أبو بكر رضى الله عنه ، وعامرُ بن فهيرة مولى أبى بكر ، ودليلهم عبد الله بن أريقط .

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة قوية الأخلاق ، عفيفة ، تقابل الرجال ، فتتحدث إليهم وتستضيفهم . وسألها الرّكب عن تمر أو لحم يشترونه ، فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك ، فقد كانت سَنَةً من السنين العجاف ؛ فقالت لهم :

والله ، لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القِرَى ، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى ركن الخيمة فقال :

ما هذه الشاة يا أم معبد ؟

قالت : هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها من لبن ؟

فقالت : هى أجهد من ذلك .

قال : أتأذنين أن أحْلُبَهَا ؟ .

قالت : نعم بأبى أنت وأمى ، إن رأيت بها حَلَبًا .

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال :

« اللهم بارك لها فى شاتها » .

فامتلأ ضرع الشاة ، ودَر لبنها ، فدعا بإناء لها كبير ، فحلب فيه حتى ملأه ، فسقى أم معبد فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رَوُوا » وشرب ﷺ آخرهم وقال :

« ساقى القوم آخرهم » .

فشربوا جميعا مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عودا على بدء ، فغادروه عندها ، وارتحلوا عنها . فما لبث أن جاء زوجها يسوق أعنزًا عجافًا هَزْلَى ، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

من أين لكم هذا ولا حَلُوبة فى البيت ؟ .

قالت : لا والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك : كان من حديثه كيت وكيت .

قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطْلَب : صِفيه لى يا أم معبد !

قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه ، حَسَن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تَزْرِ به صَعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيمٌ قسيمٌ ، فى عينيه دعجٌ ، وفى أشفاره وَطَف (طويل شعر الأجفان) ، وفى صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل ، أزجّ أقرن[1] شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطح ، (ارتفاع وطول) وفى لحيته كثافة إذا صَمَت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، وكأنَّ منطقه خرزات نظم يتحدرْن . حلو المنطق فصل لا نَزْر ولا هذر (لا عَىَّ فيه ، ولا ثرثرة فى كلامه) أجهر الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب : ربْعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (لا تبغضه) من طول ولا تقتحمه عين (لا تحتقره) من قصر ؛ غصن بين غصنين ، أنضر الثلاثة منظرًا ، وأحسنهم قدرًا ؛ له رفقاء يحفُون به : إذا قال استمعوا لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ؛ محفود (يسرع أصحابه فى طاعته) محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا مفتد (غير مخرف فى الكلام) .

قال أبو معبد :

هذا والله ، صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد ، لتلمست أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلا .

هذه هى الصورة التى حاولت أم معبد رسمها .

وتكملة لهذه الصورة – صورة أم معبد – نذكر أن كتب السيرة تذكر أنه :

---

(١) زج الحاجب : دق فى طول فهو أزجّ ، والأقرن : من التقى طرفا حاجبيه .

« أصبح صوت بمكة عاليًا ، يسمعون الصوت ولا يرون من هو صاحبه ، يقول :

جزى اللّهُ رب الناس خير جزائه — رفيقيْن حَـــلاَّ خيمتَىْ أُمِّ معبد
هما نزلاها بالهُدى واهتدت بـــه — فقد فـــاز من أمسى رفيق محمد
فيالَقُرَيش مـــا زوى الله عنكم — بـــه من فَخارٍ لا يُبارَى وسؤدَدِ
ليَهْنِ بنى كعب مقـــامُ فتاتهم — ومقعدهـــا للمؤمنـين بمَرْصد
سلوا أختكم عن شـاتها وإنائها — فإنكمُ إن تسألوا الشـــاة تشهد
دعاهـــا بشاة حائـــل فتحلبت — له بصريح درَة الشـــــاة مُزيد

ووصل الخبر إلى حسان ، فقال : يجاوب الهاتف :

فغادرهـــا رهنا لديهـــا لحـــالب — يردِّدُهـــا فى مَصْدرٍ ثـــم مَوْرِد
لقد خابَ قـــوم غـاب عنهم نبيُّهم — وقُدِّس من يسرى إليهـــم ويغتدى
تَرَحَّلَ عـن قـــوم فضلت عقـــولهم — وحـــل على قـــوم بنـــورٍ مُجدد
هداهـــم بـه بعد الضلالـــة ربُّهم — وأرشدهـم ، من يَتْبع الحـــق يَرشُدِ
وهـل يستوى ضُلالُ قـــوم تسفهوا — عمىً وهـــداة يهتـــدون بمُهتَدِ ؟
لقد نزلت منـــه على أهـــل يثربِ — ركاب هدىً حلت عليهـــم بأســـعد
نبىٌّ يرى مـــا لا يرى الناس حولَه — ويتلو كتـــاب الله فى كـــل مسجد
وإن قـــال فى يـــوم مقالة غائب — فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغد
ليَهْنِ أبـــا بكـــر سـعادة جَـدِّه — بصحبتـــه مـــن يُسـعد الله يَسْعَد

وصورة أخرى :

أما سيدنا عمرو بن العاص ، فإنه يقول – فى صراحة وصدق – عندما حضرته الوفاة ، وعندما تذكر الماضى فخنقته العبرات ، وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة فى صورة مؤثرة :

« ما كان أحد أحبَّ إلىَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينى إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت : لأنى لم أكن أملأ عينى منه » .

وإذا كانت هذه صورة عن رسول الله ﷺ فى الماضى فإنه لا يخلو من الفائدة الهامة أن نذكر صورة لشخص غربى منصف مشهور هو صاحب كتاب (سوانح وخواطر) وهو الكونت هنرى دى كاسترو .

قال الكونت :

« لسنا نحتاج فى إثبات صدق النبى محمد إلى أكثر من إثبات أنه كان موقنًا فى نفسه بصدق رسالته ، وما الغرض من رسالته إلا إقامة عبادة إله واحد ، مقام عبادة الأوثان التى كانت عليها قبيلته فى ابتداء ظهوره .

لما كانت نفس ذلك النبى ، مفطورة على التشبع بالدين ، تكيَّف هذا المذهب فى وجدانه ، حتى صار عقيدة لم تصل إليها نفس قبله ، وهو ذلك الاعتقاد المتين الذى أحدث انقلابًا كليا فى النوع البشرى !!

كان محمد – عليه الصلاة والسلام – لا يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مرارًا : نبيًا أميًا . وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه .

فلم يقرأ كتابًا ولم يسترشد فى دينه بمرشد متقدم عليه .

لقد نعلم أنه مرت به متاعب كثيرة ، وقاسى آلامًا نفسية كبرى ؛ لأن الله خلقه ذا نفس تمحضت للدين .

من أجل ذلك ، احتاج للعزلة عن الناس ، لكى يهرب من الأوثان ومن مذهب تعدد الآلهة . وكان هذان المذهبان أشبه بإبرة تَخِزُهُ فى جسمه (صلوات الله وسلامه عليه) ،ولكى ينفرد بما أنزل عليه من توحيد الله اعتكف فى غار حراء .

العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات (القرآن) عن رجل أمى ، وهى آيات يعجز فكر بنى الإنسان عن الإتيان بمثلها : لفظا ومعنى ؛ آيات لَمَّا سمعها عتبة بن ربيعة حار فى جمالها . وفاضت عين نجاشى الحبشة بالدموع ، لَمَّا تلا عليه جعفر بن أبى طالب سورة (مريم) وما جاء فى (يحيى) .

فلما كان اليوم الثانى ، أشار عليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ، ففعل ، واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبدُ الله ورسولُه وروح منه ، ثم تناول قضيبًا دقيقًا كان أمامه وقال لجعفر :

إن الفرق بين ما سمعنا به منك الآن ، وبين ما تقوله ديانتنا عنه ، لا يزيد عن سمك هذا القضيب .

وأقول : قد قوِى ذلك القضيب ، فمنع الحبشة من الإسلام ، وجعلها مسيحية إلى الآن » .

من الصعب أن يظن الإنسان : الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير ، كيف ، وهى فصاحة تصدر بغير ضعف أبدًا ! وتتجدد رفيعة معجزة أبدًا : يقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء فهى أبدًا أبدًا ... فصاحة إلهية .

أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته ، وهذا القرآن لا يزال – إلى يومنا هذا – سرًا من الأسرار التى لا يقدر أحد على فك طلاسمها ، ولن يسبرَ سرها المكنون ، إلا من صدق بأنه منزل من عند الله : سواء توصلنا إلى معرفة الوحى وحقيقته ، أم لا .

لا ينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل لأن النبوة – من حيث هى – عبارة عن قيام رجل من الناس بأمر ربه ، وأن يعتقد أن ما يقوله من عند ربه حق . فمحمد « ﷺ » يعتقد أن روحًا من الله استولت على لبه ، فلم يعتقد أن له فكرًا خاصًا ، بل إنه أوتِيَهُ من عند ربه ، واختفت فى نظره ذاتيته .

ومن الصعب أن تقف على معرفة سماعه للصوت الإلهى : هل كان فى الحلم ، أو فى غيبته عن عالم التصورات ؟ .

والصدق حاصل على كل حال .

كانت الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعض الوثنيين أن به جنة ، وهو ظن باطل ؛ لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أىُّ اختلال فى الجسم ، ولا أدنى ضعف فى القوة المادية .

وليس فى الناسِ من عرفَ الناسُ جميع أحواله – فى حياته كلها – مثل النبى محمد « ﷺ » فقد وصل المحدِّثون عنه إلى أنهم كانوا يَعُدون الشَّعر الأبيض فى لحيته ، ولو أنه كان مريضًا لما خفى مرضه (ولا أمكن أن تكون له تلك الآثار الباهرة) فليست حالة محمد – فى انفعالاته وتأثيراته – حالة ذى جنة :

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين للكتاب .

نعم ، نرى تشابهًا بين القرآن والتوراة فى بعض مواضع ، إلا أن سببه ميسور المعرفة ، إذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب فى بعض المواضع ، وبخاصة إذا لاحظنا أن القرآن جاء متممًا ، كما جاء النبى خاتمًا ، ولاسيما أن نفس محمد كانت متأثرةً بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بنى إسرائيل . وكان يعبد الله الذى يعبدونه ، فلا عجب إذا تشابهت ألفاظ التصرفات ، وتجانست أصوات الدعاة ..

ما كان محمد يميل إلى الزخارف ، ولم يكن مستكبرًا ولا شحيحًا ، بل كان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ، ويجلس على التراب .

وكان قنوعًا ... خرج من هذه الدار ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى عمره ، ولم تكن له حاشية ، ولم يتخذ وزيرًا ولا حشمًا : قد احتقر المال وهو بالغ من السلطان منتهاه . ولم يكن له من علامة الملك سوى قضيب .

أتى محمد – ﷺ – فهدم الوثنية بعزم واحد طوال الحياة ، ولم يتردد لحظة واحدة بينها

وبين عبادة الواحد الأحد ، وإيمانه كان حقًا ثابتًا على الدوام : لم تفتر حميته . فقد انتهى كما بدأ : لم يرغب طوال حياته فى المال ، بل كان كلما جمع إليه شىء منه أنفقه فى الصدقات .

ولقد أعطى عائشة زوجته مالاً يسيرًا لتحفظه ، فلما حضره المرض ، أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته . فلما وزع عليهم قال : الآن استراح قلبى ؛ لأنى كنت أخشى أن ألاقىَ ربى وأنا أملك هذا المال .

ولقد خطب فى أمته قائلا :

أيها الذين يسمعون قولى : إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وإن كنت سلبت أحدًا مالَهُ فدونه مالى ، وهو فى حل من غضبى ، فإن الغِلَّ بعيد عن قلبى » اهـ .

❑❑❑

وحينما أورد المرحوم الشيخ الدجوى هذه الصورة ، التى ذكرناها ، فى مجلة الأزهر ، قال فى نهايتها انتهى كلام هذا المنصف الكبير .

وإذا كنا قد ذكرنا بعض آراء المستشرقين فى العصر الحديث ، فإن للدكتور زكى مبارك رحمه الله كلمة هى من باب الإجمال الموجز فى موضوع إعجاز القرآن ، وهى كلمة رائعة ، جزى الله كاتبها خيرًا .

إذ يقول :

وأى أنسٍ أعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية ، التى بثها نبىُّ الإسلام فى أرجاء الوجود ؟

إن ذلك الروح القهار ، روح الرجل ، الذى اتهمه معاصروه بالشعر والسحر والجنون ...

إن ذلك الروح ، هو شعلة أبدية ؛ ستظل – ما بقيت الأرض والسماء – فتنة للعقول والقلوب ..

وسيأتى زمان يرتاب فيه الناس فى مكانة محمد بن عبد الله من التاريخ .

وسيقول قوم : إن شمائل ذلك الرجل ، أقوى وأخطر من أن يسمح بمثلها الوجود ... وسيقولون :

إنه لم يكن إلا رمزًا تمثل به الناس ، كيف تكون مكارم الأخلاق !

إى والله ، سيقولون ذلك ، فلنسبقهم نحن بهذا القول ، مع الاعتراف بأنه عرف هذه الدنيا ، وشهد هذا الوجود .

وأى غرابة فى أن يخلق الله رجالاً يمثلون العظمة الروحانية ويظلون على الدهر مضرب الأمثال ؟

وقد كان حظ النبى محمد أوفى الحظوظ بين الرسل والأنبياء ؛ فكل نبى قامت من حوله الأساطير ، وصورت شمائله بألوان صيغ أكثرها من الخيال :

أما النبى محمد ، فحجته الباقية هى القرآن ، وهو كتاب لم يُضَف إليه سطر واحد بعد موت ذلك الرسول .

فهو من الوثائق التاريخية التى يستحيل أن يكون لها مثيل .

وإلى من نوجه هذا القول ؟

أترونا ندافع عن ذلك الكتاب المجيد ؟

ومن عسى أن يكون أعداء ذلك الكتاب ؟

وهل كان الملحدون إلا ناسًا سخفاء . طاشت حلومهم ، وظنوا الزيغ من البراقع التى تستر الغباوة والجهل !!

ومن العجب أن نرى بين أعداء القرآن من يُعجب بشعر أبى نواس ، ويراه صالحًا لأن يوضع فى الميزان مع أكبر شعراء اليونان !!

فأين شعر أبى نواس – كله – من آية واحدة ستظل أعجوبة البيان ، فى جميع الأزمان ؟ !

وما أدرى – والله – كيف يعقل من يهذى بمثل هذا القول ، إلا أن يكون السخف صار من علائم التفوق فى هذا الزمن الرقيع !

إن أعداء القرآن لا يعادونه عن عقل ، وكيف يعقل من يعادى البدر المشرق ، والجبل الركين ؟

إنها نزوات تطوف برءوس المغرورين الجبناء ، الذين توهموا أنه لم يبق للإسلام أوس ولا خزرج ، وأن الوادى خلا من الأسد الغضاب .. ألا ساء ما يتوهمون .

ومع ذلك سيذهب الملحدون مع الذاهبين . وإن بقيت لهم ذكرى ، فستكون صورة من صور إبليس ، فإن تعللوا بأن الشهرة مغنم عظيم ، فليتذكروا أن إبليس سيظل أشهر منهم ، وإن قضوا طوال الأعمار فى خدمة الإفك والضلال .

سيقول السفهاء من الناس : وما دخل هذا الكلام فى مقدمة كتاب المدائح النبوية ؟

ونجيب : بأننا نصور حالة من أحوال هذا الزمان ، فنحن لم نخلق أعداء نحاربهم ، وإنما نحارب أعداء نراهم رأى العين ؛ وهم – والله – أحقر من أن نعرض لهم بنقد أو ملام ، ولكن حقارتهم لا تمنع من وخز صدورهم بلواذع النقد والهجاء ، فقديمًا كان الشيطان الرجيم ملعونًا بألسنة المؤمنين .

وما الذى يمنع من حرب الزور والبهتان ؟

إن التورع عن لحوم الآثمين ، ليس إلا ضربا من الجبن ، وبفضله استنسر البغاث ؛ وصار للآثمين أشياع وأحزاب .

ومن العجب فى مصر : بلد العجائب ، أن تحيا الغيرة على الأطلال وتموت الغيرة على الحقائق .

فلو انتهبَ حجر من أحجار الكرنك ، لكان انتهابه نكبة وطنية ، وكان الصراخ لضياعه عملاً يثاب عليه من يحسن البكاء والعويل .

أما زعزعة الإيمان فى هذا البلد ، فهى أقل خطرًا من سقوط حجر أثرى تحرسه وزارة الأشغال ؛ لأن رعاية الآثار بدعة عصرية يعرفها الأوربيون والأمريكان .

أما رعاية العقائد ، فسنَّة قديمة . سحب عليها الدهر ذيل النسيان .

وما أقول هذا تعصبًا للدين – وهو تعصب شريف – وإنما أقوله تعصبًا لحقيقة أدبية تغار عليها الأذواق ، فليس الثقافة أن نعرف أوهام المشرق والمغرب ، وإنما الثقافة أن نعرف ما يجب أن يُعْرَف .

وقد آن أن يفهم الغافلون : أن الأمة التى يحفظ أطْفالها القرآن – هى أهدى من أمثال الأمة التى يحفظ أطفالها أقاصيص لافونتين .

وما أقول هذه الحقيقة وحدى . وإنما يعرفها خلق كثير ، لا يصدهم عن الجهر بها إلا الخوف من الاتهام بالتعصب والرجعية ، وهو اتهام لا أقيم له أى وزن ، لأن حزب الشيطان أضعف من أن يُحسب له حساب .

وقرائى من غير المسلمين ، لا يسيئهم هذا القول ؛ فليس القرآن ملكًا للمسلمين ، وإنما هو ملك للإنسانية جمعاء » اهـ .

❑❑❑

والآن ، نريد أن نتساءل : ما هى الصورة التى نريد – بعون من الله – أن نرسمها فى هذا الكتاب ؟

نحب أن نقول : إن هذه الصورة التى نحاول رسمها ، ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة . إنها صورة نحاول – جاهدين – أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح .

بيد أننا نعود فنقول :

إننا لا نرسم صورة كاملة . فالصورة الكاملة لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها . ونحن هنا إنما نحاول رسم جملة من الزوايا : شاعرين بتقصيرنا ، معترفين بعجزنا ، ولكن أملنا كبير فى أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع ، وأن تكون – على ما فيها من عجز وقصور – ممثلة لبعض ما نكنه لسيد ولد آدم : من حب وإيمان ، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله ﴿ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون . إلا من أتى اللّهَ بقلبٍ سليم ﴾ . « الشعراء ٨٩ » .

ومع هذه الزوايا التى نحاول رسمها ، فإنه لا يعزب قط عن بالنا قول إمامنا البوصيرى رضى الله عنه ، عن الرسول صلوات وسلامه عليه ، هذه الأبيات التى تعبر عن الحقيقة تعْبيرًا صادقًا :

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرَى	للقرب والبعد فيــه غير منفحـم
كالشمس تظهـر للعينين من بُعدٍ	صغيرةً وتكِلُّ الطرفَ مـن أمَـم
وكيف يدرك فى الدنيـا حقيقتَه	قومٌ نيامٌ تسلَّوْا عنه بالحلـم ؟
فمبلغ العلم فيـه أنـه بشر	وأنه خـير خـلق الله كلهـم

❑❑❑

﴿لكـــن الله يشهـد بمـا أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمـــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الثانى عن :

دلائل النبوة
فى نسبه ﷺ

دلائل النبوة
فى النسب الشريـف

يقول ابن خلدون ، فى حديثه عن علامات الأنبياء :

« ومن علاماتهم أيضًا : أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم .

وفى الصحيح :

« ما بعث الله نبيًّا إلا فى مَنَعَةٍ من قومه » ..

وفى رواية أخرى : فى ثروة من قومه ..

وفى مساءلة هرقل لأبى سفيان ، كما هو فى الصحيح ، قال :

كيف هو فيكم ؟

قال أبو سفيان : هو فينا ذو حسب ..

فقال هرقل : فكذلك الرسل تُبعث فى أحساب قومها ..

ومعناه : أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه من أذى الكفار ، حتى يبلغ رسالة ربه ، ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته .

ولا يتأتى أن نتحدث عن نسب رسول الله ﷺ – منذ آدم ، أو منذ إسماعيل – عليهما السلام – فالحديث فى هذا ، لا يتصل بالتاريخ الموثوق به كل الثقة ..

وإذا أردنا أن نتبين – عن قرب – نسب رسول الله ﷺ – فإنه يمكننا أن نبدأ بقُصَى ..

لقد كان قصىٌّ – كما يقول ابن كثير – فى قومه : سيدًا رئيسًا ، مطاعًا معظمًا ، جمع قريشًا[1] من متفرقات مواضعهم من جزيرة العرب ، واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة ، وإجلائهم عن البيت ، وتسليمه إلى قصى ، فكان بينهم قتال كثير ودماء غزيرة .. ثم تداعَوْا إلى التحكيم ، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فحكم بأن قصيا أولى بالبيت من خزاعة ، وأن كل دمٍ أصابه

---

(١) التقرش التجمع . وبه سميت قريش . ليجمعها حول قصى .

قصيٌّ من خزاعة وبنى بكر ، موضوع : يَشْدخه تحت قدميه ، وأن ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ، ففيه الدية مؤداه ، وأن يخلِّي بين قصى وبين مكة والكعبة .

ومما يروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال :

« كان قصى بن كلاب أول ولد كعب بن لؤى ، أصاب ملكًا انقاد له به قومه ، فكان شريف أهل مكة لا ينازع فيها .. فابتنى دار الندوة ، وجعل بابها إلى البيت ، ففيها يكون أمر قريش كله ، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم ، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تُدَرِّع فما يُشق درعها إلا فيها[1] ، ثم يُنْطَلَقُ بها إلى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب لهم ، ولا فى قوم غيرهم ، إلا فى دار الندوة : يعقده لهم قصى ، ولا يُعذر (يختن) لهم غلام إلا فى دار الندوة ، ولا تخرج عير من قريش فيرحلون ، إلا منها ، ولا يقدمون – إلا نزلوا فيها تشريفًا له ، وتيمنًا برأيه ، ومعرفة بفضله .. ويتبعون أمره .. كالدين المتبع : لا يعمل بغيره فى حياته وبعد موته .. وكانت إليه الحجابة[2] ، والسقاية[3] ، والرفادة[4] ، واللواء[5] ، والندوة[6] ، وحكم مكة كله ، وكان يعشر[7] مَنْ دخل مكة سوى أهلها .

قال : وإنما سميت : دار الندوة ؛ لأن قريشًا كانوا ينتدون فيها – أى يجتمعون للخير والشر .. والندىُّ : مجمع القوم إذا اجتمعوا[8] .

وقسَّم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش بحى . وضاقت مكة بأهلها . وكانت كثيرة الشجر فى الحرم ، وكانت قريش تهاب قطع الشجر بالحرم ، فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : إنما تقطعونه لمنازلكم ، ولخططكم : بَهْلُه[9] الله على مَنْ أراد فسادا ، وقطع هو بيده وأعوانه ، فقطعت – حينئذ – قريش ، وسمته ، « مجمعًا » . « لما جُمِع من أمرها وتيمنت به وبأمره .

---

(١) تدرع : تلبس القميص ، والمراد لشق الدرع أن تزف إلى زوجها .
(٢) سدانة البيت .
(٣) سقيا الحجيج .
(٤) إطعام الحجيج .
(٥) راية الحرب .
(٦) مكان الشورى ومجلسها .
(٧) يأخذ منهم العشر لصرفه فى المصالح العامة .
(٨) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٠ .
(٩) أى لعنة .

وفرض قصى على قريش السقاية والرفادة ، فقال :

« يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته وأهل الحرم وإن الحاج ضيفان الله ، وزوَّار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا . فكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم خرجًا ، يترافدون[1] ذلك فيدفعونه إليه ، فيصنع الطعام للناس أيام منى وبمكة ، ويصنع حياضًا للماء من أدم[2] فيسقى فيها بمكة ومنى وعرفة .. فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه ؛ حتى قام الإسلام ، ثم جروا فى الإسلام على ذلك ..

وحينما مات قصى . قالت ابنته تخمر فى رثائه :

طرق النَّعى بعيد نـوم الهُجَّدِ   فنعـى قصيا ذا الندى والسؤدد
فنعي المهذبَ مـن لُؤَىًّ كلهـا   فانهلَّ دمعى كالجُمان[3] المفـرد
فأرِقْتُ من حـزن وهم داخـل   أرق السليم[4] لوجده المتفقدَ[5]

عبد مناف

روى هشام بن محمد ، قال :

لما هلك قصى بن كلاب ، قام عبد مناف بن قصى على أمر قصىٍّ بعده .

ومما يذكر بالنسبة لآل عبد مناف : أن رسول الله – ﷺ ، اقتصر عليهم حين أنزل الله تعالى : ﴿وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقْرَبين﴾ .. « الشعراء ٢١٤ » .

فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمعت عليه بنو مناف ، تلبية لندائه ، قال لهم : « إن الله قد أمرنى أن أُنذِرَ عشيرتى الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش . وإنى لا أملك لكم من الله حظا ، ولا من الآخرة نصيبًا ، إلا أن تقولوا : « لا إله إلا الله » فأشهد بها لكم عند ربكم وتدينُ لكم بها العرب ، وتذل لكم بها العجم .

هاشم

وولد عبد مناف بن قصى ستة نفر ، وست نسوة ، كان من بينهم هاشم بن عبد مناف ،

(١) يترافدون ذلك : يخرجون ويتعاونون عليه .
(٢) أدم : جلد .
(٣) الجمان : اللؤلؤ .
(٤) السليم : اللديغ .
(٥) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٣ .

واسمه عمرو ، وهو الذى عقد الحلف لقريش مع هرقل ، من أجل أن تختلف إلى الشام آمنة مطمئنة ..

وهاشم هو صاحب : إيلاف قريش .

وإيلاف قريش : هو دأبها وعادتها ..

لقد كان هو أول من سن الرحلتين لقريش ، يرحل إحداهما فى الشتاء إلى اليمن ؛ وإلى الحبشة ، إلى النجاشى فيكرمه ويهديه الهدايا .. ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزة ، وربما بلغ أنقرة ، فيدخل على قيصر ، فيكرمه ويهديه الهدايا ..

ثم أصابت قريشًا سنوات جدب عجاف ، ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام ، فأتى منها بدقيق كثير ، فخبز له بمكة ، فهشم ذلك الخبز – يعنى كسره وثرده – ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا ، وقدم الطعام لأهل مكة فأشبعهم ، وكان ذلك الحيا بعد السنة التى أصابتهم . فسمى بذلك هاشمًا[1] وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبعرى :

عمـــرو العُلاَ هشم الثريدَ لقومـــه ورجالُ مكة مُنتون[2] عجاف[3]

وقال وهب بن عبد قصى فى ذلك :

تحمل هاشـــم مـــا ضـــاق عنه وأعيا أن يقوم بـــه ابن بيض[5]
أتاهـــم بالغرائــــــر مُتْأقاتٍ[4] من أرض الشـام بالبُرِّ النقيض[6]
فأوسعَ أهـــل مكةَ من هشيمٍ وشاب الخبز باللحم الغريض[7]

وكان هاشم رجلاً شريفًا ، طموحًا ذكيًا ، ولم يكن يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف فى مكة ، من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة – فحمل اللواء ضد بنى عبد الدار ، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للقتال ، وعبأت كل قبيلة لقبيلة . ثم سعى الناس بينهم للصلح ، واصلحوا يومئذ على أن يُوَلى : هاشمُ بن عبد مناف السقاية والرفادة .. وكان هاشم رجلاً عريض الثراء ، وكان إذا حضر الحج قام فى قريش فقال :

(١) من طبقات ابن سعد .
(٢) مجدبون .
(٣) نحاف .
(٤) متأقات : مملوءات .
(٥) هكذا بالأصل .
(٦) البر النقيض : المنقى .
(٧) شابه باللحم الغريض : خلطه باللحم الطرى – طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٥ – ٥٦ .

« يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوّار الله ، يعظمون حرمة بيته ، فهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره » .

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم ، فتجعل فى موضع زمزم ، ثم يستقى فيها الماء من البئار التى بمكة ، فيشربه الحاج .. وكان يطعمهم – أول ما يطعم – قبل التروية بيوم مكة ، وبمنى وجمع وعرفة .. وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن ، والسويق والتمر ، ويَحْمِلُ لهم الماء ، فيسقون بمنى – والماء يومئذ قليل – فى حياض الأدم ، إلى أن يصدروا من منى فتقطعَ الضيافةُ ، ويتفرق الناس إلى بلادهم .

وتكملة للصورة عن هاشم ، نذكر ملخصًا لما أورده الماوردى ، فى « أعلام النبوة » عنه ، قال :

« وكان اسمه عمْرو ، فسمى هاشمًا ، لأنه أوّل من هشم الثريد لقومه بمكة ، فى سنة لزبة مَحلة رحل فيها إلى فلسطين ، فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة ، ونحر الجزر ، وجعل من ذلك ثريدًا قدّمه لأهل مكة .

وهاشم أول من سنَّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف كما ذكرنا . وأراد أمية بن عبد شمس ، أن يتشبه بهاشم فى ضيفه فعجز عنه ، فشمت به ناس كثير من قريش ، ونشبت العداوة بين أمية وهاشم . وأراد أمية منافرته ، فكره هاشم ذلك لنسبه وقدره ، فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعى ، فى خمسين ناقة سود الحدق : ينحرها ببطن مكة ، والجلاء من مكة عشرة سنين ، فنفر الخزاعى هاشما ، وقال لأمية تُنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأحسن منك وَسَامة ، وأقل منك لامَة ، وأكثر منك ولدًا وأجزل منك صفدًا ؟ !

فقال أمية : من انتكاث الزمان أن جعلناك حكمًا .

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره . وخرج أمية إلى الشام ، فأقام بها[1] عشر سنين .

فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأمية ، وملك هاشم الرفادة والسقاية ، واستقرت له الرياسة ، وصارت قريش له تابعة تنقاد لأمره ، وتعمل برأيه ، وتنافرت قريش وخزاعة إليه ، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة ، فقال فى خطبته :

---

(١) أعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى ص ١٢٤ .

أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم .

لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كُل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم .

يا بنى قصى ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللجاج ، أخرجه إلى البغى .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دُوَل ، والدهر غِيَر ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله .. فاصنعوا المعروف ، تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثَقْ بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنيئة ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد .

ألا وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به ..

فقالت : قريش : رضينا بك أبا نضلة وهى كنيته .

فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق ، ونهى عنه من مساوئ الأفعال .

هل صدر إلا من غزارة فضل ، وجلالة قدر وعلو همة ؟ وما ذاك إلا لاصطفاء يراد ، وذكر يشاد ، لأن توالى ذلك فى الآباء يوجب تناهيه فى الأبناء .

ومات هاشم بغزة من أرض الشام[1] :

عبد المطلب

وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر ، كان منهم شيبة الحمد ، وهو : عبد المطلب ، ولم يولد عبد المطلب بمكة ، وإنما ولد بالمدينة ، وذلك أنَّ هاشمًا خرج فى عير لقريش فيها تجارات ، وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط ، فصادفوا سوقًا تقوم بها فى السنة يحشدون لها ، فباعوا واشتروا ، ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق ، فإذا هى امرأة تأمر بما يشترى ويباع لها .. فرأى هاشم فيها امرأة حاذقة جلدة مع جمال ، فسأل

(١) أعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى ص ١٢٤ – ١٢٥ .

عنها ، أأيم هي أم ذات زوج ؟ فقيل له : أيمٌ : كانت تحت أحَيحة بن الجُلاح ، فولدت له عمر ومعبدًا ، ثم فارقها . وكانت لا تنكح الرجال – لشرفها في قومها – حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلاً فارقته . وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ، فخطبها هاشم ، فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها ودخل بها ، وصنع طعامًا ، ودعا مَن هناك من أصحاب العير الذين كانوا معه ، وكانوا أربعين رجلاً من قريش ، فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم ، ودعا من الخزرج رجالاً ، وأقام بأصحابه أيامًا . وعلقت سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيبة ، فسمي شيبة .

وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام حتى غزة : فاشتكى ، فأقاموا عليه حتى مات ، فدفنوه بغزة ، ورجعوا بتركته إلى ولده[1] .

وقدم ثابت بن المنذر بن حرام – وهو أبو حسّان بن ثابت الشاعر – مكة معتمرًا فلقى المطلب ، وكان له خليلا ، فقال له :

لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفًا ؛ لقد نظرت إليه وهو يناضل[2] فتيانا من أخواله فُيدخل مِرْماتيه[3] جميعًا في مثل راحتي هذه ويقول كلما خَسَق[4] : أنا ابن عَمْرو العُلا[5] .

فقال المطلب : لا أُمْسي حتى أخرج إليه فأقدم به ، فقال ثابت :

ما أرى سلمى تدفعه إليك ولا أخوالَه ، هم أضَن به من ذلك ، وما عليك أن تدعه ، فيكون في كفالتهم حتى يكون هو الذي يقدُم عليك إلى ها هنا ، راغبًا فيك .

فقال المطلب : يا أبا أوس ، ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه .. وسِطَته[6] ونسبه ، وشرفه في قومه ما قد علمت . فخرج المطلب فورد المدينة ، فنزل في ناحية ، وجعل يسأل عنه ، حتى وجده يرمي في فتيان من أخواله ، فلما رآه عرف شبه أبيه فيه ، ففاضت عيناه ، وضمه إليه وكساه حلة يمانية[7] .

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٥٨ – ٥٩ .
(٢) يناضل فتيانًا : يباريهم في رمي السهام .
(٣) مرماتية : مثنى والمفرد مرماة . وهو سهم صغير ضعيف .
(٤) خسق : أصاب الهدف .
(٥) يقول ذلك من التيه على إخوانه ومن الفخر بعد أن يصيب المرمى .
(٦) سطته : مكانته الوسطى بين قومه .
(٧) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٦٢ .

فأرسلت سلمى إلى المطلب فدعته إلى النزول عليها .

فقال : شأنى أخفّ من ذلك ، ما أريد أن أحُلَّ عقدة حتى أقبضَ ابن أخى ، وأُلحقه ببلده وقومه .

فقالت : لست بُمْرسِلَتِهِ .. وغَلُظَت عليه ؛

فقال المطلب : لا تفعلى ، فإنى غيرُ منصرف ، حتى أخرج به معى .. ابن أخى قد بلغ وهو غريب فى قومه ، ونحن أهل بيت شرف ، والمقام ببلده خير له من المقام ها هنا ، وهو ابنك حيث كان . فلما رأت أنه غير مقصر ، حتى يخرج به استنظرته ثلاثة أيام ، وتحول إليهم ، فنزل عندهم فأقام ثلاثا ، ثم احتمله ، وانطلقا جميعًا . ودخل به عبد المطلب مكة ظهرًا ، فقالت قريش : هذا عبد المطلب :

فقال : ويحكم ، إنما هو ابن أخى شيبة بن عمرو ، فلما رأوه ، قالوا : ابنه لعمرى .

فلم يزل عبد المطلب مقيما بمكة حتى أدرك ، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجرًا إلى أرض اليمن ، فهلك بِرَدْمان من أرض اليمن ؛ فَوُلِّيَ عبدُ المطلب بن هاشم بعدُ الرفادةَ والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده : يطعم الحاج ويسقيهم فى حياض من أدم بمكة فلما سُقِيَ زمزم ، ترك السقى فى الحياض بمكة ، وسقاهم من زمزم حين حَفَرَها .

وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرفة فيسقيهم[1] .

وكانت زمزم سقيا من الله :

لقد أتى عبد المطلب آياتٍ فى المنام مرات ، فأمره بحفرها ، ووصف له موضعها فقال له :

أحفُر طيبة .. قال : وما طيبة ؟

فلما كان الغد أتاه ، فقال احفُر بّرة . قال : وما برة ؟

فلما كان الغد أتاه – وهو نائم فى مضجعه ذلك ، فقال : احفر المضنونة . قال : وما المضنونة ؟ أبِنْ لى ما تقول ؟

فلما كان الغد أتاه ، فقال : احفر زمزم :

قال : وما زمزم ؟

---

(١) الطبقات لا بن سعد جـ ١ ص ٦٣ .

قال : لا تنزح ولا تزم ، تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم .

فلما عين موضعها ، غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته ، وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء ، فكانت : زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكام قريش . وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها ، كالمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة[1] ؛ ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجها ، وأمده جسما ، وأحلمه حلما ، وأجوده كفا ، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ؛ لم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه ، وكان سيد قريش حتى مات[2] » .

عبد الله

أما عبد الله ، والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كان صورة طبق الأصل من جده . ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد عبد المطلب ، وكان شعاره الذى التزمه طيلة حياته ، ما عبر عنه هو بقوله :

« أمَّا الحرام فالممات دونه » .

وتقول له فاطمة الخثعمية : « إنى لأعرف فيك نسك أبيك » .

❑❑❑

وإذا نظرنا – إذن – إلى رسول الله ﷺ ، من ناحية والده وأسلافه ، ومن ناحية والدته وأخواله ، فإننا نجدهم – خلقا وعراقة أصل – من أشرف بيوت العرب وأكرمها وأسماها بشهادة المؤرخين جميعًا – فكان صلوات الله وسلامه عليه – كما يقول ابن هشام – :

« أوسط قومه نسبًا ، وأعظمهم شرفًا من قبل ابيه وأمه » .

ويقول إمامنا البوصيرى رضى الله عنه فى همزيته :

لم تزل فى ضمائر الكون تُختَا ... رُ لك الأمهـــاتُ والآبـــاءُ

ويقول فى بردته :

أبان مولدُه عن طيب عنصره ... يا طيبَ مبتَدإٍ منــه ومختتــم

---

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٢) طبقات ابن سعد .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« بعثتُ من خير قرون بنى آدم قرنا بعد قرن ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه » .

ويقول ﷺ ، فيما رواه الإمام مسلم :

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم : إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة : قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » .

ولقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : رسول الله ﷺ :

« أنا سيد ولد آدم » .

وعن حذيفة : أنه ذكر مضر فى كلام له فقال :

إن منكم سيد ولد آدم . يعنى النبى ﷺ .

وكل هذه الأخبار فى كونه ﷺ ، خير الناس ، صحيحة ، إذا نظرنا إلى نسبه ﷺ . وهى صحيحة إذا نظرنا إلى مكانته وسنرى ذلك فى الفصول التالية .

وهو صلوات الله وسلامه عليه : محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصى :

أما ختام هذا الفصل ، فهو هذه الكلمات الرائعة الجميلة ، التى وردت فى كتاب : أعلام النبوة .

فكانت إلهاما مشرقا ، وحكمة عميقة ، فى تفسير نهاية هذا النسب الكريم إلى النبى المصطفى ﷺ :

« لم يشركْه فى ولادته من أبويه أخٌ ، ولا أخت ؛ لانتهاء صفوتهما ؛ وقصور نسبهما عليه ، ليكون مختصا بنسب جعله الله تعالى للنبوة غايةً ؛ ولتفرّده بها آية ، فيزول عنه أن يشارَك فيه ويُمَاثَلَ به ، فلذلكَ مات أبواه عنه فى صغره !!

فأما أبوه عبد الله فمات عنه ، وهو حمل .

وأما آمنة فماتت عنه وهو ابن ستُ سنين »[1] .

---

(١) أعلام النبوة لأبى الحسن الماوردى ص ١٣٣ .

﴿لكن الله يشهد بما أنزل
إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الثالث عن :

دلائل النبوة قبل البعثة

دلائل النبوة فى أخلاقه ﷺ
قبل البعثة

شق الصدر :

هذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه – إذ ذاك – فى بادية بنى سعد ، عند مرضعته . وبينما هو يلعب مع الغلمان – على ما يروى الإمام مسلم – أتاه جبريل ، فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب ، بماء زمزم ، ثم لأَمَه ، ثم أعاده إلى مكانه » .

وجاء الغلمان يسعَوْن إلى أمه – يعنى مرضعته – إن محمدًا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبًا .

فلما كان ابن عشر سنين ، تكرر حادث شق الصدر .

فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم وابن عساكر ، عن أُبَيٍّ بن كعب : أن أبا هريرة رضى الله عنه ، كان جريئًا على أن يسأل رسول الله ﷺ ، عن أشياء : لا يسأله عنها غيره ، فقال :

يا رسول الله ، ما أَوَّلُ ما رأيتَ فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالسًا ، وقال :

« لقد سألتَ أبا هريرة » .

إنى لفى صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل :

« أهو هو » ؟

قال : نعم .

فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها

على أحد قط ، فأقبلا إلىّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى ، لا أجد لأحدهما هامسًا .

فقال أحدهما لصاحبه : أضجِعه ، فأضجعانى بلا قسر[1] ولا هصر[2] .

وقال أحدهما لصاحبه : افْلِق صدره .

فهَوَى أحدهما إلى صدرى ففلقه ، فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أدخل يشبه الفضة ، ثم هز إبهامَ رجلى اليمنى فقال اغْدُ واسْلَم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير .

فلما جاوز صلوات الله وسلامه عليه الخمسين ، شق عن صدره فى ليلة الإسراء والمعراج .

فعن أبى بن كعب – فيما رواه الإمام أحمد والإمام مسلم – أن رسول الله ﷺ قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانًا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه » .

ولا يعنينا هنا – لا فى قليل ولا فى كثير – أن نُجارِيَ الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر ، فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل والكيف ، والزمان والمكان .

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنّة بالأسانيد الصحيحة ، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وإن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى – وقد شاءت إرادته – منذ الأزل – أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين – أراد سبحانه ، أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل .

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة والإخلاص ، أو بتعبير آخر – بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه ، وأرسل الله ملائكته فشقوا عن

(١) القسر : الإجبار .
(٢) الهصر : الجذب والإمالة من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى .

صدر الرسول ﷺ واستخرجوا حظ الشيطان منه . وأرسلهم فشقوا عن صدره وملئوه سكينة .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله ﷺ فى سنٍّ مبكرة فكان ﷺ – كما تقول السيدة آمنة – :

« والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

الرسول وحياة اللهو فى مكة :

لقد كانت مكة – حينما كان رسول الله ﷺ ، شابا فتيًّا قويًّا : تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها وكذلك البيوت المريبة ، وفى هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه ، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى عنه ، ﷺ ، أنه قال :

« ما هَمَمْتُ بشىء من أمرِ الجاهلية إلا مرتين » .

أما هاتان المرتان ، فإن سيدنا عليا رضى الله عنه : يتحدث عنهما – على ما يروى ابن كثير – فيقول :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما هممت بشىء مما كان أهلُ الجاهلية يهمون به إلا ليلتين ، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة – ونحن فى رعاء غنم أهلها – فقلت لصاحبى :

« ألا تبصر لى غنمى حتى أدخلَ مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان ؟

فقال : بلى .

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفًا بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟

قالوا : تزوج فلان فلانة .

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فقال : ماذا فعلت ؟ .

فقلت : ما فعلت شيئا ، ثم أخبرته بالذى رأيت .

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ، ففعل ، فدخلت ، فلمْا جئت مكة سمعت الذى سمعته تلك الليلة فسألت فقيل :

نكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ، ما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت : لا شىء ، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشىء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته :

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان .

عبادة الأصنام :

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام ، فإن القصة التالية توضح الأمر :-

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

حدثتنى أم أيمن قالت : كان بُوانة صنَمًا تحضره قريش لتعظمه :

تنسك له النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يومًا إلى الليل ، وذلك يومًا فى السنة . وكان أبو طالب يحضره مع قومه . وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيد ولا تكثر لهم جمعًا ؟ !

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوبًا فزعًا ، فقالت له عماته : ما دهاك ؟ قال :

« إنى أخشى أن يكون بى لمم »[1] .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان ، وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذى رأيت ؟

قال :

---

(١) مس من الجنون .

« إنى كلما دنوت من صنم منها : تمثل لى رجل أبيض ، يصيح بى : وراءك[1] يا محمد : لا تمسَّه » قالت :

« فما عاد إلى عيدٍ لهم حتى تنبأ » ..

❑❑❑

لقد كانت حياته ﷺ ، شرحًا مستفيضًا ، وتوضيحًا كاملاً وتعبيرًا تامًّا ، لما ذكره ابن خلدون ، وما يتفق عليه العقلاء ، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« إنه يوجد لهم قبل الوحي : خلق الخير والزكاة ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه على المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره .

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم » .

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ ، وهو طاهر زكى .

طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم . وزكى ؛ لأنه بعيد عن الشرك : لم يسجد لصنم قط . ﷺ . لاحيت

وشب رسول الله ﷺ ، مع أبى طالب : يكلؤه الله ويحفظه ، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته حتى صار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقًا ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جوارًا ، وأعظمهم حلمًا وأمانة ، وأصدقهم حديثًا ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رؤى ملاحيًا[2] ، ولا مَارِيًا[3] أحدًا ، حتَّى سماه قومه : الأمين ؛ لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه . فلقد كان الغالب عليه بمكة : الأمين[4] .

عن نفيسة بنت منبه أخت يعلى بن منبه قالت :

---

(١) ارجع وراءك .
(٢) ملاحيا : منازعا ومخاصما يقال لاحيت الرجل ملاحاة ولحاه إذا نازعته .
(٣) ماريا : مجادلا .
(٤) ابن سعد جـ ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

بلغ رسول الله ﷺ ، خمسًا وعشرين سنة ، وليس له بمكة اسم إلا الأمين ؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير[1] .

وعن منذر قال : قال الربيع : يعنى ابن خيثم : كان يُتَحَاكَم إلى رسول الله ﷺ فى الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص فى الإسلام[2] .

ولقد اختاره الله للرسالة ولكنه تعالى اصطنعه لنفسه قبل أن يمنحه النبوة ..

أجل ! وهذه الفترة من حياته ، التى سبقت البعثة ، كانت فترة جهاد وصراع روحى هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف : مستمر لا ينقطع ، فيه الحزن ، وفيه الرجاء . وفيه الكثير من الأمل الوثاب . الذى يشحذ العزيمة ويسد على اليأس القانط كل منفذ .

إن هذه الفترة من حياته ، كانت – على حد تعبير الجنيد فى تعريف التصوف – عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله عليه ، يتوج – كل عام – جهاده الروحى المتصل ، بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق ، عن كل ما سوى الله .

وهناك فى سجوة الليل ، أو فى رائعة النهار ، يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب ، فيصل إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال فى سنائه ، والجلال فى عظمته وكبريائه .

هاهو ذا الرسول ، ﷺ ، يبذل مجهودًا جبارًا ، لا يكاد الإنسان يتصوره ، فضلاً عن أن يأتى بمثله .

وهاهو ذا ، يرى الهدف بعيدًا لا يكاد الإنسان أن يفهمه ، فضلاً عن أن يصل إليه .

هاهو ذا ، يرى الطريق وعثاء صعبة المرتقى .. بيد أن ذلك كله : لم يكن إلا ليزيده عزمًا على عزم ، وإرادة على إرادة ، ونشاطًا مضاعفًا ..

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور ، عن جهاد النفس لتتزكى .

وتمضى السنون بطيئة سريعة فى آن واحد ، وجهاد الرسول – ﷺ – لا يفتر حتى أصبح – أو كاد – روحًا خالصة ، أو قبسًا من نور الله ،وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول الإمام الغزالى إنه :

---

(١) ابن سعد جـ ١ ص ١٣٧ .

(٢) ابن سعد جـ ١ ص ١٣٩ .

« أول حال رسول الله ، ﷺ حين أقبل على جبل حراء ، حيث تبتّل ، حين كان يخلو بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب :

« إن محمدًا عشق ربه » !

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التى غيرت مجرى التاريخ .

﴿اقرأ باسم ربكَ الذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ . اقرأ وربك الأكرم . الذى علَّم بالقَلَم . علم الإنسانَ ما لم يعلَمْ﴾[1] .

ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه – فى التحنث – خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت نفسه من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنية نفسه وشفاء شغفه بالوحدة ؛ يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة ، واستلهام ما فى الكون من أسبابها .

وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمالى مكة – غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان ؛ من كل سنة يقيم به ، مكتفيًا بالقليل من الزاد يحمل إليه ممعنًا فى التأمل والعبادة ، بعيدًا عن ضجة الناس ، وضوضاء الحياة متلمسًا الحق ، والحق وحده .

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة ، حتى لقد كان ينسى طعامه ، وينسى كل ما فى الحياة ، لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ، ليس حقًّا .

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيمانًا بما رأى فى رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه ... وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة : وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى تيهاء الضلال .

وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ، ويرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم والتأمل فى آلاء ربه ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ، ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له فى رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر : حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسرَّ بمخاوفه إلى

---

(١) سورة العلق ١ ، ٥ .

خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به . فطمأنته الروح المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين . وبأن الجنَّ لا يمكن أن تقترب منه ، وإن لم يدرْ بخاطرها ولا بخاطره : أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية ، إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم : يومِ الوحى الأول ؛ ويهيئه بها إلى البعث والرسالة .

وفيما هو نائم بالغار يوما ، جاءه المَلَكَ وفى يده صحيفة ، فقال له : « اقرأ »[1] :

كانت « اقرأ » مفتتح عهد جديد فى حياة الرسول ﷺ ، فمنذ تلك الآونة لم يترك رسول الله ﷺ الدعوة إلى الله قط ، كان يدعو ليلاً وكان يدعو نهارًا ، وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته .

❑❑❑

---

(١) من « حياة محمد » للدكتور هيكل .

﴿لكن الله يشهد بما أنزل
إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الرابع عن :

الرسالة
أسباب وبواعث
وأهداف وغايات

البعثة العامة

جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « بُعِثَ الأنبياء قبلى إلى أممهم خاصة : وبُعِثت إلى الأمم كلها عامَّةً »[1] .

المأدبة :

عن جابر بن عبد الله قال : « جاءت ملائكة إلى نبى الله ، ﷺ ، وهو نائم ؛ فقال بعضهم لبعض : إنه نائم . وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان ، فقالوا : إن مَثَلَه كمثَلِ رجلٍ بنى دارًا فجعل فيها مأدبةً ، وبعث داعيًا : من أجاب الداعىَ دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعَى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا :

أوِّلوها : له يَفْقَهها ، فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة « والقلب يقظان . قالوا ، فالدار : الجنة ، والداعى : محمد ، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله ، ومحمد فَرْق بين الناس » رواه البخارى فى الصحيح »[2] .

مثله ﷺ :

عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : مَثَلى ومثل الأنبياء قبلى ، كمثل رجل ابتنى دارًا ، فأحسنَهَا وأكملَهَا إلا موضع لَبِنَة ، فجعل الناس يدخلونها ، ويتعجبون منها ، ويقولون : لولا موضع هذه اللبنة ! قال رسول الله ﷺ : فأنا موضع تلك اللبنة : جئت فختمتُ الأنبياء » رواه البخارى فى الصحيح عن محمد بن سنان عن سليمان بن حيان ، ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب عن عفان »[3] .

مثل ما بعثه الله به من الهدى والعلم :

عن أبى موسى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مَثَلَ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيثٍ أصاب أرضًا ، فكانت منها طائفة طيبةً : قبلت الماءَ فأنبتت الكَلأَ والعشْبَ الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماءَ فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ،

---

(١) الرسالة المحمدية ص ١٢٨ .

(٢) دلائل النبوة : جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٣) دلائل النبوة : جـ ١ ص ٢٧٣ .

وأصاب منها طائفةٌ أخرى : إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كَلأً : فذلك مثل من فَقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله تعالى به ، فعلِمَ وعلَّمَ . ومثل من لم يرفعْ بذلك رأسًا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وبهذا الإسناد عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ ، قال : « إنَّ مَثَلى ومَثَلَ ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قومِ إنى رأيت الجيش بعينى ، وأنا النذير العريان ، فالنجاء – فأطاعه طائفة من قومه ، فأدْلَجوا ، فانطلقوا على مهلهم فَنَجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مَثَل من أطاعنى واتَّبع ما جئت به من الحق ، ومثل من عصانى وكذّب ما جئت به من الحق » .

رواهما البخارى ومسلم فى الصحيح عن أبى كريب .

مثل الأمة الإسلامية :

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ، قال : « مَثلكم ومَثَل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً » فقال : من يعمل من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط ؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم .

فغضب اليهود والنصارى ، فقالوا نحن أكثر عملا ، وأقل عطاء[1] .

قال : فهل ظلمتكم من حقكم شيئًا ؟ قالوا : لا .

قال : فإنما هو فضلى أوتيهِ من أشاء »[2] .

أخرجه الإمام البخارى[3] .

بواعث وأهداف

إن ربى رحيم ودود .

الإسلام ؟ علامَ تدل هذه الكلمة الإلهية ؟ ما مفهومها ؟

لقد تحدث القرآن عن مفهومها فى تفصيل كثير ، بل يمكنك أن تقول : إن القرآن الكريم كله ، إنما هو شرح لمفهومها ..

(١) الأصل : نحن أقل عملا وأكثر عطاء وهو تحريف ، ورواية البخارى مثلنا : (أكثر عملا وأقل عطاء) .
(٢) رواية البخارى مخالفة لما هنا . صحيح البخارى كتاب الإجارة .
(٣) الوفا جـ ١ ص ٣٧٦ – ٣٧٧ دار الكتب .

وتحدث الرسول ﷺ – متناسقًا مع القرآن وشارحًا له – عن هذا المفهوم ..

ولم يكن رسول الله ﷺ ، يشرح المفهوم بقوله فحسب ، وإنما كان يشرحه بسلوكه أيضًا ..

لقد حقق رسول الله ﷺ ، الإسلام فى صورة واقعية .

ولقد سئلت السيدة عائشة – رضوان الله عليها – عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : « كان خُلُقه القرآن » .

ونعود فنقول : ما هو المفهوم ؟ ..

هذا المفهوم ، هو الذى نبدأ فى تفصيله بعون الله وتوفيقه ، هل نبدأ فى ذلك بالأهداف ، أو نبدأ فى ذلك بالبواعث .

قد تكون الأهداف والغايات – هى نفسها – العِلَلَ والأسباب .

وهذا هو الواقع بالنسبة للإسلام .

ونحن – إذن – نتحدث فى هذه الكلمة ، وفى كلمات تالية ، عن العلل والأسباب ، وعن الغايات والأهداف ..

إن الله سبحانه وتعالى ، يقول لرسوله الكريم ، ﷺ :

﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ . « الأنبياء ١٠٧ »

وانظر التعبير القرآنى : ﴿رحمةً للعالمين﴾ !!

إنه سبحانه لم يقل : رحمة لقطر معين ، ولم يقل : رحمة للإنسانية . وإنما قال رحمةً للعالَمين ..

إنه سبحانه ، عمّم الرحمة فجعلها : للعالمين ..

وفى حديثنا عن الرحمة ، نبتدئ بالحديث عنها صفةً من صفات الله تعالى ، كما تحدث عنها فى القرآن الكريم ، وكما تحدثت عنها السنة الشريفة ..

إن من أسماء الله تعالى ، اسم : الرحمن .

ولقد بلغت منزلة هذا الاسم فى الأسماء الكريمة : أنه يذكر مضارعًا لاسم الجلالة المطلق : « الله » .

يقول سبحانه :

﴿قلِ ادْعوا اللّهَ أوِ ادْعوا الرحمن أيًّا مَّا تدعوا فَلَهُ الأسماءُ الحسْنَى﴾ . « الإسراء ١١٠ »

ومن أسماء الله سبحانه : « الرَّحيم » ..

ورحمة الله سبحانه وتعالى ، تامة عامة شاملة ..

والرحمة التامة – كما يقول الإمام الغزالى – « إفاضة الخير على المحتاجين وإرادته لهم ، وعنايته بهم .

والرحمة العامة : هى التى تتناول المستحق وغير المستحق ..

ورحمة الله تامة عامة :

أما تمامها ، فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها .

وأما عمومها ، فمن حيث شمولها المستحقَّ وغيرَ المستحق ؛ وتناول الضرورات والحاجات ، والمزايا الخارجة عنهما ، فهو الرحمن الرحيم المطلق حقًّا » .

على أن الوصف القرآنى لله – سبحانه وتعالى – فى جانب الرحمة ، يبين أن الله سبحانه وتعالى :

﴿أَرْحَمَ الرَّاحِمِين﴾[1] .

وأنه سبحانه :

﴿خَيْرُ الراحمين﴾[2] :

ومن أروع الأحاديث القدسية الرمزية : التى تتحدث عن رحمة الله سبحانه ، والتى لا نجد لها ما يماثلها فى سموها وجلالها ، شرقًا أو غربًا ، قديمًا أو حديثًا : لا فى مذاهب الفلاسفة ، ولا فى الملل والنحل ، بل ولا فى كلام الشعراء – ما رواه الإمام مسلم – رضى الله عنه – بسنده عن رسول الله ﷺ ، فيما رواه عن ربه :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة :

يا ابن آدمَ ، مَرِضتُ فلم تَعدْنى .

قال : يارب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ .

قال : أمَا علمِتَ أن عبدى فلانًا مرِض فلم تَعده ؟ .. أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده ؟ ..

(١) الأعراف : ١٥١ والأنبياء : ٨٣ .

(٢) المؤمنون : ١١٨ .

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطْعِمْنى .

قال : يارب ، كيف أطعِمكَ وأنت رب العالمين ؟ .

قال : أما علمتَ أنه استطعَمَكَ عبدى فلان فلم تطعمه ؟ . أما علمت أنك لو أطعمتَه لَوَجدت ذلك عندى ؟ . يا ابن آدم ، استَسْقَيْتك فلم تسقِنى !

قال : يارب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟

قال : استقاك عبدى فلان فلم تسقِه ، أما علمتَ أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟

وهذا الذى رواه الرسول – ﷺ – عن ربه يساير ويتناسق مع الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة . إن الله سبحانه هو الذى :

﴿ينَزِّل الغيثَ من بعد ما قَنَطوا وينشر رحمَتَه وهو الولى الحميد﴾[1] .

وإن أسلافنا الذين تأملوا فى هذه الآية الكريمة ، يلجأون إلى الله ، ويتجهون إليه بصفتى « الولىّ الحميد » – فى الشدائد ، حينما تلم بهم ، فيجدون فى التجائهم إليه سبحانه بصفتى « الولى الحميد » بَرْدَ الرضا ، وراحة النفس ، والخروج من ضيق الكرب إلى سعة الرحمة .

إنه سبحانه :

« الولى الحميدُ » .

أما رحمة الله فى كل لحظات الحياة ، فإنها :

﴿قريبٌ من المحسنين﴾[2] .

إنها تحيط بهم ، وتتنزل عليهم ، وتقودهم ، وتتبعهم فى كل مجالات الحياة ..

ومن أوائل المحسنين : الأنبياء والرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

ومن أمثلة رحمة الله سبحانه بأنبيائه ورسله ، ما ذكره القرآن عن نوح عليه السلام .

قال تعالى :

﴿ونوحًا إذ نادى من قبلُ فاستَجبنَا له فَنَجيناه وأهلَه من الكَرْبِ العظيم ، ونَصَرناهُ من القوم الذين كذَّبوا بآياتِنَا إنهم كانوا قَوْمَ سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾[3] .

وعن أيوب – عليه السلام – قال تعالى :

---

(١) الشورى : ٢٨ .
(٢) الأعراف : ٥٦ .
(٣) الأنبياء : ٧٦ .

﴿وأيوبَ إذْ نادى ربَّهُ أنِّى مَسَّنى الضُّرُّ وأنتَ أرحم الراحمين . فاستَجَبنَا له فكشفنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهلَه ومثلَهُم معهم رحمةً من عندنا وذِكْرَى للعابدين﴾ [1] .

وعن يونس – عليه السلام – قال تعالى :

﴿وَذَا النون إذ ذَهب مُغَاضِبًا فظنَّ أن لن نَقْدِرَ عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنتَ سبحانك إنى كنتُ مِنَ الظالمين . فاستَجَبْنَا له ونجيناه من الغَم وكذلك نُنْجى المؤمنين﴾[2] .

وعن زكريا – عليه السلام – قال تعالى :

﴿وزكريَّا إذْ نادى ربَّه ربِّ لا تَذَرْنى فردًا وأنت خير الوراثين . فاستَجَبْنَا له ووهبنا له يَحْيَى وأصْلَحْنَا له زوْجَه إنهم كانوا يُسَارِعونَ فى الخيرات ويدعونَنَا رغَبًا ورهَبًا وكانوا لنا خاشعين﴾[3] .

ونعود فنقول مع القرآن الكريم :

﴿إن رحمة اللَّهِ قريب من المحسنين﴾[4] .

* ومن الأمثلة على ذلك قوله :

﴿ولَمَّا جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا﴾ .

(سورة هود : ٥٨) .

* وقوله :

﴿فلما جاء أمرنَا نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا﴾ .

(سورة هود : ٦٦) .

* وقوله :

﴿ولَمَّا جاء أمرنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمةٍ منا﴾ .

(سورة هود : ٩٤) .

ونعود فنقول مع القرآن الكريم :

﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ .

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ .
(٣) الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠ .
(٤) الأعراف ٥٦ .

وهى ليست قريبة من الأنبياء والرسل فحسب ، ولكنها قريبة من كل محسن ، إنها قريبة ممن آمن وعمل صالحًا ، فتكون السعادة :

﴿مَنْ عَمِلَ صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيبة ولَنَجْزِيَنَّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ .

(سورة النحل : ٩٧) .

وهى قريبة من المتقين ، فتكون تفريجًا للكرَبِ ، وإزالة للهم ، وَسَعةً فى الرزق :

يقول سبحانه :

﴿ومَنْ يتق اللّهَ يجعل له مخرَجًا ويرزقْه من حيث لا يحتسب﴾ .

(سورة الطلاق : ٢ ، ٣) .

إن الله سبحانه برحمته يجعل له مخرجًا من كل هم ومن كل ضيق ويرزقه من حيث لا يحتسب ..

والله سبحانه يدعو الإنسان دائمًا ألاَّ ييأسَ من رحمة الله .

يقول سبحانه :

﴿ومن يَقنط من رحمة ربه إلا الضَّالُّونَ﴾ .

(سورة الحجر : ٥٦) .

ويأخذ سبحانه على الإنسان بخله وشحه ، ويذكر سبحانه أنه لو ملك خزائن رحمة الله لحمله شحه على الإمساك خشية الإنفاق :

يقول سبحانه :

﴿قل لو أنتم تملكون خزائنَ رحمةِ ربى إذًا لأمْسكْتمْ خشيةَ الإنفاق وكان الإنسان قَتورًا﴾ . (سورة الإسراء : ١٠٠) .

وحينما ينظر الإنسان إلى الكون ، يجد رحمة الله بالإنسان سارية فى جميع أرجائه ، يقول تعالى :

﴿ومِن رحمته جعل لكم الليلَ والنهارَ لِتسكنوا فيه ولتبْتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾ . (سورة القصص : ٧٣) .

ويقول تعالى :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لِتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمةً إن في ذلك لآيات لقومٍ يتفكرون﴾ .

(سورة الروم : ٢١) .

وبعد :

فإن من القوانين الإلهية في الرحمة :

١ – الراحمون يرَحمهم الرحمن .

٢ – ارحموا من في الأرض يرحْمكم من في السماء .

٣ – الشاة ، إن رحمتها رَحِمكَ الله .

٤ – من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

– من فرَّجَ عن مسلم كَرْبةً من كرب الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كربِ يوم القيامة .

٦ – من سترَ مسلمًا سترَه الله يوم القيامة .

٧ – اللّهُ في عوْنِ العبد ما دام العبد في عون أخيه .

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين :

يتحدث الرسول ﷺ ، عن وضعه في هذا العالم فيقول :

« إنما أنا رحمةٌ مهداة » .

إنه ﷺ « رحمة » أهداها الله إلى الإنسانية ؛ ليرحمها به :

ليرحمها بالتعاليم التي أنزلها عليه ، ليرحمها به كقدوة ؛ ليرحمها به باعتباره صورة للكمال الإنساني كما أحبه الله .

ويروي الإمام مسلم في صحيحه أنه قيل :

يا رسول الله ، ادع على المشركين .. فقال :

إني لم أبعث لعَّانًا ، وإنما بعثت رحمةً .

ولقد كان رسول الله ﷺ يذكر المسلمين بالرحمة ، كلما كانت هناك مناسبة .

ففي يوم من الأيام بينما كان المسلمون عائدين من غزوة « ذات الرقاع » جاء رجل بفرخ طائر ، فأقبل أحد أبوَيِ الفرخ حتى طَرَح نفسه بين يدى الذى أخذ فرخه ، فعجب الناس من ذلك !! فانتهز رسول الله ﷺ الفرصة – كعادته – لِيعظهم ويُذَكرهم بالله ، ويحببهُم فيه ، فقال :

« أتعجبون من هذا الطائر ؟ .. أخذتم فرخه ، فطرح نفسه رحمة لفرخه ، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه !!

وفى مرة أخرى ، رأى رسول الله ﷺ ، امرأة تضم طفلها إلى صدرها فى حنان بالغ ، وحب عميق ، فالتفت إلى أصحابه ، وقال لهم :

أترَوْنَ هذه طارحةً ولدَها فى النار ؟ .

قالوا : لا ، يا رسول الله .

فقال ﷺ :

« والله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها !!

وفى يوم من الأيام ، رأى أحد الأعراب رسولَ الله ﷺ ، يقبل أحد أسباطه ، فقال مندهشًا .

أتقبّلون أبناءكم ؟ .. إن لى عشرةً من الأولاد ما قبّلت واحدًا منهم قط .

فعرفه – ﷺ – فى نوع من الاستهجان – أن الله قد نزع الرحمة من قلبه ..

ولقد تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان .

وكتب السيرة تروى أنه ﷺ ، مر ذات يوم ، على بستان رجل من الأنصار ، فدخله ، فإذا جمل يئن وتذرف عيناه ، فأتاه النبى ﷺ ، فمسح عليه ، فسكت .

ثم قال ﷺ : « مَنْ رَب هذا الجمل » ؟ .

فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هذا لى يا رسول الله .

فقال له : ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله ؟

إنك تجيعه وتدئبه (أى تتعبه وتجهده) ..

فخجل الشاب الأنصارى ، وتغير سلوكه مع الجمل .

ومن المعانى ذات المغزى ، أن رسول الله ﷺ ، كان يتحدث عن الرحمة ، ويحث عليها ، ويدعو إليها ، ويعرف منزلتها من الدين ، فقال بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – :

« إننا نرحم أزواجنا وأولادَنا وأهْلينا » ..

فلم يرض هذا القولَ رسولَ الله ﷺ ؛ لأنه فهمٌ قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عامًّا شاملاً ، ولذلك رد عليه رسول الله – ﷺ – بقوله :

ما هذا أريد ؟ .. إنما أريد الرحمة العامة .

وما من شك فى أن من الرحمة : رحمة الأزواج والأولاد والأهل . وقد حث على ذلك رسول الله ﷺ .

بيد أن ما أراده الرسول ﷺ ؛ إنما هو أن تتغلغل الرحمة فى الكيان الإنسانى كله ، حتى تصبح وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته ، فيكون الإنسان وكأنه قبس من الرحمة الإلهية ، ينثرها إذا سار ، وينثرها أينما كان ، وينثرها حينما حل .

وإذا كان كذلك ، فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية ، واستحق أن يغمره الله برحمته ..

إن رسول الله ﷺ – وهو الذى أفهم الصحابة أنه إنما يريد الرحمة العامة – تجاوز مفهومه إلى رحمة الحيوان .

ومن أجل ذلك ، تتضمن الرحمة فى الجو الإسلامى : الرحمة بالحيوانات أيضا .

عن ابن عمرو – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ ..

« دخَلتِ امرأة النار فى هِرَّةٍ ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » ..

وفى رواية :

« عذبّت امرأةٌ فى هرة سجنتها حتى ماتتْ ، لا هِيَ أطعمتْها وسقتْها إذْ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » : رواه البخارى وغيره ..

وعن سهل بن الحنظلية – رضى الله عنه – قال :

« مَرَّ رسول الله – ﷺ – ببعير لصِقَ ظهره ببطنه ، فقال :

« اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة ، وكلوها صالحة » ..

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله ﷺ ، قال :

« دنا رجل إلى بئرٍ ، فنزل فشرِبَ منها ، وعلى البئر كلب يلهث ، فرَحِمه ، فنزع إحدى خفيه فسقاه ، فشكر الله له ، فأدخله الجنة » ..

رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وهذه جملة من الأحاديث للرسول ﷺ فى الرحمة ، تبين عن روحه ﷺ الفياضة بهذه الصفة ، التى جعلها الله سبحانه وتعالى شعار هذه الأمة .

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« من لا يَرْحَم الناسَ لا يَرْحَمْهُ الله » .

وعن أبى موسى – رضى الله عنه – : أنه سمع النبى ﷺ ، يقول :

« لن تُؤْمِنوا حتى تَرَاحموا ، قالوا : يا رسول الله ، « كلنَا رحيم » . قال : « إنه ليس برحمةِ أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمةُ العَامَّة » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

« من لم يَرْحَمِ الناسَ لم يَرْحمْهُ الله » .

وعن جرير رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول :

« من لا يرحَمُ من فى الأرض ، لا يَرْحمْه من فى السماء » .

إنما أنا رحمة مهداة : ﷺ .

إن الله سبحانه وتعالى ، يقول لرسوله الكريم ، ﷺ .

﴿وما أرسلناكَ إلا رحمة للعالمين﴾[1] .

إنه سبحانه لم يقل رحمة لقطر معين ، ولم يقل رحمة للإنسانية فحسب ، وإنما قال :

﴿رحمة للعالمين﴾ .

إنه سبحانه عمّم الرحمة ، فجعلها : للعالمين .

وفى حديثنا عن الرحمة ابتدأنا بها صفة من صفات الله تعالى ، كما تحدث عنها سبحانه فى القرآن الكريم ، وكما تحدثت عنها السنة .

والآن نتحدث عن الرحمة : صفةً من صفات رسول الله ﷺ .

لقد التقى رسول الله ، بالملك فى غار حراء ، وبدأت رسالة الإسلام باهرة رائعة ، وكان هذا الابتداء متمثلاً فى قوله تعالى :

﴿اقرأ باسم ربِّك الذى خلَق ، خلَق الإنسان من عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم ، الذى علَّمَ بالقلم ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم﴾[2] .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) العلق : ١ – ٥ .

يقول الإمام البخارى – فيما رواه عن السيدة عائشة رضى الله عنهما :

فرجع بها رسول الله – ﷺ – يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنتِ خويلد – رضى الله عنها – فقال : « زمِّلونى زمِّلونى » ، فزملوه حتى ذهب عنه الروْع ، فقال لخديجة – وأخبرها الخبر – « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ، ما يخزيك الله أبدًا : إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتُكسِبُ الْمُعْدِم ، وتَقْرِى الضيفَ ، وتُعِينَ على نوائب الحق » ..

كانت السيدة خديجة – رضوان الله عليها – تعرف رسول الله ﷺ حق المعرفة ، كانت تعرفه عن سماع ، وكانت تعرفه عن معاشرة .. وحينما قال لها : « لقد خشيتُ على نفسى » – أقسمت مباشرة – دون تردد ، ودون إبطاء – على أن الله لا يخزيه أبدًا . ثم عللت ذلك بمجموعة من الصفات ، تتبلور كلها فى صفةٍ واحدة ، هى الرحمة ..لقد أدركت السيدة خديجة ببصيرتها الصافية ، أن من القوانين الإلهية : أن رحمة الله قريب من الرحماء ، وأنه سبحانه لا يخزى الرحيم .

ولقد وصفت رسولَ الله ﷺ بالصورة التى انفرد بها فى حياته « الرحمة » .

وبدأت السيدة خديجة – رضوان الله عليها – بقولها .

« إنك لتصلُ الرَّحم » .

والرحم – فى الجو الإسلامى – يبتدئ بالأب والأم ، وللأب والأم مكانتهما فى الإسلام .

ولقد ذكرهما الله سبحانه وتعالى فى القرآن كثيرًا فى أعقاب ذكره للعقيدة الأساسية فى القرآن ، وهى عقيدة التوحيد ، مباشرة .

ومن ذلك ما يقوله سبحانه فى سورة الإسراء :

﴿وقضى ربكَ ألا تعبدوا إلا إياهُ وبالوالدينِ إحسانًا إمَّا يَبْلُغَنَّ عندك الكبرَ أحدهما أو كِلاهُمَا فلا تقل لهما أفٍّ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُل لهمَا قولاً كريمًا ، واخفض لهما جناح الذُّل من الرحمة وقُلْ رب ارْحَمْهُمَا كما ربَّيَانى صغيرًا﴾[1] .

ويقارن الله سبحانه وتعالى فى معاملة الوالدين ، وفى الصلاح والتقوى ، بين طائفتين :

(١) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

أما إحداهما : فيتقبل منهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

ويقول سبحانه فى هؤلاء :

﴿وَوَصَّيْنَا الإنسان بوالدَيْه إحساناً حَمَلَتْهُ أُمُّه كُرْهًا ، ووضعته كُرهًا ، وحمْله وفصالُه ثلاثون شهرًا ، حتى إذا بلغ أَشُدَّه وَبَلَغَ أربعين سنة قال ربّ أَوْزِعْنى أن أشكرَ نعمتَكَ التى أنعمتَ علىّ وَعَلى والدىَّ وأن أعملَ صالحًا ترضاه وأَصْلِحْ لى فى ذُرِّيَّتى إنى تُبْت إليكَ وإنى من المسلمين . أولئك الذين نَتَقَبَّل عنهم أحسنَ ما عمِلُوا ونتجاوز عن سيئاتهِم فى أصحاب الجنة وَعْدَ الصدقِ الذى كانوا يوعدون﴾[1] .

وأما الطائفة الثانية : فإن الله سبحانه وتعالى يصفها بالخسران .. إنها الطائفة التى عقّت والديها .

يقول سبحانه :

﴿والذى قال لوالِدَيْهِ أف لكما أَتعدانِنى أن أُخْرَجَ وقد خلَت القرون من قبلى وهما يَسْتَغيثانِ الله ويلك آمِنْ ، إنَّ وعدَالله حق ، فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ، أولئك الذين حَقَّ عليهم القَوْلُ فى أممٍ قد خَلَتْ من قبلهم من الجنّ والإنسِ إنهم كانوا خاسرين﴾[2] .

وأما أحاديث رسول الله ﷺ ، بالنسبة لصلة الرحم ، فإنها كثيرة .

منها الحديث المشهور عن أبى هريرة رضى الله عنه – فيما رواه البخارى عن النبى ﷺ – قال :

« إن الله خلَق الخلقَ ، حتى إذا فرَغَ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بِكَ من القطيعة . قال : نعم ، أما تَرْضَيْنَ أن أَصِلَ مَن وَصَلَكِ ، وأقطعَ من قطعك ؟ !

قالت : بلى ، يا رب ..

قال : فهو لك ...

قال رسول الله ﷺ : فاقرأوا إن شئتم :

﴿فَهلَ عَسَيْتم إنْ توَلَّيتم أن تُفْسِدوا فى الأرضِ وتُقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لَعَنَهُم الله فأَصَمَّهمْ وأعْمى أبصارَهم﴾[3] .

---

(١) الأحقاف : ١٥ ، ١٦ .
(٢) الأحقاف : ١٧ ، ١٨ .
(٣) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

وتقول السيدة خديجة رضوان الله عليها :

« وتحمل الكَلَّ » ..

والكلُّ : هو الذى لا يستقِل بأمره ؛ لأنه فى حاجة إلى من يأخذ بيده ؛ إلى من يحمله .

وكان رسول الله ﷺ ، يحمل الكلَّ . وكان ﷺ ، « يكسب المعدم » .

والمعدم : هو الذى لا تصرّفَ له ولا كسب .

وكان رسول الله ﷺ يفيده ويعاونه .

وتقول السيدة خديجة :

« وتقْرِى الضيف » .

وكان رسول الله ﷺ كريمًا ، وكان جوادًا ..

ويصفه ابن عباس فى كرمه ، فيقول :

« كان أجودَ الناس ، وكان أجودَ ما يكون فى رمضانَ ، حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلةٍ من رمضان فيدارسُه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرْسلِة » .

وتقول السيدة خديجة :

« وتُعين على نوائب الحق » .

ولقد كان رسول الله ﷺ ، يسارع بتقديم المعونة لكل من نابته نائبة ، وقد يكون تقديم المعونة بالمال ، وقد يكون بالرأى ، وقد يكون بالمواساة : وبالكلمة الطيبة ، وبالتشجيع ، وبغرس التفاؤل فى نفس المصاب ..

ويقول الإمام ابن حجر عن هذه الكلمة :

« وقولها : « وتعين على نوائب الحق » هى كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولِما لَمْ يتقدم » .

وذلك فهم عميق لهذه الكلمة الجامعة .

وكان استنتاج السيدة خديجة – رضوان الله عليها – أن الله سبحانه وتعالى من أجل هذه الصفات الرحيمة ، أو من أجل هذه الرحمة الشاملة ، لا يخزيه ﷺ ولن يخزِيه .

وكان هذا أول قانون أعلنته السيدة خديجة – رضوان الله عليها – فى الجو الإسلامى :

« إن من كان رحيمًا لا يخزيه الله فى الدنيا والآخرة » .

وهو قانون عام شامل فى الجو الإسلامى ، ليس خاصا برسول الله ﷺ ، ومن أحب أن لا يخزيه الله فى الدنيا والآخرة ، فليلتزم الرحمة . يقول ﷺ :

« ارحَمُوا تُرْحَمُوا ، واغفِروا يُغْفَر لكم »[1] .

ويبين الله سبحانه مدى ما بلغت إليه رحمة الرسول ﷺ فيقول :

﴿لقد جَاءَكم رسولٌ من أنْفُسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم﴾[2] .

ويسجل القرآن الكريم ، حرص الرسول ﷺ ، على هداية قومه ، وخوفه عليهم من الهلاك ، إلى درجة كادت تودى بحياته ، فيقول :

﴿لَعلَّكَ باخعٌ نَفْسكَ ألا يكونُوا مؤمنين﴾[3] ،

ويقول :

﴿فلعلكَ باخعٌ نَفْسكَ على آثارهم إن لم يؤمِنوا بهذا الحديث أسفًا﴾[4] .

ويصف الله سبحانه رسوله ، ويصف رسالته ، فيقول :

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[5] .

يقوم الإمام الرازى :

« إنه – ﷺ – كان رحمة فى الدين وفى الدنيا .

أما فى الدين : فلأنه بعث والناس فى جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم ، لطول مكثهم ، وانقطاع تواترهم ، ووقوع الاختلاف فى كتبهم ، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ ، حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق ، وبيَّنَ لهم سبيلَ الثواب ، وشرع لهم الأحكام ، وميز الحلال من الحرام . ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلبَ الحق ، فلا يركن إلى التقليد ، ولا إلى العِناد والاستكبار ، وكان التوفيق قرينًا له ، قال الله تعالى :

﴿قل هوَ للذين آمنوا هدى وشفاءٌ ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمًى﴾[6] .

---

(١) رواه البخارى فى الأدب وأحمد فى مسنده والبيهقى فى شعب الإيمان .
(٢) التوبة : ١٢٨ .
(٣) الشعراء : ٣ .
(٤) الكهف : ٦ .
(٥) الأنبياء : ١٠٧ .
(٦) فصلت : ٤٤ .

وأما فى الدنيا ، فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ، ونصروا ببركة دينه » .

وروى الإمام مسلم ، بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال :

قيل : يا رسول ، ادْع على المشركين .

قال : إنى لم أُبعثْ لعَّانًا ، وإنما بُعِثت رحمةً .

وروى الحاكم بسنده عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال :

« إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاةٌ » .

وروى البخارى فى تاريخه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إنما بُعثْت رحمةً ولم أُبعثْ عذابًا » .

صلوات الله عليك يا سيدىَ يا رسول الله .

يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم

لقد تحدثنا بتوفيق الله تعالى عن الحكمة فى إرسال خاتم النبيين ممثلة فى قوله تعالى :

﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ .

والآن نبدأ رسمًا مجملاً لصورة الأمة الإسلامية ، كما أحبها الله ورسوله .

ما هى الصورة التى أحبها الله ورسوله للأمة الإسلامية ؟

إنها الصورة الواقعية لتعاليم الرسول ﷺ .

ما هو الموضوع – فى إجمال مجمل – الذى دارت حول تحقيقه جهود الرسول ﷺ ؟

إن الله سبحانه وتعالى ، أجمله فى عدة آيات من القرآن الكريم . منها قوله تعالى :

﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنينَ إذ بعثَ فيهم رسولاً مِن أنفسِهِم يَتْلو عليهم آياتِهِ ويزكيهِمْ ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبْل لَفى ضلالٍ مبين﴾[1] .

﴿هو الذى بَعثَ فى الأُمّيّين رسولاً منهم يَتْلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين﴾[2] .

---

(١) آل عمران آية : ١٦٤ .

(٢) الجمعة : ٢ .

﴿الر ، كتابٌ أنزلناه إليكَ لتخرجَ الناس من الظلماتِ إلى النورِ بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾[1] .

وإذا أردنا – برعاية الله – أن نلخص صورة الأمة الإسلامية فى تعاليم الله سبحانه ، وفى تعاليم رسول الله ﷺ ، فإننا نقول :

إنها الأمة العالمة ، والتى تزكت بالمبادئ الإلهية ، وجهد رسول الله ﷺ ، إنما كان لإخراج هذه الأمة مِن الظلمات إلى النور : من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات السفه إلى نور الهداية .

لأنه ﷺ « يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

ونبدأ فى شرح ذلك ، بما بدأ الله سبحانه وتعالى به فى أول آية نزلت فى دستور الأمة الإسلامية . أعنى القرآن الكريم .

إن أول كلمة وردت فى الوحى الإسلامى ، هى : اقرأ .

والآيات الأولى التى نزلت فى الليلة المباركة هى :

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسانَ من علقٍ . اقرأ وربُّك الأكرم . الذى عَلَّمَ بالقلم علَّمَ الإنسان ما لم يعلم﴾[2] .

إن هذه الآيات الأولى ، تذكر الأمر بالقراءة مرتين ، وتذكر مادة العلم ثلاث مرات ، وتذكر القلم باعتباره إحدى وسائل العلم .

وحينما فسر المرحوم الشيخ محمد عبده هذه الآيات ، عقّب عليها قائلا :

« لا يوجد بيان أبرع ، ولا دليل أقطع ، على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائِه الوحىَ بهذه الآيات الباهرات » ا هـ .

لقد افتتح الله الوحى فى الدين الإسلامى ، بهذه الآيات المعجزة الخالدة ، التى تذكر القراءة والكتابة والقلم ، والتى ترددت فيها مادة العلم أكثر من مرة .

وبعد أن نزلت هذه الآيات الكريمة نزل قوله تعالى :

﴿ن والْقلمِ ومَا يسْطرون﴾[3] .

---

(١) إبراهيم : ١ .
(٢) العلق : ١ – ٥ .
(٣) القلم : ١ .

وفى هذه المرة الثانية من الوحى ، بدأ الله سبحانه بحرف من حروف الهجاء ، وأقسم بالقلم. والكتابة ، فكان أول قسم فى هذا القرآن ؛ هو القسم بالقلم وبما يسطر بالقلم .

أما اسم الكتاب الموحى به ، فإنه القرآن .

يقول الراغب الأصفهانى :

« قال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله ، لا لكونه جامعًا لثمرة كتبه ، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم ، كما أشار تعالى إليه بقوله :

﴿وتفصيلَ كل شيء﴾[1] .

وقوله :

﴿تِبْيانًا لكل شيء﴾[2] اهـ .

والقرآن – بتسميته ، وبأوّل آيات نزلت منه ، وبأول قسم فيه – يوجه الإنسان – بطريق مباشر ، وبطريق إيحائى – إلى الاتجاه نحو المعرفة : قراءةً وكتابةً وعلمًا .

ما هى منزلة العلم فى الإسلام ؟

إن الله سبحانه يقول :

﴿إنما يخْشَى اللّهَ من عبادِهِ العلماء﴾[3] .

وخشية الله التى هى ثمرة العلم ، أساسٌ من أهم أسس إسلام الوجه لله .

ومن هنا كانت ضرورة العلم فى الإسلام . إنه ضرورة وليس ترفًا : فهو من أسس الإسلام نفسه .

ومن أجل ذلك ، كان من مقومات شخصية المسلم : العلم .. العلم بالله .. العلم بالكون ، وبالإنسان ، وبالنفس ، وبكل ما تتسع له الكلمة من معنى كريم .

ولقد أورد الإمام البخارى فى صحيحه كتابًا سماه كتاب العلم : قسمه إلى أبواب منها :

« باب : العلم قبل القول والعمل » .

لقول الله تعالى : ﴿فاعْلَمْ أنه لا إله إلا الله﴾[4] .. فبدأ بالعلم .. وأن العلماء هم ورثة

---

(١) يوسف : ١١١ .

(٢) النحل : ٨٩ .

(٣) فاطر : ٢٨ .

(٤) محمد : ١٩ .

الأنبياءِ ، ويرثون العلم .. من أخذَه أخذَ بحظٍّ وافرٍ ، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا ، سهل الله له طريقًا إلى الجنة .. وقال جل ذكره : ﴿إنما يخشى اللّهَ من عباده العلماء﴾[1] .. وقال : ﴿وما يعقِلها إلا العالمونَ﴾[2] .. ويقول : ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنَّا فى أصحاب السعير﴾[3] .. وقال : ﴿هَلْ يستوى الذين يعلمونَ والذين لا يعْلمونَ ؟﴾[4] .

وقال النبى – ﷺ – : « من يردِ الله به خيرًا يُفقهه » . « وإنما العلم بالتَّعلُّم » .

وقال أبو ذر : لو وضعتم الصَّمصَامة على هذه – وأشار إلى قفاه – ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى – ﷺ – قبل أن تجيزوا علىَّ لأنفذتها ..

وقال ابن عباس : كونوا ربانيين : حلماءَ فقهاءَ .

ويقال : الربانى الذى يربِّى الناسَ بصِغار العلم قبل كباره » ..

(خ)

عن عبد الله بن مسعود قال : قال النبى – ﷺ – :

« لا حسدَ إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلَّط على هلكته فى الحق ، ورجلٍ آتاه الله الحكمةَ فهو يقضى بها ويعلِّمها » .

(خ)

والآن نتساءل : إلام تؤدى خشية الله التى هى ثمرة العلم ؟

إلامَ ينتهى العلماء الصادقون المؤمنون ؟

يقول الله تعالى :

﴿شَهدَ الله أنه لا إله إلا هوَ والملائكة وَأولوا العِلم قائمًا بالقسطِ لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[5] .

---

(١) فاطر : ٢٨ .
(٢) العنكبوت : ٤٣ .
(٣) الملك : ١٠ .
(٤) الزمر : ٩ .
(٥) آل عمران : ١٨ .

إنهم يصلون عن طريق العلم الذى يثمر الخشية إلى التوحيد : التوحيد الذى هو سمة الدين الإسلامى – كما يرى البيرونى – والذى هو – فى حقيقة الأمر – سمة التدين الصادق .

ويشهد العلماء التوحيدَ مع اللّهِ سبحانه ، ومع الملائكة الأطهار .

إن الله سبحانه ، قرن العلماء به ، وبملائكته ، فى شهادة التوحيد .

وهذا أسمى ما يمكن أن يصل إليه تكريم العلماء من مكانة .

وشهادة التوحيد التى هى قمة الركن الأول للإسلام ؛ وهو : أشهد أن لا إله إلا اللّهُ ، وأشهد أن محمدًا رسولُ الله .. لا يشهدها إلا العلماء المؤمنون .

إن شهادة التوحيد هذه ، قد وجه الله الأنظار إليها بأساليب شتى .

ومن هذه الأساليب ، مالا يقدره – فى وقته وروعته الرائعة – إلا العلماء .

﴿ قُلِ الحمدُ للّهِ وسلامٌ على عباده الذين اصْطَفَى ، ءَآللّهُ خير أم مَا يشركون ؟ ﴾ . « النمل ٥٩ » .

﴿ أَمَّنْ خلقَ السموات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بهجةٍ ما كان لكَمْ أن تُنْبتُوا شَجَرَها ، أإله معَ الله ؟ بل هم قوم يعدلون ﴾ .

﴿ أَمَّن جعل الأرضَ قرارًا وجعلَ خلالها أنهارًا وجعل لها رَوَاسى وجعل بين البَحْرَيْنِ حاجزاً . أإله مع الله ؟ .. بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

﴿ أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشِفُ السوءَ ويجعلكُم خلفاء الأرض أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكَّرون ﴾ .

﴿ أمَّن يهديكم فى ظلماتِ البر والبحرِ ومَن يرسلُ الرياحَ بُشْرًا بين يَدَىْ رحمتِهِ أإله مَعَ الله . تعالى الله عما يشركون ﴾ . « النمل ٦٣ » .

﴿ أمَّن يَبْدَؤُ الخلقَ ثم يُعِيده ومن يرزقكم من السماءِ والأرض ، أإله مع الله ، قُل هاتوا برْهانكم إنْ كنتم صادقين ﴾[1] .

ثم يعقب الله سبحانه على هذه الآيات ، بأنه مهما بلغ العلماء بعلمهم ، فإن المجهول كثير ، وإنه لا يعلم هذا المجهول المغيب إلا الله سبحانه . والتعقيب الكريم معناه : أن العلم

---

(١) النمل : ٥٩ – ٦٤ .

لا ينتهى إلى غاية ، وأن كشف المجهول رسالة لا تنتهى ، ما دامت السماوات والأرض ، فيقول سبحانه :

﴿قُل لا يَعْلَم مَن فى السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلا الله وما يَشعرون أيَّانَ يبْعثونَ﴾[1] .

ومن أجل شهادة التوحيد ، أو من أجل وصول الإنسانية إلى أقصى ما ينْتَهى إليه بالنسبة للإنسانية – كل بحسب استطاعته – فى معارج القدس – حث الإسلام على العلم ، موجه إليه ، وجعله من أسس الدين نفسه .

لقد حثَّ عليه فى صور بلغت من الروعة حدًا لا يجارى .

والآيات والأحاديث التى وجهت الأمة الإسلامية إلى العلم ، كثيرة مستفيضة .

وإذا كان العلماء يشهدون التوحيد مع الله ومع الملائكة ، فإن منزلتهم بالمكان السامى ، ودرجاتهم سامية فى الرفعة والعلو .

﴿يرفَعِ الله الذين آمنوا مِنكم والَّذين أوتوا العلمَ درجاتٍ﴾[2] .

ولهذه الجوانب من فضل العلم والعلماء ، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله – وهو قدوة المسلمين وأسوتهم أن يقول :

﴿رَبِّ زِدْنى عِلمًا﴾[3] .

رب زدنى علمًا فى كل يوم ، بل فى كل لحظة .

ذلك ما يجب أن يكون شعار المسلم ..

وإذا ما ازداد المسلم علمه ازداد خشية .. وإذا ما ازداد خشية تحقق فيه إسلام الوجه لله على صورة أكمل ..

ومن الملاحظات التى يجب أن تكون دائمًا فى الذاكرة : أن الكلمة الأولى التى نزل بها الوحى على المصطفى ﷺ ، مبشرة بعهد من النور جديد ، هى كلمة : اقْرَأْ .

ورضيت لكم الإسلام دينًا

ونعود فنتساءل من جديد : ما هو مفهوم الإسلام ؟

---

(١) النمل : ٦٥ .
(٢) المجادلة : ١١ .
(٣) طه : ١١٤ .

. وقد تحدثنا عن جانب من ذلك فيما مضى ، ونستمر فى الحديث عن ذلك الآن من زوايا أخرى ، منطلقين فى ذلك عن القاعدة التى تشير إلى أن صدق الرسالة دليل على صدق الرسول :

إن الله سبحانه وتعالى ، بين لنا – أمة الإسلام – أنه سبحانه وتعالى ، رضى لنا الإسلام دينًا . ولكنه سبحانه وتعالى ، بيَّن أيضًا : أن الدين عنده ، إنما هو الإسلام .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿إن الدينَ عِنْدَ اللّهِ الإسلامُ﴾ . « آل عمران ١٩ »

إنه إذًا ، الدين الذى أخذ سمة العموم والشمول ..

ومن أجل ذلك ، فإن الكلمة نفسها « إسلام » لا تشير إلى شخص معين ، فليس مثلها مثل : البوذية : التى تشير إلى بوذا ، ولا الكنفوشيوسية التى تشير إلى كونفشيوس .

ولا تشير الكلمة إلى جنس كما تشير اليهودية .

ولا تشير إلى مكان ، ولا تشير إلى زمن ، إنها كلمة لا يحدها شخص ، ولا جنس ، ولا زمان ، ولا مكان .

إنها تضعنا – بمجرد سماعها وفهم معناها – مباشرة فى محيط الإطلاق والعموم والشمول .

أما معناها ، فقد بين القرآن الكريم الكثير من زواياه فى غير آية من آياته الكريمة ، وبين الرسول ﷺ كثيرًا من زواياه .. والمعنى الكامل لها هو القرآن الكريم كله ، وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة الورود عنه ، وعمله ﷺ .

إن رسول الله ﷺ قد طبق الإسلام فى مجتمع مثالى ، فأخرجه بذلك من نظريات ومبادئ إلى واقع محسوس .

ولعل القارئ الكريم يذكر أن أفلاطون قد أتيحت له الفرصة أن يطبق نظرياته التى رسمها فى جمهوريته ، لقد فوض إليه الأمر فى أن يحقق جمهوريته بحيث يخرج بها من خيال إلى واقع .. فأخفق إخفاقًا كاملاً ، وبعد سنوات أتيحت له الفرصة مرة أخرى فأخفق للمرة الثانية إخفاقًا تامًا ، وكان ذلك برهانًا كافيًا على أنه يسبح بجمهوريته فى عالم الخيال والوهم ..

أما رسول الله ﷺ فإنه خرج بالإسلام عن المبادئ المكتوبة إلى الواقع المنظور ، وكون بذلك وبتوفيق الله مجتمعًا إلهيًا يسير على النسق الذى أحبه الله سبحانه وتعالى :

لقد غير المجتمع وخرج به من جاهلية إلى إسلام ، ومن وثنية إلى توحيد ، وكان التغيير جذريا فى المجتمع وفى الأفراد ، فى السلوك والعقيدة والتشريع .

وانظر – إن شئت – إلى المجتمع الجاهلى فى صورته السابقة للإسلام ، ثم فى صورته الإسلامية .

واقرأ تاريخ هذه النخبة من الأفراد : أمثال عمر رضى الله عنه ، وخالد بن الوليد ، وغيرهما من صفوة المسلمين من الرعيل الأول .. اقرأ تاريخهم قبل الإسلام وبعده ، فسترى الفرق الواضح بين عهدين : عهد الجاهلية ، وعهد الإسلام .

ولقد بدأ الإسلام بقوة بعقيدة التوحيد : هذه العقيدة التى تعتبر الأساس الأول والأصيل فى الدين الإسلامى .

إن البيرونى – العالم المسلم الذى يقول عنه المستشرق ساخاو « إنه أكبر عقلية ظهرت على وجه التاريخ » قد أخذ يشرح فى دقة مستنيرة طابع كل دين ، فلما وصل إلى الإسلام ، قال :

إن طابعه يتركز فى كلمة واحدة هى : التوحيد .

يقول تعالى :

﴿قُلْ يا أهلَ الكتاب تعالوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا اللّهَ ولا نُشرِك به شيئًا ولا يتخذَ بعضنا بعضا أربابًا من دون الله . فإن توَلَّوْا فقولوا اشهَدوا بأَنَّا مسلمون﴾[1] .

– ٢ –

﴿ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ . « المائدة ٣ »

صدق الله العظيم

ونعود إلى هذه الكلمة القرآنية الكريمة لنرى بعض نتائجها .

من هذه النتائج قوله تعالى :

(١) آل عمران : ٦٤ .

﴿فَمَنْ يردِ الله أن يهْديه يشرَحْ صدرَه للإسلام ، ومَن يردْ أن يُضِلَّه يجعلْ صدرَه ضَيِّقًا حرَجًا كأنما يَصَّعَّد فى السماء كذلك يجعلُ الله الرجسَ على الذين لا يؤمنون﴾[1] .

ومنها قوله تعالى :

﴿أفَمَن شرحَ الله صدرَه للإسلام فَهوَ على نورٍ من رَبِّه﴾[2] .

ومنها قوله تعالى :

﴿يأيها الذين آمَنوا اتَّقوا اللّهَ حقّ تقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾[3] .

والكلمة القرآنية الكريمة التى اتخذناها عنوانًا ، هى تكملة لكتابة نورانية مباركة .

وقد وردت هذه الكلمات على النسق التالى :

﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممْت عليكم نِعْمتى ، ورضِيت لكم الإسلام دينًا﴾[4] .

عن على بن طلحة ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم » وهو الإسلام – أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين : أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا . وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا ، وقد رضيه الله فلا يسخط أبدًا .

أما عن عنوان كلمتنا هذه ، فإن الإمام الأكبر ابن كثير رضى الله عنه ، يقول فيه : ﴿ورضِيت لكم الإسلام دينًا﴾ . أى فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه ، وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه .

ولقد رويتْ فى هذه الكلماتِ المباركة روايات بأسانيد مختلفة عن كثير من الصحابة : رَوَى بعضَها الإمام البخارى والإمام مسلم . وَرَوَى بعضَها غيرهما .

نذكر منها روايتان ، أما أولاهما : فعن طارق بن شهاب قال :

« جاء رجل من اليهود إلى عمرَ بنِ الخطاب ، فقال :

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .
(٢) الزمر : ٢٢ .
(٣) آل عمران : ١٠٢ .
(٤) المائدة : ٣ .

يا أميرَ المؤمنين ، إنكم تقْرَءون آية فى كتابكم لو علينا – معشرَ اليهود – نزَلت لاتخذنا ذلك اليومَ عيدًا .. قال : وأى آية ؟ .. قال :

قوله : ﴿اليومَ أكملت لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾ – فقال عمر :

(والله ، إنى لأعلم اليومَ الذى نَزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ : عشيةَ عرفة فى يوم جمعة)[1] .

وأما ثانيتهما ، فعن عمار – مولى بنى هاشم – أن ابن عباس – رضى الله عنهما – قرأ :

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نِعْمَتى ورضيتُ لكمُ الإسلامَ دينًا﴾ .

فقال يهودى : لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيدًا .

فقال ابن عباس : فإنها نَزَلت فى يوم عيدين اثنين : « يوم عيد (وعرفة عيد) ويوم جمعه »[2] .

وكما يعتبر نزول : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خَلَق﴾ : مفتتح الوحى ، وتعتبر عيدًا بالنسبة للمسلمين .. فإن نزول :

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام دينًا﴾ : آخر نزول الوحى ، وعيدًا بالنسبة للمسلمين .

وبعد : فقد روى البغوى – بسنده – عن جابر بن عبد الله قال :

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : قال جبريل : قال الله عز وجل :

(هذا دينٌ ارتضيته لنفسى[3] ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما صحبتموه) .

– ٣ –

ورضيت لكم الإسلام دينا

إن طابع الإسلام الأصيل إنما هو التوحيد كما قلنا .. التوحيد فى العقيدة ، والتوحيد فى العبادة ، والتوحيد فى الأخلاق .

---

(١) رواه أحمد والشيخان بنحوه والترمذى والنسائى .

(٢) رواه ابن جرير .

(٣) أى لا أقبل غيره كما قال تعالى : ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه .

والتوحيد فى العقيدة ، تعبر عنه كلمة الصدق والإخلاص : أشهد أن لا إله إلا الله .

وعقيدة التوحيد كانت أساسَ الرسالة الإسلامية فى مكة ، واستمرت كذلك فى المدينة :

يروى الإمام أحمد ، عن ربيعة بن عباد – وكان جاهليًا أسلم – قال : « رأيتُ رسولَ الله ﷺ ، بَصَرَ عَيْنى ، بسوق ذى المجاز ، يقول :

« يا أيها الناس ، قولوا « لا إله إلا الله » تُفْلِحُوا » ، ويدخل فجاجها والناس متقصفون عليه – أى مجتمعون حوله – فما رأيت أحدًا يقول شيئًا ، وهو لا يسكت ، يقول :

(يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تُفْلِحُوا) .

وفى ذلك يقول ﷺ :

« جَدِّدوا إيمانكم ، قيل : يا رسول الله ، وكيف نجدد إيماننا ؟ .

قال : أكثروا من قول : « لا إله إلا الله »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(ما قال عبد قط لا إله إلا الله مخلصًا ، إلا فُتِحت له أبوابُ السماء حتى يُفْضىَ إلى العرش ، ما اجتُنِبَتِ الكبائرُ)[2] .

وعن جابر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

(أفضلُ الذكر : لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله)[3] .

وإن من الكلمات التى تعبر عن التوحيد قولَ المؤمنين :

(لا إله إلا اللّهُ وحده لا شريك له : له الملكُ وله الحمدُ ، وهو على كل شىء قدير) .

ولأن هذه الكلمةَ تعبر عن التوحيد الخالص وكان ثوابها عند الله عظيمًا وكانت مكانتها سامية ..

أما عن مكانتها ، فعن يعقوب بن عاصم رضى الله عنه ، عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، أنهما سمعا رسول الله ﷺ ، يقول :

---

(١) رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد : حسن .

(٢) رواه النسائى .

(٣) رواه ابن ماجة والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم .

(ما قال عبدٌ قط : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، مخلصًا بها رُوحه ، مصدقًا بها قلْبُهُ ، ناطقا بها لسانُه ، إلا فَتَقَ الله عز وجل له السماء فتقًا ، حتى ينظرَ إلى قائلها من الأرض ، وحق لعبد نظر الله إليه أن يُعْطِيه سُؤْلَه) .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

(خير الدعاء دعاءُ يومِ عرفة ، وخير ما قلتُ أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له : له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير)[1] .

وأما عن ثوابها ، فقد أخرج الإمامان البخارى ومسلم - رضى الله عنهما - من حديث أبى هريرة - نضَّرَ الله وجهه - أن رسول الله ﷺ ، قال :

(من قال لا إله إلا اللّهُ وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، مائة مرة ، كانت له عِدْلَ عشرِ رقاب ، وكُتِبَت له مائةُ حسنة ، ومحِيَتْ عنه مائةُ سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك ، حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك) .

ومن الكلمات التى تعبر عن التوحيد تعبيرًا قويًا :

« لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله » .

وهى كنز من كنوز الجنة : فعن أبى موسى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال له :

(قل : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة)[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ :

« أكثِرْ من قول : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلىِّ العظيم ، فإنها من كنز الجنة »[3] .

وروى الحاكم - وقال صحيح لا علة له - أن رسول الله ﷺ ، قال لأبى هريرة :

« ألا أعْلِمكَ .. أو : ألا أدلك - على كلمة من تحت العرش ، من كنز الجنة ؟ .. تقول : لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، فيقول الله : أسْلَمَ عبدى واستسلم » .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حسن غريب .
(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٣) رواه النسائى والبزار مطولا . ورواته ثقات محتج بهم .

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، ليلة أسرِىَ به ، مرَّ على سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فقال : مَن معك يا جبرائيل ؟ قال : هذا محمد - فقال له إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

« يا محمد ، مُرْ أمَّتَكَ فليكثروا من غِراس الجنة ، فإن تربَتَها طيبةً ، وأرضَها واسعة ، قال : وما غِراس الجنة ؟ .. قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

كل ذلك لأن هذه الأذكار تعبر عن التوحيد الخالص ..

❑❑❑

﴿لكـــن الله يشهد بما أنزل
إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الخامس عن :

البيعة

وصلة البيعة بمفهوم الرسالة واضح كل الوضوح : إن البيعة تحمل الرسالة وهذا الفصل إذن شديد الارتباط بما قبله . إنه شرح لمفهوم الرسالة فى صورة ثانية ، ونحن به نشرح مفهوم الرسالة مرة أخرى .

روى الإمام البخارى – رضى الله عنه – من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه – وكان عبادة قد شهد بدرًا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة – أن رسول الله ﷺ قال – وحوله جماعة من أصحابه .

بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تَزْنوا ولا تقتلوا أولادَكم ولا تأْتُوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف ، فَمَن وَفَى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فى الدنيا فهو كفارةٌ له ، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله ؛ فهو إلى الله : إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ؛ فبايعناه على ذلك ..

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس – وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلَّت معه إلى القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجارى – قالت :

جئتُ رسولَ الله ﷺ نبايعه فى نسوةٍ من الأنصار فلما شَرَط علينا أن لا نشركَ بالله شيئًا ولا نسرقَ ولا نزنَى ولا نقتلَ أولادنا ولا نأْتَى ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نَعْصِيَهُ فى معروف ، قال : « ولا تَغْشُشْنَ أزواجكن » .. قالت : فبايعناه ثم انصرفنا ؛ فقلت لا مرأة منهن : ارجعى فسلى رسول الله ﷺ ما غش أزواجنا ؟ فسألته فقال : تأْخذ ماله فتحابى به غيره .

ولقد وردت بيعة النساء فى القرآن الكريم ؛ يقول تعالى :

﴿يأيها النبىُّ إذا جاءك المؤمناتُ يبايِعْنَكَ على أن لا يُشركن بالله شيئًا ولا يَسرقْن ولا يزنينَ ولا يَقْتُلْن أولادَهن ولا يأتينَ ببهْتانٍ يَفْترينه بين أيديهن وأرجلِهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهنَّ واستغفرْ لهن الله إن الله غفور رحيم﴾[1] .

---

(١) الممتحنة ١٢ .

وروى البخارى بسنده عن جوير بن عبد الله قال : أتيت النبى ﷺ فقلت أبايعك على الإسلام .. فشرط علىّ ، والنصح لكل مسلم .. فبايعته على هذا .

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى :

﴿قل تَعَالوْا أتْلُ ما حَرَّمَ ربكم عليكم ألا تَشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتُلُوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيَّاهم ولا تقرَبوا الفواحش ما ظهر منها وما بَطنَ ولا تقتلوا النفس التى حرَّمَ الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقْرَبوا مالَ اليتيم إلا بالتى هى أحسنُ حتى يبلغ أشُدَّهُ وأوفوا الكيل والميزانَ بالقسطِ لا نُكَلِّفُ نفسًا إلا وُسْعَها وإذا قلتم فاعدِلُوا ولو كان ذا قُرْبَى وبعْهدِ الله أوْفُوا ذلكم وصَّاكم به لعلكم تذكَّرون ، وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتَّبعوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون﴾[1] .

وإذا أردنا إجمالا للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم فهو قوله تعالى :

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكرِ والبَغْىِ يَعظكُم لعلكم تَذَكَّرُون﴾[2] .

وهذه الآية الكريمة ألَّف فيها الإمام العز بن عبد السلام – كما يقول صاحب كتاب النصيحة العلوية – كتابًا بيَّن فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية ، وبين ذلك فى سائر الأبواب الفقهية ، وسمى ذلك كتاب الشجرة .

ويقول تعالى :

﴿ليس البر أنْ تُوَلُّوا وجوهكم قِبَلَ المشرقِ والمغرب ، ولَكنَّ البِرّ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر ، والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ ؛ وآتىَ المالَ على حُبِّه ذَوِى الْقُربىَ واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأَقَامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ، والموفون بعهدهم إذا عَاهَدُوا ، والصابرينَ فى البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأس ، أولئك الذين صَدَقُوا وأولئك هم المتَّقون﴾[3] .

ويقول سبحانه :

﴿قد أفْلَحَ المؤمنون . الذين هم فى صَلاَتهم خاشِعُون ، والذين هُم عن الَّلغْو معرضون ،

---

(١) الأنعام ١٥١ – ١٥٢ .
(٢) النحل ٩٠ .
(٣) البقرة ١٧٧ .

والذين هم للزَّكاة فاعلون . والذين هم لفرُوجِهمْ حافظون ، إلاَّ عَلَى أزواجهم أو ما مَلَكت أيمانُهُمْ فإنهم غَيرُ مَلُومين ، فمن ابتغى وَرَاء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأمَانَاتِهِمْ وعَهْدَهِم راعون ، والذين هم على صلواتهم يُحافِظون ، أولئك هُمُ الوارثون . الذين يَرِثُونَ الفرْدوسَ هُمْ فيها خالدون﴾[1] .

والقصص التالية ، تلقى بعض الضوء على مفهوم الرسالة الإسلامية :

* لما ظهر النبى ﷺ بمكة ؛ ودعا إلى الإسلام ، بعث أكثم بن صيفى ابنه ، حبيشان فأتاه بخبره ؛ فجمع بنى تميم وقال لهم – فيما قال – :

إن ابني شافَهَ هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره ، وكتابه : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد حلف – عرف – ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى تَرْكُ ما ينهى عنه .

ثم يقول هذه الكلمات الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد ؛ لو لم يكن دينًا لكان فى أخلاق الناس حسنًا » .

وسبيل الله كما رآه أكثم ، هو توحيد الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ والأخذ بمحاسن الأخلاق .

وكلمة : الأخذ بمحاسن الأخلاق ، كلمة جميلة : جمعت فاستغرقت ، وشملت فعمَّت .

أما كلمته الرائعة حقًّا ، السامية حقًّا ، العجيبة فى صدقها وإيجازها وفصاحتها فهى قوله :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن دينًا لكان فى أخلاق الناس حسنًا »

ولما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة ، شرح جعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، للنجاشى مفهوم الرسالة الإسلامية قائلاً .

أيها الملك ؛ كنا قومًا أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل المَيْتَة ، ونأتى الفواحش ؛ ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ؛ ويأكل القوىُّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث

(1) المؤمنون ١ – ١١ .

الله إلينا رسولا منا : نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحِّدَه ونعبده ؛ ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ..

أمرَنَا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده : لا نشرك به شيئًا ؛ وأمر بالصلاة والصيام .. وعدَّد له أمور الإسلام .. ثم قال : فصدَّقْناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده ؛ ولم نشرك به شيئًا ؛ وحرَّمنا ما حَرَّم علينا وأحَلْلنا ما أحلّ لنا .. فعدا علينا قومنا : فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليرُدونا إلى عبادة الأوثان ، من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحلُّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك .

ولَّما قَرَأ عليه صدرًا من سورة مريم ، بكى النجاشى ، ثم قال :

إن هذا والذى جاء به عيسى ، لَيخرُجُ من مشكاةٍ واحدة .. لقد قرر النجاشى فور سماعه المبادئ الإسلامية :

إن هذه المبادئ حق ، وإنها آيات بينات : لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد – صلوات الله عليه وسلامه – إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام .

وسبيل الله كما صوره سيدنا جعفر : توحيد الله وعبادته وحده ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، وإقام الصلاة وأداء الزكاة والصيام ، والابتعاد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة .

أول عقد من عقود البيعة

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله :

وحينما يسمع الناس الحديث عن الإشراك بالله ، يتجه ذهنهم فى الأغلب الأعم منهم ، إلى نفى تعدد الآلهة .

إن الذهن يتجه : إلى أن هذه العقيدة التى كانت عند اليونان – فى عهودهم القديمة من تعدد الآلهة ، وعند العرب فى جاهليتهم من عبادة الأصنام – عقيدة باطلة .

لقد جعل اليونان إلها لكل ظاهرة من ظواهر الكون الكبرى ، وكذلك فعل قدماء المصريين فى عامتهم وشعبهم ، وكذلك فعل وثنيو العرب ..

بل إن الإنسانية – وقد بدأت بالتوحيد الخالص على لسان آدم عليه السلام – قد انحرفت سريعًا إلى التعدد . فأخذت الأنبياء والرسل تنزل تباعًا ، مبشرة بالتوحيد ، مجاهدةً فى سبيل منع التعدد ، وفى سبيل القضاء على الوثنية المنتشرة .

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيرًا ، كثرة تتناسب والانحراف المتوالى من الإنسانية منذ ظهورها ، لقد نزل الأنبياء جميعًا يبشرون بالتوحيد ، وكان كل نبى يدعو أمته إلى مثل ما دعا سيدنا محمد ﷺ – الإنسانية جمعاء .

﴿ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ﴾(1) .

وسورة يونس ، وسورة هود ، والكثير من سور القرآن – على وجه العموم – تتحدث عن دعوة الرسل قومهم إلى التوحيد .

يقول سبحانه :

﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾(2) .

ويقول سبحانه :

﴿وإلى عادٍ أخاهم هودًا قال يا قومِ اعبُدوا اللّهَ مالكمْ من إلهٍ غيرُهُ إنْ أنتم إلا مُفتَرُون﴾(3) .

ويقول سبحانه :

﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله مَالكم من إلهٍ غيره هو أنشأَكُمْ من الأرض واستعمَرَكُم فيهَا فاستغفرُوهُ ثم توبوا إليه إنَّ ربى قريبٌ مجيبٌ﴾(4) .

وهكذا ، نرى كل نبى يدعو إلى عدم الشرك بالله ، إنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدد الآلهة وإلى الوحدانية ، فإن هذا الاتجاه طبيعى ، وهو اتجاهٌ حق ..

وهذا النوع من الشرك هو الذى يقول الله سبحانه وتعالى عنه :

﴿إن الله لا يغفرُ أن يُشْرَكَ به ويغفرُ ما دون ذلكِ لمن يشاء﴾(5) .

---

(1) هود : 2 .
(2) هود : 25 – 26 .
(3) هود : 50 .
(4) هود : 61
(5) النساء : 116 .

وهو الذى ينفيه الله منطقيًّا بقوله :

﴿لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلا اللّهُ لَفَسَدتا ، فسبحان الله رب العرشِ عَمَّا يصفون﴾[1] .

وبقوله :

﴿ما اتخَذَ اللّهُ من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذَنْ لَذَهَبَ كل إلهٍ بما خلق وَلَعَلاَ بعضُهم على بعضٍ سبحان الله عما يَصِفون﴾[2] .

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدد فحسب ، كلا ، وهو – وإن كان من معانيه عدم التعدد – فإن دائرته تتسع فتشمل أمورًا أخرى .

يقول أبو سعيد الخراز :

« فِمنْ شَرْحِ ذلك : أن يكون العبد : يريد اللّهَ عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها : ظاهرها وباطنها ؛ لايريد بها إلا اللّهَ وحده ، قائمًا بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ؛ راعيًا لهمه ، قاصدًا إلى الله تعالى بجميع أمره » .

وهذا الذى يقوله الإمام أبو سعيد الخراز – رضى الله عنه – هو تصوير لبعض معانى التوحيد الخالص .

والتوحيد الخالص لا رياء فيه ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ألاَ للّهِ الدينُ الخالِصُ﴾[3] .

وإن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعنى – فيما تعنى من معانٍ – تجريد القصد لله تعالى فى كل عمل . وإلا فلا ثوابَ ولا قبولَ للعمل .

﴿فَمَنْ كان يرجو لِقاءَ ربه فَلْيَعْمَلْ عملاً صالحًا ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربه أحدًا﴾[4] .

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الإخلاص والصدق ، وتحدث عنها رسول الله ﷺ ، فيما لا يكاد يُحْصى من النصوص والأحاديث .

والتوحيد الخالص والشرك ، يبدآن بالنية .

يقول رسول الله ﷺ ، مبينًا أن قيمة الفعل فى الخير والثواب والقبول ، تتبع النية . « إنما

(١) الأنبياء : ٢٢ .
(٢) المؤمنون : ٩١ .
(٣) الزمر : ٣ .
(٤) الكهف : ١١٠ .

الأعمال بالنية ، وفى رواية بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوَى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكِحُهَا فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

فإذا صدقت النية استقام أمر المسلم فيما بعد . وإذا هفا الإنسان هفوة . فعليه أن يتدارك الأمر : بالتوبة وصدق النية من جديد ..

وصدق النية شرط من الشروط التى يترتب عليها قبول العمل .

عن الضحاك بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله تبارك وتعالى – يقول : أنا خيرُ شريكٍ ، فمن أشْرَكَ معى شريكًا فهو لشريكى ، يا أيها الناس ، أخْلصُوا أعمالكم ، فإن الله تبارك وتعالى ؛ لا يقبل من الأعمال إلا ما خَلُصَ له ، ولا تقولوا : هذه لله وللرحم ؛ فإنها للرحم وليس لله فيها شىء . ولا تقولوا : هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شىء »[2] .

وعن أبى أمامة قَال :

« جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيتَ رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ – فقال رسول الله ﷺ : لا شىء له ، فأعادها ثلاث مرات .. ويقول رسول الله ﷺ لا شىءَ له . ثم قال ﷺ : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتْغِىَ به وجْهُهُ »[3] .

والواقع أن الإسلام يعلق أهمية كبيرة على إخلاص النية لله سبحانه وتعالى ، فإن فى إخلاصها لله صدق السريرة ، وطهارة القلب . وفيها انتفاء التملق والزلفى ، وبها تنتفى الزلة وينتفى الزيف والرياء .

ومن أجل ذلك ؛ حَذَّر رسولُ الله ﷺ من الرياء تحذيرًا شديدًا ، وحث على الصدق والإخلاص فى صور شتى ..

ولقد قام رسول الله ﷺ ، وحيدًا فريدا : يدعو إلى التوحيد بكل معانيه ، ويعلن الحق فى وجه الباطل ، ويدعو إلى الله فى وسطٍ كله شرك ، ويدعو إلى تحطيم الأصنام فى بيئة تعبد الأصنام ، ودعوته ﷺ ورسالته إلى العالم أجمع ، إنما كان أساسها التوحيد . والإسلام

---

(١) رواه البخارى : ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .
(٢) رواه البزار باسناد لا بأس به والبيهقى .
(٣) رواه أبو داود والنسائى بسند جيد .

إنما هو دين التوحيد ، والتوحيد هو الإيمان الصادق اليقينى : بأن المهيمن على الكون والمتصرف فيه إنما هو الله سبحانه ؛ وأنه لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوا أى إنسان بشىء ، ما نفعوه إلا بشىء قد قدَّره الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروا أى إنسان بشىء ، ما ضَرُّوه إلا بشىءٍ قد قدَّره الله عليه .

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك لا محالة - فإنه لا يجتمع الإيمان الصادق والخوف من غير الله تعالى فى قلب المؤمن .

والتوحيد صراط الله ..

وأول عقد من عقود البيعة إنما هو عدم الإشراك بالله ، إنه التوحيد ،

ونحن لا نمل الحديث عن التوحيد حتى ولو اتسمنا من أجل ذلك بشىء من التكرار ، فإنه تكرار لتمكين الفكرة وتثبيتها .

يقول الله تعالى :

﴿وأنَّ هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه . ولا تتَّبعوا السُّبل فَتَفرَّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصَّاكُمْ به لعلكم تتقون﴾[1] .

وصراط الله : أساسه وجوهره ، إنما هو التوحيد .

إن التوحيد ، هو أساس صراط الله الذى لا يقيده زمان ولا يحدُّه مكان .

ومن أجل ذلك ، كان الأساس فى دعوة جميع الأنبياء والرسل :

يقول تعالى :

﴿وإلى عادٍ أخاهم هودًا قال يا قوم اعبُدوا الله مالكم من إلهٍ غيره﴾[2] .

ويقول سبحانه :

﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبُدوا الله مالَكُمْ من إلهٍ غيرُه﴾[3] .

ويعمم الله سبحانه وتعالى الحكمَ تعميمًا ، ويجعله شاملاً شمولاً مطلقًا ، فيقول :

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحِى إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلا أنَا فاعْبُدون﴾[4] .

---

(١) الأنعام : ١٥٣ .
(٢) هود : ٥٠ .
(٣) هود : ٦١ .
(٤) الأنبياء : ٢٥ .

وهكذا كان التوحيد : دعوة جميع الأنبياء والرسل .

والتوحيد الذى هو جوهر الرسالات ؛ إنما هو التوحيد الشامل العام .. أى توحيد الله سبحانه بالإلهية ، وتوحيده بالربوبية ، وتوحيده بالسيطرة والهيمنة على كل صغيرة وكبيرة :

﴿قل اللَّهُمَّ مالَك الملك ، تُؤْتِى الملكَ مَن تشاء ، وتنزعُ الملكَ مِمَّن تشاء ، وتُعِزُّ مَن تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير﴾[1] .

ولا يتأتى – والله مالك الملك – أن يسأل الإنسانُ غيرَ الله ، أو أن يستعينَ بغيره . وشعار المؤمنين ، الصادقين ؛ هو : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[2] .

إن شعارهم : « وإذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا شىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »[3] .

ويوضح هذا الإمام القشيرى فيقول : إن الله تعالى مُغْنٍ عبادَهُ بعضهم عن بعض . لأن الحوائج – على الحقيقة – لا تكون إلا إليه ، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا .. فكيف يملك ذلك لغيره ؟ ..

ولهذا قيل : « تعلُّقُ الخلق بالخلق ؛ تعلق المسجون بالمسجون » . وقيل : « من رفع حاجَتَهُ إلى الله تعالى ، ثم رجع عن حاجته إليه إلى غيره ؛ ابتلاه الله بالحاجة إلى الخلق ، ثم نزع رحمته من قلوبهم » ..

ومعنى التوحيد الحقيقى فى النهاية : أن يُلْقَى الإنسان بقياده – فى استسلام مطلق – إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يخلص له وجهه إخلاصًا لا رياء فيه .

ولقد سئِل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال :

« إنه الإخلاص » ..

ويقول سبحانه : ﴿ألا لله الدينُ الخالِص﴾[4] .

« فكل ما ليس خالصًا لوجه لا يثيب عليه ، ولا يتقبله » .

---

(١) آل عمران : ٢٦ .

(٢) الفاتحة : ٥ .

(٣) من حديث رواه الترمذى وقال فيه حسن صحيح ، وهو حديث أوصى فيه النبى ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس أوله « يا غلام أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك » .

(٤) الزمر : ٣ .

ولقد بيّن رسول الله ﷺ : أن الرياء – على اختلاف صوره – شركٌ يحبط العمل ..

يقول رسول الله ﷺ – فيما رواه الإمام أحمد –

« إن أخْوفَ ما أخافُ على أمَّتى : الشركُ الأصغر » قالوا وما الشركَ الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء » . يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : إذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاءون فى الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » ؟ .

والرياء مجموعة من الآثام : تنزل بالإنسان إلى مستوى من الأخلاق غير كريم .

ولقد حذَّرَ رسول الله ﷺ منه فى مختلف صوره .

من ذلك ما قاله ﷺ – فيما رواه البيهقى :

« مَن صَام يُرائى ، فقد أشرك ، ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تَصدَّق يرائى فقد أشرك » ..

وبعد :

فإن كل عمل لا يراد به وجهُ الله شرك يتنافى مع التوحيد : لا يتقبله ولا يثيب عليه .

والفيصل فى هذا ، هو ما حدَّث به رسول الله ﷺ ، فى الحديث الشريف الذى يُعتَبرُ مبدأ هامًا من مبادئ الإسلام .

روى البخارى – رضى الله عنه – بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إنما الأعمالُ بالنيات ، وإنما لكل امرىءٍ ما نَوَى ، فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومَنْ كانت هجرته لدُنْيَا يصيبها ، أو امرأة يَنكِحُها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

اهدنا الصراط المستقيم :

يقول تعالى فى سورة الفاتحة :

﴿اهدِنا الصراطَ المستقيم . صراطَ الذين أنعمتَ عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾[1] والصراط المستقيم ، هو صراط الله الذى رسمه سبحانه فى كتابه العزيز ، وعلى لسان نبيه الكريم .

لقد رسمه الله سبحانه منهجًا ووسيلةً ، ورسمه مبادئ وقواعد ، ورسمه غاياتٍ وأهدافًا .

(١) الفاتحة : ٦ . ٧ .

ونحن بهذه الآية الكريمة ، نتجه إلى الله سبحانه ، ندعوه أن يَهْدِيَنَا إلى صراطه المستقيم . وذلك أنه لا يهدى إليه إلا هو .

يقول سبحانه فى حديث قدسى : « يا عبادى كلكم ضالٌ إلا من هديته ، فاستهدونى أهْدِكُمْ »[1] .

إن الهداية من الله سبحانه ؛ وأن مَن يهدى الله فلا مُضِلّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادى له ، وإذا هدى الإنسان إلى الصراط المستقيم ؛ فقد فاز بالخير الذى أحبه الله للإنسان كاملا غير منقوص .

والصراط المستقيم : هو الإيمان الصادق .. الإيمان الاتباعى :

أى الإيمان الذى تتحكم فيه التعاليم الإلهية تحكمًا تامًا ، ويسير فى إطارها : راضيًا مستسلمًا مسلمًا :

﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يَجِدُوا فى أنفسهم حَرَجًا مما قضيت ويُسَلِّموا تسليمًا﴾[2] .

إن المؤمن ، لا يؤمن حتى يحكِّمَ رسول الله ﷺ فى أمور عقيدته ، وفى أمور أخلاقه ، وفى أمور تشريعه . وحتى يتقبل ذلك فى سكينة واطمئنان وغبطة .

ويصف الله سبحانه المؤمنين الصادقين فيقول : ﴿إنَّمَا المؤمنونَ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يَرْتَابُوا ، وجاهدوا بأموالِهْم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هُمْ الصادقون﴾[3] .

وهذا الوصف للمؤمنين ، يتناول وصف الأساس القلبى : إنه إيمان لا ريب فيه .. ويتناول الأثر والمظهر : إنه الجهاد فى سبيل من آمن به : جهاد النفس ، وجهاد المال : جهاد بجميع أقطار النفس ، وجهادٌ بكل ما تملك .

وهذه الآية الكريمة ، تعتبر مقياسًا صادقًا لكل من أراد أن يتبين حقيقة إيمانه .

والطريق المستقيم غايته ونهايته التى يؤدى إليها إنما هى الله سبحانه وتعالى ..

وقد حددها سبحانه بقوله : ﴿وأنَّ إلى ربِّك الْمُنْتهى﴾[4] . وليس دون الله منتهى للمؤمن :

---

(١) من حديث قدسى طويل أوله : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » .
(٢) النساء : ٦٥ .
(٣) الحجرات : ١٥
(٤) النجم : ٤٢ .

وغاية المؤمن – كل غايته – إنما هى الله سبحانه وتعالى ..

ويبتدئ السير إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح .

والتوبة الخالصة النصوح هى أول خطوة على الطريق المستقيم .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وتُوبُوا إلى الله جميعًا أيُّهَا المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[1] .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى : يا عبادى : « إنكم تُخْطِئُون بالليل والنهار ؛ وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم »[2] .

ورسول الله ﷺ يقول – فيما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه :– « والله ، إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

ويقول ﷺ ، فيما رواه الإمام مسلم عن الأغر بن يسار رضى الله عنه « يا أيها الناس : توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

والصراط المستقيم إذن : يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح . وليس له دون الله منتهى .

والله سبحانه وتعالى ، يصف المؤمنين – مبينًا خطواتهم فى الطريق إلى الله ، أو مبينًا الطريق نفسه فى تساميه وتدرجه – فيقول سبحانه فى وصفهم ﴿التَّائِبُون العابِدونَ الحَامدُون السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُون الآمِرون بالمعروفِ والنَّاهُون عن المنكر والحَافِظُونَ لِحُدودِ الله﴾ .

ثم يختتم الله سبحانه وتعالى ، هذا الوصف بقوله سبحانه : ﴿وَبَشِّر المؤمنين﴾[3] .

وبعد :

فإن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَبَشِّرِ المؤمنين﴾ .

لا يحدُّه حدود ، ولا يقيده قيود ، فالبشرى مطلقة :

إنها بُشرى الله لهم : بالنجاة ، وبالفوز فى الدنيا والآخرة .

إجمال فى معنى التوحيد
أو إياك نعبد وإياك نستعين

يقول الله تعالى فى سورة الفاتحة :

---

(١) النور : ٣١ .

(٢) من الحديث القدسى السابق الذى رواه مسلم وأوله : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » .

(٣) التوبة : ١١٢ .

﴿إياكَ نَعْبُدُ وإياك نستعين﴾[1] .

روى الإمام ابن كثير عن بعض السلف قوله :

« إنَّ الفاتحة سِرُّ القرآن ، وسرُّها هذه الكلمة » .

﴿إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَستعين﴾

فالأول : أى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ : تبرؤٌ من الشرك .

الثانى : أى قوله تعالى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : تبرؤٌ من الحَوْل والقوة ، وتفويض الأمر إلى الله عز وجل :

وهذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن .. منها قوله تعالى : ﴿فاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عليه﴾ « هود ١٢٣ » .

وهذه الكلمة القرآنية ، قد قدم الله سبحانه وتعالى لها ، بما يعتبر أساسًا ومبررًا ، بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كلُّه فاعْبدهُ وتوكَّلْ عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾[2] .

والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله ﷺ ، قائلاً له ، ﴿قُلْ هُوَ الرحمنُ آمنَّا به وعليه تَوَكَّلْنَا﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿رَبُّ الْمَشْرِق والمغربِ لا إله إلا هو فاتَّخِذْهُ وكيلاً﴾[4] .

وما من شك فى أن الآية الكريمة : ﴿إياكَ نعبُدُ وإياك نستَعينُ﴾ تعنى – عناية واضحة – وجوب إخلاص العبادة لله وحده ، ووجوبَ قصر الاستعانة على الله وحده ، والقرآن يوضح – بما لا مزيد عليه – أن الله سبحانه وتعالى ، هو وحده المتصرف فى الكون .. إنه المتصرف فى اليسير من أمر الكون وفى العظيم منه : ﴿قُلِ اللهمَّ مالكَ الملك . تُؤتى الملكَ من تشاء ، وتنزع الملكَ مِمنْ تشاء ؛ وتعز من تشاء ، وتُذِلُّ من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير﴾[5] وهو سبحانه كما يملك السموات والأرض وكما يمسكها أن تزولا : ﴿ولئن زالتا إن أمْسَكهمَا من أحد من بعده﴾[6] – فإنه يملك كل جزئية من جزئيات العالم :

(١) الفاتحة : ٥ .
(٢) هود : ١٢٣ .
(٣) الملك : ٢٩ .
(٤) المزمل : ٩ .
(٥) آل عمران : ٢٦ .
(٦) فاطر : ٤١ .

إنه يملك البصر فى العين ، ويملك السمع فى الأذن ؛ كما يملك العين والأذن ، ويملك الصحة فى الجسم الصحيح ، ويملك الجاه عند ذوى الجاه ، ولو شاء سبحانه لأزال ذلك كله ومنع استمراره .

إن قوله تعالى : ﴿وإليه يُرجعُ الأمرُ كلُّه﴾ « هود ١٢٣ » عام شامل ..

ومن أجل ذلك : فإن العبادة يجب أن تكون خالصة له . وإن الاستعانة يجب أن تتمحص له .

ولقد رسم سبحانه الوسيلة الصحيحة للاستعانة به المثمرة :

إنها إخلاص العبادة له .. فمن أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه بالتوفيق والتيسير والعون .. من أحب أن يستجيب الله له – فليحقق العبودية له سبحانه : فإياك نعبد : وسيلة لتحقيق ﴿إياكَ نستعين﴾ .

وفى حديث قدسىّ رواه الإمام البخارى توضيح لذلك .

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه « مَنْ عَادى لى وَليا فقد آذنته بالحرب ؛ وما تَقَرَّب إلىَّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقربُ إلىَّ بالنوافل حتى أحبَّهُ فإذا أحبَبْتُهُ كنتُ سَمعَه الذى يسمعُ به ، وبصَرَه الذى يُبْصر به ، وَيَدَهُ التى يَبْطِش بها : ، ورجلَه التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذَ بى لأعِيذَنَّه » ..

وهذا الحديث الشريف يبين – فى وضوح – أن أحب شىء يتقرب به الإنسان إلى الله ، إنما هو أداء ما افترضه الله عليه ، وأن الإكثار من النوافل – مع أداء الفرائض – وسيلة إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده .

وإذا أحب الله إنسانًا ، كان معه بالتوفيق والهداية والتيسير ، واستجاب له إذا سأل ، وأعاذه إذا استعاذ ..

وبعد :

فإن ﴿إياكَ نَعْبُدَ وإياكَ نستعينُ﴾ هى تحقيق للإيمان الصحيح ، والتقوى الصادقة ، أى أنها الصورة الواقعية لأولياء الله سبحانه[1] .

والله تعالى يقول :

---

(١) ألف ابن قيم الجوزية كتابا قيما فى ثلاثة أجزاء كبيرة سماه « مدارك السالكين بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » .

﴿ألا إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُون . الذين آمنوا وكانوا يَتَّقون . لَهُمُ البشْرَى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾[1] .

ومن معانى التوحيد الالتجاء إلى الله فى اليسير من الأمور والعظيم منها .

يقول الله تعالى :

﴿يأيها الناسُ أَنْتُمُ الفقراءُ إلى الله ، والله هو الغنى الحميد﴾[2] .

إن من أجمل ما يفسر هذه الآية الكريمة الحديث القدسىُّ الصحيح الذى رواه الإمام مسلم ، والذى كان أبو إدريس الخولانى – رضى الله عنه – يرويه كثيرًا ، وكان حينما يرويه يجثو – رضى الله عنه – على ركبتيه احترامًا وتقديسًا للحديث ، ثم يبدأ فى ذكره :

عن رسول الله ﷺ : فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

يا عبادى : إنى حَرَّمتُ الظلم على نفسى ، وجعلْتُه بينكم مُحَرَّمًا ، فلا تظالموا .

يا عبادى : كلكم ضالٌّ إلا مَن هديتُه ، فاستَهْدُونى أهدِكُمْ .

يا عبادى : كلكم جائعٌ إلا مَن أطعمته فاستطعمونى أطعمْكُمْ .

يا عبادى : كلكم عارٍ إلا مَن كسوته ، فاستكسونى أَكْسِكُمْ .

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جَميعًا ، فاستغفرونى أغفِرْ لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نَفْعى فتنفعونى .

يا عبادى : لو أن أوّلَكُمْ وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا .

يا عبادى : لو أن أوّلَكُمْ وآخِرَكم وإنسَكم وجنّكم كانوا على أفجَرِ قلب رجلٍ واحدٍ منكم ، ما نقص ذلك فى ملكى شيئًا .

يا عبادى : لو أن أوّلَكُمْ وآخِرَكم وإنسَكم وجنّكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

---

(١) سورة يونس : ٦٢ – ٦٤ .

(٢) سورة فاطر : ١٥ .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فَمَنْ وجد خيرًا فَلْيَحْمد الله ، وَمَن وَجَد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه » .

وما من شك فى أن الإنسان – فى كل أحواله – فقير إلى الله :

إنه فقير إلى الله فقرًا مطلقًا ، فى الناحية المادية على اختلاف أنواعها :

﴿فلينظر الإنسان إلى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبنَا الماءَ صَبا ، ثم شَقَقْنَا الأرضَ شَقا ، فأنبتنا فيها حَبا ، وعِنَبًا وقَضْبا ، وزيتونًا ونخلا ، وحدائق غُلْبًا . وفاكهة وأَبًّا ، متاعًا لكم ولأنْعَامِكم﴾[1] . ﴿أفرأيتم ما تَحْرُثُون . أأنتم تَزْرَعُونه أم نحنُ الزارعون . لو نَشَاء لَجَعلناه حُطَامًا﴾[2] ﴿أفرأيتُم الماءَ الذى تَشْرَبون . أأنتم أَنْزلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أم نحن المنزلون ، لَوْ نشاء جعلناه أُجاجا فلولا تشكرون﴾[3] .

والإنسان فقير إلى الله فى هدايته الروحية :

وإننا لنردد كل يوم مرات عدة :

﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ .

والذين أنعم الله عليهم ، هم الذين اتبعوا هديه ، وعملوا به ، والتزموه . وهدى الله سبحانه وتعالى ، يتضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وإذا كان فقر الإنسان إلى الله فى الجانب المادى فقرًا مطلقًا ، فإن فقره إلى الله – فى الجانب الروحى – فقر مطلق أيضًا .

وبعد :

فيقول صاحب كتاب التحبير :

« وإغناءُ الله عبادَهُ على قسمين » :

فمنهم من يغنيه بتنمية أمواله ، وهم العوام ، وهو غِنِىٌّ مجازى .

ومنهم من يغنيه بتصفيةِ أحواله ، وهم الخواص ، وهو الغنى الحقيقى ، لأن احتياج الخلق إلى همة صاحب الحال ، أكثر من احتياجهم إلى لقمة صاحب المال ..

---

(١) عبس : ٢٤ – ٣٢ .
(٢) الواقعة : ٦٣ – ٦٥ .
(٣) الواقعة : ٦٨ – ٧٠ .

الرسول ﷺ والتوحيد :

ونعود فنقول :

إن أول عقد من عقود البيعة ، قد حققه رسول الله ﷺ ، كما يحب الله ورسوله ، ويقول فى ذلك فضيلة المرحوم الشيخ الدجوى ، هذه الكلمات النفيسة التى تصور بعض الحقيقة عن توحيد رسول التوحيد :

وبعد ، فَمَنْ نظر فى أحواله ﷺ ، وجده غريقًا فى بحر التوحيد ، قد امتزج خوفه من الله ومراقبته إياه ، بلحمه ودمه ، مما يستحيل أن يكون من رجل تلعب به الشهوات ، أو تحيط به الظلمات ؛ فإذا صادفك الرشد ، وبحثت فى أحواله عليه السلام ، وجدته رجاعا إلى الله فى كل شيء (شأن الأنبياء والمرسلين) فكان يقول إذا جاءه أمر يُحِبُّهُ : « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » .

وإذا جاءه أمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

وإذا أراد أمرًا قال : اللهم خِرْ لى[1] واخترْ لى » .

وإن أراد سفرًا إلى قوم قال : « اللهم بك أصول وبك أجول » .

وإن أراد نومًا قال : « اللهم باسمك وضعت جنبى وباسمك أرفعه » .

وإن استيقظ قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

وإن لبس ثوبا جديدًا قال : الحمد لله الذى رزقنى ما أتجمل به فى حياتى » ، وإن أكل قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسَقَانَا ، وجعلنا مُسْلِمين » .

وإن شرب قال : « الحمد لله الذى جعل الماء عَذْبًا فراتًا برحمته ، ولم يجعله مِلْحًا أجاجًا بُذُنوبِنَا » .

وإذا أفطر قال : « الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت » .

وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال : « لا إله إلا اللّهُ الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » .

وإذا هب من نومه ليلاً قال : « ربِّ اغفرْ وارحَمْ واهدِ للسبيل الأقوم » .

وإذا خاف قومًا قال : « اللهم إنا نَجْعَلُكَ فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

---

(١) خار له فى الأمر يخير : جعل له الخير فيه .

وإذا خرج من بيته قال : بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله . اللهم إنى أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضل أو أَذِلَّ أو أُذَلَّ أو أَظلِمَ أو أُظلَمَ أو أَجْهَل أو يُجْهَل علىَّ » .

وإذا رأى الهلال قال : « هلال خير ورشد : آمنت بالذى خلقك » .

وإذا رفع بصره إلى السماء قال : « يا مُصَرِّفَ القلوب ثَبِّتْ قلبى على طاعتك » .

وإذا حلف قال : « والذى نَفَسُ محمد بيده » .

وإذا عصف الريح قال : « اللهم إنى أسألُكَ خيْرَهَا وخيرَ ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .

وهكذا فى شأنه كله ، كان غريقًا فى النظر إلى الله ؛ والاستمداد من الله ؛ والالتجاء إلى الله : لا يرى – لنفسه ولا لغيره – حولاً ولا قوة ، ولذلك كان يقول إذا أصابه هم « حَسْبِى الخالق من المخلوقين . حسبى الرَّازق من المرزوقين . حسبى الذى هو حسبى .. حسبى الله ونعم الوكيل » .

التوحيد والشجاعة الأدبية :

والتوحيد – إذن – هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية ، كما أنه الأساس الحافز لكثير من الفضائل ، أو لكل الفضائل .

وتثبيتًا للشجاعة الأدبية وحفاظًا على استمرارها ، بيَّنَ الله تعالى الأسباب التى تجعل الشخص يجبن عن قول الحق ، ويتراجعُ فى إعلان الصواب .

وترجع هذه الأسباب إلى أمرين :

الأمر الأول : هو ما يمكن أن يعبر عنه بِهَمِّ الرزق ، أو خوف الفقر .

وقد بين الله تعالى أن الرزق مقسوم ، وأنه محدود ، وأنه ما كان لك سوف يأتيك ، وما كان لغيرك فلن تناله . ﴿وفى السَّماء رزقُكُمْ وما تُوعَدون ، فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لَحق مثل ما أنكم تنطقون﴾[1] . ﴿وما مِن دابَّةٍ فى الأرض إلا على الله رزْقُهَا ويعلمُ مستقَرَّهَا ومستودَعَهَا كلٌّ فى كتابٍ مبين﴾[2] .

ومن الحق أن الإسلام يحث على العمل ، ويشجع الأخذ بالأسباب ، وأن السماء لا تمطر

---

(١) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) هود : ٦ .

ذهبا ولا فضة ، « ولأن يأخذ أحدَكُم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطبَ فيبيعَ فيأكل ويتصدق ، خيرٌ له من أن يسأل الناس»[1] .. « واليَدُ العُلْيَا خيرٌ من اليد السُّفْلَى »[2] .

ومع ذلك ، فإن الرزق فى يد الله ، ولن يمنع الرزق مانع مهما كان جبروته وسلطانه ، والله غالب على أمره ، وهو - سبحانه - القوىُّ العزيز القهار .

أما الأمر الثانى الذى يخذل بعض الناس عن الشجاعة الأدبية : فإنه خوف الموت . وهو خوف لا موضع له ، فالله قد حدد الآجال ، ولو كان الناس فى بروج مشيدة ، لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضَاجعِهِمْ التى يقتلون فيها : ﴿فإذا جَاءَ أجلُهم لا يستأخرونَ ساعة ولا يستقدمون﴾[3] .

الآجال والأرزاق بيد الله . وكل فكرة أو رأى أو همس خافت فى النفس يخالف ذلك ، فإنما هو شرك ..

وانظر إلى هذه الصورة الكريمة ، للشجاعة الأدبية التى ربتها التعاليم القرآنية ، وهى أن يقوم رجل بين يدى سليمان بن عبد الملك فيقول له : « سأطلق لسانى بما خَرَست عنه الألسنُ تأدية لحق الله تعالى إنه قد اكتنفكَ رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاكَ بِسَخَطِ ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة وسلْمٌ للدنيا ؛ فَلاَ تَأْمَنْهُم على ما ائتمنكَ الله عليه ، فإنهم لم يألُوا الأمانَةَ تضييعًا ؛ والأمة كسفًا وخسفًا ، وأنتَ مسئولٌ عما اجْتَرَموا ولَيْسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظمَ الناس عند الله غبنًا ، من باع آخرته بدنيا غيره » .

وإن من الصور الكريمة للشجاعة الأدبية : أن يتقبل الإنسان الحق . وكما تكون الشجاعة الأدبية قول الحق ، تكون - كذلك - قبول الحق ..

وإذا صدقت النية ، كان الإخلاص ، وكانت الثقة فى الله ، وكان الاتجاه الدائم نحوه فكانت العزة به ..

وللإخلاص أهمية كبرى فى الإسلام ، حتى لقد نادى رجل مرةً رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : الإخلاص .

---

(١) رواه الشيخان والنسائى .

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

(٣) الأعراف : ٣٤ .

وعن معاذ بن جبل أنه قال – حين بُعِثَ إلى اليمن – : يا رسول الله ، أوصنى .. قال ﷺ : « أخلص دينَك يَكْفِكَ الْعَمَلُ القليلُ »[1] .

وإذا ما صدقت النية وتوافر الإخلاص ، تقبل الله العمل ومنح صاحبه الثواب ، وكان عمله وسيلة له فى النجاة : فى الدنيا والآخرة .

عن ابن عمر رضى الله عنهما – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلَقَ ثلاثُ نَفَرٍ ممن كانوا قبلكم حتى أوَاهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنْجِيكم من هذه الصخرة ، إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فقال رجل منهم : اللهم ، كان لى أبوان شيخان كبيران ، وكنتُ لاَ أغبق[2] قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بى طَلَبُ شجر يومًا فلم أرح[3] عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقَهُمَا فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثتُ – والقدح على يدى – أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، زاد الرواة : « والصبية يتضاغون عند قدمى » فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك ، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبى ﷺ : قال الآخر : اللهم كانت لِىَ ابنةُ عم كانت أحبَّ الناس إلىّ ، فأردتها عن نفسها فامتنعت منى ، حتى أَلَمّت[4] بها سَنَةٌ من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخْلِىَ بينى وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قَدَرْتُ عليها قالت : لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحَقِّهِ[5] ، فَتحَرَجتُ[6] من الوقوع عليها ، فانصرفتُ عنها وهى أحبَ الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيْتُهَا ، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهكَ فَأَفرِجْ عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

قال النبى ﷺ : وقال الثالث : اللهم إنى استأجرتُ أُجَراءَ وأعطيتُهم أجرتهم غير رجل واحدٍ ترك الذى له وذهب ؛ فَثَمَّرْتُ أجره حتى كَثُرَتْ منه الأموالُ ، فجاءنى بعد حين فقال لى : يا عبدَ الله أدِّ إلَىَّ أجرى ، فقلت : كُلُّ ما تَرَى من أجرك : من الإبل والبقر والغنم

---

(١) رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .
(٢) لا أقدم فى الشرب أحدًا قبلهما مساء .
(٣) أى لم أرجع إليهما .
(٤) نزلت بها سنة من السنين الجدباء .
(٥) فض البكارة .
(٦) خفت أن أقع فى الذنب .

والرقيق ، فقال : يا عبد الله ، لا تستهزئْ بى .. فقلت : إنى لا أستهزئ بك ، فأخذه كُلَّه فساقه ، فلم يترك منه شيئًا .. اللهم إنى كنت فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[1] ..

والعمل الذى يتقبله الله ويشترط النية الصادقة فيه ؛ إنما هو العمل الذى يكون فى الإطار الربانى .. إنه العمل الذى يقوم به الإنسان تلبية لتربية المربى « الله » تلبية واعية شاعرة بأنها استجابة للأمر الإلهى ، فيما يتعلق بالإيجاب ، أو النهى الإلهى فيما يتعلق بالسلب ، أى أنها تحقيق فى جانبى السلب والإيجاب من العمل لقوله تعالى : ﴿اقْرَأْ باسْمِ ربك الذى خلَق ..﴾[2] .

وهذا العمل – فى اليسير منه والعظيم – إنما هو ما أتى به الوحى فى القرآن ، وما فصّلته السنة النبوية الكريمة : العملية منها والنظرية ، فإذا ما خرج الأمر عن هذا الإطار – فى النية أو فى العمل – فقد خرج عن أن يكون « قراءة باسم ربك » والبيعة إنما هى بيعة الرسول ﷺ .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إن الذين يُبَايِعُونَكَ إنما يبايعونَ اللّهَ﴾[3] .

ويقول : ﴿مَن يُطِع الرسول فقد أطاع الله﴾[4] ..

والقرآن الكريم – إذن – ، وقول الرسول ﷺ وعمله كل ذلك يمثل وَحْدَةً واحدة ، هى : الإسلام .

ومن مواد البيعة التى صيغت فى أسلوب رقيق ، وفى إيجاز جميل ، قوله تعالى : ﴿ولا يَعْصِينَك فى معروف﴾[5] ..

والمعروف : هو الخير الذى انطوى فى ثنايا التعاليم الإلهية ؛ وهو يتضمن كل خير ، وبتحقيقه تتحقق الفضيلة فى أجمل صورها .

❑❑❑

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) سورة العلق : ١ .
(٣) سورة الفتح : ١٠ .
(٤) النساء : ٨٠ .
(٥) الممتحنة : ١٢ .

ويتصل بالبيعة – أو بمفهوم الرسالة – توضيحًا وتفسيرًا – نصوص لا تحصى من الكتاب والسنة ، منها على سبيل المثال ما يلى :

عن مالك ، عن يحيى بن سعيد قال : أخبرنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، عن أبيه ، عن جده ، وقال :

« بايَعْنا رسولَ الله ﷺ على السَّمْعِ والطاعة فى اليُسْر والعسر ، والمنشط والمكره ، وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَه ؛ وأن نقولَ أو نقومَ بالحق حيثما كنا ، لا نخاف فى الله لَوْمَةَ لائم »[1] .

وروى الإمام – بسنده – عن جابر قال :

مكث رسول الله ﷺ ، بمكةَ عَشْرَ سنين ، يتبع الناس فى منازلهم : عكاظ ومَجنَّة ، فى المواسم ، يقول : من يُؤْوِينى ؟ مَن ينصرنى حتى أُبلِّغَ رسالة ربى ؛ وله الجنة ، فَلا يَجِدُ أحدًا يُؤويه ولا ينصره ، حتى إن الرجل لَيخرجُ من اليمن أو من مصر . كذا قال فيه ، فيأتيه قومه وذوو رحمه ، فيقولون : احذر غلامَ قريش لا يفتنك ، ويمضى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالإصابع .. حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، ينقلبُ إلى أهله فيُسلِمُون بإسلامه ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام .

ثم ائتمروا جميعا فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوفَ ويُطْرَدُ فى جبال مكة ويَخَاف ؟ .

فرحل إليه منا سبعون رجلا ، حتى قدموا عليه فى الموسم ، فواعدناه شِعبَ العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا : يا رسول الله علام نبايُعكَ ؟ ..

قال : تبايعونى على السمع والطاعة : فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله ، لا تخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى – إذا قدمت عليكم – مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة ؛ فقمنا إليه – فبايعناه – وأخذ بيده أسعد بن زُرارة وهو من أصغرهم – وفى رواية البيهقى :– أصغر السبعين إلا أنا .. فقال : رويدًا يا أهل يثرب ؛ فإنا لم نَضْرب إليه أكباد الإبل ؛ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ؛ وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

خيارکم ، وأن تَعَضَّكم السيوف ؛ فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ؛ وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه ؛ فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله ..

قالوا : أمِطْ عنا يا أسعد ؛ فواللّهِ ؛ لا ندعُ هذه البيعةَ ولا نَسْلُبَها أبدًا .

قال : فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط ؛ ويعطينا على ذلك الجنة ..

وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أنّ القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ ، قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى أخو بنى سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تّبايعون هذا الرجل ؟ .. قالوا نعم .

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم تَرَوْن أنه إذا أنْهكت أموالكُم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله – إن فعلتم – خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه : على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ..

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ؛ فلما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟

قال : الجنة .

قالوا : أبسط يَدك ؛ فبسط يده ، فبايعوه .

عن العباس بن عبد المطلب : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ذَاقَ طعمَ الإيمانِ مَنْ رضىَ بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ؛ وبمحمد رسولاً » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« كان النبى – ﷺ – بارزًا يومًا للناس ؛ فأتاه جبريل ، فقال : ما الإيمان[1] ؟

قال : الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث ..

قال : ما الإسلام ؟

قال : الإسلام : أن تعبد الله ولا تشركَ به ؛ وتقيمَ الصلاة ، وتؤدىّ الزكاة المفروضة ، وتصومَ رمضان ..

قال : ما الإحسان ؟ ..

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذى .

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..

قال : متى الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعْلَم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها :

« إذا ولدت الأمةُ ربها ، وإذا تطاول رعاةٌ الإبل إلبهُم فى البنيان : فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى – ﷺ – : ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفسٌ بأى أرضٍ تموت﴾[1] ..

ثم أدبر ، فقال ردوه ، فلم يروا شيئًا .. فقال : هذا جبريل جاء يُعَلِّم الناس دينهم » .. قال أبو عبد الله : جعل ذلك كله من الإيمان »[2] ..

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« الإيمان بضعٌ وستون شعبةً ؛ والحياءُ شُعبة من الإيمان »[3] .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبةً ، فأفضلها قول لا له إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبةٌ من الإيمان »[4] .

عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، سمع النبى ﷺ ، رجلاً يعظ أخاه فى الحياء ، فقال : « الحياء من الإيمان »[5] .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى ، قال : قلت : يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك . وفى حديث أبى أسامة غَيْرَكَ . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »[6] .

قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نَعْبدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشرِكَ به شيئًا ولا يتخذ بَعضُنَا بعضًا أربابًا من دون الله ؛ فإن تولَّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأَنَّا مسلمون ﴾[7] .

---

(١) لقمان : ٣٤ .

(٢) روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى ﷺ حديثا بهذا المعنى أورده مسلم فى صحيحه .

(٣) رواه البخارى ... وفى رواية لمسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة « بضع وسبعون شعبة » .

(٤) رواه الأربعة السابقون .

(٥) رواه مسلم والترمذى .

(٦) رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة .

(٧) آل عمران : ٦٤ .

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده لا تدخلون الجنةَ حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنونَ حتى تحابُّوا . أوَ لاَ أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

قال أبو هريرة إن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] : قال ابن شهاب : فأخبرنى عبد الملك بن أبى بكر بن عبد الرحمن : أن أبا بكر كان يحدثهم هؤلاء عن أبى هريرة ثم يقول : وكان أبو هريرة يلحق معه (ولا ينتهبْ نهبة ذاتَ شرفٍ يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن) .

عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ ؛ قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ؛ والتوبة معروضة بَعْدُ »[2] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه – عن النبى ﷺ – ، قال : « اجتنبوا السبعَ الموبقات » ، قالوا : يا رسول الله : وما هن ؟ – قال : « الشرك بالله ، والسحرُ ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكلُ الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتوَلّى يوم الزحف ؛ وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[3] .

عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه ، ذكر النبى – ﷺ – قعد على بعيره ، وأمسك إنسان بخِطامه – أو بزمامه – قال أىُّ يوم : هذا ؟ .. فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه .. قال : « أليس هذا يومَ النحر ؟ » .. قلنا : بلى .. قال : « فأىُّ شهر هذا ؟ » .. فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه .. قال : « أليس بذى الحجة ؟ » .. قلنا : بلى .. قال : « فإن دماءَكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا .. ليبلغِ الشاهد الغائبَ فإنّ الشاهد عسى أن يبلّغَ من هو أوعى له منه »[4] .

---

(١) رواه الشيخان وأحمد والنسائى .
(٢) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة والنسائى .
(٣) رواه الشيخان وأبو داود والنسائى .
(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائى .

﴿لكــن الله يشهد بما أنزل
إليك أنزله بعلمه والمــلائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل السادس عن :

الهجرة

الهجـرة

يا لجَلاَلِ الإيمان وثباتِهِ وقوتِهِ !!

إن التاريخ نادرًا ما يحدثنا عن هجرةٍ خالصةٍ مخلصةٍ لله ولرسوله : هجرة إلى مكان مجهولٍ : هجرةٍ لا يسأل المهاجرُ عما إذا كان مهجره سيستقبله مرحبًا ويُؤويه فى ألفةٍ ، أم أنه سيقابله بالجفوة والعداوة : هجرةٍ لم يُمَهَّدْ لها الجوُّ من قبل ، ولم يُعَبَّدْ لها المكان ...

إن التاريخ :لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالإيمان من أجل الإيمان ، ولكن التاريخ الإسلامى حافل بهذه الأنواع من الهجرة .

فإنه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الإيمان ، وكثر الحديث عنه ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش ، بمن آمَنَ من قبائلهم فعذّبوهم ، وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمَّلَ المؤمنون العذاب ألوانًا فى سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور ، قال لهم رسول الله ﷺ ، شفقةً عليهم ورحمة بهم .

« تفرَّقُوا فى الأرض » .

فقالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟

فأشار إليهم : إلى الحبشة . فهاجر إليها – في بادئ الأمر – طائفة من المسلمين : منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردًا ، وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة ، ثم قدم بعضهم إلى مكة معتقدًا أن الأمور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا إلى مكة اشتد عليهم قومهم وسَطَت بهم عشائرهم ، ولَقُوا منهم أذًى شديدًا .

فأذِن لهم رسولُ الله ﷺ ، بالخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية أعظمَها مشقةً ، ولقُوا من قريش تعنيفًا شديدًا ، ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان رضى عنه ، مخاطبًا رسولَ الله ﷺ : يا رسول الله ، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ولست معنا ؟

فقال رسول الله ﷺ هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ : لكم هاتان الهجرتان جميعًا » .

قال سيدنا عثمان : « حسبُنَا يا رسول الله » .

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثةً وثمانين رجلاً ، وكان عدد النساء ثمانيَ عشرةَ امرأة .

ولم يَرُق لقريش أن يعبدَ اللَّهَ هؤلاء القومُ آمنين مطمئنين .. لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفدًا من ساسة العرب الدهاة ، مزودًا بالهدايا إلى النجاشى ؛ ليعيدوا هؤلاء الموحدين إلى مكة ؛ لينزلوا عليهم العذاب من جديد .

﴿ومكَرُوا ومَكَرَ اللَّهُ ، واللَّهُ خير الماكرين﴾[1] .

ولم يفلح الوفد ، وعاد إلى مكة بخُفَّىْ حُنَين .

ولما علمتْ قريش بذلك ، ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتنافى تنافيًا تمامًا مع الإنسانية ، فقد كتبوا كتابًا تعاهدوا فيه على ألا ينكاحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وكان الكاتب للصحيفة هو ، منصور بن عكرمة العبدرى ، وكان من تقدير الله تعالى أن شُلَّت يَدُه .

وبهذه الصحيفة وهذا العهد ، حصروا بنى هاشم فى شِعب أبى طالب .

وكان ذلك فى أول المحرم سنة سبعٍ من نبوته ﷺ ..

واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين ، لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ، حتى بلغ بهم الجهْدُ مبلغًا خطيرًا ، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعًا ومسغَبة فلا ترق قلوبهم ، ولا يتأثرون ، واستمر ذلك سنواتٍ ثلاثا .

وبينما هذه الأمور – من الشدة والقسوة – تجرى تحت سمع الرسول وبصره ، كانت قريش ترسل له ﷺ من يعرض عليه المال والغنى ، والسلطان والجاه ، والملاذ بجميع ألوانها ، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلاً .

وما ترك رسول الله ﷺ الدعوة قط : كان يدعو ليلاً وكان يدعو نهارًا . وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته .

ويروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد : وكان جاهليًّا أسلم ، يقول : رأيت رسول الله ﷺ – بَصَرَ عينى – بسوق ذى المجاز يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا .. » . ويدخل فجاجَهَا والناس متقصِّفون[2] عليه ، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا ، وهو لا يسكت يقول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تُفْلِحُوا » .

❑❑❑

---

(١) سورة آل عمران : ٥٤ .

(٢) يجتمعون ويزدحمون .

أقام رسول الله ﷺ ، بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته مستخفيًا ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ، عشر سنين ، يوافى المواسم كل عام ، يتبع الحاج فى منازلهم : فى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز : يدعوهم إلى أن يمنعوه ، حتى يُبَلِّغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ، ويقول : « يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تُفْلِحوا وتملكوا بها العرب ، وتَذِل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة » .

واستمر الأمر كذلك : لا يكُفّ رسول الله ﷺ ، عن الدعوة إلى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء ، حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، ﷺ ، وكان الإسراء والمعراج ، وارتدّ مَن ارتدّ ، وثبت من ثبت ، وكان حادث الإسراء والمعراج هو حادثَ التصفية الكاملة ، وكان الفيصلَ بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على إيمانها : لا تزعزعها الأعاصير : تميد الجبال ولا تميد ، وطائفة مشركة : قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام وإنْ طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الإسلام فى هذه الفترة – فترة السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة – مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على إيمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهى – وإن كان الرسول – ﷺ – لم يكف فيها عن الدعوة لحظةً من اللحظات – فإنها مع ذلك ، كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الإسلام ونَشْر دعوته .

وإذا كانت المعسكرات قد تحددت فى مكة ، وإذا كانت الفترة من الإسراء إلى هجرة الرسول ﷺ ، فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب – فإن الإسلام فى هذه الفترة ؛ لم يكن قد وقف راكدًا ، بل بالعكس ، قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول فى معسكره المكى كل عناصر الخير بمكة ولم يبق فيها – فى الطرف المقابل – إلا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة وإنما عن طريق آخر .

وما كان هناك مناصٌ من مغادرة مكة ، للعودة إليها من جديد فى ظروف مهيأة ، وبوسائل غلابة ، لقد هيأ الله الأمر لانتشار الإسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد فى الطبقات :

وأقام رسول الله ﷺ : بمكة ما أقام : يدعو القبائل إلى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة ، بمجنة ، وعكاظ ، ومنى : أن يأووه حتى يبلغَ رسالة ربه ، ولهم الجنة ، فلم تستجب

له قبيلة من العرب ، ويؤذَى ويُشْتَم حتى أراد الله إظهارَ دينه ، ونَصْرَ نبيه ، وإنجاز ما وعد ، فساق إليه هذا الحى من الأنصار : لما أراد الله بهم من الكرامة » .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به العام القادم .

ولما عادوا إلى المدينة ، بشروا بالإسلام فى قومهم ، فأسلم مَن أسلم وكثر فى المدينة الحديث عن الإسلام .

فلما كان العام الذى يليه ، حضر اثنا عشر رجلاً ، فبايعوا الرسول ﷺ – كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم – : « على ألا نشركَ بالله شيئًا ، ولا نسرقَ ، ولا نزنىَ ولا نقتلَ أولادنَا ، ولا نأتىَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيَهُ فى معروف » .

قال : « فإن وفيتم فلكم الجنة ، ومن غَشىَ من ذلك شيئًا كان أمره إلى الله : إن شاء عذّبه ، وإن شاء عفا عنه » .

إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير ، إنها بيعة على العمل بالمُثُلِ الأخلاقية العليا ونشرها .

وانظر إلى الدقة فى قوله ولا نعصيه فى معروف ، إنه لم يقل ولا نعصيه ، ويسكت ، وإنما قيد ذلك بقوله : « فى معروف » وحاولْ أن تتأملَ وثيقة البيعة هذه ، فستقر – لا مناص – بأنها وثيقة إلهية .

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاقٍ أخرى ، ووجوهٍ عليها نور الإسلام وبقلوب انغمست فى محيط الرحمة . وأخذوا يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين .

ثم عادوا فى العام التالى ، وهم ، سبعون أو يزيدون رجلاً أو رجلين ، ومعهم امرأتان ، والتقوا برسول الله ﷺ ، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غَيْرَه .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم ، العباس بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله منَّا مَن كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمدًا الناسُ كلُّهم غيرَكم فإن كنتم أهلَ قوةٍ وجلَدٍ وبصَرٍ بالحرب ، واستقلالٍ بعداوة العرب قاطبةً ترميكم عن قوسٍ واحدة ، فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملأٍ منكم واجتماع ، فإن أحسنَ الحديث الصدقُ .

فقال البرَاء بن معرور : قد سمعنا ما قلتَ ، وأنا والله ، لو كان فى أنفسنا غيرُ ما ننطق به لقلناه ، ولكننا نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ .

قال : وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكَرَ الذى اجتمعوا له .

فأجابه البَرَاء بن معرور بالإيمان والتصديق ، ثم قال : يا رسول الله : بايِعْنا فنحن أهل الحلْقَة(1) ورِثناها كابِرًا عن كابِر .

فقال العباس بن عبد المطلب – وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ – اخفوا جرسكم(2) ، فإن علينا عيونًا وقدموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالِّكم .

لقد تكلم البَرَاء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال : ابسُط يدك يا رسول الله . فكأن أولُ من ضرب على يد رسول الله ﷺ – فيما يقال – البراءُ بن معرور .

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه . فقال رسول الله ﷺ : « إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنَىْ عشر نقيبًا ، فلا يجدنَّ أحدٌ منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل » : فلما تخيَّرهم قال للنقباء : « أنتم كفلاءُ على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

قالوا : نعم ..

فقال رسول الله ﷺ : « انفضوا إلى رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة : يا رسول الله ، والذى بعثَك بالحق ، لئن أحببْت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحدٌ عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله ﷺ : « إننا لم نؤمر بذلك فانفضوا إلى رحالكم » ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ، وقد جعل الله له مَنَعَةً وقومًا : أهل حربٍ وعُدّةٍ ونجدةٍ .

وجعل البلاءُ يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما ضاقوا بالأمر ذرعًا ؛ شكَوْا إلى

---

(1) أهل السلاح .
(2) كلامكم وصوتكم .

رسول الله ﷺ واستأذنوه فى الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرْتُ بدار هجرتكم ، وهى « يثرب » ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها .

وأخذ المسلمون يهاجرون سرا بادية عليهم آثار تربية الرسول ﷺ : من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق فى سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا – فى جميع أحوالهم – من جُنْدِ الله ؛ مهاجرين إليه ؛ للعمل على إعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط – فى نظر الرسول ﷺ ، ولا فى نظر أصحابه – ركونًا إلى الدعة والهدوء ، أو ميلاً إلى الراحة والسكون .

وإنما كانت محاولةً مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله من جبهة أخرى ، وأخذ المسلمون يهاجرون إلى الله ورسوله ، سرًا ، جماعاتٍ أو فرادى ، حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، أو مريض ، أو عاجزٌ عن الخروج .
وعندئذ آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر .

ها هو ذا رسول الله ﷺ ، على مشارف مكة مهاجرًا : ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود إليها مبشرًا بدين الله عاملاً أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودعها بهذه الكلمات المؤثرة .

« والله ، إنكِ لأحبُّ البلادِ إلى نفسى ، ولولا أن أهلكِ أخرجونى ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فاختفيا فيه .

ولما علم المشركون بالأمر ، ثارت ثائرتهم ووطنوا العزم على ألا يُفْلِتَ المهاجران إلى الله من تنكيلهم .

فقد كانوا دبروا قتل الرسول ﷺ ، وما كانوا يبالون قط بقتل رجل يقول (ربى الله) .

وقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروعَ المؤامرة أبو جهل ، وعرضها على الوضع التالى :

أرى أن تأخذ من كل قبيلة من قريش غلامًا ، نهْدًا ، جَلِدًا ، ثم نعطيه سيفًا صارمًا ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرقَ دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف الوقوف

فى وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الدية فنعطيهم إياها . ﴿ ومكَرُوا ومكر اللّهُ واللهُ خيرُ الماكرين ﴾(١) .

❑❑❑

دخل رسول الله ﷺ هو وأبو بكر الغار مختفيين . وكان سيدنا أبو بكر حزينًا ، خوفًا على الرسول ﷺ ، فجاء النداء الإلهى على لسان الرسول ﷺ : يملؤه ثقةً وتفاؤلاً : يقول له : ﴿ لا تحزَنْ إن الله مَعَنَا ﴾(٢) .

ولما سمع سيدنا أبو بكر : خفْقَ نعال المشركين أمام الغار ، وأصواتهم الصاخبةَ التى تُعلِن عن سخطهم وغيظهم المكبوت ، قال : لو نظر أحدُهم إلى موضع قدمَيْه لأَبْصَرَنا ، ويبتسم رسول الله ﷺ ، ويقول : « ما ظنك باثنين اللّهُ ثالثهما » ولما انتهى الطلب وعاد المشركون من حيث أتوا ، خرج رسول الله ﷺ ، هو ورفيقه .

وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع لَيَالٍ خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما فى الطريق ، لحق بهما سراقة بن مالك ، مدججًا بالسلاح ، على فرس تسابق الريح ؛ ليأسرهما حتى يفوز بالجائزة التى وعد بها المشركون من يأتى بالرسول ﷺ : قتيلاً أو أسيرًا .

فلما دنا منهما ، دعا عليه رسول الله ﷺ فرسخت قوائم فرسه فى الأرض ، فقال : يا محمد ، ادعُ اللّه أن يطلق فرسى ، وأرجعَ عنك وأردَّ مَن ورائى ، ففعل فَأطلِقَ ورجع ، فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ ، فقال ارجعوا فقد استبرأت لكم ما هاهنا ، وقد عرفتم بصرى بالأثر فرجعوا عنه .

وسار الركب : تحفُه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل المدينة ، حيث استقبل أروع استقبال .

وكان من أوائل الأعمال التى قام بها رسول الله ﷺ ، فى المدينة :

١ – بناء المسجد : الذى أسس على التقوى من أول يوم .

٢ – المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقًا لمبدأ من مبادئ الدين الإسلامى ، يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾(٣) .

---

(١) آل عمران : ٥٤ .

(٢) التوبة : ٤٠ .

(٣) سورة الحجرات : ١٠ .

ولله درُّ البوصيرى حيث يقول :

ويحَ قـــوم جَفَوْا نبيا بأرضٍ ... أَلِفَتْه ضبابهـــا والظبـــاءُ
وسلوْه ، وحنَّ جذع إليه ! ... وقلَوْه ، وودَّه الغُـــرباءُ !
أخرجوه منهـــا وآوَاه غارٌ ... وحَمَتْه حمـــامة وَرْقـــاءُ
وكفتْهُ بنسجهـــا عنكبوت ... ما كفته الحمـــامة الحصْداء
واختفى منهم على قربِ مرآ ... ه ومِنْ شدة الظهور الخفاءُ
ونحـا المصطفى المدينة واشتا ... قت إليـــه مِنْ مكةَ الأنحاءُ

الهجرة من زاوية أخرى :

الهجرة حقيقة تاريخية ، ورمز روحى جميل ، يعبر خير تعبير عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته ، بل فى كل نَفَس من أنفاسه .

ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمزٍ عن الهجرة الروحية : عن الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان .

والهجرة – بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى ويتجاوز الزمان والمكان – قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة وفى القرآن الكريم .

يقول رسول الله ﷺ – فيما رواه البخارى رضى الله عنه – : « المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويَدِهِ ، والمهاجرِ من هَجَرَ ما نهى الله عنه » .

وهذا المعنى الروحى نتبينُه – فى وضوح سافر – فيما يلى :

يقول الله تعالى :

﴿إلاَّ تنصروهُ فقد نَصَرَهُ الله ، إذ أخرجَه الذين كفروا ثانىَ اثْنَيْنِ إذْ هما فى الغار إذْ يقولُ لصاحبه لا تحْزَنْ إنَّ الله معنا ، فأنزل الله سكينتَه عليه ، وأيَّدَه بجنودٍ لم تَرَوْها ، وجعلَ كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ اللّهِ هى العليا ، والله عزيزٌ حكيم﴾(1) .

فى الآية الكريمة : يصوِّر الله تعالى ، إخراجَ الكفارِ للرسول ﷺ من مكةَ ، وهجرتَه مستخفيًا فى جُنحٍ من الليل مفارقًا البلدة التى وُلِدَ بها . والتى بها عشيرته وقومه ، إلى بلدة يجد فيها حرية الدعوة إلى الله .

يصور الله – تعالى – ذلك ، بأنه انتصار .

ومن الطريف أن الله سبحانه وتعالى ، يصوره بأنه انتصار ، فى الوقت الذى كان فيه

---

(1) سورة التوبة : ٤٠ .

الرسول ﷺ مختبئًا فى الغار ، هو والصديق رضوان الله عليه ، والمشركون – بخيلهم ورجِلِهْم ، وعدتهم وعتادهم – منتشرون فى كل مكان يبحثون عنهما : جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك فى أن الهجرة كانت انتصارًا مبينًا ؛ لأنها فرار إلى الله .

والفرار إلى الله انتصار ، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل .

﴿والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قُتِلُوا أو ماتوا ، لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رزقًا حَسَنًا ، وإن الله لَهُوَ خيرُ الرازقين﴾(1) .

ونحن مأمورون بالفِرار إلى الله ؛ أى بالهجرة إليه ﴿فَفِرُّوا إلى الله ، إنى لكم منه نذير مُبين﴾(2) . وسيدنا لوط عليه السلام قال : ﴿إنى مهاجِرٌ إلى ربى إنَّهُ هو العزيزُ الحكيمُ﴾(3) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال : ﴿إنى ذاهب إلى ربى سَيَهْدين﴾(4) .

والفِرار إلى الله والهجرةُ إليه والذَّهابُ إليه ؛ من صفات المؤمنين الصادقين : إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه كل يوم وكل وقت ، فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم .

وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هى إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادقِ خالصة لله وحده : متمحضة لوجهه الكريم .

وإذا ما كانت كذلك كان الله معه .

يقول ﷺ ، للصِّدِّيق – رضى الله عنه وأرضاه – ﴿لا تحزنْ إن اللّهَ معنا﴾(5) ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين ، لا شريك له ، ومن كان كذلك فإن الله يُنَزِّلُ عليه السكينة ، أى طمأنينة النفس والرضا ، ويؤيده بجنود لا تراها الأعين : فيدخلُه فى نطاقِ رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويُضفِى عليه – من توفيقه ورضاه – ما يجعله قرير النفس ، هادئ البال ، سعيدًا ولو أُلقى فى النار ؛ لأنه لن ولا يشعر بها إلا بردًا وسلامًا .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه سبحانه وتعالى

وأول مرحلةٍ فى سبيل الهجرة إليه سبحانه ، إنما هى النية الخالصة لوجهه الكريم .

يقول ﷺ : « إنما الأعمالُ بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نَوَى : فَمَنْ كانت هجرتُه إلى

---

(1) سورة الحج : 58 .
(2) سورة الذاريات : 50 .
(3) سورة العنكبوت : 26 .
(4) سورة الصافات : 99 .
(5) سورة التوبة : 40 .

الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرتُه لِدُنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجَرَ إليه » .

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى ، كانت تلك الأعمال هجرةً إليه ، أما إذا لم تتوجه النية إليه ، فإن الأعمال – ولو كانت خيرًا فى ظاهرها – تكون هباءً منثورًا .

ومن هنا ، يتبين المؤمنون حقًا فسادَ الأفكار التى يروّجها الحائدون عن النهج الدينى الصحيح ، من أمثال قولهم : إن العلمَ للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ، أو الخير لإرضاء الضمير .. فإن كُلاً ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو – أيضًا – خطر على المجتمع ؛ لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهُما إلى الله – أسسًا وغايات – انحرفت بهما الإرادات والنيات إلى الشر والإفساد ؛ فشقيت بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير ، فإن معرفته معرفة حقيقية ، لا تتأتى إلا عن طريق الدين .

وقد حاولت العقول – مستقلة عن الدين – تحديده فتعارضت وتضاربت ، ولم تصل إلى نتائج ..

والمؤمن إذا يهاجر إلى الله بعلمه ، ويهاجر إليه بفنه ؛ ويهاجر إليه بعلمه الخير .

سأل الصحابى الجليل عمرو بن عنبسة – رضى الله عنه – رسول الله – ﷺ – قائلاً : أى الإيمان أفضل ؟ .

فقال رسول الله – ﷺ – : الهجرة ...

فقال الصحابى : وما الهجرة ؟ .

فقال رسول الله – ﷺ – : أن تهجر السوء ..

وعن أم أنس – رضى الله عنهما – فيما رواه الطبرانى بإسناد جيد .

أنها قالت : يا رسول الله أوصنى ، – فكان مما أوصاها به رسول الله – ﷺ أن قال لها :

« اهجرى المعاصىَ فإنها أفضل الهجرة » .

على أن العبادات الإسلامية – على تعددها واختلافها – إنما هى تنسيق وتنظيم لأنواعٍ وألوانٍ من الهجرة إلى الله : تسمو بالمؤمن صُعُدًا إلى الصلة بالله ، وإلى النعيم فى رضوانه ، وإلى السعادة فى رحابه .

فالصلاة فِرارٌ من البيئة والجو والمادة ، إلى الوقوف بين يدى الله ومناجاته لحظة من الزمن ، فهى هجرة إلى الله .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربًا إلى الله فهى ذهاب إليه تعالى .

والصوم ابتعاد عن المادة فترةً من الزمن : تزكيةً للنفس وقربى إلى الله ، فهو ذَهابٌ إليه عز وجل .

أما مناسكُ الحج ، فإنها صُوَرٌ من التجرد لله : بلغت الذِّروة والسَّنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم : « لبيك اللهم لبيك » ، وأكرم بها من هجرة !!

وختامًا ، فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى ، إنما تتمثل – فى أروع مظاهرها – فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إن صَلاَتى ونُسكى ومحْيَاىَ ومَمَاتى لِلّهِ ربِّ العالمين ، لا شرِيكَ لَهُ وبذلكَ أمِرْتُ وأنا أول المسلمين﴾(١) .

يقول ﷺ : (لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكن جهاد ونيَّة) جهاد فى كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فإلى الهجرة الكبرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله .. وبالله التوفيق .

١ – النصوص

حاولنا فى هذه النصوص أن نعطى صورة واضحة عن الهجرة : فى مقدماتها وفى كيفيتها ، وفى دلالتها بالنسبة للرسول ﷺ ، وبالنسبة لأصحابه وأنصاره ، على عمق الإيمان بالرسالة وبالرسول ، وعلى اليقين التام : بالصدق وبالحق فى أقوال الرسول ﷺ ،وفى أعماله ، وفى قيادته ، وفى تبليغه عن ربه سبحانه .

جهاد فى سبيل الدعوة

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفيًا ، ثم أعلن فى الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين ، يُوافى المواسم كل عام ، يتَبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنَّة ، وذى المجاز ، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحدًا ينصره ، أو يجيبه حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ، ويقول :

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

« يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة » .

وأبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ[1] كاذب ، فيردون عليه ﷺ أقبح الرد ، ويؤذونه ويقولون : أسرتُك وعشيرتُك أعلم بك ، حيث لم يتبعوك ، ويكلمونه ، ويجادلونه ، ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول : « اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا »[2] .

— ٢ —

قلنا إن رسول الله ﷺ ، كان يقفُ فى الموسم على القبائل فيقول : يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، فكان يمشى خلفه أبو لهب ويقول : لا تطيعوه .

وأتى رسول الله ﷺ كِنْدة فى منازلهم فلم يقبلوا منه .

وأتى بنى حنيفة فى منازلهم فردوا عليه أقبح ردّ .

وأتى عامر بن صعصعة .

وكان لا يدع من العرب من كان له اسمٌ وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده[3] .

٣ – أشار إلى الحبشة

فلما كثر المسلمون وظهر الإيمان ، وتُحدث به ثار ناس كثير من المشركين من كفار قريش ، بمن آمن من قبائلهم – وهم بادئ ذى بدء فى الأغلب من ضعفائهم – فعذّبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « تفرقوا فى الأرض » ، فقالوا أين نذهب يا رسول الله ؟ قال : « ها هنا » وأشار إلى الحبشة – وكانت أحبّ الأرض إليه – أن يُهَاجَرَ قِبلَها ، فهاجر ناس ذوو عَددٍ من المسلمين ، منهم من هاجر معه بأهله ، ومنهم من هاجر بنفسه ، حتى قدموا أرض الحبشة[4] .

---

(١) صابئ : يقال صبأ فلان إذا خرج من دين إلى دين غيره من قولهم صبأت ناب البعير إذا طلعت وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها وكانت العرب تسمى النبى صلى الله عليه وسلم الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام ويسمون المسلمين الصبأة ..

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

(٣) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٢١٥ .

(٤) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ١٨٨ .

٤ – أول من هاجر

عن قتادة قال :

« إن أولَ من هاجر إلى الله عزّ وجل بأهله : عثمان بن عفان ، ومعه رقية بنت رسول الله ﷺ – إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهم ، فقدمت امرأة من قريش ، فقالت : يا محمد ، قد رأيتُ ختنك ومعه امرأته . قال على أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها . فقال رسول الله ﷺ : صحبهما الله إن عثمان لأوَّلُ من هاجر بأهله بعد لوط »[1] .

٥ – المهاجرون إلى الحبشة والنجاشى

... . فلما دخلوا على النجاشى ، كان الذى يكلمه منهم جعفر بن أبى طالب ، فقال له النجاشى : ما هذا الدين الذى أنتم عليه ؟ فارقتم دين قومكم ، ولم تدخلوا فى يهودية ولا نصرانية . فما هذا الدين ؟ فقال جعفر : أيها الملك ، كنا قومًا على الشرك : نعبد الأوثان ، ونأكل الميْتَةَ ، ونسبى الجوارَ ونستحلُّ المحارم : بعضنا من بعض ، فى سفك الدماء وغيرها ، لا نُحل شيئًا ولا نُحرمه ، فبعث الله إلينا نبيًا من أنفسنا : نعرف وفاءه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى أن نعبدَ اللّهَ وحده : لا شريك له ، ونصلَ الرحم ، ونحسنَ الجوار ، ونصليَ لله ، ونصومَ له ، ولا نعبدَ غيره ، فقال : فهل معك شىء مما جاء به ، وقد دعا أساقفته ، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله ، فقال له جعفر : نعم ، فقال : هلم فاتْلُ عليَّ ما جاء به ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿كهيعص﴾[2] فبكى – والله – النجاشىُّ حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم[3] ، ثم قال : إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين . لا والله ، لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينًا[4] .

٦ – العودة إلى الحبشة

لما قدم أصحاب النبى ﷺ مكة ، من الهجرة الأولى ، اشتدَّ عليهم قومُهم ، وسَطَت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذًى كثيرًا ، فأذن لهم رسولُ الله ﷺ ، فى الخروج إلى أرض الحبشة

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٦٦ .
(٢) سورة مريم : ١ .
(٣) المقصود صحفهم وهى الأناجيل .
(٤) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٧٢ .

مرة ثانية ، فكانت خرجَتُهم الآخرةُ أعظمَهَا مشقةً ، ولقُوا من قريش تعنيفًا شدِيدًا ، ونالوهم بالأذى ، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حُسن جواره لهم ، فقال عثمان بن عفان : يا رسول الله فهجرتنا الأولى – وهذه الآخرة – إلى النجاشى ولست معنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنتم مهاجرون إلى الله وإلىّ : لكم هاتان الهجرتان جميعًا » قال عثمان فَحسبُنا يا رسول الله[1] .

٧ – من مقدمات الهجرة إلى المدينة

أقام رسول الله ﷺ بمكة ما أقام : يدعو القبائل إلى الله ، ويعرض نفسه عليهم كل سنة : بمجنة وعكاظ ومنى ، أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة ، فلم يجد قبيلة من العرب تستجيب له : ويُؤذَى ويُشْتَم ، حتى أرادَ الله إظهارَ دينه ونَصْرَ نبيه ، وإنجازَ ما وعده ، فساقه إلى هذا الحى من الأنصار ؛ لما أراد الله بهم من الكرامة ، فانتهى إلى نفر منهم – وهم يحلقون رءوسهم – فجلس إليهم . فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فاستجابوا لله ولرسوله ، فأسرعوا وآمنوا ، وصدقوا وآووا ، ونصروا وواسَوْا ، وكانوا والله ، أطول الناس ألْسنة ، وأحدَّهم سيوفًا ... . وذكروا أن أول من أسلم من الأنصار : أسعد بن زرَارة وذكوان بن عبد قيس : خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة ، فقال لهما : قد شغلنا هذا المُصلِّى عن كل شيء – يزعم أنه رسول الله – قال : وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهانَ متكلمين بالتوحيد بيثرب فقال ذكوان بن عبد قيس لأسعد بن زرارة – حين سمع كلام عتبة – دونك هذا دينك . فقاما إلى رسول الله ﷺ ، فعرض عليهما الإسلام فأسلما ، ثم رجعا إلى المدينة ، فلقىَ أسعدُ أبا الهيثم بن التيهان ، فأخبره بإسلامه ، وذكر قول رسول الله ﷺ ، وما دعا إليه .

فقال أبو الهيثم : فأنا أشهد معك أنه رسول الله وأسلم[2] .

فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأسلموا ، وهم من بنى النجار : أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث بن عفراء . ومن بنى زريق : رافع بن مالك . ومن بنى سلمة : قُطْبة بن عامر بن حَديدة . ومن بنى حرام : ابن كعب عقبة بن عامر بن نابىء ، ومن بنى عُبيد بن عدىّ بن سلمة : جابر بن عبد الله بن رئاب ، لم يكن قبلهم أحد .

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ١٩١ – ١٩٢ .

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

قال محمد بن عمران هذا عندنا أثبت ما سمعنا فيهم وهو المجتمع عليه . ثم قدموا إلى المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام فأسلم من أسلم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر من رسول الله ﷺ كثير(١) .

— ٨ —

عن عبادة بن الصامت قالوا لما كان العام المقبل من العام الذى لقى فيه رسول الله ﷺ النفر الستة لقيه اثنا عشر رجلا بعد ذلك بعام ، وهى العقبة الأولى ، من بنى النجار : أسعد بن زُرارة ، وعوف ومُعاذ (وهما ابنا الحارث ، وهما ابنا عفراء ، ومن بنى زريق : ذَكْوان بن عبد قيس ورافع بن مالك ، ومن بنى عوف بن الخزرج : عبادة بن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن ، ومن بنى عامر بن عوف : عباس بن عبادة بن نَضْلة ، ومن بنى سلمة : عُقبة بن عامر بن نابىء ، ومن بنى سواد : قُطْبة بن عامر بن حديدة ، فهؤلاء عشرة من الخزرج ، ومن الأوس رجلان : أبو الهيثم بن التيهان من ملىٍّ حليف فى بنى عبد الأشهل ، ومن بنى عمرو بن عوف : عُويم بن ساعدة . فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء : على أن لا نشركَ بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزنىَ ولا نقتلَ أولادَنا ولا نأتىَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيَهُ فى معروف قال : « فإن وفيتُمْ فلكم الجنة ومن غَشىَ من ذلك شيئًا كان أمره إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه .

ولم يفرض يومئذ القتال .

ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام ، وكان أسعد بن زرارة يُجمِّع بالمدينة بمن أسلم ، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ : ابعث إلينا مقرئًا يقرئنا القرآن . فبعث إليهم مصعب بن عمير العَبْدرى ، فنزل على أسعد بن زرارة ، فكان يقرئهم القرآن ، فروى بعضهم أن مُصْعَبًا كان يُجمِّع بهم ثم خرج مع السبعين حتى وافوا الموسم مع رسول الله ﷺ(٢) .

عن الزهرى قال : لما اشتد المشركون على رسول الله ﷺ ، قال لعمه العباس بن عبد المطلب : يا عم ،إن الله عز وجل ناصرٌ دينَه بقوم يهون عليهم الموت — رغم قريش —

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٠٣ .
(٢) الطبقات لابن سعد .

عزًا فى ذات الله تعالى ، فامض بى إلى عكاظ فأرنى منازل أحياء العرب حتى أدعُوهمُ إلى الله عز وجل ، وأن يمنعونى ويُؤوونى ، حتى أبلِّغَ عن الله عز وجل ، ما أرسلنى به .

قال فقال العباس : يا ابن أخى ، امض إلى عكاظ ، فأنا ماضٍ معك حتى أدلك على منازل الأحياء . فبدأ رسول الله ﷺ بثقيف ، ثم استقرأ القبائل فى سنته . فلما كان العام المقبل – وذلك حين أمر الله تعالى أن يعلن الدعاء – لقى الستة نفر الخزرجيين والأوسيين : أسعد بن زرارة ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، والنعمان بن حارثة ، وعبادة بن الصامت ، فلقيهم النبى ﷺ فى أيام منى ، عند جمرة العقبة ليلا ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله عز وجل ، وإلى عبادته والموازرة على دينه : الذى بعث به أنبياءه ورسله : فسألوه أن يُعرِض عليهم ما أُوحِيَ إليه فقرأ رسول الله ﷺ سورة إبراهيم ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ إلى آخر السورة ، فرّق القوم وأخبتوا حين سمعوا وأجابوه .

فمرَّ العباس بنُ عبد المطلب – وهو يكلمهم ويكلمونه – فعرف صوت النبى ﷺ ، فقال : ابنَ أخى ، مَنْ هؤلاء الذين عندك ؟ قال : يا عم ، سكان يثرب : الأوس والخزرج ، قد دعوتهم إلى ما دعوتُ إليه مَن قبلهم من الأحياء ، فأجابونى وصدقونى ، وذكروا أنهم يخرجوننى إلى بلادهم ؛ فنزل العباس بن عبد المطلب وعقل راحلته ، ثم قال لهم .

يا معشر الأوس والخزرج ، هذا ابن أخى ، وهو أحب الناس إلىّ ، فإن كنتم صدقتموه ، وآمنتم به ، وأردتم إخراجه معكم ؛ فإنى أريد أن آخذ عليكم موثقًا تطمئن به نفسى ، ولا تخذلوه ولا تغروه ، فإن جيرانكم اليهود ، واليهود له عدو . ولا آمَنُ مكرَهم عليه .

فقال أسعد بن زرارة – وشقَّ عليه قول العباس حين اتهم عليه سعدًا وأصحابه – قال : يا رسول الله ائذن لنا فلنجبه غير مخشنين بصدرك ، ولا متعرضين لشىء مما تكره ، إلا تصديقًا لإجابتنا إياك وإيمانًا بك ، فقال رسول الله ﷺ : أجيبوه غير متهمين .

فقال أسعد بن زرارة – وأقبل على رسول ﷺ بوجهه – فقال . يا رسول الله ، إن لكل دعوةٍ سبيلاً ، إن لينٌ وإن شدة ، وقد دعوت اليوم إلى دعوة : متجهمة للناس متوعرة عليهم .

دعوتنا إلى ترك ديننا واتباعك على دينك ، وتلك رتبة صعبة ، فأجبناك إلى ذلك .

ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين الناس من الجوار والأرحام القريب والبعيد ، وتلك رتبة صعبة : فأجبناك إلى ذلك .

ودعوتنا – ونحن جماعة فى دار عز ومنعة لا يطمع فيها أحد – أن يرأسَ علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه ، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك . وكل هؤلاء الرتب

مكروهة عند الناس ، إلا من عزم الله على رشده ، والتمس الخير فى عواقبها . وقد أجبناك إلى ذلك بألسنتنا وصدورنا وأيدينا : إيمانًا بما جئتَ به وتصديقًا بمعرفة ثبتت فى قلوبنا : نبايعك على ذلك ، ونبايع ربنا وربَّك : يد الله فوق أيدينا ، ودماؤنا دون دمك ، وأيدينا دون يدك : نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا ، فإن نفِ بذلك فبالله نفى ، وإن نغدِرْ ، فبالله نغدر ، ونحن به أشقياء ؛ هذا الصدق منا يا رسول الله . والله المستعان .

ثم أقبل على العباس بن عبد المطلب بوجهه ، فقال : وأما أنت أيها المعترض لنا بالقول – دون النبى ﷺ : والله أعلم ما أردت بذلك ، ذكرت أنه ابن أخيك وأحب الناس إليك – فنحن قد قطعنا القريب والبعيد وذا الرحم : ونشهد أنه رسول الله ﷺ : أرسله من عنده ، ليس بكذاب وإن ما جاء به لا يشبه كلام البشر .

وأما ذكرتَ أنك لا تطمئن إلينا فى أمره ، حتى تأخذ مواثيقنا ، فهذه خصلة لا نردها على أحدٍ أرادها لرسول الله ﷺ ، فخذ ما شئت ، ثم التفت إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، خذ لنفسك ما شئت ، واشترط لربك ما شئت . فقال النبى ﷺ : أشترط لربى عز وجل : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، ولنفسى : أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم . قالوا : فذلك لك يا رسول الله .

فقال العباس : عليكم بذلكم عهدُ الله مع عهودكم ، وذمة الله مع ذمتكم فى هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ، تبايعونه وتبايعون الله ربَّكم : يد الله فوق أيديكم . لَتَجِدُّنَّ فى نصره ، ولَتَشُدُّنَّ له من أزرِهِ ، ولَتُوفُنَّ له بعهده ، بدفع أيديكم ، وصرح ألسنتكم ، ونصح صدوركم : لا يمنعكم من ذلك رغبة أشرفتم عليها ، ولا رهبة أشرفت عليكم ولا يؤتى من قبلكم .

قالوا جميعًا : نعم .

قال : الله عليكم بذلك راعٍ ووكيلٌ . قالوا : نعم .

قال : اللهم إنك سامع شاهدٌ ، وإن هذا ابن أخى قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم فكن لابن أخى عليهم شهيدًا .

فرضى القوم بما أعطاهم رسول الله ﷺ من نفسه ، ورضى النبى ﷺ بما أعطَوْه من أنفسهم .

وقد كانوا قالوا له : يا رسول الله إذا أعطيناك ذلك فمالَنا ؟

قال : رضوان الله والجنة .

قالوا : قد رضينا وقبلنا .

فأقبل أبو الهيثم بن التيهان على أصحابه فقال : ألستم أنتم تعلمون أن هذا رسول الله إليكم ، وقد آمنتم به وصدقتموه ؟ قالوا بلى . قال : أولستم تعلمون أنه فى بلد الله الحرام ، ومسقط رأسه ومولده وعشيرته ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن كنتم خاذليه أو مسلميه - يومًا من الدهر - لبلاء ينزل بكم فالآن ، فإن العرب سترميكم فيه عن قوس واحدة ، فإن طابت أنفسكم عن الأنفس والأموال والأولاد فى ذات الله عز وجل ، فما لكم عند الله عز وجل من الثواب ، خير من أنفسكم وأموالكم وأولادكم .

فأجاب القوم جميعًا : لا ، بل نحن معه بالوفاء والصدق . ثم أقبل على النبى ﷺ . فقال : يا رسول الله لعلك إذا حاربنا الناس فيك ، وقطعنا ما بيننا وبينهم من الجوار والحلف والأرحام ، وحملتنا الحرب على سيسائها[1] فكشفت لنا عن قناعها - لحقت ببلدك وتركتنا وقد حاربنا الناس فيك ، فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال « الدم الدم والهدم الهدم » قال عبد الله بن رواحة : خل بيننا يا أبا الهيثم حتى نبايع رسول الله ﷺ ، فسبقَهمُ أبو الهيثم إلى بيعته فقال : أبايعُك يا رسول الله ، على ما بايع الاثنا عشر نقيبًا ؛ من بنى إسرائيل موسى بن عمران ، فقال عبد الله بن رواحة : أبايعُك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى بن مريم . وقال أسعد بن زُرَارة : أبايع اللّهَ وأبايع رسولَ الله ﷺ على أن أتمَّ عهدى بوفائى ، وأصدُق قولى بفعلى ونصرتك . وقال النعمان بن حارثة : أبايع الله يا رسول الله وأبايعك على : الإقدام فى أمر الله ، لا أراقب فيه القريب والبعيد ، فإن شئت والله يا رسول الله ، ملنا بأسيافنا هذه على أهل منى . فقال النبى ﷺ لم أومر بذلك .

وقال عبادة بن الصامت : أبايعك يا رسول الله على : ألاَّ تأخذنى فى الله لومة لائم ، وقال سعد بن الربيع : أبايع الله يا رسول الله وأبايعك على : أن لا أعصيكما ولا أكذبكما حديثًا .

فانصرف القوم إلى بلادهم راضين مسرورين . فسروا بما أعطاهم رسول الله ﷺ من الوحى ، ... ... حتى وافوه من العام القابل وهم سبعون رجلاً .

- ٩ -

لما حضر الحج ، مشى أصحاب رسول الله ﷺ : الذين أسلموا بعضهم إلى بعض ، يتواعدون المسير إلى الحج ، وموافاة رسول الله ﷺ ، والإسلام يومئذ فاش بالمدينة ؛ فخرجوا

(١) سيساء الظهر من الدواب موضع الركوب ، أى حملتنا على ظهر الحرب - مجمع البحار .

وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين في خمر[1] الأوس والخزرج وهم خمسمائة . حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، مكة ، فسلّموا على رسول الله ﷺ ، ثم وعدهم منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول ، إذا هدأت الرِّجْل : أن يوافوه فى الشعب الأيمن إذا انحدروا من مِنى بأسفل العقبة ، حيث المسجد اليوم ، وأمرهم أن لا ينهبوا نائمًا ولا ينتظروا غائبًا . قال فخرج القوم بعد هَدْأةٍ : يتسللون[2] : الرجل والرجلان ، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى ذلك الموضع ، معه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيرَه ، فكان أول من طلع على رسول الله ﷺ ، رافعُ بن مالك الزُّرقى ، ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان . قال أسعد بن زرارة : فكان أولَ من تكلم العباسُ بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمدا إلى ما دعوتموه إليه . ومحمد من أعز الناس فى عشيرته : يمنعه والله ، منا من كان على قوله . ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمدًا الناسُ كلهم غيركم . فإن كنتم أهل قوة وجلد وبَصَر بالحرب ، واستقلال بعداوة العرب قاطبة : ترميكم عن قوس واحدة – فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفرقوا إلا عن ملإ منكم واجتماع . فإن الحديث أصدقُه .

فقال البَرَاء بن معرور ، قد سمعنا ما قلت ، وإنَّا والله ، لو كان فى أنفسنا غيرُ ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق[3] وبذلَ مهج أنفسنا ، دون رسول الله ﷺ ، قال وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، ورغّبهم فى الإسلام ، وذكر الذى اجتمعوا له ، فأجابه البَرَاء بن معرور بالإيمان والتصديق ، ثم قال : يا رسول الله بايِعْنَا ، فنحن أهل الحلْقَةِ[4] ورثناها كابرًا عن كابر .

ويقال إن أبا الهيثم بن التيهان ، كان أولَ من تكلم وأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وصَدقه . وقالوا نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، ولغطوا[5] .

فقال العباس بن عبد المطلب – وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ – اخفوا جَرْسكم[6] ، فإن علينا عيونًا ، وقدِّموا ذوى أسنانكم ، فيكونوا هم الذين يَلُون كَلاَمَنا منكم ؛ فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم .

---

(١) خمر : جماعة .
(٢) يتسللون : ينصرفون فى خفاء .
(٣) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .
(٤) الحلقة : السلاح عامة ، وقيل هى الدروع خاصة .
(٥) لغطوا : من اللفظ وهو صوت وضجة لا يفهم معناه .
(٦) جرسكم : صوتكم .

فتكلم البَرَاء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب . ثم قال : ابْسُطْ يدك يا رسول . فكان أولَ من ضرب على يد رسول الله ﷺ ، البَرَاءُ بنُ معرور . ويقال أولُ من ضرب على يده أبو الهيثم بن التيهان . ويقال أسعدُ بن زرارة . ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه . فقال رسول ﷺ : « إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنىْ عشر نقيبًا ، فلا يجدَن[1] أحد منكم فى نفسه : أن يُؤخذ غيرُه ؛ فإنما يختار لى جبريل » فيما تخيرهم ، قال للنقباء : « أنتم كُفَلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى » قالوا : نعم .

فلما بايع القوم وكلموا[2] . قال رسول الله ﷺ : « انْفَضُّوا إلى رحالكم »[3] فقال العباس ابن عبادة بن نضلة يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ، لئن أحببت لنميلنّ على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيرُه . فقال رسول الله ﷺ : « إنَّا لم نُؤمَرْ بذلك فانْفَضُّوا إلى رحالكم »[4] .

لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ ، طابت نفسه وقد جعل الله له مَنَعَةً[5] وقومًا أهلَ حرب وعُدَّة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ؛ لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه ، وتعبثوا[6] به ، ونالوا منه ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى .

فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، واستأذنوه فى الهجرة فقال : « قد أريتُ دارَ هجرتكم . أريتُ سَبْخَةً ذاتَ نخل ، بين لابتين (وهما الحَرتان) ولو كانت السراة[7] أرض نخل وسباخ لقلت هى هى » ثم مكث أيامًا ، ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال : « قد أُخبِرتُ بدار هجرتكم وهى يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها » فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسَون ، ويخرجون ويخفون ذلك ، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ : أبو سلمة ابن عبد الأسد ، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبى حَثْمة ، فهى أول ظعينة قدمت المدينة ، ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار فى دورهم ، فآوَوهم ونصروهم وواسَوْهم .

وكان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين بقباء ، قبل أن يقدم رسول الله ﷺ[8] . فلما

---

(١) يجدن : يغضبن من وجد عليه يجد وجدًا وموجدة .
(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .
(٣) رحالكم : منازلكم . يقال لمنزل الإنسان وسكنه رحله .
(٤) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٠٧ .
(٥) منعة : قوة تمنع من يريدهم بسوء .
(٦) تعبثوا : عبثوا وهزءوا .
(٧) السراة : البطحاء .
(٨) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢١٠ – ٢١١ .

خرج المسلمون فى هجرتهم إلى المدينة ، كلبت[1] قريش وحربوا[2] واغتاظوا على من خرج من فتيانهم .

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ ، فى العقبة الآخرة ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أول من هاجر إلى قُباء ، خرجوا إلى رسول رسول الله ﷺ بمكة ، حتى قدموا مع أصحابه فى الهجرة .

(هجرة أبى سلمة وزوجه ، وحديثهما عَمَّا لقيا)

– ١ –

.... فكان أول من هاجر إلى المدينة ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، من المهاجرين من قريش – من بنى مَخْزوم – أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، واسمه : عبد الله ، هاجر إلى المدينة ، قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قَدِم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلامُ مَن أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجرًا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى أبى إسحاق بن يسار ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أُبى سلمة ، عن جدته أم سَلَمة ، زوج النبىّ ﷺ ، قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة ، رحل لى بعيرَه ، ثم حملنى عليه ، وحمل معى ابنى سلمة بن أُبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج بى يقودُ بى بعيرَه ، فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قاموا إليه ، فقالوا هذه نفسك غلبتَنَا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خِطَامَ البعير من يده ، فأخذونى منه ، قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد : رَهْط أبى سلمة فقالوا : لا والله ، لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا . قالت : فتجاذبوا بُنَىَّ سلمة بينهم ، حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة ، قالت : ففرق بينى وبين زوجى وابنى قالت : فكنت أُخرج كل غداة ، فأجلسُ بالأبطح ، فما أزال أبكى ... حتى أمسى سنة أو قريبًا منها ، حتى مرَّ بى رجل من بنى عمىٍّ : أحدُ بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : ألا تُخرجون هذه المسكينة ، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ، قالت : فقالوا لى : إلْحَقِى زوجك إن شئتِ .

---

(١) كلبت : اشتدت .

(٢) اشتد غضبهم .

قالت : ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى . قالت : فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة . قالت : وما معى أحد من خلْق الله . قالت : فقلت : أَتَبَلَّغ بمن لقيت حتى أَقْدَمَ على زوجى ...

حتى إذا كنت بالتَّنْعيم ، لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، أخا بنى عبد الدار ، فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أوَ ما معك أحد ؟ قالت : فقلت ، لا والله ، إلا الله وبُنىّ هذا . قال : والله مالك من مَتْرَك ، فأخذ بِخِطام البعير ، فانطلق معى يَهْوِى بى ، فوالله ، ما صحبت رجلاً من العرب قط ، أرى أنه كان أكرمَ منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى ، فحط عنه قيده فى الشجرة ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّواح ، قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال ، اركبى ، فإذا ركبتُ واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بِخِطامه ، فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقُباء ، قال زوجك فى هذه القرية – وكان أبو سلَمة بها نازلاً – فادخُليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعًا إلى مكة ، قال : فكانت تقول : والله ، ما أعلم أهلَ بيتٍ فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة . وما رأيت صاحبًا قط ، كان أكرمَ من عثمانَ بنِ طلحة[1] .

أول من قدم المدينة من المهاجرين

يقول البَرَاء :

أولُ من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ ، مُصْعَب بن عمير ، وابن أم مكتوم . فجعلا يقرئان الناس القرآن . قال ثم جاء عمّار ، وبلال ، وسعد ، قال ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ، قال ثم جاء رسول الله ﷺ ، قال فما رأيت الناسَ فرحوا بشىء قط ، فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله قد جاء ، فما قدم حتى قرأتُ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وسورًا من المفصل[2] .

وهاجر المؤمنون ...

خرج المسلمون جميعًا إلى المدينة ، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعلى ، أو مفتون[3] محبوس ، أو مريض ، أو ضعيف عن الخروج .

---

(١) الروض الأنف جـ ١ ص ١٤٨ – ١٥٠ ط دار الكتب الحديثة .
(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٢١ .
(٣) مفتون : معذب .

وعندئذ ، آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر[1] .

هجرة رسول الله ﷺ ومقدماتها

لما رأى المشركون أصحابَ رسول الله ﷺ قد حملوا الذرارىَ والأطفال إلى الأوس والخزرج ، عَرَفوا أنها دارٌ مَنَعةٍ ، وقوم أهلُ حلَقْة وبأس ، فخافوا خروج رسول الله فاجتمعوا فى دار الندوة ، ولَمْ يتخلف أحد من أهل الرأى والحجا منهم ، ليتشاوروا فى أمره .

قال أبو جهل : أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلامًا نهدًا[2] جلدًا ، ثم نعطيَه سيفًا صارمًا ، فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يدرى بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع ، فتفرقوا على ذلك وأجمعوا عليه ، وأتى جبريل رسول الله ﷺ ، فأخبره الخبر ، وأمره أن لا ينام فى مضجعه تلك الليلة ، وجاء رسول الله ﷺ إلى أبى بكر فقال :

« إن الله عز وجل ، قد أذن لى فى الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ... فقال رسول الله ﷺ : « نعم » .

قال أبو بكر ، فخذ – بأبى أنت وأمى – إحدى راحلتى هاتين ، فقال رسول الله ﷺ : « بالثمن » .

وكان أبو بكر اشتراهما بثمانمائة درهم من نَعمَ فى قُشير ، وعلفهما وأعدهما ، ارتقابًا للهجرة فى صحبة النبى كما كان يشتهى ، فأخذ الرسول ﷺ – إحداهما وهى القَصْوَاء ، وأمر عليًا أن يبيت فى مضجعه تلك الليلة ، فبات فيه علىّ ، وتغشىَّ بُرْدًا أحمر حَضْرميًا : كان رسول الله ﷺ ينام فيه ، واجتمع أولئك النفر من قريش : يتطلعون من صير الباب[3] ويرصدونه[4][5] .

فلما أصبحوا قام على عن الفراش ، فسألوه عن رسول الله ﷺ ، فقال : لا علم لى به .

وصار رسول الله ﷺ إلى منزل أبى بكر ، فكان فيه إلى الليل ، ثم خرج هو وأبو بكر ، فمضيا إلى غار ثور فدخلاه[6] .

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢١١ .
(٢) نهدا : قويًا ضخمًا .
(٣) صير الباب : خرقه .
(٤) يرصدونه : يترقبون خروجه .
(٥) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢١٢ – ٢١٣ .
(٦) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢١٣ .

وكان لأبى بكر منيحة غنم : يرعاها عامر بن فهيرة . وكان يأتيهم بها ليلاً فيحتلبون ، فإذا كان سَحَر ، سَرَح مع الناس . قالت عائشة وجهزناهما أحب الجهاز ، وصنعا لهما سُفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها ، فأَوْكَت[1] به الجِرابَ ، وقطعت أخرى فصيرته عصامًا[2] لفم القِرْبَة ، فبذلك سميت : ذاتَ النطاقين .

ومكث رسول الله ﷺ وأبو بكر فى الغار ثلاث ليال : يبيت عندها عبد الله بن أبى بكر ، واستأجر أبو بكر رجلاً من بنى الديل ، هاديًا خريتا[3] يقال له عبد الله بن أريقط ، وهو على دين الكفر ، ولكنهما أمِنَاه ، فارتحلا ومعهما عامر بن فُهيرة ، فأخذ بهم ابن أريقط يرتجز[4] فما شعرت قريش أين وجَّهَ رسول الله ﷺ[5] .

أبو جهل يضرب أسماء بنت أبى بكر

قال ابن إسحاق : فحدِّثْتُ عن أسماءَ بنت أبى بكر : أنها قالت :

لما خرج رسول الله ﷺ ، وأبو بكر رضى الله عنه ، أتانا نفر من قُريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبى بكر ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ قالت : قلت : لا أدرى والله أين أبى ، قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشًا خبيثًا ، فلطم خدّى لطمة طرح منها قُرطى[6] .

أبو بكر رضى الله عنه يتحدث عن الهجرة :

عن البَراء بن عازب يقول : جاء أبو بكر رضى الله عنه إلى أبى فى منزله ، فاشترى منه رَحْلاً ، فقال لعازب : ابعث ابنَك يحملْه معى ، قال فحملته معه ... فقال له أبى : يا أبا بكر حدثْنى كيف صنعْتما حين سَرَيْت مع رسول الله ﷺ ، قال : نعم ، أسريْنا ليلتنا ، ومن الغد ، حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق لا يمرُّ فيه أحد ، فرفَعت لنا صخرة طويلة لها ظلٌّ . لم تأت عليه الشمس ، فنزلناه عنده ، وسَوَّيْت للنبى ﷺ مكانًا بيدى ينام عليه ، وبَسَطت فيه فروة ، وقلت : نمْ يا رسول الله ، وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام وخرجتُ

---

(١) أوكت : ربطت .
(٢) عصاما : رباطا .
(٣) خريتا : الماهر الذى يهتدى لأخرات المغارة وهى طُرقها الخفية ومضايقها ، وقيل إنه يهتدى إلى خرت (ثقب) الإبرة من الطريق .
(٤) يرتجز : ينشد .
(٥) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢١٤ .
(٦) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٨٤ ط دار الكتب الحديثة .

أنْفُضُ ما حوله فإذا أنا براع مُقبلٍ بغَنَمه إلى الصخرة ، يريد منها مثل الذى أردْنا ، فقلت : لمن أنت يا غلام ؟ فقال لرجل من أهل المدينة أو مكة ، قلت : أفى غنمِكَ لبن ؟ قال : نعم . قلت : أفَتحلُبَ ؟ قال : نعم . فأخذ شاة فقلت انْفُضِ الضَّرع من التراب والشَّعر والْقذَىَ ، قال : فرأيت الراعى يضرب إحدى يديْه على الأخرى ، ينْفُض ، فَحلبَ فى قَعْبٍ كُثْبه من لبنٍ ومعى إداوة حملتها للنبى ﷺ : يرتوى منها : يشرب ويتوضأ . فأتيت النبى ﷺ ، فكرهتُ أن أوقظَه ، فوافقْتُه حين استيقظ ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفلُه ، فقلت اشرَبْ يا رسول الله ، قال : فشرب حتى رضيت ، ثم قال : ألم يَأْنِ للرحيل ؟ قلت : بلى . قال : فارتحلْنا بعد ما قالت الشمس ، واتبَعَنَا سراقة بن مالك ، فقلت : أُتينَا يا رسول الله ، فقال : لا تحزن إن الله معنا ، فدعا عليه النبىُّ ﷺ فارتطمتْ به فرسه إلى بطنها : أرى فى جلَد من الأرض – شك زهير .

خــروج رسول الله ﷺ من الغار :

وكان خروج رسول الله ﷺ من الغار ، ليلة الاثنين لأربع ليال خلوان من شهر ربيع الأول ، فَقَالَ[١] يوم الثلاثاء بقدُيد ، فلما راحوا منها ، عرض لهم سراقة بن مالك بن جُعْشمْ ، وهو على فرس له ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فرسَخَت قوائم فرسه ، فقال يا محمد ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائى ففعل ، فأطلق ورجع[٢] ...

الوصول إلى قباء :

وكان المهاجرون قد استبطأوا رسول الله ﷺ فى القدوم عليهم ، فكانوا يغدون مع الأنصار إلى ظهر حرّة العقبة ،فيتحينون قدومه فى أول النهار ، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم .

فلما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ – وهو يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، ويقال لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول – جلسوا كما كانوا يجلسون ، فلما أحرقهم الشمس رجعوا إلى بيوتهم ، فإذا رجل من اليهود يصيح على أطم[٣] بأعلى صوته : يا بنى قيلة ، هذا صاحبكم قد جاء ، فخرجوا فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه الثلاثة ، فسمُعت الرجة فى بنى عمرو بن عوف والتكبير ، وتلبس المسلمون السلاح ،

(١) فقال : من القيلولة .

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢١٩ مطبعة لجنة النشر للثقافة الإسلامية .

(٣) أطم : بالضم بناء مرتفع .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قُباء ، وجلس رسول الله ﷺ ، وقام أبو بكر يذكر الناس ، وجاء المسلمون يسلمون على رسول الله ﷺ[1] .

الوصول إلى المدينة :

– ١ –

عن زُرارة بن أوفى ، قال : قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، انْجفَل[2] الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ﷺ . قال فجئت فى الناس لأنظر إليه ، قال فلما رأيت وجه رسول الله ﷺ ، إذا وجهه ليس بوجه كذاب .

قال فكان أول شيء سمعته يتكلم به ، أن قال : « يأيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وَصَلُّوا والناس نيام ، وادخلوا الجنة بسلام[3] .

– ٢ –

فنزل نبى الله ﷺ ، جانب الصخرة ، وبعث إلى الأنصار فجاءوا نبى الله ﷺ ، فسلموا عليهما وقالوا : اركبا آمنَيْنِ مطاعين ، قال : فركب نبى الله ﷺ وأبو بكر ، وحفوا حولهما بالسلاح ، قال فقيل فى المدينة : جاء نبى الله ، جاء فاستشرفوا نبى الله : ينظرون ويقولون : جاء نبى الله ﷺ[4] .

فلما كان يوم الجمعة ، ارتفاعَ النهار ، دعا راحلته ، وحشد المسلمون وتلبسوا بالسلاح ، وركب رسول الله ناقته القَصْواء ، والناس معه : عن يمينه وشماله ، فاعترضته الأنصار : لا يمر بدار من دُورهم إلا قالوا هلُمَّ يا نبى الله ، إلى القوة والمنَعَة والثروة ، فيقولُ لهم خيرًا ، ويدعو لهم ويقول : « إنها مأمورة فخلوا سبيلها » فلما أتى مسجد بنى سالم جمع بمن كان معه من المسلمين وهم مائة[5] .

لما أراد رسول الله ﷺ أن ينتقل من قُباء اعترضت له بنو سالم ، فقالوا يا رسول الله ، وأخذوا بِخطِام راحلته ، هلم إلى العدد والعُدةِ والسلاح والمنعة ، فقال : « خلوا سبيلها فإنها

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٢٠ .
(٢) انجفل الناس إليه : ذهبوا مسرعين نحوه .
(٣) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٢١ – ٢٢٢ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٢٣ .

مأمورة » ثم اعترضت له بنو الحارث بن الخزرج فقالوا له مثل ذلك ، فقال لهم مثل ذلك ، ثم اعترضت له بنو عدى له مثل ذلك فقال لهم مثل ذلك حتى بركت حيث أمرها الله[١] .

عن أنس قال : قدم رسول الله ﷺ (المدينة)[٢] فنزل فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف .

فأقام النبى ﷺ أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بنى النجار ، فجاءوا بالسيوف ، وكأنى أنظر إلى النبى ﷺ على راحلته ، وأبو بكر رِدفه ، ومَلأ بنى النجار حوله ، حتى ألقى بفناء أبى أيوب ، وكان يحب أن يصلى حيث أدركته الصلاة ، ويصلى فى مرابض الغنم ، وإنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل إلى بنى النجار[٣] فقال : يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم هذا ، (قدروا ثمن بستانكم لأشتريه) .

قالوا : لا والله ، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله .

قال أنس : فكان فيه ما أقول لكم ، كان فيه قبور المشركين وخَرِبٌ[٤] وفيه نخل ، فأمر النبى ﷺ بقبور المشركين فنبشت ، ثم بالخرب فسويت وبالنخل فقطع ، فصفوا النخل قبلة المسجد ، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون ، والنبى ﷺ معهم وهو يقول :

اللهـــم لا خيرَ إلا خيرُ الآخـــرة   فاغفِرْ للأنصار والمهاجرة[٥]و[٦]

- ٣ -

عن أنس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، لعبت الحبشة بحرابها ، فرحًا بذلك .

عن عائشة قالت : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، جعل النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلـــع البدر علينـــا   مـن ثنيات الـــوداع
وَجَبَ الشكرُ علينـــا   ما دعـــا لله داع[٧]

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٢٣ .

(٢) من البخارى .

(٣) البخارى : إلى ملأ من بنى النجار .

(٤) الخرب : بفتح المعجمة وكسر الراء جمع خربة ككلمة وكلم وجوز الخطابى أنه خرب بضم المهملة وسكون الراء وهى الخروق المستديرة فى الأرض .

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب : هل تنبش قبور مشركى الجاهلية ٦٦/١ .

(٦) الوفا جـ ١ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٧) الوفا جـ ١ ص ٢٥٢ - وذكر ابن قيم فى كتابه القيم زاد المعاد جـ ٣ ص ١٠ أن هذا النشيد حدث فى استقبال النبى ﷺ حينما دنا من المدينة عند قفوله من غزوة تبوك ، ويقول : « وبهم (يتوهم) بعض الرواة فى هذا ويقول : إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة ؛ وهو وهم ظاهر لأن ثنيات الوداع إنما هى من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام .

— ٤ —

عن أنس بن مالك قال : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة ، أضاء منها كل شيء[1] .

— ٥ —

عن البَرَاء قال : جاء النبى ﷺ – يعنى إلى المدينة فى الهجرة – فما رأيت أشدَّ فَرَحًا منهم بشيءٍ من النبى ﷺ ، حتى سمعت النساء والصبيان والإماء يقولون :

هذا رسول الله : قد جاء ، قد جاء .

عن يحيى بن يعلى ، قال : قال على بن أبى طالب يومًا ، وهو يذكر الأنصار وفضلهم وسابقتهم ، ثم قال : إنه ليس بموُمن من لم يحبَّ الأنصار ، ويعرفْ لهم حقوقهم ، هم والله ، ربَوا الإسلام كما يُربيَّ الفِلْو[2] فى فنائهم : بأسيافهم وطول ألسنتهم وسخاء أنفسهم ، لقد كان رسول الله ﷺ ، يخرج فى المواسم فيدعو القبائل : ما أحدٌ من الناس يستجيبُ له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتى القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبلَ القبائل : يعود إليهم سنةً بعد سنة ، حتى إنّ القبائل منهم من قال أما لك أن تيئس منا من طول ما يعرض نفسه عليهم ، حتى أراد الله عز وجل ما أراد بهذا الحى من الأنصار ، فعرض عليهم الإسلام فاستجابوا وأسرعوا ، وآووا ونصروا ، وواسوا ، فجزاهم الله خيرًا ، قدمنا عليهم ، فنزلنا معهم فى منازلهم . ولقد تشاحوا فينا ، حتى إن كانوا ليقترعون علينا ، ثم كنا فى أموالهم أحقَّ بها منهم : طيِّبةً بذلك أنفسَهم ، ثم بذلوا مهجَ أنفسهم دون نبيهم ﷺ وعليهم أجمعين .

عن عائشة قالت : لبِثَ رسول الله ﷺ ، فى بنى عمرو بن عوف ، بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسِّس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته وسار يمشى معه الناس ، حتى بَرَكَت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، وهو يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مِربْدًا للتمر ، لسهل وسُهيل : غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به : هذا المنزل إن شاء الله ، ثم دعا الغلامين فساومهما بالمِربْدِ ليتخذه مسجدًا ، فقالا : بل نَهَبُه لك يا رسول الله .

(١) انظر الطبقات لابن سعد .

(٢) الفلو : بكسر الفاء وسكون اللام : الجحش أو المهر يفطم أو يبلغ السنة .

ثم بناه مسجدًا ، وطفق ينقل معهم اللَّبِن فى بنائه ويقول :

هذا الْحِمَال لا حمـال خيبر هـذا أبـرَّ رُبنـا وأطْهَر

اللهـم إن الخير خيرُ الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة[1]

عن أبى سعيد قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أُسِّس على التقوى من أول يوم .
فقال رجل : هو مسجد قباء . وقال الآخر : هو مسجد رسول الله ﷺ .
قال رسول الله ﷺ : « وهو مسجدى » أخرجه مسلم[2] .

عن أبى سعيد قال : « دخلت على النبى ﷺ ، فسألته عن المسجد الذى أُسِّس على التقوى ، قال : فقبض قبضةٌ من الحصباء ، ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : هذا يعنى مسجد المدينة .

رواه مسلم فى الصحيح[3] .

حدثنا نافع أن عبد الله بن عمر أخبره « أن المسجد كان على رسول الله ﷺ ، مبنيًا باللَّبِن ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا ، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه فى عهد رسول الله ﷺ : باللَّبِن والجريد ، وأعاد عمده خشبًا . وغيَّره عثمان ، فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج » ، رواه البخارى فى الصحيح .

عن ابن عمر رضى عنهما « أن مسجد النبى ﷺ ، كانت سواريه – على عهد رسول الله ﷺ – من جذوع النخل : وأعلاه مُظَلَّل بجريد النخل ، ثم إنها نخرت فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فبناها بجذوع النخل وبجريد النخل ، ثم إنها نخرت فى خلافة عثمان ، فبناها بالآجُر فلم تزل ثابتة حتى الآن[4] أى إلى عهد عبد الله بن عمر رضى الله عنه .

عن عبد الله بن زيد : أن رسول الله ﷺ قال : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » أخرجاه .

---

(١) الوفا جـ ١ ص ٢٥٤ .
(٢) الوفا جـ ١ ص ٢٥٦ .
(٣) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٦٣ – ٢٦٤ .
(٤) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

عن أبي هريرة وأبي سعيد : أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة : ومنبري على حوضي . أخرجه الشيخان[1] .

المسجد النبوي :

عن ابن عمر قال : كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنيًا باللبن وسقفه الجريد ، وعمده الخشب من النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئًا ، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشبا ، ثم غيّره عثمان وزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصَّة[2] ، وجعل عمده من حجارة منقوشة بالساج . انفرد بإخراجه البخاري[3] .

الخطبة الأولى :

وكانت أول خُطْبة خطبها رسول الله ﷺ – فيما أخبر أبو سلَمَة بن عبد الرحمن ، ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل – أنه قام فيهم ؛ فحمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد :

أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تَعْلَمُنَّ والله ، ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ثم ليَدَعَنّ غَنَمَه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ، وليس له ترَجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبُه دونه : ألم يأتك رسولى فبلَّغك ، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظُرَنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا ، ثم ليَنظرَنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهَه من النار ولو بشقٍّ من تمرة فليفعل ، ومن لم يَجِد ، فبكلمةٍ طيبة ، فإنَّ بها تُجزَى الحسنة عشرَ أمثالها ، إلى سَبعمَائة ضِعفٍ ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[4] .

الخطبة الثانية :

والخطبة الثانية لرسول الله ﷺ ، في مسجده المبارك . هي :

إنَّ الحمد لله ، أحمدهُ وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَنْ يهدِهِ اللّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، إنَّ أحْسَنَ الحديث كتابُ الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ،

---

(١) الوفا جـ ١ ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(٢) القصة : الجصد (الجيد) .

(٣) الوفا جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٤) الروض الأنف جـ ٤ ص ٢٣٩ ط دار الكتب الحديثة .

واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسنُ الحديث وأبلغه ، أحِبوا مَنْ أحبَّ الله ، أحِبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تَمَلوا كلامَ الله تعالى وذكره ، ولا تَقْسُ عنه قلوبُكم ، فإنه مِن كل يختار الله ويصطفى ، فقد سماه خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أتى الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، واتقوه حقَّ تُقَاته ، واصدقوا الله صالحَ ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضبَ أن يُنْكثَ عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »[1] .

المدينة :

عن أبى هريرة « أن رسول الله ﷺ ، قال : اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىّ ، فأسكنى أحب البلاد إليك ، فأسكنه الله المدينة » .

عن سعيد بن يسار يقول : سمعت أبا هريرة يقول : « قال رسول الله ﷺ : أمِرت بقرية تأكل القرى ، يقولون : يثرب ، وهى المدينة : تنفى الناس كما ينفى الكيرُ خبَثَ الحديد » رواه البخارى فى الصحيح .

عن أبى هريرة « أن رسول الله ﷺ قال : إن الإيمان ليأرِزُ[2] إلى المدينة كما تأرزُ الحية إلى جُحْرِها » رواه مسلم فى الصحيح .

عن ابن عمر قال : « قال رسول الله ﷺ : إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين[3] كما تأرز الحية إلى جحرِها » رواه مسلم فى الصحيح[4] .

عن أبى عبد الله القراظ قال : سمعت أبا هريرة وسعدًا يقولان : قال رسول الله ﷺ : اللهم بارك لأمتى فى مُدِّهم[5] ، وبارك لهم فى صَاعهم[6] ، وبارك لهم فى مدينتهم . اللهم إن إبراهيم عبدُك وخليلُك ، وإنى عبدُك ورسولُك ، وإن إبراهيم سألك لمكةَ ، وإنى أسألك للمدينة مثل ما سألك إبراهيم لمكة . ومثله معه إن المدينة مُشبكةَ بالملائكة ، على كل نَقْب

---

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٢) يأرز : ينضم ويجتمع بعض إلى بعض .
(٣) المسجد الحرام والمسجد النبوى .
(٤) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٥) المد : مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ورطلان عند أهل العراق .
(٦) الصاع مكيال يساوى أربعة أمداد .

منها ملائكة يحرسونها : لا يدخلها الطاعون ولا الدجال ، من أراد أهلها بسوء أذابه الله عز وجل ، كما يذوب الملح فى الماء » رواه مسلم فى الصحيح[1] .

عن أبىّ بن كعب ، قال : « لما قدِم رسول الله ﷺ المدينةَ وآوتهم الأنصار – رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة . وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل ؟ فنزلت : ﴿وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمنوا مِنكمْ وَعمِلوا الصالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهمْ فى الأَرْضِ كما استَخْلفَ الذِينَ مِنْ قبلِهِمْ وليمكنَنَّ لهمْ دينَهُمُ الذى ارْتضَى لهم ، وليبدلَنّهمْ مِنْ بَعد خَوْفِهمْ أمْنًا يَعبدونَنى لا يشرِكون بى شيئًا ، ومَن كَفرَ بعدَ ذَلكَ فأولئكَ هم الفاسِقونَ﴾[2] .

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .
(٢) النور : ٥٥ – دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٩٩ .

﴿لكن الله يشهد بما أنزل
إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل السابع عن :

المعجزات

المعجزات

إن القرآن الكريم : تحدث عن معجزات حسية كثيرة ، تحققت على أيدى الرسل ، وفى أقوالهم صلوات الله وسلامه عليهم ..

والمثال الخِصب فى ذلك هو جوّ سيدنا عيسى – عليه السلام – كله :

١ – جوه من ناحية أمه قبل الحمل :

﴿كُلَّما دَخَلَ عليها زكريَّا المحرابَ وَجَدَ عندها رزقًا ؛ قال : يَا مريمُ أنَّى لكِ هذا ؟ – قَالتْ : هوَ مِن عندِ الله .. إن الله يرزقُ مَن يشاء بغير حساب﴾[1] .

٢ – وجوُّه من ناحية الحمل :

﴿واذكرْ فى الكتابِ مريمَ إذِ انْتَبذَتْ مِن أهلِهَا مكانًا شَرْقِيًّا . فاتخذَتْ من دونهم حجابًا فأرسلْنَا إليهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لها بَشَرًا سَوِيًّا .

قَالت : إنى أعوذُ بالرحمنِ منكَ إن كنتَ تقِيا . قالَ : إنما أنا رسولُ ربِّكِ لأهَبَ لك غلامًا زكيًّا﴾[2] .

وفوجئت مريمُ بهذا الخبر الغريب : الذى لم تكن تتوقعه .

ويصوّر القرآن الكريم مفاجأتها فيقول :

﴿قالتْ : أنَّى يكونُ لى غلامٌ ، ولم يَمْسَسْنى بشَر ، ولم أكُ بَغِيا﴾[3] ..

وجاءها الرد الحاسم :

﴿قال : كذلِكِ .. قال ربكِ : هو علَىَّ هَيِّنٌ ، ولِنجعلَهُ آية للناسِ ورحمة مِنَّا ، وكان أمرًا مقضيًّا﴾[4] ..

ويتابع القرآن الإخبار بما حدث ، فيقول :

---

(١) آل عمران : ٣٧ .
(٢) مريم : ١٦ – ١٩ .
(٣) مريم : ٢٠ .
(٤) مريم : ٢١ .

﴿فَحَمَلَتْهُ ، فانْتَبَذَت به مكانا قَصِيا . فَأَجَاءَهَا المخاضُ إلى جِذع النخلة﴾[1] ..

وتصورت مريم ما سيتمخض عنه الوضع : من مفاجأة الناس ؛ ومن اتهامهم لها فقالت :

﴿يَا لَيْتَنِى مِتُّ قبل هذا وكنتُ نَسْيًا مَّنْسِيًّا﴾[2] .

وهنا نصل إلى جوٍّ ثالث فى حياة عيسى – عليه السلام – هو :

٣ – جوُّ حديثه فى اللحظات الأولى لميلاده :

﴿فَنَادَاها مِن تَحْتِهَا ألاَّ تحزنى ، قد جعل ربُّكِ تحتكِ سَرِيا﴾[3] .

والقراءات تعين أن المنادِى عيسى عليه السلام ، وذلك أن إحدى القراءات هى :

﴿فناداها مَنْ تَحْتَها﴾ .. بفتح الميم .

وكان ما توقعته مريم من اتهامها .

ويصور القرآن ذلك فى قوله تعالى :

﴿فأَتَتْ به قومَها تحمله قالوا : يا مريمُ لقد جئتِ شيئا فَرِيًّا ، يا أُخْتَ هارونَ ما كان أبوكِ امْرَأ سَوءٍ ، وما كانت أُمُّكِ بغيا﴾[4] ..

وهنا أشارت مريم عليها السلام إلى عيسى ، ليخاطبوه ، وليرد عليهم :

فقالوا – فى دهشة – ﴿كيف نكلِّمُ من كان فى المهد صَبِيًّا﴾[5] .

ورد عليهم عيسى – وهو فى المهد – قائلا :

﴿إنى عبدُ الله آتانِىَ الكتابَ وجعلنى نبيًّا ، وجعلنى مباركًا أينما كنتُ وأوصانى بالصلاة والزكاةِ مادمت حيًّا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًّا ، والسلام علىَّ يوم وُلِدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حَيًّا﴾[6] .

ونشأ عيسى – عليه السلام – وترعرع : وأصبح رجلاً مكتملاً ، وعلَّمه الله الكتابَ والحكمة ، والتوراة والإنجيل ، وآتاه النبوة ، وأرسله إلى بنى إسرائيل ..

ويسلمنا هذا إلى الحديث عن :

---

(١) مريم : ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) مريم : ٢٣ .
(٣) مريم : ٢٤ .
(٤) مريم : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) مريم : ٢٩ .
(٦) مريم : ٣٠ – ٣٣ .

٤ – معجزاته :

أما معجزته أو معجزاته ، فقد بينها القرآن فى قوله تعالى :

﴿ورسولاً إلى بنى إسرائيل ؛ أنى قد جئتُكم بآيةٍ من ربكم ، أنى أخلقُ لكم من الطين كهيئة الطير ؛ فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله وأُبرِئ الأكْمَهَ والأبرصَ وأحْيِ الموتى بإذن الله ، وأنبِّئكم بما تأكلون وما تدَّخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾(١) ..

لقد كان جو عيسى – عليه السلام – كله خارقًا للعادة ..

وكانت خوارق العادات كثيرة بالنسبة لأمِّه ، مع أنها لم تكن نبية ولا رسولة ..

ونحن نؤمن بذلك كله ..

ونؤمن بأن عيسى – عليه السلام – ما كان فى استطاعته الذاتية أن يخلق ذبابًا ، هو ولا أمه الصديقة ، ولو اجتمعا له ، وإنْ يسلُبْهُمَا الذباب شيئًا لا يستنقذانه منه ..

إنهما بذاتهما لا يخرقان عادة ، ولا يأتيان بمعجزة ... إنهما بشر ... وإنما كل ذلك بإذن الله ...

ومن أجل ذلك ، كان عيسى – عليه السلام – يقول : عقب ذكر المعجزات : « بإذن الله »

وقدرة الله فوق كل ذلك ، وهو سبحانه القائل :

﴿إن مَثَلَ عيسى عند الله كَمَثَل آدمَ ، خَلَقَه من تُرابٍ﴾(٢) ..

فإذا كان عيسى – عليه السلام – نشأ من غير أب : فإنه قد حمل فى الوعاء العادى الذى يحمل فيه الجنين عادة .. أما آدم فإن أمره فى خرق العادة أغرب .. إنه من غير أب ، ولم يحمل فى رحم أم !! .

إننا نؤمن بعيسى ، ونؤمن بجميع أجوائه .. ونؤمن بجو آدم ، ونؤمن بإلقاء إبراهيم فى النار فلم تحرقه ، ونؤمن بناقة صالح ، وبعصا موسى ، ونؤمن بهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ، وأنهم لبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا ..

ونؤمن بهذا الذى مَرَّ على قرية وهى خاويةٌ على عروشها قال :

---

(١) آل عمران : ٤٩ .

(٢) آل عمران : ٥٩ .

﴿أنّى يُحيِى هذه الله بعد موتها ؟ .. فأماتهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثم بعثه ، قال : كَم لبثت ؟ .. قال : لبثت يومًا أو بعضَ يوم .. قال بل لبثت مائة عامٍ .. فانظُرْ إلى طعامك وشرابك لم يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حمارك ولنجعلَكَ آيةً للناس ، وانظر إلى العظام كيف نُنشِزُها ثم نكسوها لحمًا ، فلما تبيَّن له قال : أعلم أن اللهَ على كل شيء قدير﴾[1] ..

ونؤمن أيضًا بمعجزات محمد – ﷺ – التى وردت عن طريق صحيح .

نؤمن بها على تنوعها واختلافها ، ما دامت قد وردت فى القرآن الكريم أو فى صحاح الأحاديث .

وقد تحدث القرآن عن معجزة الإسراء والمعراج :

﴿سبحان الذى أسْرَى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركْنا حوْلَه لنريَه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[2] ..

وتحدث عن معجزة عصمته – ﷺ – من أعدائه طيلة حياته ﴿والله يَعْصِمك من الناس﴾[3] .

وآية انتصار الروم : تحدث القرآن عنها : إنباءً بالغيب ، آيةً للرسول ﷺ[4] ..

إننا نؤمن بخرق الله للعادة ، بالنسبة للأنبياء ، وبالنسبة للأولياء .

وتفرقة العلماء بين المعجزة والولاية معروفة . والمسألة – فى هذا – أهون من أن يتناقش فيها الناس ..

ولا مناص من أن نؤمن بالمعجزات لرسول الله – ﷺ – حينما ترد عن طريقه أو عن طرق صحيحة – أى حينما تثبتها السنّة الصحيحة – ولا شبهةَ قط فى قوله تعالى :

﴿ومَا منَعَنَا أنْ نُرسِلَ بالآيات إلا أن كَذَّب بها الأولون﴾[5] ..

وذلك أن سنة الله – سبحانه وتعالى – قاضيةٌ بأنه إذا طلب قوم آية : فأذن الله بها ؛ وتحققت لهم ، ثم لم يؤمنوا بها – وهم الذين طلبوها – فإن الله – سبحانه يدّمرهم تدميرًا ..

ولقد دّمر الله قومَ صالح الذين طلبوا الآية ، فلما تحققت كفروا بها ..

---

(١) البقرة : ٢٥٩ .
(٢) الإسراء : ١ .
(٣) المائدة : ٦٧ .
(٤) أول سورة الروم .
(٥) الإسراء : ٥٩ .

ودمر الله كل قوم طلبوا المعجزات وألحوا فى طلبها ، فأنزل الله عليهم الآياتِ استمروا فى كفرهم ..

وما من شك فى أن الله دمر أممًا لأسباب أخرى ، ترجع عادة إلى الظلم والكبر والطغيان ؛ وقص علينا قَصَصَهُم فى القرآن الكريم ، كما قص علينا قصة قوم صالح ..

تلك سنّة الله ..

ولقد طلب أهل مكة – فى تبجح وعناد – بعض الآيات المعينة ، ولم يطلبوها من أجل الإيمان ، وإنما طلبوها تعنتا ..

يقول سبحانه :

﴿وقالوا لَن نؤمنَ لكَ حتى تفجُرَ لنا من الأرْض يَنْبُوعًا . أو تكونَ لكَ جنةٌ من نخيل وعنب فتفجرَ الأنهارَ خلالها تفجيرًا ، أو تُسْقِطَ السماءَ كما زعمتَ علينا كِسَفًا أو تأتيَ باللهوالملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيتٌ من زخرفٍ أو ترقى فى السماء ولن نؤمنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتابًا نقرؤُه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولاً﴾[1] ..

ولقد شرح القرآن موقفهم الذى لا إخلاص فيه ؛ وكله تعنت وجحود ، فقال :

﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يَعْرُجُون ، لقالوا إنما سُكِّرَتْ أبصارُنَا بل نحن قوم مسحورون﴾[2] ..

إنهم ما كانوا ليؤمنوا مهما آتاهم الله من آيات ..

ولقد كان فى مقادير الله – سبحانه – أن يُبْقِيَ هؤلاءِ المكيين ، ليكونوا من أنصار الإسلام ومن حماته ..

لقد كان فى مقادير الله أن أن يبقى أمثال خالد بن الوليد ، حتى يكونوا سيوفًا لله ؛ دفاعًا عن دينه ، وسيرًا فى نور نبيه ..

ومن أجل ذلك لم يُنَزِّلْ عليهم المعجزات التى طلبوها ..

أما الآيات التى أتت عفوًا ، فأثبتتها السنة الصحيحة ، فإنها كثيرة ..

والصفحات التالية : بيان لبعض معجزات الرسول – ﷺ – مبتدئةً بالقرآن الكريم ..

وإننا فى هذا الباب ، لم نثبت كل المعجزات ، وإلاَّ لطال بنا القول كثيرًا .

---

(١) الإسراء : ٩٠ – ٩٣ .

(٢) الحجر : ١٤ ، ١٥ .

والبعض الذى أثبتناه ، كان مرجعَنا فيه أصحُّ الكتب : وأوثق المصادر ، والله المستعان وله الحمد والمنّة ..

وما من شك فى أن أشق مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل : إنما هى إقناع الناس برسالته ..

وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع ؛ واختلفت أساليبه ..

وقد بدأ الرسول – ﷺ – كأسلافه ؛ بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء ، وأن الوحى ينزل عليه تباعًا .. وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية ردّدها القرآن فى غير ما موضع ، هى : تزكية النفوس وتطهيرها ..

وتزكيتها وتطهيرها خلقيًا واجتماعيًا : مؤسسًا ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة :

﴿لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسِهم يتلو عليهم آياتِهِ ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ ، وإن كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مبين﴾[1] ..

﴿ربَّنا وابعَثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلِّمهمُ الكتابَ والحكمة ويزكِّيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[2] ..

ومن أجل ذلك ، كان إرساله رحمة للعالمين :

﴿وما أرسلناكَ إلا رحمة للعالمين﴾[3] ..

ولكنَّ العرب سخِروا من دعوته ، وكان لابد من أن يفحمهم بآية من آيات الله ، فكانت هذه الآية هى القرآن .

لقد تحدّاهم به فى عُنف ، وتحداهم – مُتَدَرِّجًا بهم – من أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ، إلى أن يأتوا بعشْرِ سور مثله ، ثم انتهى بهم أخيرًا إلى أن يأتوا بسورةٍ من مثله ، قال تعالى :

﴿قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرًا﴾[4] .

---

(١) آل عمران : ١٦٤ .

(٢) البقرة : ١٢٩ .

(٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(٤) الإسراء : ٨٨ .

﴿أم يقولون افْتَرَاه قل فأتوا بعشرِ سور مثله مفْتَرَيات وادعوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1] .

﴿وإن كنتم فى ريب مما نَزَّلْنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التى وَقُودُهَا الناس والحجارة أعِدَّت للكافرين﴾[2] .

إن الكثيرين من أسلافنا – رضوان الله عليهم – قد جرّدوا أنفسهم تجريدًا كاملاً ، أو شبه كامل لخدمة سيرة رسول الله – ﷺ – فلم يدعوا شأنًا من شئونه إلا حققوه[3] ، وزاف ما زاف ، وبقى الصحيح الطيب ..

وإن عملهم فى نخل الأخبار ، وتنقيتها وتصفيتها – بحيث وضح من أمر الرسول – ﷺ – كل شىء – لَعَمَلٌ جليل رائع ، دقيق كل الدقة .

وقد ورد فى سيرته الشريفة ، ذكر من المعجزات الحسية وثبتت هذه المعجزات عن طرق عدة كلها صحيح ..

ولا مناص للمنصف من الإيمان بها ، فهى ثابتة عن طرق توافر لها كل شروط الصحة ، وهى ليست بأشدَّ غرابة مما كان للأنبياء من قبل ..

---

(١) هود : ١٣ .

(٢) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .

وفى هذه الآيات كرر القرآن لفظ « مثل » . والمثلية لا تختص بجانب دون جانب ، وإنما تعم جميع المناحى .

والواقع : أن النقاش فى أن القرآن معجز بأسلوبه ، أو بمعانيه ، أو بقصصه ، أو بإخباره عن المغيبات ، أو بغير ذلك من وجوه الإعجاز – إنما هو : نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية التى هى فى التماثل من جميع النواحى ..

قال صاحب البحر المحيط :

والمثلية فى : حسن النظم ، وبديع الوصف ، وغرابة الأسلوب ، والأخبار بالغيب ، مما كان وما يكون ، وما احتوى عليه من : الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، والقصص ، والحكم ، والمواعظ والأمثال ، والصدقة ، والأمن من التحريف والتبديل » .. جـ ١ ص ١٠٤ – ١٠٥ .

ومنشأ الاختلاف فى تحديد وجوه الإعجاز فى القرآن : راجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية ، والاتجاهات الفكرية ، لإدراكها ومعرفتها ..

فمثلا : من وجد القرآن مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وأخبار السابقين ، والغيبيات التى لا تحيط بها البشرية علما – حصر وجوه الإعجاز فيما أدرك ..

ومن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ ، وحسن السبك ، وجزالة الأسلوب ، وماله من روعه تملك على السامع شعوره ووجدانه – حصر الإعجاز فى ذلك .. ومن أجال فكره فيما حواه القرآن من الأسرار الكونية ، التى تكشف عنها العلوم والبحوث أيا ما كانت – فهو مصدق لما فى الطبيعة والفطر : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » – سورة فصلت ٥٣ – اتجه هذا الاتجاه .. الخ ..

(٣) يقول أحد المستشرقين عن المحدثين : إنهم عرفوا كل شىء فى حياة نبيهم حتى عدوا الشعرات البيض فى رأسه .

ثم إنها لا تناقض العقل ..

وما من شك فى أن معجزة الرسول الكبرى ، هى القرآن ..

وإذا كان القرآن هو المعجزة الكبرى ؛ فإن معجزات أخرى كثيرة بجوار القرآن مؤيدة له ؛ فقد ثبتت لنبينا ﷺ ..

القرآن أعظم معجزة :

يقول ابن خلدون فى علامات الأنبياء :

ومن عَلاَماتهم أيضًا ، وقوع الخوارق لهم ، شاهدة بصدقهم وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها ، فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد ، وإنما تقع فى غير محل قدرتهم ..

وإذا تقرر ذلك ، فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها ، وأوضحها دلالة : القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد – ﷺ – فإن الخوارق – فى الغالب – تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة مصدقة ..

والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز ؛ فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه .

وهذا معنى قوله – ﷺ – :

« ما من نبى إلاَّ وقد أُعطِىَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون اكثرَهم تابعًا يوم القيامة »[1] .

يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى ، كان التصديق لها أكثير لوضوحها ، فكثر المصدق المؤمن ، وهو التابع والأمة ..

ويقول صاحب الشفاء :

وعن أبى هريرة ، عنه ، ﷺ ، قال :

« ما من نبىٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعطِىَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيتُ وحيًا أَوْحى الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة »[2] .

معنى هذا عند المحققين : بقاء معجزته ما بقيت الدنيا ، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت

---

(١) رواه الشيخان ، وأحمد .

(٢) رواه الشيخان وأحمد .

للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن إلى يوم القيامة ..

عن إعجاز القرآن :

لقد كتب الكاتبون من زمن بعيد عن إعجاز القرآن : كتب بعضهم كتبًا كاملة فى إعجازه ، كما فعل الإمام الباقلانى قديمًا ، وكما فعلْ مصطفى صادق الرافعى حديثًا ، وكانوا فى ذلك متابعين للقرآن الكريم الذى تحدى العرب ؛ بل تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو يأتوا بمثل جزء منه .

وفى ذلك يقول صاحب كتاب الوفا : « لما غَلَبَ السحر فى زمن موسى عليه السلام ، جاءهم بجنسه فى معجزاته ، فَفَلَقَ البحرَ ، وألقى العصا ..

ولما غلب الطب فى زمن عيسى عليه السلام ؛ جاءهم بجنسه فأحيا الموتى وأبرأ الأكمه ..

ولما غلبت الفصاحة وقول الشعر ؛ والنظم والنثر فى زمن نبينا – ﷺ – جاءهم القرآن ، وهو معجز من أوجه :

أحدها : ما يشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة ، فى الإيجاز والإطالة ، فتارة يأتى بالقصة باللفظ الطويل ، ثم يعيدها باللفظ الوجيز فلا يخل بمقصود الأولى .

والثانى : مقارنته لأساليب الكلام وأوزان الأشعار ..

وبهذين المعنيين تحدثت العرب ، فعجزوا وتحيروا وأقروا بفضله .

والثالث فى معجز القرآن : ما تضمن من أخبار الأمم السالفة ، وسَير الأنبياء التى عرفها أهل الكتاب ، مع كون الآتى بها أميًّا : لا يكتب ولا يقرأ ، لا علم لَه بمجالسة الأحبار ولا الكهان . ومن كان من العرب يكتب ويقرأ ويجالس علماء الأحبار لم يدرك ما أخبر به القرآن ..

والرابع : إخباره عن الغيوب المستقبلة : الدالة على صدقه قطعًا ، لوقوعها على ما أخبر ، كقوله ﴿فَتَمَنَّوُا الموت﴾ ثم قال : ﴿ولن يَتَمَنَّوه أبدا﴾[١] .. وقوله : ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ .. ثم قال : ﴿ولن تفعلوا﴾[٢] .. فما فعلوا .. وقوله : ﴿قل للذين كفروا ستغلَبُون﴾[٣] .. وغُلِبوا .. وقوله : ﴿لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين﴾[٤] ..

---

(١) سورة البقرة : ٩٤ ، ٩٥ .
(٢) سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) آل عمران : ١٢ .
(٤) الفتح : ٢٧ .

ودخلوا .. وقوله فى أبى لهب : ﴿سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لَهَب .. وامرأته﴾[1] .. وهذا دليل على أنهما يموتان على الكفر وكذلك كان[2] .

والخامس : أنه محفوظ من الاختلاف والتناقض :

﴿ولَوْ كان مِنْ عندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيه اختلافًا﴾[3] ... وقال تعالى : ﴿إنا نحن نزّلنا الذكرَ وإنا له لحافظون﴾[4] ..

قال ابن عقيل : حُفِظَ جميعهُ . وآياتُه وسوَرُه التى لا يدخل عليها تبديل ، من حيث عجز الخلائق عن مثلها ، فكان القرآن حافظ نفسه من حيث عجز الخلائق عن مثله ... .

قال أبو الوفا على بن عقيل :

« إذا أردت أن تعلم أن القرآن ليس من قول رسول الله – ﷺ – وإنما هو ملقى إليه ، فانظر إلى كلامه كيف هو إلى القرآن ، وتلمَّح ما بين الكلامين والأسلوبين – ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه ، وما للنبى – ﷺ – كلمة تشاكل نمط القرآن ..

قال ابن عقيل : ومن إعجاز القرآن ، أنه لا يمكن لأحد أن يستخرج منه آية قد أخِذَ معناها من كلام قد سبق ، فإنه مازال الناس يكشف بعضهم عن بعض ، فيقال : « المتنبى أخذ من البحترى » ..

ويقول صاحب الوفا ، عن إعجاز القرآن :

وقد استخرجت معنيين عجيبين :

أحدهما : أن معجزات الأنبياء ذهبت بموتهم ، فلو قال ملحد اليوم : أى دليل على صدق محمد وموسى ؟ .. فقيل له : محمد شق له القمر ، وموسى شق له البحر .. لقال : هذا محال .. فجعل الله سبحانه هذا القرآن معجزا لمحمد – ﷺ – يبقى أبدًا .. ليظهر دليل صدقه بعد وفاته ، وجعله دليلا على صدق الأنبياء ؛ إذ هو مصدّق لهم ومخبر عن حالهم .

والثانى : أنه أخبر أهل الكتاب بأن صفة محمد – ﷺ – مكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل ، وشهد لحاطب بالإيمان ، ولعائشة بالبراءة ، وهذه شهادات على غيب .. فلو لم

---

(١) المسد : ٣ ، ٤ .
(٢) راجع الوفا جـ ١ ص ٢٢٦٩ .
(٣) النساء : ٨٢ .
(٤) الحجر : ٩ .

يكن فى التوراة والإنجيل صفته ، كان ذلك منفرا لهم عن الإيمان به – ولو علم حاطب وعائشة من أنفسهما خلاف ما شهد لهما به ، نفرا عن الإيمان[1] ..

وعن إعجاز القرآن يقول الأستاذ « اتيين دينيه » ؛ الكاتب الفرنسى الذى أسلم وحج إلى بيت الله الحرام ؛ وكتب الكثير فى فضل الإسلام ؛ وفى بيان مبادئه السامية :

إن معنى « آيات » : « العلامات المعجزة »[2] ..

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمدًا كانت فى الواقع معجزات وقتية ، وبالتالى معرضة للنسيان السريع ؛ بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآية القرآنية .. « المعجزة الخالدة » .. ذلك أن تأثيرها دائم ، ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن فى كل زمان ،وفى كل مكان ، أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله ..

وفى هذه المعجزة نجد التعليل الشافى للانتشار الذى أحرزه الإسلام ، ذلك الانتشار الذى لا يدرك سببه الأوربيون ،لأنهم يجهلون القرآن ، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ، فضلاً عن أنها غير دقيقة .

إن الجاذبية الساحرة التى يمتاز بها هذا الكتاب ،الفريد بين أمهات الكتب العالمية ، لا تحتاج منا – نحن المسلمين – إلى تعليل – ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله ، ولكننا نرى من الطريف أن نورد هنا رأيين لمستشرقين ذاعت شهرتهما عن جدارة .. يقول « سفرِى » – وهو أول من ترجم القرآن إلى الفرنسية : « كان محمد عليمًا بلغته ، وهى لغة لا نجد على ظهر البسيطة ما يضارعها غنى وانسجامًا – إنها بتركيب أفعالها ، يمكنها أن تتابع الفكر فى طيرانه البعيد ، وتصفه فى دقة دقيقة .. وهى بما فيها من نغم موسيقى تحاكى أصوات الحيوانات المختلفة ، وخرير المياه المنسابة ، وهزيم الرعد ، وقصف الرياح .

كان محمد عليمًا – كما قلت – بتلك اللغة الأزلية التى تزينت بروائع كثير من الشعراء ، فاجتهد محمد أن يحلى تعاليمه بكل ما فى البلاغة من جمال وسحر ..

ولقد كان الشعراء فى الجزيرة العربية يتمتعون من التقدير بأسمى مكانة .. ولقد علق لبيد بن ربيعة ، الشاعر المشهور ؛ إحدى قصائده على باب الكعبة ، وحالت شهرته وقدرته الشاعرية دون أن ينبرى له المنافسون ، ولم يتقدم أحد لينازعه الجائزة ..

---

(١) راجع الوفا .. جـ ١ ص ٢٧٠ – ٢٧٢ .

(٢) انظر فى ذلك كتاب : محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذى ترجمناه عن الفرنسية ونشرته دار المعارف .

وذات يوم علق بجانب قصيدته السورة الثانية من القرآن[1] (وقيل السورة الخامسة والخمسين)[2] ، فأعجب بها لبيد أيما إعجاب ، رغم أنه مشرك ، واعترف بمجرد قراءة الآيات الأولى بأنه قد هزم ، ولم يلبث أن أسلم ..

وفى ذات يوم سأله المعجبون به عن أشعاره ، يريدون جمعها فى ديوان ، فأجاب :

« لم أعد أتذكر شيئًا من شعرى ، إذ أن روعة الآيات المنزلة لم تترك لغيرها مكانًا فى ذاكرتى » .

ويقول استانلى لين بول :

« إن أسلوب القرآن فى كل سورة من سوره لأسلوب أبيٍّ يفيض عاطفة وحياة .. إن الألفاظ ألفاظ رجل مخلص للدعوة ، وإنها لاتزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفى ثناياها تلك الجذوة التى ألقيت بها[3] .

إنها ألفاظ قُدَّتْ من قلب إنسان يستحيل معها أن يكون منافقًا ، وهذا القلب هو قلب رجل كان له أخطر الشأن فى تاريخ الإنسانية » ..

إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه ، يحدث مثل هذا التأثير فى نفوس مثل هؤلاء العلماء الذين لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة ، فماذا ترى أن يكون له من سحر يستهوى عرب الحجاز ، وهم الذين نزلت عليهم الآيات بلغتهم الشعرية الجميلة ؟ ..

لا يستطيع أن يكون لنفسه عن ذلك فكرة مقاربة ، وإن كان مصغرة ؛ إلا أنتم أيها المسافرون حينما تتاح لكم الفرصة لمشاهدة التأثر الذى يمتلك قلوب قوم ينصتون إلى الإمام ، وهو يرتل الآيات المقدسة ..

لقد شاهدتم أقل الأعراب شأنًا – فور وصولهم من أسفارهم المجهدة ، وقد كستهم رمال الصحراء ، حيث ذاقوا من المتاعب أشقها يتسابقون إلى المسجد ، يجذبهم إليه – كالمغناطيس – صوت الإمام ، فيفضلون الاستماع إلى ترتيله ، على الاستسلام إلى نوم هادئ

---

(١) سورة البقرة .
(٢) سورة الرحمن .
(٣) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مريخ ، وفى شهر رمضان يقضون الليل فى الإنصات – الإنصات المستغرق – لآيات الله ، بعد يوم شاق لم يذوقوا فيه طعامًا ولا شرابًا .

حقا إن أعراب عصرنا الذين لم ينالوا أدنى قسط من العلم لا يدركون دائمًا المعنى الحرفى للألفاظ التى يقرؤها الإمام ، بيد أن الموسيقى العذبة والتوقيع اللطيف ، والجرس المنسجم ، كل هاتيك الأشياء التى تلزم الآيات العجيبة ، تجد صداها فى قلوبهم ، فتحمل إليهم شرحًا قد يكون غير دقيق ، ولكنه على كل حال يثير الخيال فى قوة خصبة ، وإليه تطمئن القلوب ؛ بجوار هذه الآيات التى ترتل ، صادرة عن تأثّر عاطفى ؛ يبدو معه شرح النحويين والمنطقيين جثة لا حياة فيها ..

أما عرب الحجاز الذين يدركون أدق معانى اللغة القرآنية التى هى لغتهم الخاصة ، والذين أخذوا السور عن مواطنهم الرسول العبقرى ، فكانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة ، فيظلون فى مكانهم وكأنهم قد سحروا فيه – أهذه الآيات الخارقة تأتى من محمد ؟ .. ذلك الأمى الذى لم ينل حظًّا من المعرفة ، اللهم إلا ما حبته به الطبيعة ، وما امتاز به من رقة الشعور ؟ ..

كلا ، إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد ، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلى القدير هو الذى أملى تلك الآيات البينات ..

إن الرسول لم يكن مخادعًا ، حين قال : « إن الله هو الذى أنزل القرآن » .. لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلهى ،فالنوبات الهائلة التى كانت تنتابه عند مجىء الوحى حاملاً إليه ما لم يكن يعلمه ،فى لغة جديدة كل الجدة بالنسبة له ، تختلف كثيرًا عن لغته المألوفة – هذا الوحى الذى يعاتبه إن أخطأ ، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يقدر على المقاومة – هذا الوحى ، خلال تلك النوبات ، لم يكن ليترك لديه أدنى شك فى هذا المصدر الإلهى للقرآن ..

لهذا كله ؛ كان إعجاب الرسول – ﷺ – بالقرآن ، أى بكلام الله ، لا حد له .. وقد أوحى الله إليه :

﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[1] .

(١) هود :١٣ .

ولا عجب فى أن نرى النبى الأمى يتحدى الشعراء ، ويعترف لهم بحق نَعْته بالكذب إن أتوا بعشر سور من مثله ، فقد آمن بعجزهم عن ذلك[1] ..

لقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين أن يدعوا إلى الشك فى ذلك الإخلاص العظيم المؤثر الذى امتاز به محمد ، وحاولوا أن يصوروه فى صورة رجل لا مؤهلات لديه للعظمة ؛ إلا الطمع المؤسس على المهارة ، ورأيهم هذا لا يصدر إلا عن شخص أعماه التعصب ، ولا يصدر إلا فى زمن يشبه الزمن الذى كانت تقوم فيه محاكم التفتيش ..

ولقد قضى « كارلايل » فى كتابه « الأبطال » على ذلك التعصب الذميم ، وتلك الحماقة العمياء ، إذ يقول متحدثًا عن محمد :

« أيستطيع رجل مخادع أن يؤسس دينًا ؟ – كلا وربى : إن رجلاً مخادعًا لا يستطيع أن يقيم بيتًا من آجر » ..

إنه لو لم يكن عليمًا بخواص الطوب والمونة وسائر المواد البنائية الأخرى ؛ لما استطاع أن يقيم بيتًا ؛ ولن يقيم – إذا أقام – إلا أكوامًا منقضة ؛ لا يمكن أن تقوم اثنى عشر قرنًا ، تضم بين جدرانها ما يربو على مائة وثمانين مليونًا من الناس ..

إن بناء المخادع بنهار لا شك لساعته[2] ..

ولقد كان للعرب مواقف فى شأن القرآن ؛ نبدؤها بموقف الوليد بن المغيرة ؛ ونذكر فى ذلك روايتين ، تكمل إحداهما الأخرى :

---

(١) لغة القرآن ..
لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها ، ذلك أنه مكن للغة العربية فى الأرض ، بحيث لو عاد أحد أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلينا اليوم ، لكان ميسورًا له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية ، بل لما وجد صعوبة تذكر مع الشعوب الناطقة بالضاد ، وهذا عكس ما يجده – مثلا – أحد معاصرى « رابليه » من أهل القرن الخامس عشر ، الذى هو أقرب إلينا من عصر القرآن ، من الصعوبة فى مخاطبة العديد الأكبر من فرنسيى اليوم .
وإن لغة القرآن ، وإن كانت تمت – فى أصولها – إلى عصور بعيدة قديمة ، فهى مرنة طيعة ، تسع التعبير عن كل ما يجد من المستكشفات والمخترعات الحديثة ، دون أن تفقد شيئًا من رونقها وسلامتها . وأما ما نراه من المولدات التى تستعملها الصحف العربية ،بنفس أصولها الأجنبية ، فليس ذلك عن ضرورة ، وإنما هو نوع من التكاسل والتهاون والتساهل ،الذى نجد مثله عندنا نحن الفرنسيين ، فى استعارتنا الاصطلاحات الخاصة بالألعاب الرياضية ، عن أصولها الأنجلو سكسونية ..
(المؤلف : إتيين دينيه) .

(٢) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الرواية الأولى :

عن سعيد بن جبير أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ؛ وكان ذا سنٍّ فيهم ؛ وقد حضر الموسم .. فقال لهم :

يا معشر قريش : إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ؛ وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ؛ ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ؛ ويرد قولكم بعضه بعضًا ..

قالوا : فأنت يا عبد شمس ؛ فقل وأقم لنا رأيا نقل به ..

قال : بل أنتم فقولوا وأستمع :

قالوا : نقول كاهن .

قال : ما هو بكاهن ؛ لقد رأينا الكهان ؛ فما هو بزمزمتهم ولا سجعهم .

قالوا : نقول إنه مجنون .

قال : ما هو بمجنون ؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه ؛ فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول إنه شاعر .

قال : ما هو بشاعر ؛ لقد عرفنا الشعر كله ؛ رجزه وهزجه ؛ ومقبوضه ومبسوطه ؛ فما هو بالشاعر .

قالوا : فنقول : ساحر .

قال : ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده .

قالوا : فما نقول ؟ .

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لعذق[1] ؛ وإن فرعه لجناة[2] ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل .. وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : هذا ساحر ، يفرق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ؛ وبين المرء وعشيرته – فتفرقوا عنه بذلك ..

عن عمرو ، أن الوليد بن المغيرة قال : سمعت الشعر هزجه وقريضه ، فما سمعت مثل هذا – يعني القرآن – ، ما هو بشعر ، إن عليه لطلاوة ، وإن له لنورًا ؛ وإنه يعلو وما يعلى ..

---

(١) العذق : النخلة .

(٢) الجناة : ثمر النخل .

الرواية الثانية :

عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى - ﷺ - فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ؛ فأتاه ؛ فقال : أى عم ! .. إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .. قال : ولِمَ - ؟ ..

قال : ليعطوكه فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما يقوله ..

قال : قد علمت قريش أنّى من أكثرها مالاً ..

قال : فقل له قولاً يبلغ قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له ..

قال : وماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم أعلم بالأشعار منىّ ، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا - والله إن لقوله لحلاوة ؛ وإن عليه لطلاوة ؛ وإنه لمثمر أعلاه ؛ مغدق أسفله ؛ وإنه ليحطم ما تحته ؛ وإنه ليعلو وما يُعْلى ..

فقال : والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعنى حتى أنظر إليه .

قال : فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر - أى يؤثر عن غيره ..فنزل فيه : ﴿ذرنى ومن خلقت وحيدا﴾[1] ..

موقف عتبة :

كان عتبة بن ربيعة سيدًا فى قومه ؛ وكان جبارًا طاغيًا ، وكان مشركًا .. واستمر على شركه إلى أن هلك ؛ وإذا ذكرنا قصته هنا ؛ فإننا نذكر حادثة لها مغزاها ، ولها قيمتها ، وهو وإن لم يؤمن فإن قصته تعبر عما كان ينبغى أن يكون ..

لقد قال يومًا وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله - ﷺ - جالس فى المسجد وحده :

يا معشر قريش ؛ ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أمورًا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ ..

وذلك حين أسلم حمزة ؛ ورأوا أصحاب رسول الله - ﷺ - يزيدون ويكثرون ..

فقالوا : بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه ..

---

(١) المدثر : ١١ .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله – ﷺ – فقال : « يا ابن أخى ؛ إنك منا حيث قد علمت من السطة[1] فى العشيرة ، والكمال فى النسب .. وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفَّهْت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا ، تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها ..

فقال رسول الله – ﷺ – : قل يا أبا الوليد ، أسمع .

قال : يا ابن أخى .. إن كنت ، إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ؟

وإن كنت إنما تريد به شرفًا سوَّدْناك علينا ، حتى لا نقطع أمرًا دونك .

وإن كنت تريد به ملكًا مَلَّكْناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيكَ رئيًّا تراه[2] ؛ لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله – ﷺ – يستمع منه ، قال : لقد فرغت يا أبا الوليد .. قال : نعم –

قال : فاسمع منى قال : افَعل

قال : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون ، بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون .. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون .. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾[3] .

ثم مضى رسول الله – ﷺ – يقرؤها عليه ؛ فلما سمعها منه عتبة أنصت إليها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه .

---

(١) السطة : المتوسط والمنزلة الوسطى ، والوسط خير الأمور .
(٢) الجنى الذى يوحى إلى البشر بعض الأمور الغريبة .
(٣) سورة فصلت : ١ – ٨ .

ثم انتهى رسول الله - ﷺ - إلى السجدة[1] . فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ؛ فأنت وذاك » ..

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض .

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا :

« ما وراءك يا أبا الوليد » ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا - والله ما سمعت مثله - والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ..

يا معشر قريش : أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ؛ فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم ؛ وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » .

قالوا : سحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

القرآن والطفيل بن عمرو

قال محمد بن إسحاق :

« وكان رسول الله - ﷺ - على ما يرى من قومه ، يبذل لهم النصيحة ، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه ، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب منه .

وكان الطفيل بن عمرو الدوسى يحدث أنه قدم مكة ، ورسول الله - ﷺ بها ، فمشى إليه رجال من قريش - وكان الطفيل رجلاً شريفًا ؛ شاعرًا لبيبًا فقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا ، قد أعضل بنا ، وفرق جماعتنا وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وزوجته ، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه .

(١) سورة فصلت : ٣٧ ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ .

قال : فوالله ما زالوا بى ، حتى أجمعت على ألا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه ، حتى حشوت أذنى حين غدوت إلى المسجد كُرْسفا[1] ، فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه .

قال : فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله - ﷺ - قائم يصلى عند الكعبة - قال : فقمت قريبًا منه ، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله ..

قال : فسمعت كلامًا حسنًا .. فقلت فى نفسى : وأثْكل أمى - والله إنى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحَسَنُ من القبيح ، فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنًا قبلته ، وإن كان قبيحًا تركته .

قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله - ﷺ - إلى بيته فاتبعته حتى دخلت عليه ، فقلت : يا محمد - إن قومك قالوا لى كذا وكذا ، للذى قالوا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سَدَدت أذنى بكرسف (قطن) ، لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه ، فسمعت قولا حسنًا ، فأعرض على أمرك .

قال : فعرض علىّ الإسلام ، وتلا على القرآن ، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمرًا أعدل منه .

قال : فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يانبى الله ، إنى أمروٌ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية لتكون لى عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه .

قال : فقال : اللهم اجعل له آية .

قال : فخرجت إلى قومى ، حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر ، وقع نور بين عينى مثل المصباح ، قال : فقلت : اللهم اجعله فى غير وجهى ، فإنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراقى دينهم .

قال : فتحول فوقع فى رأسى سوطى ، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق ، وأنا أنهبط إليهم من الثنية .

قال : حتى جئتهم فأصبحت فيهم ، فلما نزلت أتانى أبى وكان شيخًا كبيرًا .

قال : فقلت : إليك عنى يا أبت ، فلست منك ولست منى .

---

(١) الكرسف : القطن .

قال : ولم ؟ .. أى بنى .

قال : قلت : أسلمت وبايعت محمدًا ﷺ

قال : أى بنى ، فديني دينك .

قال : فقلت : اذهب فاغتسل وطهر ثيابك ، ثم تعال حتى أعلمك .

قال : فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ، فعرضت عليه الإسلام ، فأسلم .

قال : ثم اتتنى صاحبتى ، فقلت لها : إليك عنى فلست منك ولست منى .

قالت : ولم بأبى أنت وأمى ؟

قال : قلت فرّق بينى وبينك الإسلام ، فأسلمت .

ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام ، فأبطئوا علىّ ، ثم جئت رسول الله – ﷺ – بمكة ، فقلتُ : يا نبى الله إنه قد غلبتنى دوس ، فادع الله عليهم – قال : اللهم اهد دوسًا – ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

قال : فرجعت ، فلم أزل بأرض دوس ، أدعوهم إلى الإسلام ، حتى هاجر رسول الله – ﷺ إلى المدينة ، وقضى بدرًا وأحدًا والخندق ، ثم قدمت على رسول – ﷺ – بمن أسلم معى من قومى ورسول الله – ﷺ – بخيبر ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس – ثم لحقنا برسول الله – ﷺ – بخيبر ، فأسهم لنا مع المسلمين .

ولم أزل مع رسول – ﷺ – حتى إذا فتح الله عليه مكة قال : قلت يارسول الله ! .. ابعثنى إلى ذى الكفين ، صنم عمرو بن حممة ، حتى أحرقه .

قال ابن إسحاق : فخرج إليه ، فجعل الطفيل يوقد عليه النار ويقول :

ياذا الكَفَّيْن لست من عبادكا   ميلادنـــا أقدم من ميلادكا

إنى حشوت النار فى فؤادكا

قال : ثم رجع إلى رسول الله – ﷺ – فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله – ﷺ– فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين ، فسار معهم ، حتى فرغوا من طليحة ، ومن أرض نجد كلها – ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ، ومعه ابنه عمرو بن الطفيل فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة ، فقال لأصحابه : إنى رأيت رؤيا فاعبروها لى ، رأيت أن رأسى حلق ، وأنه خرج من فمى طائر ؛ وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها ؛ وأرى ابنى يطلبنى طلبًا حثيثًا ، ثم رأيته حبس عنى .

قالوا : خيرًا ..

قال : أما أنا – والله ، فقد أولتها .

قالوا : ماذا ؟

قال : أما حلق رأسى فوضعه ، وأما الطائر الذى خرج من فمى فروحى ، وأما المرأة التى أدخلتنى فرجها : فالأرض تحفر لى ، فأغيب فيها ، وأما طلب ابنى إياى ثم حبسه عنى ، فإنى أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابنى .

فقتل رحمه الله شهيدًا باليمامة ، وجرح ابنه جراحة شديدة ، ثم استبل[1] منها ، ثم قتل عام اليرموك – فى زمن عمر رضى الله عنه – شهيدًا ..

ومما يتصل بإعجاز القرآن ، ما يلى :

روى أنه لما سمع الوليد بن المغيرة من النبى – ﷺ – :

﴿إِنَّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكرِ والبغْىِ يَعِظكُم لعلكم تَذَكَّرون﴾ .

قال : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوةً ، وإن أسفله لَمُغْدق ، وإن أعلاه لَمُثْمِر .. وما يقول هذا بشر » .

وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ : ﴿فاصْدعْ بما تُؤمَرُ﴾ فقال : سجدتُ لفصاحته .

وسمع آخر رجلاً يقرأ :

﴿فلما استيْئَسُوا منه خلَصُوا نَجِيا﴾ .

فقال : أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وحُكَى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – كان يومًا نائمًا فى المسجد ، فإذا هو بقائم على رأسه ، يتشهد شهادة الحق ، فاستخبره ، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ، وممن يحسن كلام العرب وغيرها ، وأنه سمع رجلاً من أسرَى المسلمين يقرأ آية من كتابكم ، فتأمَّلَهَا ، فإذا قد جمُع فيها ما أُنزِلَ على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة ، وهى قوله تعالى :

﴿وَمن يُطِعِ اللّهَ ورسوله ويَخْش اللّهَ ويَتقْهِ فأولئك هم الفائزون﴾[2] .

---

(١) شفى .

(٢) النور : ٥٢ – راجع الشفاء ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

وحكى الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ، ما أَفْصَحَكِ !

فقالت : أَوَ فصاحة بعد قول الله تعالى :

﴿وأوحينا إلى أمِّ موسى أن أَرضعِيهِ . فإذا خِفْتِ عليه فَأَلْقيهِ فى الْيم وَلا تخافى ولا تحزنى إنا رَادُّوهُ إليكِ وجاعِلُوه من المرسلين﴾[1] .

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين .

ومن وصف القرآن للقرآن ، قوله تعالى :

﴿وإنه لَكِتابٌ عزيز ، لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيْه ولا من خَلفِهِ تنزيل من حكيم حميد﴾[2] .

وقوله : ﴿إنه لقرآن كريم . فى كتابٍ مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين﴾[3] .

وقوله : ﴿إن هذا لَهوَ القصصُ الحقُّ﴾[4] .

وقوله : ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقُوا لعلكم تُرْحَمون﴾[5] .

وقوله : ﴿إنها تذكرة ، فمن شاء ذَكَرَه ، فى صحفٍ مكرَّمةٍ ، مرفوعةٍ مطهرّةٍ ، بأيدى سفرةٍ ، كرامٍ بررةٍ﴾[6] .

القرآن أعظم معجزة

يقول ابن خلدون فى علامات الأنبياء :

ومن علاماتهم أيضًا : وقوعُ الخوارق لهم ، شاهدةً بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها ، فسميت بذلك معجزة .. وليست منْ جنس مقدور العباد .. وإنما تقع فى غير محل قدرتهم .. وإذا تقرر ذلك ، فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة ، القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد ﷺ ..

---

(١) القصص : ٧ .
(٢) فصلت : ٤١ — ٤٢ .
(٣) الواقعة : ٧٧ — ٨٠ .
(٤) آل عمران : ٦٢ .
(٥) الأنعام : ١٥٥ .
(٦) عبس : ١١ — ١٦ .

فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدةً بصدقه ..

والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى ، وهو الخارق المعجز .. فشاهده فى عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوحى .. فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه .. وهذا معنى قوله – ﷺ : « ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتىَ من الآيات ما مثلُه آمنَ عليه البشر . وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحىَ إلىّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرهُم تابعًا يوم القيامة » ..

يشير : إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح ، وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى ، كان المصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق المؤمن ، وهو التابع والأمة .

الكندى يتحدث عن إعجاز القرآن :

يقول الكندى عن الرسل :

وهؤلاء الذين اصطفاهم الله ، فلعلمهم خصائص تبعده عن العلم الكسبى ، إنه : « بلا طلب ولاتكلف ولا بحث ، ولا بحيلة بشرية ، ولا زمان .. إنه بلا طلب ولا تكلف ، ولا بحث ، ولا بحيلة الرياضيات والمنطق ، ولا بزمان .

بل مع إرادته ، جل وتعالى بتطهير أنفسهم وإنارتها للحق بتأييده وتسديده ، وإلهامه ، ورسالاته . فإن هذا العلم : خاصة للرسل ؛ صلوات الله عليهم ، دون البشر ، وأحد خوالجهم العجيبة ؛ أعنى آياتهم الفاصلة لهم من غير البشر ..

تستيقن العقول أن ذلك من عند الله ؛ جل وتعالى ؛ إذ هو موجود ؛ عندما عجزت البشرية – بطبعها – عن مثله فإن ذلك فوق طبعها وجِبِلِّها فتخضع له بالطاعة والانقياد : وتنعقد فِطَرُها فيه على التصديق بما أتت به الرسل ؛ عليهم السلام .

ويستمر الكندى فى توضيح الفروق ، بين العلم الكسبى والعلم الإلهى فيقول :

« فإنه إن تدبر متدبر جوابات الرسل ؛ فيما سئلوا عنه من الأمور الخفية الحقيّة التى إذا قصد الفيلسوف الجوابَ فيها بجهد حيلته التى أكسبته ؛ علمها لطول الدءوب فى البحث ؛ والتروى – ما نجده أتى بمثلها فى الوجازة والبيان ؛ وقرب السبيل ؛ والإحاطة بالمطلوب .

ثم يضرب الكندى مثالاً تطبيقًا جزئيًا لما يقول ؛ وذلك :

كجواب النبى ، ﷺ فيما سأله المشركون عنه مما علمه الله ، إذ هو بكل شىء عليم ،

لا أولية له ، ولا تقضيًّا ، بل سرمدًا أبدا ، إذ تقول له ، وهى طاعته ظانة أنه لا يأتى بجواب فيما قصد به السؤال عنه ، صلوات الله عليك : يا محمد :

﴿مَنْ يُحْيِى العِظَام وَهِىَ رَمِيم ؟﴾ : أنْ كان ذلك عند السائلين أمرًا مستحيلاً ، فأوحى إليه الواحد الحق :

﴿قُلْ يُحْيِيها الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مرَّةٍ ، وَهوَ بكُلِّ خَلْقٍ عليمٌ . الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِن الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ، أَوَ لَيْس الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى ، وَهوَ الْخَلاَّق العَلِيمُ ، إنما أَمْرُهُ ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ ، فيكون﴾[1] .

ثم يأخذ الكندى فى شرح الآيات الكريمة ، توضيحًا لفكرته عن العلم الإلهى ، فيقول[2] .

فأى دليل فى العقول النيرة الصافية ، أبينُ وأوجزُ من أنه ، إذا كانت العظام قد وجدت بالفعل . بعد أن لم تكن .

فإنه من الممكن – إذا بطلت وصارت رميمًا – أن توجد من جديد . فإن جَمْعَ المتفرق : أسهلُ من صنعه من العدم ، وإن كان الأمر بالنسبة لله : لا يوصف بكونه أشدَّ أو أضعفَ !

وإنَّ القوة التى أبدعت ، ممكن أن تنشئ ما أدثرتْ .

أما كون العظامِ موجودةً بعد أن لم تكن : فذلك ظاهر للحس فضلاً عن العقل .

وإن السائل عن هذه المسألة : الكافر بقدرة الله ، جل وتعالى ، مُقِرٌّ : أنه هو – نفسه – : كان بعد أن لم يكن ، فَعَظْمه ، إذن وجُدَ ، بعد أن لم يكن ، فإعادته وإحياؤه : أمر ممكن ، ولا سبيل إلى القول بخلاف ذلك .

ثم يبين ، سبحانه : أن كون الشيء من نقيضه موجود ، فيقول : ﴿الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون﴾ . فجعل من لا نارٍ نارًا ، ومن : لا حارٍ حارًا ، فإذا كان الشيء يحدُث من نقيضه – من باب أولى – يحدث من ذاته .

وقال ، سبحانه :

---

(١) يس ٧٨ – ٨٢ .

(٢) سنحاول هنا الأخذ من كلام الكندى كلما كان واضحًا للقارئ . فإذا ما كان فيه خفاء ذكرنا معناه فى دقة .

﴿أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلقَ مثلهم ؟﴾ .

ثم قال ، لما وجب من ذلك .

﴿بلى وهو الخلاق العليم﴾ .

والأمر فى القضية : واضح بديهى .

ثم قال – لما فى قلوب الكافرين من الإنكار من : خلق السموات لما ظنوا : من مدة زمان خلقها قياسًا على أفعال البشر ، إذ كان عندهم عملُ الأعظم : يحتاج إلى مدة أطول ، فى عمل البشر .

فكان عندهم أعظمُ الحساب : أطولها زمانًا فى العمل – إنه جل ثناؤه ، لا يحتاج إلى مدة للخلق والإبداع ؛ لأنه جعل : « هو » من « لا هو » ؛ فإن من بلغت قدرته ، أن يعمل أجرامًا من لا أجرام ، ويخرج الوجود من العدم ، فإنه لا يحتاج أن يعمل فى زمان :

﴿إنّما أمرهُ إذا أراد شيئًا : أن يقول له : كُنْ ، فيكون﴾ .

أى إنما يريدُ ، فيكون مع إرادته ما أراد ، جل ثناؤه ، وتعالت أسماؤه عن ظنون الكافرين ! إذا ليس (هناك) مخاطب ؛ فإن هذا – فى لغة العرب المخاطبين بهذا القول – بّينٌ مستعمل ؛ فإنما خوطبوا بعادتهم فى القول ؛ فإن العرب تستعمل للشىء فى الوصف ، ما ليس فى الطبع : كقول أمرئ القيس بن حجر الكندى :

فقلت لـــه لمـــا تمطّى بصلبه   وأردف أعجـــازًا وناء بكلكلِ
ألا أيها الليـل الطويـل ألا أنجلى   بصبحٍ وما الإصباحُ منـك بأمثلِ

والليل لا يقال له ولا يخاطب ، ولا صلب له ولا أعجاز ، ولا كلكل ولا نهوض ؛ وإنما معناه ، أنه أحب أن يصبح .

ويختم الكندى شرحه للآيات الكريمة ، بهذه الكلمة القوية التى تؤكد فكرته فيقول :

« فأى بشر يقدر بفلسفة البشر أن يجمع ، فى قول بقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله ، جل وتعالى إلى رسوله ، ﷺ فيها ، من إيضاح :

أن العظام تحيى بعد أن تصير رميمًا ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشىء يكون من نقيضه ؟ كلّت عن مثل ذلك الألسنُ المنطقية المتحيلة ، وقصرت عن مثله نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية » .

هذا النمط من العلم – كما وضحه الكندى – ليس مصدره حِسًا ولا عقلاً .

إن مصدره الوحى ، إنه علم إلهىّ خاص بمن يصطفيهم الله تعالى .

﴿لكن الله يشهد بما أنزل
إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الثامن عن :

المعجزات الأخرى

عناية الله

يقول سبحانه :

﴿والله يعصمك من الناس﴾[١] .

ويروى صاحب الروض الأنف ما يلى[٢] :

خرج رسول الله – ﷺ – إلى بنى النضير ، يستعينهم فى أداء دية . فلما خلا بعضهم ببعض ، قالوا : لن تجدوا محمدًا أقربَ منه الآن .. فَمَن رجل يظهر على هذا البيت ، فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ . فقال عمرو بن جحاش بن كعب : أنا ..

فأتى رسولَ الله – ﷺ – الخبرُ ، فانصرف عنهم ، فأنزل الله تعالى فيه وفى صحبه ، وفيما أراده بنو النضير :

﴿يأيها الذين آمنوا اذْكروا نِعمةَ الله عليكم إذ هَمَّ قومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أيديهم ، فكفَّ أيديهم عنكم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[٣] .

استجابة الدعاء

إن رسول الله – ﷺ – قد رسم لأمته الطريق الذى إذا سار فيه أفرادها ، استجاب الله دعاءهم . وذلك فى حديث صحيح رواه البخارى – رضى الله عنه – .. فقد قال ﷺ – فيما يرويه عن ربه ، قال الله تعالى : من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرَبَ إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىَّ من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببتُه : كنتُ سمعه الذى يسمع به وبَصرَه الذى يُبصر به ، ويَدَهُ التى يَبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيتُه ولئن استعاذ بى لأعِيذَنَه[٤] .

وإذا كان هذا بالنسبة لأفراد الأمة ، فإنه – من باب أولى – بالنسبة لأكرم الخلق على الله .

---

(١) المائدة آية : ٦٧ .

(٢) راجع الروض الأنف جـ ٤ ص ٣٦٨ ط ، دار الكتب الحديثة .

(٣) المائدة آية : ١١ .

(٤) رواه البخارى .

ومن استجابة دعاء الرسول - ﷺ - ما يلى :

عن أنس بن مالك قال : أصابت الناسَ سنةٌ على عهد رسول الله - ﷺ - فبَيْنَا رسولُ الله - ﷺ - يخطُب على المنبر يوم الجمعة ، إذ قام أعرابى فقال : يا رسول الله ، هلك المالُ ، وجاع العيالُ ، فادْعُ الله أن يسقينا ..

فرفع رسول الله - ﷺ - يديه ، وما فى السماء قزعة[1] ، فثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره ، حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته .

قال : فمطرنا يومنا ، ومن الغد ، وبعد الغد ، والذى يليه إلى الجمعة الأخرى ..

فقام ذلك الأعرابى ، أو رجل غيره ، فقال : يا رسول الله ، تهدَّم البناء ، وغرق المال ، فادع الله لنا .

فرفع رسول الله - ﷺ - يده ، وقال : اللهم حَوَالَيْنَا ولا علينا .

قال : فما جعل يشير بيديه إلى ناحية من السماء إلا وانفرجت ، حتى صارت المدينة فى مثل الجوبة[2] ، حتى سار الوادى قناة شهرًا ..

قال : « ولم يجئ أحد إلا حدّث بالجَوْد » .. أخرجه الشيخان[3] .

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - ، أن النبى - ﷺ - خرج يوم بدر فى ثلثمائة وخمسة عشر .. قال : « اللهم إنهم حُفَاةٌ فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُمْ ، اللهم إنهم جياع فأشبعهم .. ففتح الله له ، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين ، واكتسوْا وشبِعوا »[4] .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

« كنتُ أدعو أُمِّى إلى الإسلام وهى مشركة ، فدعوتها يومًا فأَسْمعتنى فى رسول الله - ﷺ - ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى .. قلت : يا رسول الله : ادعُ الله أن يهدى أمَّ أبى هريرة ..

فقال : اللهم اهد أمَّ أبى هريرة .. فخرجتُ مستبشرًا بدعوة النبى - ﷺ - ، فلما صرت

---

(١) القزعة : القطعة من السحاب .

(٢) الجوبة : الحفرة والمراد أن السحاب صار محيطًا بجوها الذى صفا وصحا ..

(٣) راجع الوفا جـ ١ ص ٣٤٦ .

(٤) رواه أبو داود .

إلى الباب ، فإذا هو مجاف .. فسمَعتْ أمى خشف قدمى ، فقالت : مكانَك يا أبا هريرة ! .. وسمعت خضخضة الماء ، فاغتسلَت فلبست درعَها ، وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة ! . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، فرجعت إلى رسول الله – ﷺ – وأنا أبكى من الفرح ، فحمِدَ الله وقال خيرًا »[1] ..

الإنباء بالغيب

يَقُصُّ الله سبحانه ما خاطب به سيدنا عيسى – عليه السلام – قومه من قوله : ﴿ وأنَبِّئُكُم بما تأكُلُونَ ومَا تدَّخِرُونَ فى بُيُوتِكُمْ﴾ .

والإنباء بالغيب – الماضى ، أو بالغيب الحاضر ، أى بالغيب الذى وقع بالفعل فى الزمن الماضى ، والغيب الذى وقع بالفعل فى الزمن الحاضر ، فى مكان بعيد عن مكان المتنبىء – أمر مألوف .. أما الغيب المستقبل فهو معجزة أو كرامة يمنحها الله مَنْ شاء من عباده الصالحين ..

وقد ذكر القرآن بعضًا من ذلك ، معجزةً للرسول – ﷺ – فى قوله تعالى :

﴿ألم غُلِبَت الرومُ . فى أدنَى الأرضِ وهم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبون ؛ فى بِضْعِ سنين لله الأمرُ من قبل ومن بَعْدُ ويومئذ يفرحُ المؤمنون بنصر الله ينصرُ من يشاء وهو العزيز الرحيمُ ، وعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[2] .

ومن الأحاديث الواردة فى ذلك ، ما يأتى : عن أبى ذَر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« إنكم ستَفْتَحون مِصْر ، وهى أرض فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحمًا .. أو قال : ذمة وصهرًا »[3] ..

وعن أبى بكر – رضى الله عنه – قال :

(١) رواه مسلم .
(٢) الروم : ١ – ٧ .
(٣) رواه مسلم وأحمد .

« أخرج النبى ﷺ ذات يوم الحسن ، فَصَعَدَ به على المنبر ، فقال : ابنى هذا سيِّدٌ ، ولعل الله أن يُصلح به بين فِئتين من المسلمين »[1] ..

وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – نعى جعفر وزيدًا قبل أن يجىء خبرهما ، وعيناه تَذْرِفان[2] .

وعن جابر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

هل لكم من أنماط[3] .. قلت : وأنَّى يكون لنا الأنماط ؟ .. قال :

أما إنه سيكون لكم الأنماط ، فأنا أقول لها – يعنى امرأته – أخرِّى عنى أنماطك ، فتقول : « ألم يقل النبى – ﷺ – : إنها ستكون لكم الأنماط ، فأدعُهَا ؟ .. »[4] .. يريد جابر أن تُبعد وسائل الترف عنه ، فتذكره امرأته ببشارة الرسول فيسكت .

وعن أبى هريرة ، أن رسول الله – ﷺ – قال :

« بينما أنا نائمٌ ، رأيتُ فى يدىَّ سِوارَين من ذهب ، فأهمَّنى شأنهما ، فأوحى إلىّ فى المنام : أن انفُخْهُما ، فنفختهما فطارا ، فأوَّلتهم : كذا بين يخرجان بعدى .. فكان أحدهما العنسى ، والآخر مسيلمة الكذاب : صاحب اليمامة »[5] .

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت :

« أقبلتْ فاطمةُ تمشى ، كأن مِشيتَها مشىُ النبى – ﷺ – فقال النبى – ﷺ – مرحبًا بابنتى ، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم أسرَّ إليها حديثًا ، فبكت .. فقلت لها : لم تبكين ؟ .. ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكت .. فقلت : ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقربَ من حزن ، فسألتها عما قال ، فقالت : ما كنت لأفشىَ سرَّ رسول الله – ﷺ – حتى قبض النبى – ﷺ – فسألتُها ، فقالت : أسرَّ إلىَّ أن جبريل كان يعارضُنى القرآن كلَّ سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى ، وإنك أولِ أهل بيتى لحاقًا بى .. فبكيت ، فقال : أما ترضَيْنَ أن تكونى سيدةَ نساء أهل الجنة ، أو نساءِ المؤمنين ؟ فضحكتُ لذلك »[6] .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) الأنماط : البسط .
(٤) رواه البخارى .
(٥) نفس المرجع السابق .
(٦) رواهما البخارى .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أنه قال رسول الله – ﷺ – :

« إذا هَلَكَ كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصرُ بعده ، والذى نفسُ محمد بيده ، لتُنْفَقِنّ كنوزهما فى سبيل الله »[1] .

وعن أبى موسى : أنه كان مع رسول الله – ﷺ – فى حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل يستفتح ، فقال النبى – ﷺ – ، افتحْ له وبَشّره بالجنة .. فإذا هو أبو بكر – رضى الله عنه – .. ثم استفتح برجل آخر ، فقال : افتحْ له وبشّره بالجنة ، فإذا هو عمر ، ففتحت له وبشرته بالجنة . ثم استفتح رجل آخر ، وكان متكئًا فجلس ، فقال : افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه .. فإذا عثمان ، ففتحت له وبشرته بالجنة ، فأخبرته بالذى قال : فقال : الله المستعان[2] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : أخبرنى أبو قتادة أن رسول الله ﷺ قال لعمار : « تقتُلك الفئةُ الباغية »[3] .

وعن أبى حميد الساعدى قال :

« خرجنا مع رسول الله – ﷺ – عام تبوك ، فقال : إنها ستَهبُّ عليكم ريحٌ شديدة ، فلا يقومنّ فيها رجل .. ومنْ له بعير فليوثق عقاله .. قال أبو حميد : « فعقلناها .. فلما كان الليل ، هبّت علينا روح شديدة ، فقام فيها رجل ، فألقته فى جبل طىء[4] .

عن أنس – رضى الله عنه – قال :

« كنا مع عمر بين مكة والمدينة ، فتراءينا الهلال ، وكنت رجلاً حديد البصر ، فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيرى ، فجعلت أقول لعمر : أما تراه .. فجعل لا يراه ، قال : يقول عمر : سأراه وأنا مستلق على فراشى . ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر قال : إن رسول الله – ﷺ – كان يُرينَا مصارِعَ أهلِ بدر بالأمس .. يقول : هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله ، وهذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله .. قال عمر : والذى بعثه بالحق ما خطئوا الحدود التى حدها رسول الله – ﷺ – قال : فَجعِلوا فى بئرٍ بعضهم على بعض .. فانطلق رسول الله –

---

(١) نفس المرجع السابق .
(٢) الوفا : وقال : أخرجاه جـ ١ ص ٣١١ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) أخرجاه .

ﷺ – حتى انتهى إليهم ، فقال : يا فلان ابن فلان ، ويا فلان ابن فلان ، هل وجدتم ما وعد ربكم حَقا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقا ؟ ..

فقال عمر :

يا رسول الله ! .. كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها ؟ ..

فقال :

ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ، غير أنهم لا يستطيعون أن يردّوا علىّ شيئًا »[1] ..

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال :

« خطب النبى – ﷺ – فقال :

« أخذ الراية زيدٌ فأصيب ، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح له ، وقال : ما يسرُّنا أنهم عندنا ، قال أيوب : أو قال : ما يسرهم أنهم عندنا ، وعيناه تذرِفان[2] ..

عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن علىّ – رضى الله عنه – قال :

« بعثنى رسول الله – ﷺ – ، وأبا مرثد الغنوى والزبير بن العوام والمقداد – وكلنا فارس – فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأةً من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين ، قال : فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله – ﷺ – .. فقلنا : الكتاب .. فقالت : ما معى كتاب .. قال : فأنخنا بها والتمسناهُ فى رحلها ، فلم نَرَ كتابًا .. فقلنا : ما كذب رسول الله – ﷺ – ، لَتُخْرجنّ الكتاب أو لنَجُردنكِ .. قال :

فلما رأت الجد ، أهوت حجزتها وهى محتجزة بكساء ، فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله – ﷺ – ، فقال عمر : يا رسول الله ! قد خان الله ورسولَه والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه .. ، فقال النبى ﷺ (لحاطب) : ما حملك على ما صنعت ؟ .. قال حاطب : والله ، ما بى أن لا أكون مؤمنًا بالله ورسوله – ﷺ : أردت أن يكونَ لى عند القوم يَدٌ يدفَعُ الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله .. فقال : صدق ، ولا تقولوا له إلا خيرًا ..

---

(١) رواه مسلم .
(٢) البخارى .

فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه ..

فقال : أليس من أهل بدر ؟ . فقال : لعل الله اطّلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجَبَتْ لكم الجنة ، أو : فقد غفرت لكم .. فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم[1] ..

وفيه نزلت الآية الكريمة ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتَّخِذُوا عدُوِّى وعدوَّكم أولياءَ تُلقُون إليهم بالمودة﴾[2] فالآية تثبت أنه من المؤمنين ، وهو كذلك .

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى إخبار القرآن بالغيب .

عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال يوم خيبر :

« لأعْطينّ هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه ، يُحب الله ورسوله ويحبه اللّهُ ورسولُه .. فلما أصبح الناسَ غدوا إلى رسولِ الله - ﷺ - كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا .. فقال : أين علىٌّ بن أبى طالب ؟ .. فقالوا : يا رسولَ الله ، هو يشتكى عينيه ..

قال : فأرسلوا إليه ... فأُتى به ، فبصق رسول الله - ﷺ - فى عينيه ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .. فقال علىّ :

يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ ..

قال : « أنفِذ على رِسْلَك ، حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهُم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه ، فوالله ، لأن يهدَىَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك حمرُ النَّعَم »[3] .

عن أنس بن مالك ، عن خالته أمِّ حرام بنت ملحان ، قالت : نام النبى ﷺ ، يومًا قريبًا منّى ، ثم استيقظ يتبسَّم ، فقلت ما أضحكك ؟ « قال ناسٌ من أمتى عُرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله : يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرَّة قالت فادعُ الله أن يجعلنى منهم ، فدعا لها ، ثم نام الثانية ، ففعل مثلها ، فقالت مثل قولها : فأجابها مثلها ، فقالت ادعُ الله أن يجعلنى منهم ، فقال أنتِ من الأوَّلين » فخرجت مع زوجها

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) الممتحنة : ١ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

عبادة بن الصامت غازيًا ، أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية . فلما انصرفوا من غزوهم[1] . قافلين فنزلوا الشام ، فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت[2] .

إبـراء المرض

يقصّ الله سبحانه وتعالى . ما جرى بين سيدنا عيسى عليه السلام وقومه ، من قوله لهم : ﴿وأُبرِئ الأَكْمَهَ والأبرصَ وأحيي الموتَى بإذن الله﴾ ..

ونحن جميعًا : نؤمن بأنه لا يقع شيءٌ من ذلك إلا بإذن الله .. وقد وقع من نبينا ﷺ ما يلي :

عن محمد بن حاطب – رضى الله عنهما – عن أمه أم جميل بنت المحلل قالت : « أقبلتُ من أرض الحبشة ، حتى إذا كنتُ من المدينة على ليلة أو ليلتين ، طَبَخْتُ لى طبخًا فَفَنَى الحَطَب ، فخرجت أطلبه ، فتناولتُ القدِر ، فانكفأت على ذراعك ، فأتيت بك النبى – ﷺ – فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، هذا محمد بن حاطب .. فتفل فى فيك ، ومسح على رأسك ، ودعا لك ، وجعل يتفل على يديك ، ويقول أذْهِبِ الباسَ ، ربَّ الناس ، واشف أنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاءك ، شفاءً لا يغادر سَقَمْا ، قالت : فما قمتَ من عنده حتى برئت يدُك »[3] .

وعن على – رضى الله عنه ، وكرَّم وجهه – قال :

« ما رَمِدْتُ منذ تَفِلَ النبى – ﷺ – فى عينى »[4] .

وعن البراء – رضى الله عنه – قال :

« انتهيت إلى درجة ، فوضعت رجلى ، فوقعت فى ليلة مقمرة ، فانكسرَتْ ساقى ، فعصبَّتها بعمامة ، فانطلقت إلى أصحابى ، فانتهيت إلى النبى – ﷺ – فحدثته ، فقال : ابسُط رِجْلكَ .. فبسطت رجلى ، فمسحها ، فكأنما لم أشْتَكِهَا قط »[5] .

وعن يزيد بن أبى عبيد قال :

---

(١) غزوتهم .
(٢) التجريد الصريح جـ ٢ ص ١٦٦ كتاب التعبير .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أحمد .
(٥) رواه البخارى .

« رأيتُ أثر ضربة فى ساق سلمة بن الأكوع – رضى الله عنه – ، فقلت : يا أبا مسلم ؟ .. ما هذه الضربة ؟ ..

قال : ضربةٌ أصابتنى يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة ، فأتيتُ النبى – ﷺ – ، فَنَفَثَ فيه ثلاث نفثات ، فما اشتكيتها حتى الساعة »[1] .

تكثير الماء

ومعجزات تكثير الماء متواترة فى جملتها وجوهرها ..

لقد رواها غير واحد من الصحابة ، وروى كل حادثة منها عدة من الصحابة – رضوان الله عليهم – ولقد رُوِيَتْ فى أصح الكتب ، وفى أوثق المصادر ، ونحن لا نشك فى أمرها .

عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال :

كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفًا ... كنا مع رسول الله – ﷺ – فى سفر . فقلّ الماء ، فقال : اطلبوا فضلةً من ماء ، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدْخَلَ يَدَه فى الإناء ، ثم قال :

« حى على الطَّهور المبارَك ، والبركةُ من الله » .. ولقد رأيتُ الماء ينبعُ من بين أصابع رسول الله – ﷺ –[2] .

حدثنا هاشم بن القاسم ، أخبرنا سليمان ، عن ثابت قال :

قلت لأنس : يا أبا حمزة ! حدِّثْنا عن هذه الأعاجيب شيئًا شهدته ، ولا تحدثه عن غيرك .. قال :

صلى رسول الله – ﷺ – صلاة الظهر يومًا ، ثم انطلق حتى قعد على المقاعد التى كان يأتيه عليها جبريل ، فجاء بلالٌ فنادى بالعصر ، فقام كل من مكان له بالمدينة أهل : يقضى الحاجة ، ويصب من الوضوء وبَقَى رجال من المهاجرين ؛ ليس لهم أهل بالمدينة .. فأتى رسول الله – بقدحٍ أروح[3] ، فيه ماء ، فوضع رسول الله – ﷺ – كَفَّه فى الإناء ، فما وَسع الإناء كفَّ رسول الله – ﷺ – كلها . فقال بهؤلاء الأربع فى الإناء ، ثم قال :

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه البخارى .
(٣) أروح : متسع مبطوح .

« ادنُوا فتوضَّأوا » – ويده فى الإناء – فتوضأوا حتى ما بقى منهم أحد إلا توضأ .. قال :

فقلت : يا أبا حمزة ، كم تراهم ؟ .

فقال : ما بين السبعين والثمانين[1] ..

عن عبد الله قال :

كنا مع رسول الله – ﷺ – فى سفر ، فلم يجدوا ماء ، فأتى بتور[2] من ماء ، فوضع النبى – ﷺ – فيه يده ، وفرج بين أصابعه .. قال : فرأيت الماء ينفجر من بين أصابع رسول الله – ﷺ – فقال : حيّ على الوضوء ، والبركة من الله تعالى ..

قال الأعمش : فأخبرنى سالم بن أبى الجعد ، قال :

قلت لجابر بن عبد الله : كم كان الناس يومئذ ؟ ..

قال : كنا ألفا وخمسمائة[3] .

عن عبد الله قال : بينما نحن مع رسول الله – ﷺ – وليس معنا ماء ، فقال لنا رسول الله – ﷺ – :

« اطلبوا من معه ماء » .. ففعلنا فأتى بماء فَصبّه فى إناء ، ثم وضع كفّه فيه ، فجعل الماء يخرجُ من بين أصابعه ، ثم قال :

« حيّ على الطَّهور المبارك ، والبركة من الله » ..

فملأت بطنى منه ، واستقى الناس »[4] .

عن أنس بن مالك ، أن نبى الله – ﷺ – كان بالزوراء ، فأتى بإناء فيه ماء : لا يغمر صاحبه .. فأمر أصحابه أن يتوضّأوا فوضع كفه فى الماء ، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، وأطراف أصابعه ، حتى توضأ القوم .. فقلت لأنس : كم كنتم ؟ ..

قال : « كنا ثلاثمائة »[5] .

---

(١) الطبقات لابن سعد .
(٢) التور : إناء للشرب .
(٣) أخرجه البخارى .
(٤) رواه البخارى .
(٥) أخرجاه .

وعن عمران بن حصين قال :

« كنا فى سفر مع رسول الله – ﷺ – وإنا أسرينا ، حتى إذا كنا فى آخر الليل ، وقعنا وقعة ، ولا وقعة أحلى عند المسافر منها ، فما أيقظنا إلا حرُّ الشمس ، فكان أولَ من استيقظ فلانٌ ثم فلان ، كان يسميهم أبو رجاء ، ونسيهم عوف .. ثم عمر بن الخطاب الرابع .. – وكان رسول الله – ﷺ – إذا نام لم يُوقظ حتى يكون هو يستيقظ ، لأنَّا لا ندرى ما يحْدُثُ له فى نومه .. فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس ، وكان رجلاً أجوف جليدًا ، قال : فكبر ورفع صوته بالتكبير ، حتى استيقظ بصوته رسولُ الله – ﷺ – فلما استيقظ رسول الله – ﷺ – شكوا إليه الذى أصابهم ، فقال : لا ضير ، أو لا تَضَيُّرَ ، ارتحلوا .. فارتحلوا ، فسار غير بعيد ، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ ، ونودىَ بالصلاة فصلّى بالناس .. فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصل مع القوم ، قال : ما منعك يا فلان أن تصلىَ مع القوم ؟ فقال : يا رسول ، أصابتنى جنابة ولا ماء . قال : عَليك بالصعيد ..

ثم سار رسول الله – ﷺ – وشكا إليه الناس العطش ، فنزل ، فدعا فلانًا .. كان يسميه أبو رجاء ونسيه عوف ، ودعا عليًا ، فقال : اذهبا فابغيا لنا الماء .. قال : فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين[1] من ماء على بعير ، فقالا لها : أين الماء ؟ .. فقالت : عهدى بالماء أمس هذه الساعة ، ونفرنا خُلوف .. فقالا لها : انطلقى إذن ...

قالت : إلى أين ؟ .. قالا : إلى رسول الله ﷺ ..

قالت : هذا الذى يقال له الصابئ ؟ .. قالا : هو الذى تعنين ، فانطلقى .. فجاءا بها إلى رسول الله – ﷺ – فحدثاه الحديث .. فاستنزلوها عن بعيرها[2] ، ودعا رسول الله – ﷺ – بإناء ، فأفرغ منه من أفواه المزادتين أو السطيحتين ، وأوكأ أفواههما ، وأطلق العَزَالى[3] ، ونودِىَ فى الناس أن : اسقُوا واستَقُوا ، فسَقَى من شاء ، واستقى من شاء ، وكان آخر ذلك أن أعطى الذى أصابته الجنابة إناءً من ماء ، فقال : إذهبْ فأفرغه عليك ، قال : وهى قائمة تنظر ما يفعل بمائها .. قال : وأيمُ الله ، لقد أقلع عنها ، وإنه لِيخيلُ إلينا أنها أشدُّ مِلأَةً منها حين ابتدأ فيها ..

فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لها ، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة ، حتى

---

(١) السطيحة : تشبه المزادة ، أو وعاء من جلدين مسطح أحدهما على الآخر .
(٢) أى طلبوا منها النزول .
(٣) جمع عزلى ، وهى مصب الماء من الراوية .

جمعوا لها طعامًا كثيرًا ، وجعلوه في ثوب ، وحملوها على بعيرها ، ووضعوا الثوب بين يديها .. فقال لها رسول الله – ﷺ – :

« تعلمين والله ، ما رزئنا[1] من مالك شيئًا ، ولكن الله عز وجل هو الذى سقانا ..

قال : فأتت أهلها وقد احتبست عنهم ، فقالوا : ما حبسك يا فلانة ؟ ..

قالت : العجب ، لقينى رجلان ، فذهبا بى إلى هذا الذى يقال له الصابئ ، ففعل بمائى كذا وكذا ، فوالله ، إنه لأَسْحَرُ مَنْ بين هذه وهذه – وقالت بإصبعيها السّبابة والوسطى ، فرفعتهما إلى السماء – تعنى السماء والأرض – أو إنه لرسول الله حقًا »[2] .. فكان المسلمون يُغيرون على من حولها من المشركين ، ولا يصيبون الصِّرم الذى هى منه . فقالت يومًا لقومها :

ما أرى أن هؤلاء القوم يدعُونكم عَمْدًا . فهل لكم فى الإسلام ؟ فأطاعوها فدخلوا فى الإسلام »[3] .

عن عمران بن حصين – رضى الله عنهما – قال :

« كُنَّا فى سفرٍ مع النبى – ﷺ – فاشتكى إليه الناس من العطش ، فنزل ، فَدَعَا فلانا – كان يسميه أبو رجاء – ونسيه عوف ، ودعا عليا فقال :

اذهبا ، فابتغيا الماء ، فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء ، فجاءا بها إلى النبى – ﷺ – فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبى – ﷺ – بإناء ، ففرغ فيه من أفواه المزادتين ، ونودى فى الناس : اسقوا واستقوا ، قال : فشربنا عطاشًا أربعين رجلا حتى روينا ، فملأنا كل قربة معنا وإداوة ، وأيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأةً منها حين ابتدأ »[4] ...

وعن جابر – رضى الله عنه – قال :

عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله – ﷺ – بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، ثم أقبل الناس نحوه ، قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ به ، ونشرب إلا ما فى ركوتك ، فوضع النبى – ﷺ – يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ..

قال : فشربنا وتوضأنا .. قيل لجابر : كم كنتم ؟ ..

---

(١) رزئنا : نقصنا .
(٢) الوفا جـ ١ ص ٢٨٤ – ٢٨٧ .
(٣) أخرجاه .
(٤) أخرجه البخارى ومسلم .

قال :

لو كنا مائة ألف لكفانا ؛ كنا خمس عشرة مائة »[1] .

البركة فى الطعام

وأحاديث البركة فى الطعام كثيرة ، صحيحة مشهورة ، وهى متواترة أيضًا فى جوهرها ، ومن ذلك بالنسبة لرسول الله – ﷺ – ما يلى :

روى هاشم بن القاسم ، أخبرنا سليمان ، عن ثابت قال :

« جعلت امرأة من الأنصار طُعَيِّما لها ، ثم قالت لزوجها : اذهب إلى رسول الله ﷺ – فادعه ، وأسِرّه[2] إلى رسول الله – ﷺ – .. قال : فجاء ، فقال :

يا رسول الله ، إن فلانة قد صنعت طُعيِّما وإنى أحب أن تأتينا .. فقال رسول الله – ﷺ للناس : « أجيبوا أبا فلان » .. قال : فجئت ، وما تكاد تتبعنى رجلاى لما تركت عند أهلى ، ورسول الله – ﷺ – قد جاء بالناس .. قال : فقلت لامرأتى : قد افتضحنا ، هذا رسول – ﷺ – قد جاء بالناس معه ، قالت : أو ما أمرتك أن تُسِرَّ ذلك إليه ؟ .. قال : قد فعلت .. قالت : فرسول الله – ﷺ – أعلم ، فجاءوا حتى ملأوا البيت وملأوا الحجرة وكانوا فى الدار ، وجىء بمثل الكف فوضعت ، فجعل رسول الله – ﷺ – يبسطها فى الإناء ، ويقول ما شاء الله أن يقول ؛ ثم قال : ادنوا فكلوا ، فإذا شبع أحدكم فليُخْلِ لصاحبه .. قال : فجعل الرجل يقوم والآخر يقعد ، حتى ما بقى من أهل البيت أحد إلا شبع ، ثم قال : ادع لى أهل الحجرة ، فجعل يقعد قاعد ، ويقوم قائم حتى شبعوا ، ثم قال : ادع لى أهل الدار ، فصنعوا مثل ذلك .. قال : وبقى مثلُ ما كان فى الإناء .. قال : فقال رسول الله – ﷺ – : « كلوا وأطعموا جيرانكم »[3] .

وعن عبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى ، قال : حدثنى أبى قال :

« كنا مع رسول الله – ﷺ – فى غزاة ، فأصاب الناسَ مخمصةٌ[4] ، فاستأذن الناس رسول الله – ﷺ – فى نحر بعض ظهرهم[5] ، وقالوا : يبلغنا[6] الله به ، فلما رأى عمر بن

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) ادعه فى الستر لقلة الطعام .

(٣) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ١٦٠ .

(٤) مخمصة : مجاعة .

(٥) ظهرهم : الإبل التى يحمل عليها وتركب ، وتجمع على ظهران بضم الظاء .

(٦) يبلغنا : يوصلنا .

الخطاب أن رسول الله – ﷺ – قد همّ أن يأذن لهم فى بعض ظهرهم قال : يا رسول الله ، كيف بنا إذا نحر ، لقينا القوم غدًا جياعًا رجالاً[1] ، ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم[2] فتجمعها ، ثم تدعو الله فيها بالبركة ، فإن الله سيبلغنا بدعوتك ، أو سيبارك لنا فى دعوتك .. فدعا رسول الله – ﷺ – ببقايا أزوادهم ، فجعل الناس يجيئون بالحثية[3] من الطعام ، وفوق ذلك .. وكان من أعلاهم من جاء بصاع من تمر ، فجمّعها رسول الله ﷺ– ثم قام فدعا ما شاء الله أن يدعو ، ثم دعا بالجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحثوا ، فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملئوه وبقى منه ، فضحك رسول الله – ﷺ – حتى بدت نواجذه ، فقال :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنى رسول الله ، لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلى حجبت عند النار يوم القيامة »[4] .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكر أنه قال :

« كنا مع النبى – ﷺ – ثلاثين ومائة ، فقال النبى – ﷺ – :

هل مع أحد منكم طعام ؟ .. فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه ، فعجن ، ثم جاء رجل مشرك مشعان[5] طويل بغنم يسوقها ، فقال النبى – ﷺ – : أبيعًا أم عطية ؟ ، أو قال : هِبَة .. قال : بل بيع ، فاشترى منه شاةً فصنعت : وأمر النبى – ﷺ – بسواد البطن أن يشوى .. قال : وأيم الله ما من الثلاثين والمائة إلا قد حز رسول الله – ﷺ – حزة من سواد بطنها ، إن كان شاهدًا أعطاه إياه ، وإن كان غائبًا خبأ له ، قال : وجعل منها قصعتين .. قال : فأكلنا أجمعون وشبعنا ، وفضل فى القصعتين[6] فحملناه على بعير أو كما قال[7] ..

وعن جابر ، أن أم مالك الفهرية كانت تهدى فى عكة لها سمنا إلى رسول الله – ﷺ – فبينا بنوها يسألونها الإدام – وليس عندها شىء – عَمَدَت إلى عكتها التى كانت تهدى فيها إلى رسول الله – ﷺ – فوجدت فيها سمنا ، فمازال يأدم لها أدم بنيها حتى عصرته ، فأتت النبى – ﷺ – قال : أعصرته ؟ .. قالت نعم .. قال : لو تركته مازال ذلك لك مقيمًا[8] ..

---

(١) رجالا : ليس لهم ظهر يركبونه .
(٢) أزوادهم : جمع زاد .
(٣) الحثية : القبضة أو الغرفة باليد .
(٤) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٦٣ ، ورواه مسلم بنحوه – حدث هذا فى غزوة تبوك .
(٥) أى ثائر الرأس .
(٦) فى رواية : ففاضت القصعتان .
(٧) الوفا جـ ١ ص ٢٧٩ وفيه : أخرجه الشيخان .
(٨) الوفا جـ ١ ص ٢٨١ – ٢٨٢ وفيه : انفرد بإخراجه مسلم .

وعن أبى إياس قال :

« خرجنا مع رسول الله - ﷺ - فى غزاة ، فأصابنا جَهد ، حتى هممنا ننحر بعض ظهرنا ، فأمر رسول الله - ﷺ ، فجمعنا مزاودنا ، فبسط له نطعا ، فاجتمع زاد القوم على النطع ، فتطاولت لأحرزه ، فإذا هو كربضة العنز ، ونحن أربع عشر مائة ، قال : فأكلنا حتى شبعنا جميعًا ، ثم حشونا جُربنا »[1] .

وعن جابر بن عبد الله قال :

عملنا مع رسول الله - ﷺ - فى الخندق ، وكانت عندى شويهة عنز جذعة سمينة ، فقلت : لو صنعناها لرسول الله - ﷺ - فأمرتُ امرأتى فطحنت لنا شيئًا من شعير ، وصنعت لنا منه خبزًا ، وذبحت تلك الشاة .. فشويناها لرسول الله - ﷺ - .. قال : فلما أمسينا ، وأراد رسول الله - ﷺ - الانصراف عن الخندق ، قال : وكنا نعمل فيه نهارًا ، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا ، قال : قلت : يا رسول الله ، إنى صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئًا من خبز الشعير ، فأحب أن ينصرف معى رسول الله - ﷺ - إلى منزلى ، وإنما أريد أن ينصرف معى رسول الله - ﷺ - وحده ..

فلما قلت له ذلك قال : نعم .. ثم أمر صارخًا فصرخ : أن انصرفوا مع رسول الله - ﷺ- إلى بيت جابر .. قال : قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون .. فأقبل رسول الله - ﷺ - وأقبل الناس معه ، فجلس ، فأخرجناها إليه .. قال : فبارك وسمّى ثم أكل ، وتواردها الناس ، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها »[2] .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال أبو طلحة لأم سليم :

لقد سمعتُ صوت رسول الله - ﷺ - ضعيفًا : أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ .

فقالت : نعم ، فأخرجت أقراصًا من شعير ، ثم أخرجت خمارًا لها لفت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدى ولا ثتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله - ﷺ - فذهبت به ، فوجدت رسول الله - ﷺ - فى المسجد ، ومعه الناس ، فسلمت عليهم ، فقال لى رسول الله - ﷺ - : أرسلك أبو طلحة ؟ .. قلت : نعم .. قال : بطعام ؟ .. قلت : نعم .. فقال

---

(١) انفرد بإخراجه مسلم .
(٢) أخرجاه .

رسول الله – ﷺ – لمن معه : قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة ، فأخبرته ، فقال أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله – ﷺ – بالناس وليس ، عندنا ما نطعمهم ، قالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة حتى لَقى رسولَ الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ﷺ ؛ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله – ﷺ – :

هلمى يا أم سليم ، ما عندك ؟ .. فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله – ﷺ – ففت ، وعصرت أم سليم عكة فآدمته ، ثم قال رسول الله – ﷺ – فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم خرجوا ، ثم قال : ائذن لعشرة ، ثم لعشرة ، فأكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا[١] .

وعن جابر – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ .. جاءه رجل ليستطعمه ؛ فأطعمه شطر وسق شعير ، فمازال الرجل يأكل منه ، وامرأته ، وضيفهما ، حتى كاله .. ففنى .. فأتى النبى – ﷺ فقال : لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم[٢] .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال :

« لما كان يوم غزوة تبوك ، أصاب الناس مجاعة ، فقال عمر : يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع الله لهم بالبركة ، فقال : نعم .. فدعا بنطع ، فبسط ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ، ويجىء الآخر بكف تمر ، ويجىء الآخر بكسرة ، حتى اجتمع على النطع شىء يسير ، فدعا رسول الله – ﷺ – بالبركة ، ثم قال : خذوا فى أوعيتكم .. فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه .. قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله – ﷺ – : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّى رسول الله .. لا يلقى الله بهما عبد غيرُ شاكٍّ فيحجب عن الجنة »[٣] .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

« توفى أبى وعليه دين ، فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه ، فأبوا فأتيت النبى ﷺ ، فقلت :

قد علمتَ أن والدى استشهد يوم أحد وترك دينًا كثيرًا ، وإنى أحب أن يراك الغرماء ، فقال لى :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .

اذهبْ فبيدر كل تمر على ناحية ، ففعلت ثم دعوته ، فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بى تلك الساعة ، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بيدرا ثلاث مرات ، ثم جلس عليه ، ثم قال :

ادع إلىّ أصحابَك ، فمازال يكيل لهم حتى أدّى اللّهُ عن والدى أمانَته وأنا أرضى أن يؤدِّيَ الله أمانة والدى ، ولا أرجع إلى أخواتى بتمرة ؛ فسلم الله البيادر كلها ، حتى أنى أنظر إلى البيدرا الذى كان عليه النبى ﷺ ، كأنما لم تنقص ثمرة واحدة[1] .

حنين الجذع

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى ﷺ ، كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار ، أو رجل : يا رسول الله ، ألا نجعل لك منبرًا ؟ .

قال : إن شئتم .

فجعلوا له منبرًا ، فلما كان يوم الجمعة ، رفع إلى المنبر ، فصاحت النخلة صياح الصبىّ ، ثم نزل النبى ﷺ ، فضمها إليه : تَئِنُّ أنين الصبىّ ، الذى يُسكّن ، قال : كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها[2] .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول :

كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل ، فكان النبى ﷺ ، إذ خطب ، يقوم إلى جذع منها . صُنع له المنبر ، فكان عليه ، فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار ، حتى جاء النبى ﷺ ، فوضع يده عليها فسكنت[3] .

يقول صاحب الشفا ، عن حنين الجذع : إنه فى نفسه مشهور منتشر والخبر به متواتر ، قد خرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر : منهم أبى بن كعب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى وبريدة وأم سلمة والمطلب بن أبى وداعة كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث قال الترمذى وحديث أنس صحيح قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفًا على جذوع نخل فكان النبى ﷺ ، إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر : سمعنا لذلك

---

(١) رواه البخارى ، انظر جامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهانى جـ ١ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) صحيح البخارى ، جـ ٨ ص ٢٣٨ ط الشعب .

(٣) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٣٧ ط الشعب .

الجذع صوتًا كصوت العشار ، وفى رواية أنس : حتى ارتج المسجد بجواره ، وفى رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوا به ، وفى رواية المطّلب وأبىّ : حتى تصدع وانشق ، حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت ، زاد غيره : فقال النبى ﷺ إن هذا بكى لما فقد من الذكر[١] .

أراكم من وراء ظهرى :

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

هل ترون قِبْلتى ها هنا ؟ .

فوالله ما يخفى علىَّ خشوعكم ولا ركوعكم ، إنى لأراكم من وراء ظهرى[٢] .

عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ ، يُقْبل علينا بوجهه قبل أن يكبِّر ، فيقول تراصُّوا واعتدلوا ، فإنى أراكم من وراء ظهرى[٣] .

❑❑❑

(١) الشفاء ص ٢٥٧ .
(٢) الحديث فى الصحيحين انظر الوفا : جـ ١ ص ٣٤٤ .
(٣) الحديث فى الصحيحين ، انظر الوفا جـ ١ ص ٣٤٣ ط/دار الكتب الحديثة .

﴿لكـــن الله يشهـد بما أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمـــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾
[صدق الله العظيم]
سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل التاسع عن:

دلائـل النبـوة
فى
معجـزة الإسراء والمعـراج

الإسراء والمعراج[1]

إن الناس – عادة – حينما يتحدثون عن معجزة الإسراء والمعراج ، يتحدثون عن جانبها الذى يتصل بقطع المسافات ، وطى المكان ، والعروج من سماء إلى سماء ، فى لحظات لا تُعَادل بالأيام والشهور ، وإنما بالساعات والدقائق ..

وما من شك فى أن الإسراء والمعراج معجزة من هذه الزاوية .. ومعجزة كبرى .. ولكنها أيضًا : آيات ودلالات على صدق الرسول ﷺ ، من زوايا أخرى : تتجه نحو الجانب الأخلاقى فى تزكية النفس ، واستقامة الأسرة ، وإصلاح المجتمع .

وكما تعبر حياة الشخص عن صدقه أو زيفه ، فإن تعاليمه كذلك تعبر عن صدقه أو زيفه . وإن أصحاب الآفاق المستنيرة – كما ينظرون إلى سلوك الشخص وحياته – فإنهم ينظرون أيضًا ، إلى تعاليمه ورسالته ، حتى يكونوا على بينة من الحكم عليه .

ومن أجل ذلك ، تحدثنا عن الإسراء والمعراج من هذه الجوانب جميعًا ، واستفضنا فى الزاوية التى تتصل بالجانب الأخلاقى والجانب الروحى ، لنزيل ما علق بالنفوس من : قصر الحديث – فى الإسراء والمعراج – على الجانب الذى يتصل بطى الأرض ، والعروج إلى السماوات .

والحديث عن الإسراء والمعراج – من هذه الجوانب جميعًا – إنما هو واجب من حيث إثبات الدلائل الحسية والمعنوية ، فيما يتعلق بصدق النبوة ..

ونحن من الآن ، نعتذر عن هذه الاستفاضة التى اتسم بها البحث فى الإسراء والمعراج .

ولقد استفضنا متعمدين ، وذلك أن من دلائل النبوة أن تكون آثار النبى ، وأن يكون موضع رسالته ، متسمًا بالأخلاق الكريمة ، والروحانية العالية ، وأن يحتل المنهج – للسير بالحياة الاجتماعية إلى السمو – مكانة كبرى فى رسالته ، إننا من أجل ذلك ، استفضنا .

---

(١) إن ترتيب الإسراء والمعراج الزمنى يسبق الهجرة ولكنا أتينا بها هنا لأننا جمعنا المعجزات فى فصل متخصص . وترتبط معجزة الإسراء والمعراج ارتباطًا محكما بالفصل الذى تحدثنا فيه عن مفهوم الرسالة وذلك أن منهج الحياة الذى ترسمه حادثة الإسراء والمعراج إنما هو توضيح من زاوية أخرى لمفهوم الرسالة الإسلامية فى صدقها وفى كمالها .

إن قصة الإسراء ، لا ينبغى أن تؤخذ على أنها رحلة شديدة الغرابة فى أعراف الناس ، وإنما على أنها – مع ذلك – رسم للكثير من جوانب حياة المسلم فى معراجه إلى الله .

إنها رحلة لم تنته – ولن تنتهى – من حيث توجيه المسلم إلى الله سبحانه ، إنها دلالة على النبوة من حيث هى معجزة ، وهى دلالة على النبوة من حيث هى أخلاق .

يقول سبحانه وتعالى :

﴿سبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركْنَا حولَه لِنُريهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿والنَّجم إذا هَوَى ما ضل صاحبكم وما غَوَى ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وَحْىٌ يوحى ، علَّمه شديدُ القوى ، ذو مِرَّة فاستَوَى ، وهو بالأُفقِ الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قابَ قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى ، أَفَتمَارونه على ما يرى ؟ .. ولقد رآه نزلةً أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنَّةُ المأوى ، إذْ يغشى السدرةَ ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[2] .

هذه هى الآيات القرآنية :عن الإسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية فإنها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيا ، يكمل بعضها بعضًا .

رواها الكثير من المحدثين ، واستفاض فى ذكرها الإمام السيوطى –طيب الله ثراه – فى كتابه « الخصائص الكبرى » .

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته ، فإنه معروف عادة للمسلمين ، وإنما الذى يعنينا أن نذكر – على الخصوص – الجانب الأخلاقى فيه ، وجانب المغزى منه .

ومجمل الأمر : أن رسول الله ﷺ ، بينما كان نائمًا ، أتاه جبريل ، فأيقظه وخرج معه ، فإذا أمامهما دابة بيضاء ، هى البراق .. وركبها رسول الله – ﷺ – وسارت الدابة ، وجبريل معه على حد تعبيره – ﷺ – : « لا يفوتنى ولا أفوته » – حتى انتهى إلى بيت المقدس .. فوجد فيه إبراهيم وموسى ، وعيسى – عليهم السلام – فى نفر من الأنبياء ،

---

(١) الإسراء آية : ١ .

(٢) النجم آية : ١ – ١٨ .

فأمَّهم رسولُ الله – ﷺ – وصلى بهم .. ثم أُتَى بإناءين : بأحدهما خمر ، وبالآخر لَبَن ، فأخذ رسول الله – ﷺ – إناءَ اللبن ، وشرب منه ، وترك إناءَ الخمر ..

فقال له جبريل :

« هُديت للفِطرة ، وهديتْ أمتُك ، وحُرمت عليكم الخمر » .

وتروى كتب السيرة : أن رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – أتاه ليلة الإسراء آتٍ ، فَفَرَجَ صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطَستٍ من ذهب ممتلئ حكمةً وإيمانًا ، فأفرغه فى صدره الشريف ثم أطبقه .

ثم كان الإسراء إلى بيت المقدس .

ولما انتهى – ﷺ – من بيت المقدس ، عُرِجَ به إلى السماء ، وأخذ يرتقى سماءً . ثم تجاوزها جميعها ، إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ..

وهناك حيا الرسول – ﷺ – ربَّه : « التحيات لله ، والصلوات والطيبات » ..

وحياه الله سبحانه وتعالى :

« السَّلام عليك أيها النبى ورحمةُ اللهوبركاته » ..

وقال الرسول – ﷺ ..

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ..

وفى هذه اللحظات الخالدة : التى لا يتأتّى أن توصف ، فرض الله – سبحانه وتعالى – الصلوات ، على الأمة الإسلامية –

وبلَّغَ رسول الله ﷺ الخَبَر ، وتحدَّث بنعمة الله تعالى عليه ، فأنكر المشركون ذلك وعارضوه ، وبلَّغ المشركون الخبر إلى أبى بكر رضى الله عنه : مستنكرين له متعجبين منه ، فقال لهم ، والله لئن كان ما قاله لقد صدق .. فما يعجبكم من ذلك ؟ ، فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه .. فهذا أبعد مما يعجبون منه :

فقال رسول الله – ﷺ – لأبى بكر :

« وأنت يا أبا بكر : « الصديق » .. فيومئذ سماه : الصديق » .

هذا هو الموجز لما ترويه السنة مؤيدة للقرآن ، عن هذا النبأ الجليل ..

ولقد حاول « ابن إسحاق » أن يبين الحكمة فى هذا الحادث ، فقدم – حسبما يروى ابن هشام – لحديث الإسراء بكلمة نفيسة ، يقول فيها :

« وكان فى مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين – فأسْرِىَ به كيف شاء ، وكما شاء ، ليريَهُ من آياته الكبرى ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

أما الإمام البوصيرى ، فإنه يقول فى « همزيته » المباركة :

فطوى الأرض سائرًا والسموا　　تِ العـــلا فوقَها لـه إسراءُ

فصِفِ الليلة التى كان للمخـ　　تَارِ فيهـــا على البراق استواءُ

وترقَّى بـــــه إلى قاب قوسيـ　　ـن وَتلك الســـيادة القعساء

رُتَبٌ تسقط الأمـــانى حسرى　　دونها مـــا وراء هـــن وراء

ثـم وافى يحدّث الناسَ شكرًا　　إذ أتته من ربـــه النعمـــاءُ

وتحـــدى فارتـاب كلُّ مريب　　أو يبقى مع السيول الغثاءُ ؟

هذا النبأ الجليل : يسمعه قوم ،فلا يصل إلا إلى الجوانب الظاهرية منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى : أكان ذلك فى اليقظة ، أم كان ذلك فى النوم ؟ ..

أكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟

أكان ليلا ؟ أم كان نهارًا ؟ ..

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف وَزْنُ الإيمان فى النفوس[1] .

ويسمع هذا النبأَ قوم ، فيصل إلى أعماق قلوبهم ؛ فيتجهون – فى صورة طبيعية – إلى

---

(١) يقول شوقى – رحمه الله – فى قصيدته التى عارض فيها الإمام البوصيرى – هذه الأبيات الجميلة :

يتساءلـــون وأنت أطهرُ هيكلٍ　　بالـروح أم بالهيكـل الإسراءُ

بهما سموتَ مطهرًا وكلا همـا　　نـور وروحانيـة وبهـــاءُ

فضل عليك لذى الجـلال ومنة　　والله يفعل مـــا يرى ويشاءُ

تغشى الغيوبَ من العوالـم كلما　　طُويتْ سمـــاء قلدتك سماءُ

الله هيــــأ مــن حظيرة قدسـه　　نزلا لذاتك لـم يجزه عـلاءُ

العرش تحتك سدة وقوا ئـــم　　ومناكب الروح الأمـين وطاءُ

والرسل دون العرش لم يؤذن لهم　　حاشا لغيرك موعد ولقـــاءُ

مغزاه العميق ، وإلى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ ينطوى على توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الكرام .. من هذه التوجيهات :

١ - لقد كان رسول الله - ﷺ - خاتَمةَ سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة ؛ ليهدِىَ إلى الرشاد ، ولتقودَ إلى الله ؛ ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو ، عن الإرشاد الإلهى ..

وكان الكتاب الذى أنزل عليه - ﷺ - وهو القرآن - خاتَمَ الكتب وأكملها ، ومهيمنًا عليها .

ولأن رسول الله - ﷺ - تخلَّق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو - إذن - أكمل رسول - ﷺ - :

ومن هنا ، كانت إمامته - ﷺ - للرسل والأنبياء فى بيت المقدس ..

ولأنه - ﷺ - أكمل رسول ، كان من أجل ذلك - أقرَبَ المقربين إلى الله ، سبحانه وتعالى ..

لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكَوْنَ كلَّه ، ووصل إلى ما لم يصل إليه بشر . بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه ؛ عليه السلام .

ولقد وصل - ﷺ - إلى : « قاب قوسين أو أدنى » .

وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج ، من : وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول - ﷺ - أخذ يتجاوز هذه السموات الواحدة بعد الأخرى ، ويتجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر .

نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى - فإنه - أيضًا ، بل وبطريق أولى - معنى روحى .. أى أن الرسول - ﷺ - فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات - قد بلغ فى معراجه ، إلى درجات تجاوزت - فى روحانيتها - آدم فى سمائه الأولى .. ثم تجاوزت عيسى وموسى .. و .. وهكذا - حتى تجاوزت روحيا إبراهيم - عليه السلام - فى سمائه السابعة .

ولقد تجاوز رسول الله - ﷺ - كل ذلك ، وتجاوز الكون كله ،إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، ثم إلى حيث لا يبلغ مَلكٌ مقرَّبٌ ، ولا نبى مرسلٌ : إلى قاب قوسين أو أدنى ..

لقد رأى من آيات ربه الكبرى – هذا هو مقام الرسول – ﷺ ..

ولكنّ بعض الناس ينزلُ بنا من هذه الآفاق العليا ، والسموات السامية ومن الرحاب[1] الإلهية . ينزل بنا منحدرًا ، فيجادل فى الإسراء والمعراج .. أكان رؤيا أم كان يقظة ؟

أستغفر الله ، وأتوب إليه ..

إن ذلك الجدل ، إذا دلَّ على شىء فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل المخازى .

ومن الشعر الدينى الحديث فى ذلك قول الشاعر الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح من قصيدة فى الإسراء والمعراج :

والنجم حين هوى لقد صعد الهدى	كالنجم يسبح فى السماء مُضَاءً
ما ضل صاحبكم ولم ينطق لكم	إلا بما يوحى لـه ايحـاءً
صدق الفؤاد فلا تُمارِ فقد رأى الـ	آيات كبرَى تملأ الأرجـاء
قالوا أيصعد فى السماء وهل بها	يجد الهـواء ، الا يشم هـواءً ؟
قاسوا الأمور بما رأوه أمامهـم	والمعجـزاتُ ألا تكـون وراءً
لا تجعلوا أمـر الرسـول كأمركم	أرض تنافس فى العلو سمـاءً
نسـم من الفِردوس حفَّ ركابه	أيحسُّ ضيقًا أو يحس عنـاءً
ووراء هذا الكـون قـوة خالق	فوق الظنون جلالـة وعـلاءً
الله أكـبر أن نحـدد فضلـه	جل الإله على العبـاد عطاءً
أيصغرون جـلال رب قـادر	ملكت يداه الموت والأحيـاء

٢ – وإذا كانت التوجيهات السابقة ، إنما كانت لتدلنا على مقام رسول الله – ﷺ – فنزداد بذلك تقديرًا ، وحبا واتباعًا ، فإن من هدى اللهسبحانه وتعالى ، وتوجيهاته فى نبأ الإسراء والمعراج – هذه الرمزيات الأخلاقية ، التى تربط ربطًا محكمًا بين الدين والأخلاق ..

والواقع أن الأخلاق – فى جو الإسلام – مرتبطة بالدين ارتباطًا لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ؛ إنها جزء من الدين الإسلامى لا يتجزأ ، مصدرها هو مصدره : إلهى ربانى ..

وبعض الناس – فى العصر الحديث – يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .. يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين .. فالضمير يربىّ ويكوَّن . وتربيته وتكوينه هما : شكله ، ونزعته ، واتجاهه الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر والوسط .

(١) الرحاب : جمع رحبة :المكان الواسع .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو – إذن – مقياس للأخلاق خاطئ ، .. وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث بأسم المصلحة العامة ، إنما يتحدث باسم فكرته هو : منحرفة كانت هذه الفكرة أو غيرَ منحرفة .

والمصلحة العامة – إذن – كأساس للأخلاق ، أساس غير مضمون وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية ، أو إلى اللذة ، أو إلى المنفعة .. وكل هذا وارد الغرب الأوروبى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وأَلْحَدَ ، ودخل فى إغماء أخلاقى .

أما وارد الشرق الإسلامى ، أو بتعبير أدق . وارد الإسلام الإلهى ، فإن مقياس الأخلاق فيه ، إنما هو المبادئ الدينية . إنما هو آيات القرآن .. وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله – سبحانه وتعالى – .. هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين ، وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج – تكون منهج حياة مؤسسة على الإيمان بالله ورسوله .. وهذا المنهج هو الذى نريد رسمه الآن بتوفيق الله .

منهج الحياة الذى رسمته أنباء الإسراء والمعراج

ونعود من جديد إلى أسانيد حادث الإسراء والمعراج ، فى السنة الشريفة ، فنقول :

« إن حادث الإسراء والمعراج ، ورد فى روايات عدة : منها الصحيح ومنها الحَسَن : أخرجها أئمة الحديث – رضوان الله عليهم – يذكر بعضها ما لم يذكره البعض الآخر ، تَتفق فى جوهرها ، ولا تتعارض فى جزئياتها ، يرويها بعضهم مختصرة ، ويرويها بعضهم متوسطة ، ويرويها بعضهم مطوَّلة ، وكلُّ صورة منها يتعدد سندها ، أى يختلف الرواة الذين رَوَوْها . ومع ذلك تكون الصورة واحدة فى جوهرها ..

الجوهر – إذن – متواتر ..

وإذا أخذنا برأيِ الإمام ابن حزم ، فى أن المتواتر ما روى بروايتين ، فإن التفاصيل – فى أغلبها – تكون أيضًا متواترة .

كل هذا مع ثبوت الأمر – فى جوهره – بالكتاب العزيز ..

ونحن – إذن – حينما نبدأ فى الحديث عن الإسراء والمعراج ، على أنه منهج الحياة .

ونستمد الصور أحيانًا من الجزئيات والتفاصيل ، فإنما تقف فى ذلك على أرض صلبة ، ونسير فى الرسم على أساس من المرويّ .

التوبة

وتبدأ قصة الإسراء والمعراج – فى بعض روايات البخارى ، وفى بعض روايات غيره – بشق الصدر .

من ذلك ما يرويه الإمام أحمد – بسنده – عن أنس بن مالك قال : « كان أبى بن كعب يحدّث : أن رسول الله – ﷺ – قال : « فُرِج سقفُ بيتى وأنا بمكة » فنزل جبريل ، ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئٍ حكمة وإيمانًا ، فأفرغها فى صدرى ، ثم أطبقه » ..

هذا الحادث هو – بالنسبة لنا – التوبة ، فإن تطهير القلب الذى حدث لرسول الله – ﷺ – عدة مراتٍ فى حياته ، إنما هو بالنسبة لأتباعه بمثابة التوبة ..

والواقع أن حياةَ المسلم – فى طريقه إلى الله – إنما تبدأ بالتوبة .. وليس قبل التوبة من درجة تسبقها ، والتوبة التى نتحدث عنها ، إنما هى التوبة الخالصة النَّصوحُ ، فإن الله تعالى يقول :

﴿يأيها الذين آمنوا تُوبُوا إلى الله توبةً نَصُوحًا﴾[1] .

فأرشد – سبحانه – إلى أن التوبة المطلوبة ، إنما هى التوبة النصوح ..

ولأجل أن تكون التوبة خالصةً نصوحًا ، فإنه لابد من توفر شروط ...

ويتحدث الإمام النووى عن شروطها – فى كتابه المبارك – : « رياض الصالحين » – فيقول :

التوبة واجبة من كل ذَنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ، لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

والثانى : أن يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدا ..

---

(١) التحريم : آية ٨ .

فإن فقد أحد الثلاثة ، فلا تصح التوبة ..

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى ، فشروطها أربعة :

هذه الثلاثة :

وأن يبرأ من حقٍّ صاحبها .. فإن كانت مالا أو نحوه ، رده إليه .

وإن كان حَدَّ قذف ، أو نحوه ، مكّنه منه ، أو طلب عفوه ..

وإن كانت غِيبةً ، استحله منها ..

ولأن التوبة أول سلَّمٍ فى معراج السالكين إلى الله ؛ ولأنها واجبة من كل ذنب ؛ ولأنها تَجُبُّ[1] ما قبلها ، ولأنها تضع الإنسان – فور تحققه بها – فى مرتبة البراءة والطهارة والنقاء – فإن الإسلام حث عليها كثيرًا ..

يقول الله تعالى آمرًا بها : ﴿وتُوبُوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[2] ..

وقد فتح الله بابها – خالصة نَصوحا – على مصراعيه .. فقال فى أسلوب يسيل رحمةً ورأفةً :

﴿قل يا عبادىَ الذين أسْرَفوا على أنفسهم لا تَقْنَطوا من رحمة الله ، إن الله يغفرُ الذنوب جميعًا إنه هو الغَفُورُ الرَّحيمُ﴾[3] ..

إنه – سبحانه – يغفرها بالتوبة ؛ لأنه سبحانه – يقول بعد ذلك موجهًا المسلمين إلى الطريق :

﴿وَأَنِيبُوا إلى ربِّكم وأسْلِمُوا له من قبلِ أن يأتيكم العذابُ ثم لا تُنْصَرُون . واتَّبِعُوا أحسَنَ ما أُنزِلَ إليكم من ربِّكم من قبـل أن يأتيكُمُ العذابُ بغتةً وأنتم لا تَشعُرُون﴾[4] .

ويتابع القرآن فى التوجيه إلى التوبة – فى أسلوب كله رحمة ورأفة – ما جاء فى حديث قدسى طويل رائع . يقول الله تعالى فيه :

« يا عبادى ، إنكم تخطِئون بالليل والنهار ، وأنا أغفِرُ الذنوب جميعًا ، فاسْتَغْفِرونى أغفِرْ لكم » ..

---

(١) تجب : تمحو وتزيل .
(٢) النور آية : ٣١ .
(٣) الزمر آية : ٥٣ .
(٤) الزمر آية : ٥٤ – ٥٥ .

ويتابع ذلك كله الأحاديث النبوية :

« إنَّ اللهَ يبسُطُ يَدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهارِ ، ويبسُطُ يَدَهُ بالنهار ليتوبَ مُسيءُ الليل » ..

ورسولُ الله – ﷺ – يعترف بالخطيئة ، كواقع لا يتأتى إنكاره ، فيقول :

« كل ابنِ آدمَ خطَّاءٌ » .

ولكنه يرشد إلى الوسيلة التى تفضِّل بعض الخطائين ، وتجعلُ لهم منزلةً فى الخير ، فيقول :

« وخيرُ الخطَّائين التَّوَّابونَ » ..

يقول الإمام القشيرى :

ومن لطائف المعراج : ما خصّ به أولَ حاله فى تلك الليلة : بالطهارة على ما ذكرنا .

وقد شُقَّ قلبُ النبى – ﷺ – مرتين[1] : مرة فى حالة صباه ، وهو بعد فى حجر حليمة ، والمرة الثانية ليلة المعراج ..

وفى تخصيص قلبه بالغسل – دون غيره من البدن – إشارات :

منها : أن القلب محل العرفان ، وهو المضغة التى بصلاحها صلاح البدن ، وهو محل المشاهدة .. ومركز الشعور ، ومصدر الإشعاع .

ولكى لا يكون لغير الحق نصيب فى قلبه .

ولتنبيه الأمة على طهارة القلب ..

وإذا كان شق الصدر : الذى سبق هذا الحادث الخطير – حادث الإسراء والمعراج – هو – بالنسبة لنا – التوبة .. فإنه أيضًا : توجيه واضحٌ لنا ، إلى أن نلجأ إلى الله تعالى تائبين ، عند الشروع فى أى أمرٍ له قيمته ..

إنه توجيه لنا : أن نلجأ إلى الله تعالى ، تائبين :عند الشروع فى شراء وفى بيع .. فى ارتباط بزواج ، فى بناء بيت ، فى الشروع فى سفر ..

وليست التوبة فى مثل هذا توبةً من ذنب ، وإنما هى التجاء إلى الله ، وتشفعٌ إليه –

---

(١) ولقد روى أيضًا فى حديث أخرجه الإمام أحمد أنه ﷺ ، قد شق صدره وهو فى سن العاشرة ، فهى ثلاث مرات « راجع ص ٧٠ دلائل النبوة » .

سبحانه – بتأكيد صفاء النفس ، وطهارة القلب ؛ من أجل أن يُسَدّد الخُطَا ، ويمنحَ التوفيق ، ويحفظ معه الأخطاء ..

إنها توسل إلى الله بعمل صالح ، هو التوبة ..

الغاية فى منهج الحياة

ويمكن للإنسان أن يتعجل السؤال عن الغاية ، فيقول :

إذا كان بدءُ الرحلة الإسلامية إنما هو التوبة ، فما نهايتها ؟ ..

ونقول دون تردد ولا شك : ليس دون الله منتهى ..

وذلك أن اللهسبحانه وتعالى ، هو الغاية الأخيرة للمؤمن المتبصر ..

ولقد أعلن اللهصراحةً : أنه سبحانه ، إليه المنتهى ، فقال :

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[1] ..

ويقول أبو سعيد الخرّاز – رضى الله عنه – معبرًا عن شعور المؤمن بالنسبة لله سبحانه :

« كل ما فاتَك من الله سوى اللهيسير ،

وكل حظ لك سوى اللهقليل » ..

إن هجرة المؤمن ، إليه سبحانه ، وذهابه إليه :

﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[2] .

وقال : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3] .

وفِرَارُ المؤمن ، إلى الله .. ولقد أمر الله بالفرار إليه فقال :

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[4] .

ولقد كانت نهاية الرحلة التى نحن بصددها – رحلةِ الإسراء والمعراج – الانتهاءَ إلى الله سبحانه وتعالى .. فهى رحلة انتهت إلى غايتها الحقيقية التى هى الله فَحققت :

﴿وأنَّ إلى ربك المُنْتَهَى﴾ .

---

(١) النجم : ٤٢ .

(٢) العنكبوت : ٢٦ .

(٣) الصافات : ٩٩ .

(٤) الذاريات : ٥٠ .

وأنه – إذا تحدثنا عن ثمرة السلوك إلى هذا المنتهى – فإنه ، بمقدار قرب السالك من هذا المنتهى ، تكون رعايةُ الله له ، وعنايته به ..

على أن هذه الرعاية ، وهذه العناية ، تبدأ منذ الخطوة الأولى ، التى تتمثل فى الاستغفار ..

والله – سبحانه وتعالى – يأمرُ بالاستغفار ، ويبين ما يترتب عليه من آثار ، وهى آثار ليست بالهينة أو التافهة .. إنها آثار ضخمه ..

يقول سبحانه :

﴿استَغْفِروا ربَّكم إنه كان غفَّارا . يرسل السماء عليكم مدرارًا ويُمْدِدكم بأموالٍ وبنينَ ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهارًا﴾

ويقول سبحانه :

﴿استغفِرُوا ربكم ثم تُوبوا إليه يُرسِلِ السماءَ عليكم مدرارًا ويزِدكم قوة إلى قوَّتكم﴾[1] .

وكلما ازداد الإنسان استغراقًا فى السلوك إلى الله ، بالتوبة والاستغفار ، كلما فعل ذلك ازدادت رعاية الله له ، وعنايته به .. حتى إذا ما انتهى إليه سبحانه ، كانت العناية المناسبة ، والرعاية الكافية ، فى الدنيا وفى الآخرة :

﴿ألاَ إنَّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمَنُوا وكانوا يَتَّقُون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرةِ ، لا تبديلَ لكلماتِ الله ، ذلك هو الفوز العظيم﴾[2] ..

وليس معنى الوصول إلى المنتهى ، وهو الله سبحانه – الاستقرارَ والسكونَ الروحى .. فحسب – وإنما معناه من جانب : زوال القلق والاضطراب النفسى ، وزوال هم الرزق ، وخوف الموت .. وزوال كل ما يصرف الإنسان عن الله أن يشغل بؤرة التفكير ، ويَحُلَّ فى أعماق النفس ..

معناه – من جانب آخر – الرُّقى الروحى الدائم ، الفيوضات الإلهية المستمرة : المعرفة اللدُنِّيَّةُ المتتالية .. وصلوات اللهوسلامه على من وَصَل إلى هذا المنتهى .

وأمِرَ – مع ذلك – أن يقول :

﴿ربِّ زِدْنى علمًا﴾[3] .. أى فيضًا ..

---

(١) هود : ٥٢ .

(٢) يونس : ٦٢ – ٦٤ .

(٣) طه : ١١٤ .

فزيادة العلم – فى عرف أولياء الله – إنما هو زيادة الفيض بالسعادة ..

ومن أجل ذلك يقول أحد العارفين :

« نحن فى سعادة لو عرفها الملوك ، لجالدونا عليها بالسيوف » .

وتتلوَّن السعادة بلون المعرفة ، ولكل باب من أبواب المعرفة مذاق خاص ، فله – إذن – لذة خاصة – إذا أمكن التعبير بكلمة : اللذة ، فى هذا المقام .

وهو يسلم إلى ما يليه .. وما يليه له مذاقه الخاص ، فله أيضًا لذته !

إنها جَنَّة الدنيا ، فى سموها وجمالها وجلالها .

ولا يحجب أولياءَ الله عن الله مالٌ .. وقد يكونون فى ثراء عريض ، فلا يصرفهم ذلك عن الله .

وما صرف سليمانَ عليه السلام ملكُهُ عن الله ..

وقد يعرض عليهم الثراء العريض فلا يعيرونه أهمية ..

ولقد قال رسول الله – ﷺ – :

« خُيِّرت بين أن أكونَ ملِكًا رسولاً أو عبدًا رسولاً ، فاخترت أن أكون عبدًا رسولاً » .

ويتحدث الإمام أبو سعيد الخراز عن ذلك – بالنسبة إلى رسول الله– ﷺ – فيقول : وهذا النبى – ﷺ – : بينما جبريل عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل ، فإذا مَلَك قد نزل من السماء لم ينزل قط .. فقال جبريل عليه السلام : خشيتُ أنه نزل فىّ بأمر .. فجاء إلى النبى – ﷺ – بالسلام من عند الله عز وجل ، وقال له : « هذه مفاتيحُ خزائن الأرضِ : تسير معك ذهبًا وفضة ، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئا » .. فلم يختر النبى – ﷺ – ذلك : وقال : « أجوعُ مرّة وأشبَع مرة » ..

ولا يحجب أولياءَ الله عن الله لذة حسية ، فهم فى لذة دائمة مستمرة : أسمى وأنفس ..

ولا يحجبهم عنه متاع دنيوى أيًا كان ؛ فاستبشار قلوبهم ، بقرب الله تعالى ، وسرورُها به ، وهدوؤها : فى سكونها إليه وأمنها معه ...

ما بين البدء والغاية

١ – الجهـاد

كيف الوصول إلى هذا المنتهى الذى فيه الرضا ، وفيه زيادة الأنوار ، وتلاحقها على الدوام ، وفيه السعادة التى لا تتقطع ، وفيه مِرضاة الله – سبحانه وتعالى – ، وحفظه وعنايته ومحبته ؟ ..

هذا ما ترسمه الرحلة المباركة – فيما بين : شق الصدر ، أو التوبة .. وبين :
﴿ثم دَنَا فَتَدَلَّى . فكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾[1] .

وبمجرد أن تبدأ الرحلة المباركة ، يرى رسول الله – ﷺ – أمرًا عجيبًا .. إنه يرى قومًا : يزرعون ويحصدون فى يوم ، كما حصدوا عادَ كما كان .. فقال النبى – ﷺ – لجبريل – عليه السلام – ما هذا ؟ .. قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله : تُضاعَفُ لهم الحسنةُ إلى سبَعمائة ضَعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخْلِفه ، وهو خير الرازقين » ..

وتنقلنا هذه الرؤية من التوبة مباشرة ، إلى الجهاد .. وهذا انتقال طبيعى ، فإنه إذا كانت التوبة حقًا خالصةً نَصوحًا ، استتبعت – لا محالة – الجهاد : وللجهاد فى الدين الإسلامى مكانة عظمى .. فقد روى الشيخان – بسندهما – عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال :

قلتُ : يا رسول الله . أى الأعمال أفضل ؟ .

قال : « الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله » ..

والجهاد فى سبيل الله ، أوسع وأعم من أن يقتصر على الجهاد الحربى .. إن من أنواع الجهاد فى سبيل الله ، جهاد النفس ، حتى تستقيم على التوبة ، وجهادها حتى تقيم على الفرائض ، وجهادها حتى تقيم الفرائض ، وجهادها حتى تلتزم بالفضائل ، وجهادها – دائما – حتى تتزكى من بعد التوبة :

﴿قَد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾[2] . ﴿ومن تزكَّى فإنما يتزكى لنفسه﴾[3] . وجهاد الأسرة ،

(١) النجم : ٨ ، ٩ .
(٢) الشمس : ٩ .
(٣) فاطر : ١٨ .

حتى تستقيم على أمر الله .. والله سبحانه وتعالى ، يقول : ﴿يأيها الذين آمَنُوا قُوا أنْفُسكُم وأهلِيكم نارًا ، وَقُودُها الناسُ والحجارة عليها ملائكةٌ غلاظ شداد لا يَعْصُون الله ما أمَرَهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1] . وكان سيدنا إسماعيل – عليه السلام – يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مَرْضِيًا ..

ولا يُغْنى جهادُ النفس وجهادُ الأسرة ، عن جهاد المجتمع ..

وكل ذلك أنواع متناسقة : من ميدان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو مبدأ أساسى فى الدين الإسلامى .

ولأجل أن يبين الله – سبحانه وتعالى – أهميته الكبرى ، ذكره قبل الإيمان بالله ، مبينا أنه مناطُ خيريةِ الأمة الإسلامية ، فقال سبحانه :

﴿كنتُم خيرَ أمّةٍ أخرِجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنهَوْنَ عن المنكر وتُؤمِنون بالله﴾[2] ..

وعلى العكس من ذلك اليهود ، فقد : ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دَاودَ وعيسى بن مريمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعتدون ، كانوا لا يَتَنَاهَوْن عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون﴾[3] .

ولقد بين الإسلام وسائلَ الجهاد بحسب الظروف والملابسات ، وبحسب الإمكانات والاحتمالات ..

عن ابن مسعود – رضى الله عنه – فيما رواه الإمام مسلم – أن رسول الله – ﷺ – قال :

« ما مِن نبى بعثه الله فى أمةٍ قبلى ، إلاّ كان له مِنْ أمتَّه حَواريونَ وأصحابٌ يأخذون بِسنَّته ، ويقتدون بأمره .. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف : يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمَرُون . فَمَنْ جاهدهم بيَدِهِ فهو مؤمن ، وَمَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن – ليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خَرْدلٍ » ..

وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول :

---

(١) التحريم : ٦ .
(٢) آل عمران : ١١٠ .
(٣) المائدة : ٧٨ .

« من رأى منكم منكرًا فيغَيْرْهُ بِيَده ، فإن لم يستطعْ فبلسانه ، فإن لم يستطعْ فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ..

وصوَّر رسول الله – ﷺ – المجتمع ، ووجوبَ الأخذ على يد المفسد فيه ، حتى لا يكون الهلاكُ – بالصورة الرائعة التالية : التى رواها الإمام البخارى عن النعمان بن بشير ، عن رسول الله – ﷺ – قال : « مَثَلُ القائمِ على حدود الله ،والواقعِ فيها كَمَثَل قومٍ اسْتهَموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ؛ وبعضهم أسفلها ، وكان الذين أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مروًّا على مَن فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرَقْنا فى نصيبنا خَرقًا ، ولم نُؤْذِ مَن فوقنا .. فإن تركوهم وما أرادوا – هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا » .

وروى الترمذى عن حذيفة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال :

« والذى نفسى بيَدِهِ ،لتأمُرُونَّ بالمعروف ، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ،أو لَيُوشَكَنَّ اللهأن يبعثَ عليكم عقابًا منه ، ثم تَدْعونَهُ فلا يُسْتجابُ لكم » ..

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى – ﷺ – قال :

« أفضلُ الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائرٍ » ..

وإن الله سبحانه وتعالى لا يخلى الأرض من الآمرين بالمعروف ، الناهين عن المنكر .. فقد جاء فى الصحيحين :

« لا تَزَال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يَضرُّهم مَن خَذَلُهم ، ولا مَن خَالفهم ، حتى يأتىَ أمر الله وهم كذلك ..

أما الجهاد الحربى ، فيكفى – لبيان أنه من طبيعة الإسلام – أن نذكر فيه حديثين ، أو ثلاثة ، وأن نذكر فيه آيتين من القرآن أو ثلاثًا ..

ونبدأ – فى ذلك – بما رواه الإمام مسلم ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« من ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسه بغزوٍ ، مات على شُعبة من النفاق » ..

وعن أبى هريرة – رضى اللهعنه – فيما رواه الترمذى – قال :

« مرَّ رجل من أصحاب رسول الله – ﷺ – بشعب ، فيه عينة من ماء عذبة ، فأعجبته ، فقال :

« لو اعتزلتُ الناسَ فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذنَ رسول الله – ﷺ

– فذكَرَ ذلك لرسول الله – ﷺ – فقال لا تفعلْ ، فإن مقامَ أحدَكِم فى سبيل الله أفضل من صلاتهِ فى بيته سبعين عامًا .. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ .. اغْزوا فى سبيل الله .. مَنْ قاتلَ فى سبيل الله – فواق ناقةٍ – وجَبت له الجنة » ..

وروى أبو داود بإسناد جيد ، عن أبى أمامة – رضى اللهعنه – أن رجلا قال :يا رسول الله ! .. ائذن لى فى السياحة .. فقال النبى – ﷺ – : « إن سياحة أمتى ، الجهادُ فى سبيل الله » ..

والقرآن يربط بين الجهاد بالإيمان ، بحيث لا يتأتّى أن يوجد الإيمان الصادق ، إلا والجهاد من عناصره .

لقد اشترى الله – فى عقد الإيمان – من المؤمنين أنفسهم وأموالهم :

﴿إن الله اشترَى من المؤمنين أنفُسَهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة يُقاتِلون فى سبيل الله فيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وعدًا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوْفَى بعهده من الله ، فاستَبْشِروا بِبَيْعِكُم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم﴾[1] ..

والجهاد تجارة مع الله : ﴿يأيها الذين آمنوا هَلْ أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهِدون فى سبيل اللهبأموالِكم وأنفسِكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفرْ لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ تجرى مِن تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً فى جنات عدنٍ ذلك الفوز العظيم﴾[2] .

والجهاد داخل فى صدق الإيمان :

﴿إنما المؤمنونَ الذين آمنوا بالله ورسولِهِ ، ثم لَمْ يَرْتَابوا ، وجاهَدُوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك همُ الصادقون﴾[3] .

إن الجهاد – بأوسع معانيه – إنما هو الخطوة الأولى بعد التوبة .

فبَعْدَ التطهير يكون لقاء الله تعالى .

---

(١) التوبة : ١١١ .
(٢) الصف : ١٠ –١٢ .
(٣) الحجرات : ١٥ .

حياة الأنبياء والشهداء بعد الموت

إن الصلاة فى ترتيب الرحلة المباركة يأتى رمزها بعد الجهاد مباشرة ، ولكننا مراعاة لما بين هذا الموضوع وما قبله ، نذكره هنا ، ثم نعود للترتيب الطبيعى فى الرحلة المباركة ..

روى الإمام مسلم – بسنده – عن أنس بن مالك ، أن رسول الله – ﷺ – ، قال : « أتيت – وفى رواية هداب : مررت – على موسى ليلة أسرى بى ، عند الكثيب الأحمر ، وهو قائم يصلى فى قبره » .

وأخرج الإمام مسلم – أيضًا – بعدة طرق ، عن أنس – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « مررت على موسى وهو يصلى فى قبره » .

وقد أخرج الإمام مسلم فى الصحيح ، من حديث عبد العزيز ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء .. فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضَرْبٌ[1] جعدٌ ، كأنه من رجال شنوءة[2] ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلى ، أقرب الناس به شبها ، عروة بن مسعود الثقفى .. وإذا إبراهيم قائم يصلى ، أشبه الناس به صاحبكم – يعنى نفسه – فحانت الصلاة ، فأممتهم .. » والأنبياء أحياء فى قبورهم .

فقد أخرج الإمام أحمد – بإسناده – عن أوس بن أوس ، قال : قال رسول الله – ﷺ – : « أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خُلِق آدمُ ، وفيه قُبِض ، وفيه النَّفخةُ ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىَّ » ..

قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت – يريدون بليت – فقال :

« إن الله حَرَّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء – عليهم السلام » .

هذا الحديث أخرجه أيضًا الحاكم وصححه النووى .. ويقول البيهقى عنه :

أخرجه أبو داود والسجستانى فى كتاب السنن ، وله وشواهد ..

---

(١) الضرب من الرجال : هو الخفيف اللحم .

(٢) شنوءة : قبيلة من قبائل العرب .

ثم يروى – من هذه الشواهد – بإسناده – عن أبى مسعود الأنصارى ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « أكثروا من الصلاة علىَّ فى يوم الجمعة ، فإنه ليس أحدٌ يصلى علىّ يوم الجمعة إلا عُرِضَت علىَّ صلاتُه » .. وروى البيهقى – من هذه الشواهد – أيضًا – بإسناده عن أبى أمامة : قال رسول الله – ﷺ – : « أكثروا علىَّ من الصلاة فى كل يوم جمعة ، فإن صلاة أمتى تُعرَض علىَّ فى كل يوم جمعة ، فمن كان أكثرهم علىَّ صلاةً ، كان أقربهم مِنِّى منزلة » .. وسواء أكان الإنسان بجوار الضريح الشريف ، أم كان بعيدًا عنه ، فإن صلاته تبلغ رسول الله – ﷺ – فلقد أخرج البيهقى فى شُعب الإيمان ، والأصبهانى فى الترغيب ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : رسول الله – ﷺ :

« من صَلَّى علىَّ عند قبرى سمِعْتُه ، ومَن صلَّى علىَّ غائبًا بُلِّغته » .

ومن هذا القبيل : ما أخرجه الإمام البخارى فى تاريخه ، عن عمّار : سمعت النبى ﷺ يقول :

« إن لله تَعالى مَلكًا أعطاه أسماعَ الخلائق » قائمٌ على قبرى ، فما مِن أحدٍ يصلى علىَّ صلاة إلا بلَّغتها » .

ولقد اثبت الإمام القشيرى ، حياة الأنبياء بعدَّة طرق . وأورد أحاديث فى ذلك . نذكر منها حديث عبد الله بن مسعود ، عن النبى – ﷺ – :

« إن لله ملائكة سياحين فى الأرض ، يبلغونى عن أمتى السلام » .

ويقول الإمام القشيرى تعليقًا على الحديث : ولا يبلِّغ السلام إلاّ ويكون حيًّا » .

وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه – فيما رواه ابن ماجه بإسناد جيد ، قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة ، فإنه مَشْهودٌ ، تشهده الملائكة . وإن أحدًا لن يصلَى علىَّ إلا عُرِضت علىّ صلاته حتى يَفْرغَ منها » .. قال ابو الدرداء : قلت : وبعد الموت ؟ .. قال : إن الله حَرَّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » ..

إن الأنبياء أحياء فى قبورهم ، بشهادة رسول الله ﷺ لموسى عليه السلام ، وبرؤيته الأنبياء ، وحديثه معهم ، وصلاته بهم .

أما الصلاة التى كانوا يصلونها ، فإنها لم تكن فرضًا وتكليفًا ، وإنما كانت شكرًا وحمدًا لله على نِعَمه ، فليس فى الآخرة تكليف ، وإن كان فيها أيضًا تَرَقٌ روحى لا ينتهى ، لأن المدد الإلهى لا ينتهى .. ولكلِّ درجةٍ من درجات هذا المدد ، شعورٌ بالحمد والثناء على الله ..

والله سبحانه يقول :

﴿دَعْواهم فيها سبحانك اللهمَّ ، وتحيتهم فيها سلامٌ وآخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين﴾[1] .

وقد يتسائل إنسان عن هذه الحياة بعد الموت .. وأهى خاصة بالأنبياء ؟ .

ونقول : إن القرآن الكريم يثبتها – فى يقين جازم – للشهداء .

يقول تعالى :

﴿ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزَقون ، فَرِحينَ بما آتاهُم الله من فضله ، ويستَبْشِرون بالذين لم يَلْحقوا بهم من خَلْفِهِمْ ألا خوفٌ عليهم ولاهم يحزَنون﴾[2] .

وبمناسبة هذه الآية ، رَوَى الترمذى وحسنه ، وابن ماجة – بإسناد حسن أيضًا – والحاكم وقال : صحيح الإسناد – أن رسول الله – ﷺ – لما رأى جابر بن عبد الله مهتمًا لاستشهادِ أبيه فى غزوة أحد ، قال له مطمئنًا مبشرًا – ألاَ أخْبرك ما قاله الله لأبيك ؟ ..

فقال جابر : بَلَى .

قال ﷺ :

« ما كلم الله أحدًا قط إلا مِن وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحًا – والكفاح : المواجهة – قال : سلنى أعْطِكَ .

قال : أسألك أن أرَدَّ إلى الدنيا فأُقْتَلَ فيك ثانية ..

فقال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى القول بأنهم إليها لا يرجعون ..

قال : أى رب ، فأبلغ من ورائى : أى أبلغهم هذه النعمة الكبرى فى الجنة التى يتقلب فيها الشهيد .. فأنزل الله تعالى :

﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتًا ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزَقون﴾ . وقال تعالى : ﴿ولا تقولُوا لِمَن يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ، ولكن لا تشعرون﴾[3] .

ويقول الإمام القشيرى : « فأخبر – سبحانه – أن الشهداء أحياءٌ عند ربهم ، فالأنبياء أولى

(١) يونس : ١٠ .
(٢) آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠ .
(٣) آل عمران : ١٦٩ – ١٧٠ .

بذلك ، لتقاصُرِ رتبةِ الكافَّةِ عن درجة النبوة . قال الله تعالى : ﴿فأولئك مع الذين أنْعَم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء﴾[1] . فرتبة الشهداء . هى الدرجة الثالثة بعد النبوة . ولقد وردت الأخبار الصحيحة والآثار المروية ، بما يدل على هذه الجملة .. وبمناسبة الآيات القرآنية الشريفة عن الشهداء ، يقول ابن قيم الجوزية : « إن الله تعالى عَزَّى نبيَّه وأولياءَه عمن قُتِل منهم فى سبيله أحسنَ تعزية وألطفَهَا وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم ، بقوله : « ولا تَحْسَبَنَّ .. الآيات » .

فجمع لهم – إلى الحياة الدائمة – منزلة القرب منه ، وأنهم عنده وجَرَيَانُ الرزقِ المستمر عليهم ، وفَرَحهُم بما آتاهم من فضله ، فوق الرضا .. بل هو كمال الرضا .. واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم : يتمُّ سرورَهم ونعيمهم . واستبشارهم بما يجدِّدُ لهم كل وقت ، من نعمته وكرامته » .

ولقد أخرج أحمد فى مسنده ، والطبرانى بسند حسن ، عن محمود بن لبيد ، عن عباس مرفوعًا : « الشهداءُ على بارقِ نهر بباب الجنة فى قبة خضراءَ : يخرج إليهم رزقهم من الجنة غُدْوةً وعشيَّةً » . وفى حياة الأنبياء والشهداء ، يقول القرطبى :

« الموت ليس بعدمٍ محض ، وإنما هو انتقالٌ من حال إلى حال » ..

ويدل على ذلك أن الشهداء – بعد قتلهم وموتهم أحياء – يرزقون فرحين مستبشرين .. وهذه صفة الأحياء فى الدنيا .

وإذا كان هذا فى الشهداء ، فالأنبياء أحق بذلك وأولى ، وقد صحَّ : أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه – ﷺ – اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء .. ورأى موسى – عليه السلام – قائمًا يصلى فى قبره ، وأخبر ﷺ بأنه يردّ السلام على كل مَن يسلِّم عليه .. إلى ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موتَ الأنبياء ، إنما هو راجعٌ إلى أنهم غُيبُوا عنَّا ، بحيث لا نُدركهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة .. فإنهم موجودون أحياء ، ولا يراهم أحد – من نوعنا – إلا مَنْ خصَّه الله بكرامته من أوليائه » أ هـ .

والفقهاء يتحدثون عن الشهداء فى استفاضة ، ومما أثاروه بهذه المناسبة مسألة سؤال القبر بالنسبة للشهيد .

ولقد أفتى الإمام السيوطى : بأن سؤالَ القبر ، ليس عامًا للخلق ، بل يُستثنى منه

(١) النساء : ٦٩ .

الشهيد .. ففى الحديث : أنه ﷺ – سئل : أيُفْتَنُ الشهيد فى قبره ؟ .. فقال كفى ببارقةِ السيوف على رأسه فتنة .

قال القرطبى فى التذكرة ، نقلاً عن الحكيم الترمذى : معناه أنه لو كان عنده نِفاق ، لَفَرَّ عند التقاء الزحفين وبريق السيوف ؛ لأن من شأن المنافق ، الفرار عند ذلك . وشأن المؤمن : البذل والتسليم لله ، فلما ظهر صدق ضميره ، حيث برز للحرب والقتل ، لم يعد عليه السؤال فى القبر : الموضوعُ لامتحان المسلم الخالص ، من المنافق .

قال القرطبى : وإذا كان الشهيد لا يفتن ، فالصديق من باب أولى لأنه أجل قدرًا .

وممن يستثنى : المرابط .. فقد وردت فيه أحاديث ، والمطعون ، والصابر فى بلد الطعن محتسبًا وإن مات بغير الطاعون ، صرح به الحافظ بن حجر فى كتاب : « بذل الماعون » .

وليست هذه الحياة البرزخية ، للأنبياء والشهداء فحسب ، وإنما هى لجميع الناس حتى الكفَّار منهم .

على أن القرآن والسنة : يشيران إلى حياة الكفار بعد الموت قبل القيامة .

يقول تعالى عن آل فرعون :

﴿النارُ يعْرَضون عليها غُدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدْخِلُوا آلَ فرعونَ أشَدَّ العذاب﴾[1] . ولا ريب فى أن النار التى يعْرَضون عليها ، ليست نارَ يوم القيامة ، فما فى القيامة غُدوٌّ وعَشِىٌّ .. وما فيها شروق وغروب .

ثم إن العطفَ يقتضى المغايرة .. ومنطوق الآية : « أن آل فرعون يعرضون على النار فى الصباح وفى المساء يرَون مكانهم فيها ، ومصيرهُم الذى سيصيرون إليه .. حتى إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ آمرًا :

« أدْخلوا آل فرعون أشَدَّ العذاب » . أدخلوهم بعد أن كانوا يُعرضون غدوًّا وعشيًا ، أدخلوهم إلى إقامة مستمرة .. .

على أن حادثة أصحاب القليب ، معروفة مشهورة .. رواها الإمام البخارى بعدة روايات ، ورواها غيره بعدة روايات أيضًا .

من هذه الروايات : الرواية الآتية عن البخارى :

حدثنا عبد الله بن محمد : سمع روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة

(١) غافر : ٤٦

قال : ذكر لنا أنس بن مالك ، عن أبى طلحة ، أن رسول الله – ﷺ – أمرَ يوم بدرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فَقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث ، أمر براحلته فشدّ عليها رحلها ؛ ثم مشى وتبعه أصحابه وقالوا :

ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الركى .. فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يافلان بن فلان ، ويافلان بن فلان .: أيَسرّكُمْ أنكم أطعتم الله ورسولهُ ؟ .. فإنا قد وَجَدْنا ما وعدنا ربنا حقًا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فقال عمر : يارسول الله : مَنْ تُكلّم مِن أجسادٍ لا أرواح فيها ؟ . فقال النبى ﷺ « والذى نفْس محمد بيده ، ما أنتم بأسْمَعَ لما أقول منهم » .

هذه الروايات كلها تتكاتف وتتساند ، مع الأحاديث التى رويت فى عذاب القبر ونعيمه ، والتى تخبر أن القبر إما روضةٌ من رياض الجنة ، أو حفرةٌ من حفر النار ، فتدل – بمجموعها – على أن كل إنسان إذا فارق الدنيا ، فإنما انتقل من طور إلى طور ، وإنه إذا كان الجسم سيبلى ، فإن الروح – مركز الشعور والإحساس والفكر – باقيةٌ : تحِسُ وتشعر وتفكر ..

وعن المؤمنين عامة ، يحسن أن نورد القصة التالية :

أخرج البيهقى فى البعث ، والطبرانى – بسند حسن – عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعبًا الوفاةُ : أتته أم بشر بنت البراء ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، إن لقيتَ بِشرًا فأقرئه منى السلام ، فقال لها : يغفر الله لكِ يا أم بشر .. نحن أشغل من ذلك .. فقالت :

أما سمعت رسول الله – ﷺ – يقول « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ونسمة الكافر فى سجّين ؟ . قال : بلى .. قالت : فهو ذاك .

أما الحديث الذى صححه أبو محمد عبد الحق ، فهو ما رواه ابن عبد البر فى : الاستذكار والتمهيد ، من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما مِن أحدٍ يمر بقبر أخيه المؤمن : كان يعرفه فى الدنيا فيسلمُ عليه ، إلا عَرَفَه ، وردَّ عليه السلام » .. لعل السؤال الملحّ فيما نحن بصدده هو : ما نوع هذه الحياة التى يحياها الأنبياء والشهداء ، وغيرهم ؟ ..

ومن أجل الإجابة على هذا السؤال ، نورد ما ذكره ابن قيم بهذا الصدد فى كتابه النفيس « الروح » . « إن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار

القرار . وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها ، وركب هذا الإنسان من بَدنٍ ونفْس ، وجعل أحكامَ دار الدنيا على الأبدان ، والأرواحُ تبعٌ لها .. ولهذا .. جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن اضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها ، فكما تبعت الأرواحُ الأبدانَ فى أحكام الدنيا فتألمت بألمها ، والتذَّتْ براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب – تبعت الأبدان الأرواح فى أحكام دار البرزخ : فى نعيمها وعذابها ، والأرواح – حينئذ – هى التى تباشر العذاب والنعيم .. فالأبدان هنا[1] ظاهرة ، والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها .. والأرواح هناك[2] ، ظاهرة ، والأبدان خفية فى قبورها .. فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح ، فترى إلى أبدانها نعيمًا وعذابًا ، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان ، فترى إلى أرواحها نعيما وعذابًا . فأحِطْ بهذا المؤضوع علمًا واعرِفْه كما ينبغى ، يزُلْ عنك كلّ إشكال يورَدُعليك من داخل وخارج .

وقد أرانا الله – سبحانه – بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا فى الدنيا ، من حال النائم ؛ فإنَّ ما ينعم به أو يُعذَّب فى نومه ، يجرى على روحه أصلاً ، والبدن تبع له .. وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيرًا مشاهدًا فيرى النائم أنه فى نومه ضُرِب ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه ، ويرى أنه قد أَكَلَ وشرب . فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشرب فى فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم قد يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان ، وهو نائمٌ لا شعور له بشىء من ذلك ؛ لأن الحكم لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه ، ولو دَخَلَتْ فيه لاستيقظَ وأحسَّ ..

فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصلُ ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا فى البرزخ .. بل أعظم ، فإن تجرُّدَ الروح هناك ، أكمل واقوى .. وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع .

فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيامِ الناس من قبورهم ، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا ، ومتى أَعْطيْتَ هذا الموضع حقه ، تبين لك أن ما أخبرَ به الرسول – من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته ؛ وضمه للأجسام ، وكونه حفرة من

---

(١) فى الدنيا .

(٢) فى البرزخ .

حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة – مطابق للعقل ، وأنه حق لا مِرْية فيه .. وأن مَنْ أشكل عليه ذلك ، فمن سوء فهمه ، وقلّة علمه .. أ . هـ .

أما بعد : فإنا نختم هذا البحث بكلمة يقولها حجة الإسلام الإمام الغزالى عن تجربة شخصية : يؤيد ما هو واضح من بدهيات الجو الإسلامى ، فى هذا الموضوع ، وهى كلمة تعبر عن رأى جميع الصوفية ، وجميع فلاسفة الإشراق :

ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم – فى يقظتهم – يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمَعون منهم أصواتًا ، ويقتبسون منهم فوائد .. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق .

٢ – الصلاة

ونعود إلى رحلة الإسراء . ماذا بعد رمز الجهاد ؟

... ثم أتَى رسول الله – ﷺ – على قومٍ تُرضَخ رءوسهم بالصخر ، وكلما رُضخت عادت كما كانت : لا يفتر عنهم من ذلك شىء .. فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .. قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة ..

❑❑❑

أتى دور الفروض الدينية ، وبدأت هذه الفروض بالصلاة ..

والصلاة هى الركن الثانى فى الإسلام .. منزلتها تأتى بعد الإيمان بالله وبرسوله .. إن الرحلة المباركة ، ترسم الماضى والحاضر والمستقبل .. إنها ترسم الحياة الإسلامية ، فى جميع أدوارها الزمنية فى جانب العقيدة والأخلاق منها .. والصلاة – فى الوضع الإسلامى – عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين .. ومثلها فى حياة المسلم ، كمثل نهرٍ جارٍ غمر[1] على باب أحدكم ، – على حد تعبير رسول الله – ﷺ – يغتسل منه كل يوم خمس مرات .. وعن عبد الله بن قرط – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « أوَّل ما يحاسَب به العبدُ يوم القيامة : الصلاة فإن صَلُحت صَلُح سائرُ عملِهِ ، وإن فَسَدت فَسدَ سائر عمله »[2] .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له ، ولا صلاةَ لمن لا طَهُورَ له ، ولا دين لمن لا صلاةَ له . إنّما موضع الصلاة من

---

(١) الغمر : الكثير الماء .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط ، لا بأس بإسناده إن شاء الله .

الدين ، كموضع الرأس من الجسد[1] إن الرسول – ﷺ – رأى يومًا – فيما يراه النائم – تمثيلاً لتارك الصلاة ، يشبه التمثيل الذى تقدم . يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ...فانطلقتُ فمررتُ على مَلَكٍ وأمامَه آدمىٌّ ، وبيد المَلَكِ صخرةٌ يضربُ بها هامة الآدمىِّ ، فيقَعُ دِمَاغُه جانبًا ، وتقع الصخرةُ جانبًا » .. ولما سأل – ﷺ – عن ذلك ، قيل له : أولئك الذين كانُوا ينامُون عن صلاةِ العشاء الآخِرَة ، ويُصَلُّون الصلاة لغير مواقيتها ، فهم يُعَذَّبون بها حتى يصيروا إلى النار .

يقول الإمام القشيرى : سمعتُ الأستاذ : أبا على الدقاق – رضى الله عنه – يقول : إن نبينا عليه السلام – أتى للأمة بالمعراج على التحقيق ، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج ، وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاثَ منازل .

من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى .

فكذلك الصلاة ثلاث منازل :

القيام ، ثم الركوع ، ثم السجود – قال الله تعالى :

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[2] .

٣ – الزكاة

وتأتى الزكاة بعد الصلاة فى ترتيب منهج الحياة الذى نحن بصدده .. لقد أتى رسول الله – ﷺ – على قوم ، على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع : يسرحون كما تسرح الأنعام : يأكلون الضريعَ والزَّقومَ ، ورضف جهنهم .. فقال : ما هؤلاء ؟ .. فقال جبريل عليه السلام : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلامٍ للعبيد .

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير ، وقال : « تفرد به الحسين بن الحكم الحبرى » .

(٢) العلق : ١٩

١ – من شعر الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى هذه المعانى :

فرض الصلاة عليه خمسا قدرها ... خمســـون إن أحسنتهن أداء
فُرضت علينا فى السماء لحكمة ... هل نستطيع لكنهها استجلاء
كى نذكر المعراج فى صلواتنا ... ونرى بها شرفًا لنا وعـــلاء
وتطير فى أجوائها أرواحنـــــا ... صُعُدًا لتدرك فى السماء رجاء
كى نهجر الأكوان حين نقيمها ... ونعدَّ أنفسنا بهـــا سعداء
ونَجِدَّ فيها فى السُّرى حتى نرى ... صبحَ النجاةِ فنحمَدَ الإسراء

والزكاة : هى الركن الثالث من أركان الإسلام .. ولقد حارب عليها سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه – وذلك أنه حينما انتقل الرسول – ﷺ – إلى الرفيق الأعلى ، قال بعض القبائل من الأعراب .. إنا نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وسنستمر نؤدى الصلاة ، ونصوم رمضان ، ونحج .. أما الزكاة فإنها مادةٌ ومالٌ ، ولا شأن للدين بذلك ؛ وأعلنوا الامتناع عن أدائها .. وكان هذا أولَ تفكير منحرف من بعض المسلمين – فى الإسلام : يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو المادة ، أو بالتعبير الحديث – يهدف إلى فصل الدين عن الدولة .

فقال سيدنا أبو بكر : سأحاربكم .. إنه سيحارب من أراد فَصْلَ الدين عن الدولة .

فقيل له : كيف تحارب من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؟

فكانت إجابته : إن الشهادتين لهما حقوق ، إذا امتنع إنسان عن أدائها ، فإنه يحارب عليها وإنَّ من حقوق الشهادتين أداءَ الزكاة .

رَوَى الإمام البخارى – رضى الله عنه – عن أبى هريرة – نضّر الله وجههَ – قال :

« لما تُوفِّىَ رسول الله – ﷺ – وكان أبو بكر – رضى الله عنه – وكَفَرَ من كفر من العرب – بسبب عدم إخراجهم الزكاة ، وامتناعهم عن تأديتها – فقال عمر – رضى الله عنه – : كيف تقاتل الناس ؛ وقد قال رسول الله – ﷺ – :

« أمِرْت أن أقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا : « لا إله إلا الله » .. فمن قالها فقد عَصَمَ منى مالَه ونفسَه إلاّ بحقه ، وحسابُه على الله » ..

فقال : واللّهِ ، لأقاتَلنَّ مَن فَرَّق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال – والله ، لو منعونى عَنَاقًا[1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله – ﷺ – لقاتلتهم على منعها .

قال عمر – رضى الله عنه – : « فوالله ، ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر – رضى الله عنه – للقتال ، فعرفت أنه الحق ..

من هذا الحديث الشريف ، نعلم أن مانع الزكاة – بهذا الوضع وعلى هذه الصورة – كافر ، وأنه يحارَب حتى يؤديها وإلا قُتِل ..

وقد حارب سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه – ما نعِى الزكاة ؛ لأنه رأى أنَّ الامتناعَ عن الزكاة – إنكارًا لها – ارتدادٌ عن الإسلام .. ولم ينفعهم – فيما رأى سيدنا أبو بكر ، وفيما رأى الصحابة معه – صلاةٌ أو صيامٌ ، أو غير ذلك من الشعائر الإسلامية ..

(١) أى شاة صغيرة ، وفى رواية أخرى (عقالا) والمقصود أى شىء ولو كان يسيرًا .

دلك أن الزكاة ركن من أركان الإسلام ، والامتناع عن أدائها إنما هو هدم لركنٍ من أركان الدين ..

إنها الركن الثالث : يدفعها من تجب عليه لمستحقها ، « ليُحييَ بها نفوسًا ، ويُشبِعَ بها بطونًا ، ويمسحَ بها دموعًا ، ويُزيلَ بها آلامًا ، وينالَ بها ثوابًا وأجرًا من الله » .

وما من شك فى أن الزكاة رابطة بين الإنسان وربه .. إنها رابطة رضوانٍ من الله ، وأجرٍ وثوابٍ ، ونماء وبركة .

ورابطة شكرٍ من الإنسان لله تعالى ، على ما أنعم به وتفضَّلَ وأحْسَنَ وأكرَمَ ..

وهى – من ناحية أخرى – رابطةٌ بين الإنسان وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه .. رابطة مودة وتعاطف وتراحم .

وقد أنذر الله تعالى ، الممتنعَ عن أدائها وتوعّده بعذاب أليم ..

أما الذى يؤديها ، فقد ذكره الله سبحانه وتعالى ، فيمن رضى عنهم ، وأجزل لهم ثوابه .. يقول سبحانه :

﴿فأنذرْتكم نارًا تَلَظَّى ، لا يَصْلاها إلا الأشْقى ، الذى كذَّب وتَوَلَّى ، وسَيُجَنَّبها الأتقى ، الذى يؤتى مَالَه يَتزكى وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجْزَى ، إلا ابتغاءَ وَجْه ربه الأعْلى ، ولسوف يَرْضَى﴾[1] .

ويقول سبحانه :

﴿وَلا يحْسبن الذين يبخلونَ بما آتاهُم الله مِن فضلِه هو خيرًا لهم ، بل هو شرٌّ لهم ، سيطَوَّقون ما بخِلوا به يومَ القيامة ، ولِلّهِ ميراث السموات والأرضِ ، والله بما تعملون خبيرٌ﴾[2] .

٤ – الصدقة

وبجوار الزكاة ، يحسن الحديث عن الصدقة ، سواء كنا بصدد الزكاة ، أو بصدد الصدقة ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿مَثَل الذين يُنفقون أموالهم فى سبيل الله كَمَثل حبّةٍ أنبتت سبَع سنابلَ ، فى كل سُنْبلةٍ

(١) الليل : ١٤ – ٢١ .
(٢) آل عمران : ١٨١ .

مائة حبة ، والله يضاعف لِمَنْ يشاء والله واسعٌ عليمٌ﴾[1] . ويقول سبحانه : ﴿فأمَّا من أعطى واتقى وصدقَ بالحُسنَى ، فسنيسِّره لليسرى ، وأمَّا وَمن بَخل واستغنَى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ما له إذا تردى﴾[2] .

ويقول سبحانه : ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين﴾[3] .

لقد رأى رسول الله – ﷺ – صورة الممتنعين عن الزكاة ، ورأى – أيضا – فيما يراه صورة آكلى الربا ، ورأينا أن نتحدث عن الربا بعد الحديث عن الزكاة والصدقة مباشرة ، لما بينهما من فرقٍ : هو الفرق بين الخير والشر ..

فالزكاة والصدقة منح وعطاء ، والربا أخذ وسلب .

٥ – الربا

فقد رأى رسول الله – ﷺ – نهرًا من الدم : يفور كفوران المرْجل ، وعلى حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالعٌ قذفوه بها ، فيقع فى فيه ، فيشتعِلُ إلى أسفلِ ذلك النهر ، فلما سأل رسول الله – ﷺ – عنهم ، قيل له : أولئك الذين أكلوا الربا فهم يعذبون بها ، حتى يصيروا إلى النار .

أما فى رحلة الإسراء والمعراج ، فإنه – ﷺ – مَرَّ بقوم بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر على الأرض ، فلما سأل عنهم جبريل ، قال : هم أَكَلَةُ الرِّبا .

وللصورة البشعة للربا ، آذن الله سبحانه المتعاملين به بالحرب .. لقد آذن الله بالحرب صنفين من الناس :

١ – أكلة الربا .

٢ – المعادين لأولياء الله ، أعلن الحرب على أكلة الربا فى القرآن الكريم : ﴿فَأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾[4] .. وأعلن الحرب على من عادى الأولياء ، فى الحديث القدسى ، الذى رواه الإمام البخارى :

« مَنْ عَادى لى وليًّا فقد آذنتُهُ بالحرب » .

---

(١) البقرة : ٢٦١ .
(٢) الليل : ٥ – ١١ .
(٣) سبأ : ٣٩ .
(٤) البقرة : ٢٧٩ .

ورمز المرابي في ليلة الإسراء ، رجل يسبح في بحرٍ من الدم ، ويلقى في فمه قطع من النار يبتلعها ..

« إنه يسبَحُ في الدماءِ التي امتصَّها ممن تعامَلَ معهم ، وما أخذَ من قطع النقود تلتهب نارًا : تصير في جوفه : تحترق وتشتعل فيها ..

ولا ريب أن الطرف المعارض للصدقة وللزكاة – الطرف الذى يبغضه الله ويبغض المتعاملين به – هو الربا ..

ولقد حارب الإسلام الربا حربًا لا هوادة فيها : حاربه لأنه مبدأ ليس بإنسانى ، واستعمل فى محاربته من التعبير أقساه .

لقد حاربه فى جملته وتفصيله ، يقول الله تعالى :

﴿الذين يأكُلُون الرِّبا لا يقومون إلا كما يَقُومُ الذى يَتَخَبَطهُ الشيطان من المَس﴾[1] والمتعاملون بالربا : ﴿أولئك اصحابُ النار هم فيها خالدون﴾[2] .. والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَمْحَق الله الربَا ويُرْبِى الصدقاتِ والله لا يُحبُّ كلَّ كفَّار أثيم﴾[3] .. ولكنه سبحانه وتعالى ، يفتح للمتعاملين بالربا ابواب توبته .. يقول تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وذَروا ما بَقِى من الربا إن كنْتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذَنُوا بحربٍ من الله ورسوله ، وإن تُبْتُمْ فَلَكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمُون ولا تُظلمون﴾[4] .

ومما لا شك فيه : أن الربا – على أية صورة من صوره – يتعارض مع الروح الدينية العامة ، التى هى الرحمة ، والتعاون .. ونذكر فى نهاية الحديث عن الصدقة والربا والزكاة : قوله تعالى : ﴿وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التَّهلُكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾[5] .

وفى هذه الآية الكريمة يشير الله سبحانه ، إلى أن الشحَّ والبخَل وعدَم الإنفاق فى سبيل الله إنما هو إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة ..

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .
(٢) ختام الآية السابقة .
(٣) البقرة : ٢٧٦ .
(٤) البقرة : ٢٧٨ – ٢٨١ .
(٥) البقرة : ١٩٥ .

ويقول سبحانه : ﴿آمنُوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جَعَلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبير﴾[1] .

وفى هذه الآية الكريمة ، يرشد الله سبحانه وتعالى ، إلى أن أصحاب الأموال قد استخلفهم الله – سبحانه وتعالى – فى ماله هو ، وأنهم مجرد مستخلفين . وهذا يشير إلى أنهم إذا أساءوا ، فإنه يرفع استخلافهم على المال ، فيَصبِحوا ولا مَالَ لهم .

ويقول سبحانه : ﴿من ذا الذى يقْرض الله قرضًا حسنًا ، فيضاعِفَه له ، وله أجرٌ كريم﴾[2] .

إنه سبحانه وتعالى ، يضاعفه له فى الحياة الدنيا ، ثم يجزل له الأجر :

﴿يوم تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهُمْ بين أيديهم وبأيمانهم بُشْرَاكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم﴾[3] .

٦ – الثبات على العقيدة

نقلتنا هذه الرحلة المباركة : من التوبة إلى الجهاد مباشرة ، ثم كانت الصلاة والزكاة ممثلتين لبقية فروض العبادة .

وقد تحدثت الرحلة عن أنواع من الآثام ، باعتبارها ممثلة لما عداها ، وأن الله سبحانه ، يحاسب عليها وعلى غيرها من المعاصى ، إذا لم يبادر الإنسان بالتوبة الخالصة النَّصوح ..

وقبل أن نبدأ فى ذكر هذه الآثام ، نتحدث عن قوة الإيمان ، وثبات المؤمنين ، والتمسك بالعقيدة ، حتى ولو أدّى ذلك إلى الموت على أى كيفية .. إن الشهداء – من أجل عقيدتهم – لهم رائحة زكية : تستمر حتى يوم القيامة .. وإن الرائحة الزكية التى تنبعث من الأماكن التى استشهدوا فيها ، والأماكن التى وقفوا فيها ، لتدل دلالةً واضحة ، على أنهم فى رياض الجنة ، محاطين بروح من نسمائه ، ومن رحمته .

لقد شم رسول الله – ﷺ – فى مسراه رائحةً طيبة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ . قال : هذه رائحة ماشطة بنتِ فرعون وأولادها .

---

(١) الحديد : ٧ .

(٢) الحديد : ١١ .

(٣) الآية الكريمة : ١٢ من سورة الحديد .

أما قصتهم فهى كما يلى : لقد شم رسول الله – ﷺ – الرائحة الطيبة ، وسأل عنها جبريل ، فأخبره أنها رائحة ماشطة بنتِ فرعون وأولادها :

وبينما تمشط بنتَ فرعون ، إذ سقط المشط من يدها .

فقالت : باسم الله ، تَعِسَ فرعون . فقالت ابنة فرعون : أوَلَكِ رب غير أبى ؟ .. قالت : نعم .

قالت : فأخبِر بذلك أبى ؟ . قالت : نعم . فأخبرته ، فدعاها ، فقال : أو لك رب غيرى ؟

قالت : نعم ، ربى وربك الله ، وكان للمرأة زوج وثلاثة أولاد ، أصغرهم رضيع .. فأرسل إليهم ، فراود المرأة وزوجها أن يرجعَا عن دينهما ، فأبَيَا – فقال : إنى قاتلكما ، قالت : إحسانًا منك إلينا – إن قتلتنا – أن تجعلنا فى مكان واحد ، فتْدفِنَنَا فيه جميعًا .. فقال : ذاك لك ، بما لك علينا من الحق ، فأمر ببقرة من نحاس ، فأحْميت بزيت ، ثم أمَرَ بهم فألقوا فيها واحدا واحدًا حتى بلغ الرضيعَ – وكانت أمه تحمله – ولشفقتها عليه تلكأت ، وكادت ترجع لموافقة فرعون .. فقال : يا أمَّه ، قَعى ولا تَقَاعَسى ، .. فأنكِ على الحق فكان هذا الرضيع ممن تكلموا فى المهد ، خرقًا للعادة .

وإنا لنا فى تاريخنا الإسلامى ، مواقفَ مشهورةً مشهودة : وقف فيها الصحابة – رضوان الله عليهم – مواقف من لا يُبالى على أىٍّ جنبٍ كان فى الله مصرعُه .

ففى غزوة بدر : استشار رسول الله – ﷺ – الصحابة فى الجهاد ، فقام المقداد بن عمرو – رضى الله عنه – وكان من المهاجرين ، فقال : « يا رسول الله . أمضِ لما أراكَ فنحن معك » .. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « إذْ هَب أنت وربك فقاتِلا إنا ها هنا قاعدون » . ولكن : « اذْهَبْ أنتَ وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سِرت بنا إلى برك الغماد ، لجالدنا معك دونه حتى تبلغه » ..

وقام سعد بن معاذ – رضى الله عنه – ، وكان من الأنصار ، فسأل رسول الله – ﷺ – عما إذا كان يعنى الأنصار باستشارته هذه ؟ فلما أجاب رسول الله – ﷺ – بالإيجاب ، قال :

« لقد آمنا وصدَّقناك ، وشهِدنا أن ما جئتَ به هو الحقُّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنَا ومواثيقنا على السمع والطاعة .. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك .. فو الذى بعثك بالحق ، لـو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .. ما تخلف منا رجل واحد ،

وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا .. إنا لصُبر فى الحروب صُدق عند اللقاء ، لعلَّ الله يريك منا ما تَقَر به عينك ، فسِرْ على بركة الله » .

٧ – الرموز الخاصة باللسان

يقول العرب : « مقتَل الرجلِ بين فكيه » .

ومن المعروف : أنه مما يكب الناس على وجوههم فى جهنم ؛ إنما هى حصائد ألسنتهم ..

ولقد حذَّر الله سبحانه – فى كثير من آى القرآن – من آثام اللسان ، وحذر رسوله ﷺ – فى كثير من الأحاديث النبوية – عن آثام اللسان .. يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿يأيها الذين آمنوا لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكُنَّ خيرًا منهن ولا تلْمِزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسْمُ الفسوقُ بعد الإيمان ومن لَمْ يَتُبْ فأولئك هم الظالمون﴾(١) .

ويصورّ القرآن مثل المغتاب فى صورة بالغة الشناعة : يقول تعالى : ﴿ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضًا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتُمُوه واتقوا الله إن الله توَّاب رحيمٌ﴾(٢) .

فقد مثل الله سبحانه الاغتياب ، بأكل لحم الإنسان . وجعل المأكول أخًا ، وجعل الأخ ميتًا ، وعقب على ذلك بقوله : ﴿ فكرهتموه﴾ .

ولقد نالت آثام اللسان فى رحلة الإسراء ، قدرًا موفورًا من التشبيه والتمثيل .

١ – لقد أتىَ رسول الله – ﷺ – على قوم تُقْرَضُ ألسِنَتُهم وشِفَاهُهم بمقاريضَ من حديد . كلما قِرضت ، عادت كما كانت . لا يفتر عنهم من ذلك شىء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة : خطباء أمتك ، يقولون ما لا يفعلون .

٢ – وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثورُ يريد أن أن يرجعَ من حيثُ خرج فلا يستطيع . فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا مَثَلُ الرجل يتكلم بالكلمة الطيبة ، ثم يندم عليها ، فلا يستطيع أن يردها .

٣ – ورأى قومًا أظفارهم من نحاسٍ : يخمشون بها وجوههم وصدورهم .

---

(١) الحجرات : ١١ .
(٢) الحجرات : ١٢ .

فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعُون فى أعراضهم .

٤ – ورأى قومًا تُقطَّع لحومهم من جُنوبهم ، وتُطعم لهم كُرْهًا ، فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟ .

قال : هؤلاء مثل الغمازين والهمَّازين واللّمازين .

٥ – وفى إحدى رؤاه – ﷺ – رأى ملكًا ، وبين يديه آدمِّى ، وبيد الملك كلوبٌ من حديد .. فيضَعه فى شِدقِه الأيمن ، فيشقه حت ينتهى إلى أذنه ، ثم يأخذ فى الأيسر فيلتئم الأيمن .. فلما سأل جبريل عنه ، قال له :

« أولئك الذين كانوا يمْشون بين المؤمنين بالنَّميمة ؛ ليفرقوا بينهم ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار » .

٨ – آثام الجوارح

والجريمة الكبرى : الجريمة الأساس ، إنما هى الإلحاد ، يقول سبحانه : ﴿قل هل ننبئكم بالأخْسَرين أعمالا ، الذين ضَلَّ سعْيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسِنون صُنْعًا .. أولئك الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائِهِ فحَبِطت أعمالُهم ، فلا نقيم لهم يومَ القيامة وزنًا ..ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتَّخذوا آياتى ورُسلِى هُزُوًا﴾[1] .

وقد وضع الله سبحانه وتعالى للملحدين تمثيلاً فى القرآن الكريم : بين فيه العلل والأسباب ، وأوضح فيه النتائج ، وأسفر عن الصورة صارخة ، لا يحجبها قناع .. يقول سبحانه :

﴿واتْل عليهم نَبَأ الذى آتيناهُ آياتنَا فانْسَلَخَ منها فأتْبعه الشيطان فكان من الغَاوين .. ولو شئنا لرَفعناه بها ولكنَّه أخْلَدَ إلى الأرض واتَّبع هواه فَمَثَله كَمَثَلِ الكلب إن تحمل عليه يلهَثْ أو تَترُكْه يلهثْ . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾[2] .

وجرائم الجوارح : ذكر الله سبحانه وتعالى ، كثيرًا منها فى قوله تعالى :

﴿قل تعالَوْا أتْل ما حرّم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين إحسانًا ،

---

(١) الكهف : ١٠٣ – ١٠٦ .

(٢) الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦ .

ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفسَ التى حرَّمَ الله إلا بالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون .

ولا تقربوا مالَ اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشدَّه وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسًا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كانَ ذَا قربَى ، وبعَهْدِ الله أوْفوا ، ذلكم وصَّاكم به لعلكم تذكَّرون .

وأنَّ هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبُل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾[١] .

ولقد ذكرت الرحلة المباركة بعضَ الرموز التى تمثِّل آثامَ الجوارح ذكرت البعض ولم تذكر الكل .. وذلك أنها ما كانت بصدد الإحصاء والاستقصاء .

١ – من ذلك مثلا : أن رسول الله – ﷺ – أتى على قومٍ بين أيديهم لحمٌ نضج فى قِدْر ، ولحم نيء خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث ، ويَدَعون النضيج .. فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ .

قال : هذا الرجل من أمتك : تكون عند المرأة الحلال الطيبة ؛ فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها ، حتى يصبح .. والمرأة تقوم من زوجها حلالاً طيِّبا ، فتأتى رجلا خبيثًا فتبيت عنده حتى تُصبح .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿الزانية والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخُذْكم بهما رأفةٌ فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليومِ الآخرِ وَلْيَشْهَدْ عذابهما طائفةٌ من المؤمنين﴾[٢] .

٢ – ثم أتى على رجلٍ قد جمع حزمة حطبٍ عظيمةٍ ، لا يستطيع حملَها ، وهو يزيد عليها .. فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمَّتك : تكون عليه أمانات الناس : لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ورسول الله – ﷺ – يقول :
« لا إيمانَ لمن لا أمانة له » ..

---

(١) الأنعام : ١٥١ – ١٥٣ .
(٢) النور : ٢ .

٣ – وفى حديث أبى سعيد : أنه رأى أخونة عليها لحمٌ طيب ، ليس عليها أحد ، وأخرى عليها لحم نتنٌ : عليها ناس يَأكلون ..

قال جبريل : هؤلاء الذين يتركون الحلالَ ، ويأكلون الحرام .

٤ – وأنه مرّ بقوم مشافرهم كالإبل : يلتقمون جمرا ، فيخرج من أسْفَلهِم ، وأن جبريل قال عنهم : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا .

أما جزاء أصحاب الآثام إذا لم يتوبوا ، فهو دخولهم فى جهنم ، حيث العذاب ألوانًا .

وعن جهنم نقول : إن رسول الله – ﷺ – أتى على وادٍ ، فسمع صوتًا منكرًا ، ووجد ريحًا منتنةً .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول :

« رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى ، وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى ، وعذابى .. وقد بَعد قعرى ، واشتد حَرِّى ، فأتِنى ما وعدتنى » .

قال : لك كلُّ مشركٍ ومشركةٍ ، وكافر وكافرةٍ ، وكلُّ جبّار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

٩ – الوصول إلى بيت المقدس

ووصل رسول الله – ﷺ – إلى بيت المقدس .. وفى رواية أنس عند مسلم :

« ثم دخلتُ المسجد ، فصليت فيه ركعتين ؛ ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام ، بإناء من خمر ، وإناء من لبَن .. فاخترت اللبن .

فقال جبريل : اخترت الفطرة ، أى اخترت اللبن الذى عليه بنيت الخلقة .

وقال النووى : المراد بالفطرة هنا : الإسلام والاستقامة .

والخمر – فى التعبير الإسلامى – هى أم الخبائث ، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنها رجس من عمل الشيطان .

وقد لعن الله : شاربها وبائعها وحاملها والمحمولة إليه ، ولعن : عاصرَها ، والمتّجر فيها ، على أى وضع كان .

والبيرة من أنواع الخمور ، وكل ما أسكر كثيره فقليله حرام ..

وفى رواية ابن مسعود نحوه – أى نحو رواية أنس السابقة – ثم دخلتُ المسجد فعرفت النَّبِيِّين : ما بين قائم وراكع وساجد .. ثم أذَّن مؤذن ، فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفًا : ننظر من يؤمنا : فأخذ بيدى جبريل فقدمنى ، فصليتُ بهم .

وفى رواية أبى أمامة عن الطبرانى : ثم أقيمت الصلاة ، فتدافعوا ، حتى قدموا محمدًا – ﷺ – .

١٠ – عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى

ثم عرِج به – ﷺ – إلى السموات العلا ، فتجاوزها سماءً سماءً : حتى تجاوز الكون كله ، وكان عند سدرة المنتهى : عندها جنة المأوى .. الجنة التى يأوى إليها المتقون من عباد الله .. وشم رسول الله – ﷺ – ريحًا طيبة باردةً كريح المسك ، وسمع صوتًا :

فقال : ما هذا يا جبريل ؟ .

قال : هذا صوت الجنة ، تقول : ربِّ آتِنى ما وعدتَنى به ، فقد كَثر غرفى واستبرقى ، وحريرى وسندسى ، وعبقرى ولؤلؤى ، ومرْجانى وفِضتى ، وذهبى وأكوابى ، وصحافى وأباريقى ، ومراكبى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى .. فآتنى بما وعدتنى .

قال : لكِ كل مسلم ومسلمةٍ ، ومؤمن ومؤمنةٍ ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحًا ، ولم يشرك بى شيئًا ، ولم يتخذ من دونى أندادًا . ومن خشِيَنى ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل علىّ كفيته .. إننى أنا الله لا إله إلا أنا : لا أخْلِف الميعاد .. قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين ..

قالت : قد رضيت ..

١١ – إذ يغشى السدرة ما يغشى

فى إبهام « ما يغشى » من التفخيم ، ما لا يخفى ..

فكأن الغاشىَ أمرٌ لا يحيط به نطاق البيان ، ولا تسعه أردان الأذهان .

وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، استحضارٌ لصورتها البديعة ، وجوز أن يكون للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد .

وورد فى بعض الأخبار ، تعيين هذا الغاشى .

فعن الحسن :

« غشيها نور ربِّ العزةِ جل جلاله » .

ونحوه ما روى عن أبى هريرة :
« يغشاها نور الحقّ سبحانه »[1] .

المشاهدة

يقول الله تعالى :

﴿ثم دَنَا فَتَدلَّى . فكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى﴾[2] .

ويقول الإمام ابن حجر :

« وقد أخرجَ الأمَوِىُّ فى مغازيه ، عن طريق البيهقى عن محمد بن عمرو ، وعن أبى سلمة ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – فى قوله تعالى :

﴿ولقد رآه نَزْلَةً أخرَى﴾[3] .. قال : دنا منه ربه ..

يقول الإمام ابن حجر : وهذا سند حسن ، وهو شاهد قوى لرواية شريك ، ويكون المعنى على غرار : « يَنزِلُ ربنا » .

ثم نسأل : هل رأى محمد – ﷺ – ربه ؟ .. هل شاهد الجلال والجمال ؟ .

نقول أولا : إن الإمام الصاوى ذكر بمناسبة تفسير قوله تعالى :

﴿وما مِنَّا إلا لَه مقامٌ معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون﴾[4] .

إن هذه الآيات ، حكايةٌ عن اعتراف الملائكة بالعبودية ، ردًا على عَبَدَتهِمْ .. والمعنى : ليس منا أحد إلا له مقام معلوم فى المعرفة والعبادة ، وامتثال ما يأمرنا الله تعالى به .

قال ابن عباس : « ما فى السموات موضع شبر ، إلا وعليه مَلَكٌ يصلى ويسبح » ، ثم يقول الإمام الصاوى :

قيل : إن هذه الآيات الثلاثَ ، نزلت ورسول الله – ﷺ – عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل ، فقال النبى – ﷺ :

أهنا تفارقنى ؟ .

---

(١) عن الألوسى .
(٢) النجم : ٩ .
(٣) النجم : ١٣ .
(٤) الصافات : ١٦٤ – ١٦٦ .

فقال جبريل : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى هذا ..

وأنزل الله تعالى حكاية عن الملائكة : ﴿وما منّا إلاَّ لَهُ مقامٌ معلوم﴾ .

ووقف جبريل ، واقترب محمد ..

لقد ذهب غير واحد فى قوله تعالى :

﴿ثم دَنَا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[1] إلى أنه فى أمر العروج إلى الجناب الأقدس ، ودنّوه سبحانه منه – ﷺ – .

ثم عَلاَ فوقَ ذلك ، بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرةَ المنتهى ، فأوحى الله إليه فيما أوحى خمسين صلاة .. الحديث .. فإنه ظاهر فيما ذكر ..

يقول العلامة الطيبى ، بما يرويه الإمام الألوسى :

« ولا يخفى على كل ذى لب ، إباء مقام : « فأوحى » .. الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله « ما أوحى » .. إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتسارين ، مما يضيق عنه بساط الوهم ، ولا يطيقه نطاق الفهم ..

وكلمة « ثم » على هذا للتراخى الرتبى ..

والفرق بين الوجهين .. أن أحدَهما وحى بواسطة وتعليم ، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم ..

وعن جعفر الصادق – عليه الرضا – أنه قال : لما قرب الحبيب غاية القرب ، نالته غاية الهيبة ، فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف ؛ لأنه لا تتحمّل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف ، وذلك مثل قوله تعالى :

﴿فأَوْحَى إلى عبدِهِ ما أَوْحَى﴾ .

أى : كان ما كان ، وجرى ما جرى .. قال الحبيب للحبيب ، ما يقوله الحبيب لحبيبه ، وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه ، وأسَر إليه ما يُسِرُّ الحبيب إلى حبيبه ، فأخفيا ولمْ يطلعا على سرِّهما أحدًا ..

وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله :

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا سرٌّ أرق من النسيم إذا سَرَى

---

(١) النجم : ٩ ، ١٠ .

ومعظم الصوفية على هذا : فيقول يدنو الله عز وجل من النبى – ﷺ – ودنوه سبحانه على الوجه اللائق ..

وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ما زَاغَ البَصَرُ وَمَا طغى﴾[1] .. أى : « ما زاغ » بصر النبى – ﷺ – ، وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ولا إلى الجحيم وزفراتها ، بل كان شاخصًا إلى الحق .. « وما طغى » عن الصراط المستقيم .

وقال أبو حفص السهروردى : ما زاغ البصر : حيث لم يتخلف عن البصيرة ، ولم يتقاصر .. « وما طغى » لم يسبق البصيرة ويتعد مقامه ..

وما من شك فى أن المشاهدة أنواع وألوان . والمشاهدة هنا على الوجه اللائق . أما كيفيتها فلا يعلمها إلا الله ورسوله .

□□□

(١) النجم : ١٧ .

﴿لكـــن الله يشهـد بمـا أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمــــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل العاشر عن :

طرق فى إثبات النبوة

« طرق فى إثبات النبوة »

يتفاوت الناس فى طاقاتهم التى يثبتون بها النبوة . وعندنا عدة طرق تعبر – بمجرد ذكرها – عن نفاستها فى الاستدلال .

ولسنا – من أجل تَعْبيرها الواضح – فى حاجة إلى شىء كثير من التعليق عليها . بل إنه ليكفى مجرد ذكرها .

ونحن نذكر هنا بعضها دون ترتيب معين .

وهذا الذى نذكره هنا ، هو فى غاية النفاسة .

وسيرى القارئ منازع مختلفة : من المنطق ومن الحكمة : أجمل ما يكون المنطق ، وأحكم ما تكون الحكمة .

سيرى القارئ الأدلة العقلية فى ألوان شتى : منها ما يرجع إلى السيرة الشخصية للرسول ﷺ ، ومنها ما يرجع إلى تعاليمه العظيمة ؛ ومنها ما يرجع إلى ثقة أصحابه فيه ، ومنها ما يرجع إلى التزامه هو – عليه السلام – ، ومنها ما يرجع إلى الآثار الحميدة التى ترتبت على الرسالة .. ومنها ما يمزج بين بعض هذه الأدلة ، ومنها ما يجمع بينها .

وبعض الذين عاشروه ﷺ – قبل البعثة – آمنوا به دون استدلال ، إنهم ليعرفون فيه الصدق والأمانة والحكمة ، فماذا يعوزهم بعد ذلك ؟

لقد عرفوه : غلامًا مباركًا ، وشابًا أمينًا ، ورجلا ناضجًا .. فآمنوا بمجرد سماع الخبر .

وإن فى ذكر هذه الألوان البديعة من منطق النابهين ، لُمتعةً عقليةً وروحية للقارئ الكريم .

وإننا نتبع منهج القرآن فى إثبات النبوة ، وهذا المنهج ، اتبعه الإمام الغزالى ، واتبعه عالم الاجتماع الكبير (ابن خلدون) .

ولأجل أن يكون منهجنا – من أول الأمر – واضحًا ؛ فإننا نورد هنا ، لمحة خاطفة عن منهج القرآن ، تتلوها فكرة الإمام الغزالى ، ومنهج الإمام ابن خلدون فى ذلك ، وكلها مناهج عامة : تثبت النبوة من زوايا كثيرة ، ثم نتبع ذلك بطرق شبه خاصة .

والطريقة القرآنية فى إثبات النبوة ، هى إيراد أدلة كثيرة تتكاتف لتؤدى إلى اليقين .

إن القرآن الكريم ، تحدى العرب والعجم ، والإنس والجن : أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله .. وكان القرآن – ولا يزال – معجزة الرسول ﷺ ، ولقد كتبنا عن ذلك فى مكان آخر .

ومع ذلك ، فإن القرآن والرسول ﷺ ، يأتيان بأدلة كثيرة أخرى ؛ لإثبات النبوة .

ولِمَ الشك فى أمر الرسول ، ﷺ مع أنه لو أخبرهم :

أن خيلاً وراء الوادى ستُغِير عليهم لصدَّقوه ؛ لأنهم لم يعهدوا عليه كذبًا ؟ ..

على أنه قد لبِثَ فيهم – من قبل ذلك – أربعين عامًا ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة !

ذلك أن هذا الأمر ، إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب :

﴿قل لو شاء الله ما تَلَوْتُه عليكم ولا أدْرَاكُمْ به فقد لبِثْتُ فيكم عمُرًا من قبله أفلا تعقلون ؟﴾[1] .

ويطلب إليهم القرآن : أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا الذى نشأ بينهم وترعرع على مرأى ومسمعٍ منهم ، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم : بالصدق ، والأمانة ، ورجاحة العقل ، قال تعالى :

﴿قل إنَّما أعِظكُم بواحدةٍ أن تقوموا لله مَثْنَى وفُرادَى ، ثم تتفكروا ما بصاحِبِكُم من جِنَّة إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يدَىْ عذابٍ شديد﴾[2] .

ولِمَ الشك فى أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمع دنيوى[3] .

---

(١) سورة يونس : آية ٦١ .

(٢) سورة سبأ آية ٤٦ والمعنى على ما ورد فى الزمخشرى « ملخّصا » .

إنما أعظكم بواحدة ، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصًا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحدًا واحدًا « ثم تتفكروا » فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به :

أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينفر لهما عرق عصبية ، لا يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه .

وكذلك الفرد : يفكر فى نفسه بعدل ونصفه ، غير أن يكابر . ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده ، من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الرؤية ومع ذلك يقل الإنصاف ، ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ما به من جنة ، بل علمتموه : أرجح قريش عقلا ، وأصلبهم رأيًا وأصدقهم قولاً ، وأنزههم نفسًا ، فكان مظنة لأن تظنوا به خير ، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

(٣) التفكير الفلسفى ص ٥٨ .

﴿قل ما سألتكُم من أجرٍ فهو لكم إن أجرِىَ إلا على اللّهِ وهو على كل شيء شهيد﴾[1] .

ولِمَ التشكك فى أمره وهو أُمىٌّ : لا يقرأ ولا يكتب ! ومن كانت حاله هذه لا يمكنه أن يستمد ما يقول من كتاب ، قال تعالى :

﴿وما كنتَ تَتْلُوا من قبله من كتابٍ ولا تخطُّهُ بيمينك إذًا لارتابَ المبطلون﴾[2] .

هذه الظروف ، وهذه الملابسات – فضلاً عن القرآن الكريم – ترشد إلى أن محمدًا ﷺ ، كان صادقًا فى دعواه[3] .

الإمام الغزالى وإثبات النبـوة

هذه الطريقة تأسىّ بها الإمام الغزالى .

إن الإمام الغزالى يرى : أن القطع فيما يتعلق بدلائل النبوة : لا يستفادُ من طريق واحد ، وإنما تتكاتف عدةُ دلائل ، فتفيد اليقين بمجموعها .

إنه يرى : أن المعَجزة نفسها – إذا استقلت – لا تؤدى عند بعض الناس ، إلى اليقين التام .

إنها لم تؤد إلى ذلك عند فرعون ومن تبعه بالنسبة لمعجزات سيدنا موسى عليه السلام ، وقالوا : ساحرٌ كذّابُ .

ولم تؤدّ إلى ذلك عند من بشَّرَ لديهم عيسى عليه السلام ، وإلاَّ لآمنوا كلهم ، وما آمن به إلا القليل : الذى لا يكاد يذكر .

وهؤلاء الرسل الذين دمَّر الله قومهم تدميرًا ، أَلَمْ يأتوا بمعجزات ؟

لقد كان التدمير ؛ لأنهم طلبوا المعجزات . فلما أتتهم كذبوا بها وأعرضوا عنها ، ولم يستجيبوا لنداء الهداية .

ما هى الطريقة الصحيحة فيما يرى الإمام الغزالى – متابعًا فى ذلك القرآن الكريم – لإثبات النبوة ؟

إنا نتركه يتحدث عن ذلك بنفسه .. إنه يقول :

---

(١) سورة سبأ آية ٤٧ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٨ .
(٣) التفكير الفلسفى ص ٥٩ .

« فإن وقع لك شك فى شخص معين : أنه نبى أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله :

إما بالمشاهدة ، أو بالتواتر ، والتسامع .

فإنك إذا عرفت الطب ، والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء ، والأطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم .

ولا تعجز أيضًا عن معرفة كون « الشافعى » رحمه الله – فقيها ، وكون « جالينوس » طبيبًا ، معرفة بالحقيقة ، لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تتعلم شيئًا من الفقه والطب ، وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضرورى بحالها .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر فى القرآن ، والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى ، بكونه ﷺ ، على أعلى درجات النبوة .. وأعضِدْ ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله .

« من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ؟

وكيف صدق فى قوله :

« من أعانَ ظالِمًا سلطه الله عليه » ؟ !

وكيف صدق فى قوله :

« من أصبَح وهمومه همٌّ واحد (هو التقوى)[1] . كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة »[2] !!

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ، وآلاف – حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق : اطلب اليقين بالنبوة ، لا من قَلْبِ العصا ثعبانًا ، وشق القمر ؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ؛ ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر – ربما ظننت أنه سحر وتخييل ، وأنه من الله إضلال ؛ فإنه تعالى « يُضِلُّ من يشاء ، ويهدى من يشاء » .

وترد عليك أسئلة المعجزات ، فإن كان مُسْتَنِدًا إيمانُك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ، فينخرم إيمانك بكلام مرتب فى وجوه الشكال والشبهة عليها .

فليكن مثل الخوارق ، إحدى الدلائل والقرائن فى مجلة نظرك ، حتى يحصل لك علم

---

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير ، وضعناها لبيان المعنى .

(٢) وفى سنن ابن ماجة : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

« ... ومن جعل الهموم همًا واحدًا ، هم المعاد ، كفاه الله هم الدنيا ، ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا ، لم يبال الله فى أى أوديته هلك » .

ضرورى لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين ، كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر : لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدرى ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد .. فهذا هو الإيمان القوى العملى .

وأما الذوق ، فهو كالمشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية ، فهذا القدر — من حقيقة النبوة — كافٍ فى الغرض الذى أقصده الآن .

« وسأذكر وجه الحاجة إليه »[1] ا هـ .

ابن خلدون وإثبات النبوة

يقول ابن خلدون ، فى المقدمة السادسة ، من كتابه النفيس : « المقدمة » .

اعلم أن الله سبحانه ، اصطفى من البشر أشخاصًا فضلهم بخطابه ، وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده : يعرفونهم بمصالحهم ، ويحرضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة .

وكان — فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار — الكائنات ، المغيبَةُ عن البشر التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم .. قال ﷺ :

« ألاّ وإنى لا أعلمُ إلاّ ما علّمنى الله » .

واعلم أن خبرهم فى ذلك ، من خاصِّيَّته وضرورته الصدق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة .

وعلامة هذا الصنف من البشر : أن توجد لهم — فى حال الوحى — غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غَشْىٌ أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شىء ، وإنما هى — فى الحقيقة — استغراق فى لقاء الملك الروحانى : بإدراكهم المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزّل إلى المدارك البشرية : إما بسماع دَوِى من الكلام فيتفهمه ، أو يتمثل له صورة شخصٍ يخاطبه بما جاء به من عند الله .

ثم تنجلى عنه تلك الحال ، وقد وعى ما أُلْقَى عليه .

---

(١) راجع المنقذ من الضلال ، تحقيقنا — الطبعة السابعة .

قال ﷺ وقد سئل عن الوحى :

« أحيانا يأتيني مثل صَلْصَلةِ الجَرَس ، وهو أشدُّه عليَّ ، فيفصمَ عنى وقد وعيت ما قال .. وأحيانًا يتمثَّل إليَّ الملكُ رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول »

وبدركه أثناء ذلك ، من الشدة والغَطّ ما لا يُعبر عنه .. ففى الحديث :

« كان مما يعالج من التنزيل شدة » .

وقالت عائشة :

كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّدُ عرقًا » وقال تعالى : ﴿إنا سَنُلْقى عليكَ قولا ثقيلاً﴾[1] .

ولأجل هذه الحالة فى تَنَزُّلِ الوحى ، كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له رئى ، أو تابع من الجن .. وإنما لُبِّس عليهم ، بما شاهدوه من مظاهر تلك الأحوال :

﴿ومن يُضْلِلِ الله فَمَاله مِن هادٍ﴾[2] .

ومن علاماتهم أيضًا : أنه يوجد لهم – قبل الوحى – خلُقُ الخير والزكاة ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع .

وهذا هو معنى العصمة . وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافيةٌ لجبلّته .

وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس ؛ لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزاره ، فانكشف ، فسقط مغشيًا عليه ، حتى استتر بإزاره ، ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عُرْس ولَعِب ، فأصابه غَشْىُ النوم إلى أن طلعت الشمس ، ولم يحضره شيئًا من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله ، حتى إنه – بجبلّته – يتنزه عن المطعومات المستكرهة ، فقد كان ﷺ ، لا يَقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : « إنى أناجى من لا تناجون » .

وانظر ، لَمَّا أخبر النبى ﷺ خديجة رضى الله عنها ، بحال الوحى أول ما فجأهُ وأراد اختباره .

فقالت : اجعلنى بينك وبين ثوبك ؛

فلما فعل ذلك ، ذهب عنه .

فقالت : إنه مَلَك ، وليس بشيطان .

ومعناه : أنه لا يقرب النساء .

---

(١) المزمل : ٥ .

(٢) الرعد : ٣٣ .

وكذلك سألته عن أحبّ الثياب إليه أن يأتيه فيها .

فقال البياض والخضرة .

فقالَتْ : إنه المَلَكَ .

يعنى : أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد من ألوان الشر والشياطين ، وأمثال ذلك .

ومن علاماتهم أيضًا : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من : الصلاة والصدقة والعفاف .

وقد استدلت السيدة خديجة رضى الله عنها ، على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجًا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه .

وفى الصحيح أن هرقل – حين جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام – أحضر من وُجِدَ ببلده من قريش ، وفيهم ابو سفيان ؛ ليسألهم عن حاله ، فكان – فيما سأل – أن قال : بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة والعفاف ، إلى آخر ما سأل . فأجابه فقال : إن يكن ما تقول حقًا فهو نبى ، وسيملك ما تحت قَدميَّ هاتين » .

والعفاف الذى أشار إليه أبو سفيان هو العصمة .

فانظر كيف أخذ من العصمة والداء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل على أن ذلك من علامات النبوة !!

ومن علاماتهم أيضًا : أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم .

وفى الصحيح : « ما بَعَثَ الله نبيا ، إلا فى مَنَعَةٍ من قومه » .

وفى رواية أخرى : « فى ثروةٍ من قومه » .

استدركه الحاكم على الصحيحين .

وفى مساءلة هرقل لأبى سفيان كما هو فى الصحيح قال :

« كيف هو فيكم » ؟

قال أبو سفيان :

« هو فينا ذو حسب » .

فقال هرقل :

« والرسل تُبْعَثُ فى أحساب قومها » .

ومعناه : أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار ، حتى يبلغ رسالة ربه ، ويتم مرادَ الله من إكمال دينه وملته .

إسلام خديجة رضى الله عنها

يتحدث ابن خلدون – طيب الله ثراه – عن السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، وعن أبى بكر ، رضى الله عنه ، فى إسلامهما ، فيقول : إنهما :

لم يحتاجا فى أمره ﷺ إلى دليل خارج عن حاله وخلقه » ا هـ .

كيف اسلمت خديجة رضى الله عنها ؟

لقد رجع رسول الله ﷺ من الغار إلى بيته ، بعد أن فجأه الوحى فى غار حراء . رجع يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال .

– « زملونى ، زملونى » .

فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال لخديجة – أخبرها – : لقد خشيت على نفسى .

فقالت خديجة :

كلاًّ ، والله ، لا يخزيك الله أبدًا : إنك لتصل الرّحم ، وتَقْرِى الضيفَ ، وتحمل الكَلّ وتكْسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق .

وبذلك أسلمت خديجة ، رضى الله عنها .. وذلك أنها صدقت ، وآمنت ، وأقسمت على أن الله سبحانه وتعالى متَوَل رسول الله ﷺ برعايته وعنايته .. وعللت ذلك بما تعرفه عنه من الرحمة والخلق الكريم .

وكانت بذلك أولَ من اعتنق الإسلام بعد رسول الله ﷺ .

وهى – وإن كانت قد ذهبت إلى ورقة وإلى غيره – فإنما كان ذلك لتكون الرؤية واضحة فى ذهنها وفى ذهنه ﷺ .

ولقد سبق إيمانها سؤالها !!

والسيدة خديجة رضوان الله عليها – فى صلتها برسول الله ﷺ – تستحق دراسة أوسعَ ، وتفصيلا أكثر .

ومن أجل ذلك كتبنا الآتى :

رضى الله عنها : لقد كانت تسمى وزيرة صدق .

وكانت تسمى : الطاهرة .

وكانت تسمى : سيدة نساء قريش .

قال المؤرخ الكبير ابن إسحاق ، عن السيدة خديجة رضى الله عنها :

« وكانت خديجة وزيرة صدق .

وبقول السهيلى ، صاحب : الروض الأنف :

وخديجة بنت خويلد تسمى : الطاهرة فى الجاهلية والإسلام .

وفى سيرة التيمى : أنها كانت تسمى سيدة نساء قريش .

وقالت عائشة رضى الله عنها :

كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة ، لم يكد يسأم من ثناءٍ عليها ، واستغفارٍ لها ، فذكرها يومًا ، فحملتنى الغيرة ، فقلت :

لقد عوّضك الله من كبيرة السن .. قالت : فرأيته غضب غضبًا . فأُسْقِط فى يدى ، وقلت فى نفسى :

« اللهم إن أذهبتَ غضبَ رسولك عنى ، لم أعُدْ أذكرها بسوء » .

فلما رأى النبى ﷺ ما قلت قال :

كيف قلت ؟ والله ، آمنَتْ بى إذ كذبنى الناس ، وواستنى إذ رفضنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرُمْتِه منى . قالت : فَغَدا ورَاح علىَّ بها شهرًا » .

ولسنا هنا بصدد التأريخ لحياة وزيرة الصدق الطاهرة : سيدة نساء قريش ، وإنما نريد أن نرسم بعض لوحات من حياتها ؛ لنرى منها الدرجة السامية التى كانت عليها : روية ، وعقلا ، وفطرة طاهرة ، وذكاءً ، وفطنة .

وصلتها بالرسول ﷺ : تبدأ ، فى صورةٍ وثيقة : بعمله لها فى مالها ، متاجرًا به .

ولقد عَرَفته بسبب ذلك ، بصورة طبيعية عن قرب ، ولاحظت – متعمدة وغير متعمدة – الكثير من الخلال الجميلة ، التى تحلّى بها .. وحدثها غير واحد عن وكيلها فى التجارة ، وحدثها ميسرة حديثًا مثيرًا : يبعث فى النفس العجب والإعجاب .

وبدأت ، فكرة الزواج بمحمد تتبلور فى نفسها الطاهرة شيئًا فشيئًا ، ولكنها ما كانت تتعجل الأمور .

وها هى ذى تذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وتذكر له ما لاحظته من صفات محمد وأحواله ، وتذكر له ما قاله ميسرة : مما رآه ، ومما سمعه ، فيقول ورقة :

« لئن كان هذا حقا يا خديجة ، إن محمدًا لنَبى هذه الأمة .. وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى يُنْتَظر ... هذا زمانه » اهـ .

وعادت خديجة من عند ابن عمها ،وقد أصبحت فكرةُ الزواج بمحمد أكثرَ تبلورًا وأكثر جاذبية .

وما كانت الجاذبية – فى أساسها ، أو فى أهدافها – تتمثل فى الجانب الجسمانى ، وإن كان محمد من أحسن الناس خَلْقًا .

وما كانت تتمثل فى جانب الثروة ، فما كان محمد صاحبَ ثراءٍ عريض وإن كان عنده من الذكاء ما يمكنه – لو أراد – أن يكون من أصحاب الثروات ، وإنما كان منطلِقَ الجاذبية .

هذه السمات الخلقية الكريمة ، وهذه الروحانية البادية الشفافية ، وهذه الإشراقات التى تتلألأ ثم تخفت ، ثم تعود إلى لألائها من جديد ، نفَّاذةً أخَّاذة ، ماذا يكون من الأمر !!

وذات يوم بدأت الطاهرة فى الأخذ فى المقدمات .

ولم تكن المقدمات مقدمةً واحدة .

أما أولاها – فيما نرى – فهو ما رواه الفاكهى فى كتاب : مكة ، قال :

عن أنس ، أن النبى ﷺ ، كان عند أبى طالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة ، فأذن له .
وبعث بعده جاريةً له يقال لها : نبعة ، فقال :
انظرى ما تقوله له خديجة .

قالت نبعة : فرأيتُ عجبًا : ما هو إلاّ أن سمعَتْ به خديجة ، فخرجت إلى الباب ؛ وكان مما قالت : أرجو أن تكونَ أَنتَ النبى الذى ستُبعث ، فإن تكن هوَ ، فاعرِف حقى ومنزلتى ، وادع الإله الذى يبعثك لى .

قالت : فقال لها :

... والله لئن كنت أنا هو ، قد اصطنعتِ عندى ما لا أضَيِّعَه أبدًا . وإن يكن غيرى . فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله ، لا يضَيِّعكِ أبدًا » .

وقد روى القصة : الفاكهى . ورواها الإمام ابن حجر ، ولم يضعفها .

وما من شك فى أن هدف الطاهرة ، هدفٌ نبيل .

ولقد لاحظَ محمد كل ذلك حين قال لها : « فإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله » .
أى أنها لم تصنع هذا إلا من أجل الإله الحق : الذى تعتقد أن محمدًا سيكون رسولَه !!
وأما المقدمة الثانية : فهى ما حدثت به نفيسة بنت منبه ، قالت :

كانت خديجة بنت خويلد ، امرأة حازمة شريفة ، مع ما أراد اللهبها من الكرامة والخير ، وهى - يومئذ أوسط قريش نسبًا ، وأعظمُهم شرفًا ، وأكثرهم مالاً . وكل قومها كان حريصًا على الزواج منها لو قَدرَ على ذلك .. ولقد طلبوها ، وبذَلوا لها الأموال ، فأرسلتنى دسيسًا إلى محمد بعد أن رجع عيرها من الشام .

فقلت : يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيَدى ما أتزوج به .

قلت : فإن كُفِيتَ ذلك ، ودُعِيت إلى الجمال والمال ، والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

قال : فمَنْ هى ؟

قلت : خديجة .

قال : وكيف لى بذلك ؟

قلت : علىَّ .

قال : فأنا أفعل .

فذهبت فأخبرتها .

وأصبحت المسألة واضحة فى ذهن محمد ﷺ .

أما المقدمة الثالثة : فهى المقدمة المباشرة .

يقول السهيلى :

« كانت خديجة امرأةً حازمة ، شريفة لبيبة مع ما أراد اللهبها من كرامته ،فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به ، بعثت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له فيما يزعمون :

يا ابن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، وسطتك فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك .

ثم عرضت عليه نفسها .

وكانت خديجة يومئذ ،أوسطَ نساء قريش نسبًا ، وأعظمَهُن شرفًا ، وأكثرَهُن مالاً : كل قومها كان حريصًا على ذلك منها ، لو يقدر عليه ، وتم الاتفاق على كل شىء .

وجاء آل عبد المطلب - وعلى رأسهم حمزة رضى الله عنه ، وأبو طالب - إلى بيت

خديجة ، وكان فى استقبالهم عم خديجة عمرو بن أسد ، وابن عمها ورقة بن نوفل . وقام أبو طالب خطيبًا فكان مما قال :

أما بعد :فإن محمدًا ممن لا يوزَنُ به فتىً من قريش ، إلا رجَحَ به : شرفًا ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً . وإن كان فى المال قُلّ ، فإنما المال ظل زائل ، وعاريَّة مسترجعة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » .

ورضِىَ عمْرو وقال :

« وهو الفحل لا يُقْدَعُ أنْفُه » .

ورضى ورقة ...

وتم الزواج .

هذه هى اللوحة الأولى :وهى دليل واضح على الروية والنضج ، والذكاء وحسن التأنى للأمور ، وحسن الاختيار .

واللوحة الثانية جميلةٌ حقا ، رائعة حقا ، وإنه ليتمثل فيها وضوح العبقرية والنضج النادر ..

فلقد سارت الحياة رخاء فى عش الزوجية : لقد كان محمد — بالنسبة لخديجة — الأخ والابن والزوج ، وكانت خديجة — بالنسبة له — الأخت والابنة والزوجة .

لقد كان بينهما حنان وعطف وحب ، وكان بينهما — من قبل ذلك ومن بعده — تقدير متبادل .

وذات يوم :

« رجع رسول الله ﷺ : يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ؛ فقال : زملونى ، زملونى .

« فزملوه حتى ذهب عنه الروع »[1] .

لم يكن هذا شأنَ محمد ﷺ : فيما مضى ؛ وقد لاحظت وزيرة الصدق ؛ تغيرًا محسوسًا فى شأن محمد ، فجلست تنتظر أن يحدثها الحديث جلست يسرح بها الخيال ويملؤها الإشفاق .. واحترمت إرادته .. لقد أراد الخلوة بنفسه فى غرفته منفردًا ، فلم تقتحم عليه الغرفة ،ومع حبها الشديد له ولهفتها عليه — آثرت هواه ، وانتظرت وكان الانتظار طويلاً .. وفى النهاية ، ها هو ذا يتحرك ويأتى نحو خديجة فيحدثها بما يذهُلها ويسعدِها من خبر الوحى والملك ، ومجىء الحق وهو فى غار حراء ، ثم قال لها :

---

(١) صحيح الإمام البخارى .

« لقد خشيتُ على نفسى » .

وتسارع الوزيرة – دون فتور ، ودون تباطؤ أو تلكؤ – فتقول بملء فيها – مقسمة على ما تقول – : « كلاَّ ، والله ، ما يخْزِيكَ الله أبدًا » .

لماذا ؟ لقد عللت ذلك قائلة :

إنك لَتَصِلُ الرحم ، وتحملُ الكلَّ ، وتكْسب المُعْدِمَ ، وتَقرِى الضيفَ ، وتُعين على نوائب الحق !!

هذا قانون سنَّة رب العزة ، وأعلنته الوزيرة ؛ إنه قانون له مقدماته ، وله نتائجه .

أما المقدمات فهى كلها تتبلور فى كلمة : « الرحمة » .

أما النتائج ، فإنها تتبلور فى : « عدم الخِزْى » .

وكان هذا أولَ قانونٍ : تعلنه الوزيرة بعد الوحى ، ويؤيده الإسلام ، ويؤكده ، ويبينه من زوايا متعددة .

« الراحمون يَرْحَمُهمُ الرحمن » .

« ارحموا مَن فى الأرض يَرحَمكُم من فى السماء » .

« لا تنزع الرحمةُ إلا من قَلبٍ شقى » .

إلى غير ذلك من المبادئ الإسلامية التى تتعلق بالرحمة .

ونشِطت خديجة نشاطًا عظيمًا .

لقد دخل فى هذه الحياة الهادئة الوديعة عنصر جديد مفاجئ مذهل ، سعيد عذب ..

وغمر خديجة شعور قوى بالمسئولية الملقاة على عاتقها .. وكانت رضوان الله عليها ، فى المستوى الجدير بهذه المسئولية ، وكان أول شىء فى نظرها ، هو أن تصبح صورة ما حدث واضحةً فى ذهنها ، وفى ذهن زوجها : واضحة أسبابًا ، وواضحة موضوعًا ، وواضحة غايةً وهدفًا ..

وأرادت أن تنطلق لتسعدَ بالحديث فى هذا ، مع من يعرفون هذه الأمور فى بصيرة ، وفى استنارة وقبل أن تنطلق ،اتجهت إلى زوجها فى حَنان ، وأخذتْ تمسحُ عن وجهه وتقول :

أبِشرْ فوالله ، لقد كنتُ أعلم أن اللَّهَ لن يفعلَ بك إلا خيرًا ، وأشهد أنك نبىّ هذه الأمة الذى تنتظره اليهود ..

قد أخبرنى به ناصح غلامى ، وبحيرَى الراهب .

فلم تزل برسول الله ﷺ ، حتى طعم وشَرِب وضحك .

فلما ضحك رسول الله ﷺ ، قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت من مكانها ، فأتت غلامًا لقيه ربيعة بن عبد شمس : نصرانيا من أهل نينوى :يقال له عداس ، فقالت له :

يا عداس ، اذكرك بالله ، ألا ما أخبرتنى : هل عندك علم من جبريل ! فقال :

قدُّوسٌ !! قدوس !! ما شأن جبريل يُذكر بهذه الأرض التى أهلها أهل الأوثان .

فقالت أخبرنى بعلمك فيه .

قال : فإنه أمين الله بينه وبين النبين .. وهو صاحب موسى وعيسى عليهما السلام .
ثم ركبت إلى الراهب ، وكان قريبًا من مكة ، فلما دنت منه وعرفها ؛ قال :
مالك يا سيدة نساء قريش ؟

فقالت : أقبلت إليك لتخبرنى عن جبريل ، فقال :

سبحان الله ربنا القدوس : ما بال جبريل يذكر فى هذه البلاد التى يعبد أهلها الأوثان ؟
جبريل أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله ... وهو صاحب موسى وعيسى .

فعرفت كرامة الله لمحمد .

وكانت خاتمةُ المطاف : أن أتت ورقة بن نوفل ، فسألته عن جبريل ، فقال لها مثل ذلك ، ثم سألها ، ما الخبر ؟

فأحلفته : أن يكتم ما تقول له ، فحلف لها فقالت له :

إن ابن عبدالله ذكر لى - وهو صادق - أحلف بالله ما كذب ، ولا كذب : أنه نزل عليه جبريل بحراء ، وأنه أخبره أنه نبى هذه الأمة ، وأقرأه آيات أُرْسِلَ بها .

قال : فَذُعِر ورقةُ لذلك ، وقال :

لئن كان جبريلُ قد استقرت قدماه على الأرض ، لقد نَزَل على خَير أهلِ الأرض ، وما نزل إلا على نبى .. وهو صاحب الأنبياء والرسل : يرسله الله إليهم ، وقد أفدتك عنه ، فارسلى إلىَّ ابن عبدالله : أسأله وأسمع من قوله وأحدثه ، فإنى أخاف أن يكون غير جبريل ، فإن بعض الشياطين يتشبه به ؛ ليضل به بعضَ بنى آدم ويفسدهم ،حتى يصيرَ الرجلُ - بعد العقل الرضى - مدلها مجنونًا .

فقامت من عنده ، وهى واثقة باللهأن لا يفعل بصاحبها إلا خيرًا ..

وانطلقت خديجة بمحمد ﷺ ، إلى ورقة ،فقالت له خديجة :

يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى . فقال له ورقة :

هذا الناموسُ الذى نَزَّلَ اللهعلى موسى ... ياليتنى فيها جَذَعًا .. ليتنى أكونُ حيًا إذ يخرجُك قومك .

فقال رسول الله ﷺ :

أوَ مخرِجىَّ هم ؟ .

قال : نعم ، لم يأتِ رجلٌ قط ، بمثل ما جئْتَ به إلا عُودِىَ ، وإن يدركْنى يومك أنْصُرْكَ نصرًا مؤزَّرًا .

وتنفست خديجة مِلءَ رئتيها ، ونظرت إلى محمد نظرة فيها ما لا يوصف من المعانى ، ودخل فى صلتها به عنصر جديد : إنها زوجةُ رسولٍ يوحَى إليه !! وكما حملتها السعادة التى يحب السعيد نشرها وإذاعتها ، والعملَ على أن يحظى بمثلها أو بنصيب منها الآخرون ، على أن تطوف وأن تتحدث إلى هذا وذاك – فقد حملتها على أن تُجرِىَ التجارب على جبريل نفسه .

لقد أحبت السيدة الذكية أن تضع جبريل عليه السلام موضع الاختبار والملاحظة ، وأن تجرِىَ عليه بعض التجارب ؛ لتتبين أمره فى وضوح أوضح ، وفى تأكيد آكد .. وما كان يتأتى أن يدور إلا بذهن خديجة .

نظَرًا لفطنتها ونباهتها .

يقول ابن خلدون ، معتمدًا على الأحاديث الصحيحة :

وانظرْ لما أخبر النبى ﷺ : خديجة رضى الله عنها ، بحال الوحى أول ما فجأه ، وأرادت اختباره .

فقالت : اجعلنى بينك وبين ثوبك .

فلما فعل ذلك ذهب عنه .

فقالت : إنه مَلَكٌ وليس بشيطان .

ومعناه : أنه لا يقرُبُ النساء .

وروى البيهقى هذه القصة فى شىء من التفصيل :وذلك أن خديجة رضى الله عنها ،قالت لرسول الله ﷺ ، فيما بيَّنَهُ مما أكرمه الله به من نبوته :

يا ابن عم ، تستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك .

فقال : نعم .

فقالت : إذا جاءك فأخبرْني .

فبينما رسول الله ﷺ عندها ، إذ جاءه جبريل ، فرآه رسول الله ﷺ ، فقال : يا خديجة ، هذا جبريل .

فقالت : أتراه الآن ؟

قال : نعم .

قال : فاجلِس إلى شِقى الأيمنِ . فتحوَّلَ فجلس ، فقالت : أتراه الآن ؟

قال : نعم .

قالت : فتحول فاجلس فى حِجرى .فتحول فجلس فى حجرها ، فقالت : هل أتراه الآن ؟

قال : نعم .

فحسرت رأسها ، فشالت خمارها ، ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها ، فقالت : هل تراه الآن ؟ قال : لا .

قالت : ما هذا بشيطانٍ ، إنّ هذا : المَلَك يا ابن عم ... . فاثبُتْ وأبشِرْ ، ثم آمنت به ،وشهدت أن ما جاء به هو الحق .

لقد آمنت به منذ اللحظة الأولى لحديثه معها عن الوحى .

قال ابن إسحاق : فحدثت عبدالله الحسن هذا الحديث فقال :

قد سمعت أمِّى فاطمة بنتَ الحسين ، تحدث بهذا الحديث عن خديجة ، إلا أنى سمعتها تقول : أدخلَتْ رسول الله ﷺ ، بينهَا وبين دِرْعِها ، فذهب عند ذلك جبريل عليه السلام .

قال البيهقى : وهذا شىء كان من خديجة : تصنعه تستثبت به الأمر ، احتياطًا لدينها وتصديقًا .

ويقول ابن خلدون أيضًا :

« وكذلك سألَتْهُ عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها ، فقال :

البياض والخضرة .

فقالت : إنه مَلَكٌ .

يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسوادَ من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك .

هذه هى خديجة سيدة نساء قريش : الطاهرة ، التى يصفها الذهبى فيقول :

وهى ممن كَمُلَ من النساء ، كانت عاقلةً ، جليلةً ، ديِّنةً ، مصونةً ، كريمة ، من أهل الجنة ..

وكان النبى ﷺ ، يُثنى عليها ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ، ويبالغ فى تعظيمها . لقد كانت حقا ، وزيرة صدق .

وبعد ، فإن ما قلناه هنا ، يلخصه الإمام البوصيرى فيقول فى همزيته المباركة :

ورأته خديجة ، والتُّقى والـ   ـزهدُ فيه سجيةٌ والحياء
وأَتَاهَا أنَّ الغمامَةَ السَّرْ   حَ أظلته منهما أفْياء
وأحاديثُ : أن وعدَ رسول الله   بالبعث حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحْـ   ـسَنَ ما يبلغ المنى الأذكياءُ
وأتاه فى بيتها جَبْرَئِيلٌ   ولذِى اللبُّ فى الأمور ارْتياء
فأماطت عنها الخمار لتدرى   أهوَ الوحى أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأسَ جبريـ   ـلُ فما عاد أو أعيد الغطاءُ
فاستبانت خديجة أنه الكنـ   ـز الذى حاولَتهُ والكيمياء

أما بعد : فإنا نختم الكلام عن خديجة رضى اللهعنها بالحديثين التاليين :

عن عائشة رضى اللهعنها قالت « ما غِرت على امرأةٍ لرسول الله ﷺ ما غِرتْ على خديجة ، مما كنت أسمع من ذكره لها .. وما تزوجنى إلا بعد موتها بثلاث سنين . ولقد أمَرَه ربه أن يبشرَها ببيتٍ فى الجنة من قصب[1] لا نصب فيه ولا صخب » أخرجاه فى الصحيح من أوجه أخر .

عن أبى زرعة قال : سمعت أبا هريرة قال « أتى جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة أتتك : معها إناءٌ فيه إدام طعامٍ أو شرابٍ ، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنيٍّ ، وبشرها ببيتٍ فى الجنة من قصبٍ : لا صخب فيه ولا نصب » .

رواه البخارى فى الصحيح ، عن قتيبة ورواه مسلم عن ابن أبى شيبة .

---

(١) يقول صاحب مختار الصحاح : والقصب أيضًا أنابيب من جوهر ، وفى الحديث : « بشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب » .

ورقة بن نوفل

لقد كان ورقة عربيا أصيلاً ، من ذِروة بيوتات قريش . وهو – كما يروى صاحب الأغانى – :

« أحد من اعتزلَ عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وَطَلَبَ الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان » .

طلب ورقة الدين ، ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية إذ ذاك ، لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة ، فتعلم العبرانية .

يقول الإمام البخارى عنه :

« وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب » .

وهو القائل هذه الأبيات الشائقة فى الأوساط المؤمنة :

لا شيء مما تَرَى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإله ويُرْدَى المال والولد
لم تُغن عن هرمز ، يومًا خزائنُه ... والخلد قد حاولت عاد فما خَلدوا
ولا سليمان إذ دانَ الشعوب له ... والجنُّ والإنس تجرى بينها البُرد[1]

ولقد سئل عنه رسول الله ﷺ ، فيما بعد ، فقال : « قد رأيته فى المنام : كأن عليه ثيابًا بيضًا ، فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة معروفًا بالعقل الناضج ، والمعرفة الواسعة ، والإخلاص المخلص ، وقد كان فى فترة بدء الوحى هذه : « شيخًا كبيرًا قد عَمى ، أى أنه مرَّ بالتجارب الكثيرة فى الدين والدنيا ، فأصبح لا يرجو إلا حُسْن الخاتمَة ، والعمل – ما استطاع – فى سبيل الله .

من أجل كل ذلك ، انطلقت السيدة خديجة بالرسول ﷺ إليه ، وقالت له : « يا ابن عم ، اسمع من ابنِ أخيك » :

فلما أخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى ، قال ورقة دون تردد ، ولا تلعثم ولا انتظار :

---

(١) البرد : جمع بريد ، وهو : الرسول .

« هذا هو : الناموس الذى نزّل الله على موسى » .

قال ذلك فى يقين جازم وفى إيمان مؤمن .

أما الأسباب التى دعت ورقة إلى هذا القول فإن منها -لاشك - معرفته بحياة الرسول ﷺ عازفًا عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل .. وكان - وهو الأهم - بعيدًا عن أن يكون عبدًا للدنيا .

ولقد سمع ورقة حديثًا يحدد معالم صورة صحيحة : مخلصة للصدق الصادق ، وسمع هذا التعبير البرىء عن عنصر المفاجأة فى الموضوع .

إن الحديث لا يتسم بمنطق مروىّ ، ولا بتفكير مدبر ، ولا بمحاولة - أيًّا كانت - للتلبيس والزيف .. إنها البراءة المطلقة :

لقد فاجأه الملك على غير انتظار ، وعلى غير توقع ، وفاجأه فى خَلوةٍ يرجو فيها رحمة الله ،ويأمل فيها رضاءه ، وفاجأه بأمرٍ لم يكن له على بال .

« اقرأ » :

« ما أنا بقارئ » .

ففاجأه المَلَك بأمر غريب آخر ، لقد أخذه فغَطَّه ، حتى بلغ منه الجَهْد ،ثم أرسله ، وقال له من جديد : « اقْرَأْ » وتكرر ذلك .

ورجع رسول اللهﷺ « يرجُف فؤاده » . قال :

« زمِّلونى ، زمِّلونى » .

فلما ذهب الروع ، قص على السيدة خديجة رضى اللهعنها ما أرى ثم قال :

« لقد خَشِيتُ على نفسى » .

إن كل ذلك : برهان واضح على الصدق ، وعلى الإخلاص ، فإذا ما أضيف ذلك إلى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ﷺ فإن ثمرة ذلك : التصديق والايمان ، بيد أن النور الذى غمر ورقة ، إنما كان إشعاع قوله تعالى :

﴿اقْرأْ باسمِ ربك الذى خَلَق﴾[1] .

---

(١) العلق آية : ١ .

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن .

﴿اقرأ باسم ربك الذى خَلَق﴾ .

لم يملك أن آمن هذا أن الذى يُتْلَى – إنما هو وحى من السماء .

إن ﴿اقرأ باسم ربك﴾ : تنص على أن القراءة : لا تكون باسم وزير ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة إقليمية ، ولا باسم غاية مادية : أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وإنما هى : باسم الله :

وإذا كانت باسم الله ، فإنها تفيد الشخص باعتباره فردًا : وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطنًا » وتفيد المجتمع الاسلامى العام ، بل وتفيد الإنسانية جمعاء .

وإذا ما تجردتِ القراءةُ لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير ، هو الله : مصدر الخير والنور ، كانت خيرًا ، وكانت نورًا فى جميع الأرجاء ، وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى : القراءة وحسب ، وإنما كانت القراءة رمزًا لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى ، وكل ما يَدَعُه الإنسان فى الجانب السلبى .

إن هذه الكلمة الأولى ، تريد أن تقول :

« اقرأ باسم ربك : تحركْ باسم ربك ، تكلّم باسم ربك ، اعمَلْ باسم ربك . أما إذا امتنعتَ عن حركة أو فعل ، فينبغى أن يكون ذلك أيضًا باسم ربك ، ويكون معنى الآية فى النهاية : جرِّد حياتَك كلها وكيانَكَ كلَّه : أسبابًا وغايات إلى الله سبحانه وتعالى » .

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى : الذى يحث على القراءة ، والذى يحث على أن تكون القراءة باسم الله – فإن الجانب السلبى ، قد نزلت فيه – فيما بعد – آيات صريحة الدلالة ، واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

﴿ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرِ اسم الله عليه ، وإنه لَفِسق﴾[1] .

وأما ما ذبح على النصب : فهو لم يُرَدْ به وجه الله تعالى ، وهو أيضًا فسق ؛ لأنه لم يُذكَرِ اسم الله عليه كله حرام .

---

(١) الأنعام آية : ١٢١ .

اقرأ .. والإخلاص

وحينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى .. لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول لشخص تجرد إلى الله ، ويدعوك أن تتجرد إليه سبحانه ؟شخص لم يطلب مالاً ، ولا جاهًا ، ولا زعامة ، ولا ملكًا .. إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها ، وأن تقوم – فى كيانها كله – على أساس من تربية ربها .

ماذا يمكن أن تقول له ؟

أيمكن أن تقول له : إنك كذَّاب ؟ فما هو الصدق إذن ؟

أيمكن أن تقول له : إنك منافق ؟ فأين هو الإخلاص ؟

إن هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة – فور سماعها – إلى الإيمان .

وأسلم ورقة ، ورآه رسول الله ﷺ فى المنام ، كأن عليه ثيابًا بيضًا ، وقال ﷺ ، تعليقًا على الرؤيا .

« فقد أظن أن لو كان من أهل النار ، لم أرَ عليه البياض » ، رضى الله عنه .

أبو بكر رضى الله عنه

كان أبو بكر – كما يقول ابن كثير – صدرًا معظما ، ورئيسًا فى قريش مكرَّما ، وصاحب مال .

ويقول ابن إسحاق :

« وكان أبو بكر رجلاً متألفا لقومه ، مُحَبَّبًا سهلاً ، وكان أنسبَ قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر . وكان رجلاً تاجرًا ، ذا خلق ومعروف .

وكان رجل قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته .

ويقول رسول الله ﷺ – فيما رواه ابن اسحاق :

« ما دعوتُ أحدًا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر ، إلا أبا بكر ، ما عكم (تلبث) عنه حين ذكرته ولا تردد فيه » .

كيف أسلم ؟

يقول ابن اسحاق :

ثم إن أبا بكر الصديق لقى رسول الله ﷺ ، فقال :

أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ مِن تَركِكَ آلهتَنَا ، وتسفيهكَ عقولَنا ، وتكفيركَ آباءنَا ؟

فقال رسول الله ﷺ :

« بلى إنى رسولُ الله ونبيه .. بعثنى لأبَلِّغَ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق . فوالله إنه للحق .. أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك ، له ، ولا تعبد غيره ، الموالاة على طاعته » .

فأسْلم وكفر بالأصنام ، وخَلَع الأنداد ، وأقرّ بحق الإسلام : ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق .

وكل هذا الذى ذكرناه ، إنما هو تصديقٌ لقول ابن خلدون : من أن أبا بكر رضى الله عنه ، لم يحتجْ فى أمر رسول الله ﷺ ، إلى دليلٍ خارجٍ عن حاله وخلقه .

ولعل القارئ ، قد لاحظ أن رسول الله ﷺ ، لم يَدْع السيدة خديجة رضى الله عنها إلى الإسلام ، وإنما قصَّ عليها الخبَرَ فقط ، فأسلمت بمجرد سماعها الخبر .

وكذلك كان أمر ورقة .

أبو ذر الغفارى رضى الله عنه

ولقد كانت هناك نماذج كريمة رائعة لتغلغل الدعوة إلى أعماق سرائر المؤمنين ؛ والأمثلة لذلك كثيرة :

منها : إسلام أبى ذر ، الذى يقول : « كنت رُبُعَ الإسلام ، وأسلم قبلى ثلاثة نفر ، وأنا الرابع ، أتيت رسول الله ﷺ ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فرأيتُ الاستبشارَ فى وجه رسول الله ﷺ .

وحديث إسلام أبى ذر ، رضى الله عنه ، حديثٌ مستفيض جليل : روته كتب السنة الموثوق بها ، أمثال البخارى ومسلم ، وغيرهما .

ولقد روته هذه الكتب فى زواياه المختلفة ، الثرية بالعبر والمواعظ . وذلك : أنه لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ ، قال لأخيه أنيس :

« اركبْ إلى هذا الوادى ، فاعْلَم لى علمَ هذا الرجل : الذى يزعم أنه نبى ، يأتيه الخبر من السماء ، فاسمعْ من قوله ، ثم ائتنى .

فانطلق « أنيس » إلى مكة : وسمع من كلام الرسول ﷺ ، ثم رجع إلى أبى ذر فقال له : « رأيته يأمر بمكارم الأخلاق » . فقال له أبو ذر : ما يقول الناس له ؟ قال : يقولون : إنه شاعر ، وساحر – وكان أنيس شاعرًا – وتابع أنيس حديثه قال :

لقد سمعتُ الكهان فما يقول بقولهم ، وقد وضعت قوله على أنواع الشعر ، فوالله ما يلتئم لسان أحد أنه شعر ، ووالله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون .

فقال أبو ذر لأخيه : هل أنت كافيَّ حتى أنطلق ؟قال : نعم ، وكنْ من أهل مكة على حذَر ، فإنهم قد شنعوا له ، وتجمعوا له .

فتزود وحمل شنة له فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس رسول الله ﷺ ، وهو لا يعرفه ، واتبع نصيحة أخيه فى أن لا يسأل عنه ، وأن يحذر أهل مكة ، حتى أدركه بعض الليل ، فاضطجع لينام ، فرآه سيدنا على فعرف أنه غريب ، فدعاه إلى المبيت عنده ، فتبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، فلم ير النبى ﷺ ، حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمر به على فقال :

أما آن للرجل أن يعرف منزله ؟ وسار به إلى المنزل : لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء ، ومرّ اليوم الثالث على هذه الكيفية .

فلما كان فى البيت ، سأله على رضى الله عنه قائلا :

ألا تحدثنى بالذى أقدمك ؟

قال : إن أعطيتنى تعهدًا وميثاقًا لترشِدَننى ، فعلت .. ففعل ، فأخبره .

وفى الصباح ذهبا – على حذر – إلى رسول الله ﷺ ، وأخذ أبو ذر يستمع إلى القرآن الكريم ، فأسلم فى جلسته ، فقال له النبى ﷺ .

ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى ، فقال :

« والذى بعثك بالحق ، لأصرخَنَّ بها بين ظهرانيهم .. فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .. فقام إليه الحاضرون فاشتبكوا معه فى معركة حامية ، واستمروا به حتى رمَوْه أرضًا ، فأتى العباس وأنقذه منهم .. ولكنه عاد فى

الغد إلى مثلها ، وعادوا إلى مثل ما فعلوا ، وأنقذه من جديد العباس . وعاد أبو ذر إلى أخيه ؛ وأعلن إسلامه ، فأسلم أخوه ، وذهبا إلى أمهما فأعلنت إسلامها ، وأخذ أبو ذر يبشر بالإسلام فى قومه . رضى الله عنه .

قصة ضماد

كان ضماد رجلاً من أزد شنوءه ، تخصص فى معالجة الأمراض العقلية كان يعالج بالرقى ، ويعالج بالايحاء ، ويعالج باللمس والدعاء . وكانت مكانته فى ذلك الزمن مكانة من نسميهم نحن فى العصر الحاضر بالأطباء النفسيين ..

ويذكر الإمام مسلم ، والإمام البيهقى قصته : لقد قدم ضماد مكة ، وكان يرقى من هذه الرياح ، فسمع سفهاء مكة يقولون : إن محمدًا مجنون .

سمع هذا الخبر هنا ، وسمعه هناك ، وعلم من الجو الاجتماعى ، ومن الأخبار الكثيرة — أهمية محمد القصوى فى هذه المدينة .

وصدَّق ضماد الخبر ، واهتم به اهتمامًا كبيرًا ، وخُيِّلَ إليه أنه إذا عالجه فقد اكتسب شهرة ، واكتسب مثوبة ، فقال : أين هذا الرجل ، ثم يقول : لعل الله يشفيه على يدى ؟ فلقيتُ محمدًا فقلت : إنى أرقى من هذه الرياح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء ، فهلُمَّ .

أى أنه يدعوه إلى أن يستسلم له ليعالجه . فقال له رسول الله ﷺ :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يْهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا رسول الله .

وتعلقت عينا ضماد برسول الله ﷺ ، وأنصتت أذناه ، وكان كيانه كله مرهفًا مبهورًا . ثم قال :

والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت مثل هذه الكلمات ، ثم طلب من رسول الله ، ﷺ ، إعادتها ، وكان يسمع بجميع أقطاره .

ولم تكفه الإعادة ، فطلب من جديد أن يسمعها للمرة الثالثة ، ثم قال فور الانتهاء من سماعها :

هلم يدك أبايعْكَ على الإسلام ، فقد بلغت كلماتك هؤلاء ، قاموس البحر :

ومعنى أنها بلغت قاموس البحر أنها تغلغلت إلى أعمق أعماق نفسه ، وامتزجت ببطانه امتزاجًا كليًّا ، وذلك أن قاموس البحر هو أعمق مكان فيه .

ولم ينس المسلمون -- فيما بعد -- موقف ضماد هذا فكانوا إذا مرت جيوشهم على قوم ضماد أحسنوا إليهم وقالوا فى مودة : « إنهم قوم ضماد » .

وكثيرًا ما كانت تبلغ الدعوة إلى التوحيد قاموس البحر -- على حد تعبير ضماد -- فلا يبالى من آمن ، بإيذاء المشركين له فى نفسه أو ماله[1] .

وها هى ذى رواية أخرى عن إسلام ضماد تكمل ما سبق وتوضحه :

عن عبد الرحمن العدوى ، قال : قال ضماد : قدمت مكة معتمرًا ، فجلست مجلسًا فيه أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، فقال أبو جهل : هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وسفه أحلامنا ، وأضل من مات منا ، وعاب آلهتنا ، فقال أمية : الرجل مجنون من غير شك ، قال ضماد : فوقعت فى نفسى كلمته ، وقلت : إنى رجل أعالج من الريح ، فقمت من ذلك المجلس أطلب رسول الله ﷺ ، فلم أصادفه ذلك اليوم ، حتى كان الغد ، فجئته ، فوجدته جالسًا خلف المقام يصلى ، فجلست حتى فرغ ، ثم جلست إليه ، فقلت : يا ابن عبد المطلب . فأقبل علىَّ ، فقال : ما تشاء . فقلت : إنى أعالج من الريح ، فإن أحببت ، عالجتك ، ولا تكبرنَّ ما بك ، فقد عالجت من كان به أشد مما بك فبرأ ، وسمعت قومك يذكرون فيك خصالاً سيئة من : تسفيه أحلامهم ، وتفريق جماعتهم ، وتضليل من مات منهم ، وعيب آلهتهم ، فقلت : ما فعل هذا إلا رجل به جنة .. فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله : أحمده وأستعينه ، وأؤمن به

---

(١) عن ابن عباس قال : قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءه ، وكان يرقى من هذه الرياح ، فسمع سفهاء الناس يقولون :
إن محمدًا مجنون فقال : آتى هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى .
قال فلقيت محمدًا فقلت : إنى أرقى من هذه الرياح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء ، فهلم ، فقال محمد : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثلاث مرات .
فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلم يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال له : وعلى قومك ؟ فقال : وعلى قومى .
فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فمروا بقوم ضماد فقال صاحب الجيش للسرية : هل أصبتم من هؤلاء شيئًا ؟ فقال رجل منهم : أصبت منهم مطهرة ، فقال ردوها عليهم ، فإنهم قوم ضماد » رواه الإمام مسلم فى صحيحه .
وعن إسحاق بن إبراهيم ومحمد بن المثنى زاد فيه ابن المثنى : وأن محمدًا عبده ورسوله ، أما بعد .
وزاد أيضًا : « ولقد بلغن قاموس البحر » يريد كلماته .
أنبأنا ، أبو عبدالله الحافظ قال : حدثنا أبو عبدالله بن يعقوب بن يونس ، قال : حدثنى أبو محمد بن المثنى ، قال حدثنى عبد الأعلى فذكره بزيادته ومعناه ، وروى عن يزيد بن زريع عن داود بن أبى هند بزيادته .
وزيد أيضًا : و نؤمن بالله ونتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وأتوكل عليه ، مَنْ يهدِهِ الله أفلا مضلٌ له ، ومن يضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » .

قال ضماد فسمعت كلامًا لم أسمع كلامًا قط أحسن منه ، فاستعدته الكلام فأعاد عليٌ ، فقلت : إلامَ تدعو ؟ قال : إلى أن تؤمنَ بالله وحده لا شريك له ، وتخلعَ الأوثان من رقبتك ، وتشهد أنى رسول الله ، فقلت : فماذا لى إن فعلت ؟ قال لك الجنة ، قلت : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأخلُع الأوثان من رقبتى ، وأبرأ منها ، وأشهد أنك عبدالله ورسوله ، فأقمت مع رسول الله ﷺ ، حتى عُلِّمتُ سوَرًا كثيرة من القرآن ، ثم رجعت إلى قومى ، قال عبد اللهبن عبد الرحمن العدوى : فبعث رسول الله ﷺ ، عليَّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، فى سرية ، وأصابوا عشرين بعيرًا بموضع ، واستاقوها ، وبلغ عليٌّ بن أبى طالب أنهم قوم ضماد ، فقال : ردوها إليهم فَرُدَّت .

(النجاشى)

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن مسلم الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى، عن أم سَلَمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، زوج رسول الله ﷺ قالت:

« لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار : النجاشى ، أمِنًّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى :لا نُؤذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم : أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهْدُوا للنجاشى هدايا مما يُسْتَطْرَفُ من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، فجمعوا له أدما كثيرًا ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدّما إلى النجاشى هداياه ، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم ، قالت :فخرجا حتى قدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته ، قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد المَلِكَ منا غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلَّمنا الملكَ فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم .

فقالوا لهما : نعم ، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشى ، فقبلها منهما ، ثم كلّماه فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء : فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه : لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ؛ لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ، قالت : ولم يكن شىء أبغض إلى عبدالله بن ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشى ، فقالت بطارقته حوله : صدقا أيها الملك : قومهم أعلى بهم عينًا ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلِمهُم إليهما ، فليردُّوهم إلى بلادهم وقومهم ، قالت : فغضب النجاشى ، ثم قال :

الله !! إذن لا أسْلِمهُمْ إليهما ،ولا يكَادُ قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أَدْعُوَهُم ، فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

« حوار بين النجاشى وبين المهاجرين »

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما عِلْمنَا وما أمَرْنَا به نبينا ﷺ : كائنًا فى ذلك ما هو كائن ، فلما جاءوا – وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله – سألهم ، فقال لهم :

ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا : نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحِّدَه ونعبدَه ، ونخلعَ ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ؛ ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ..

قالت : فعدد أمور الإسلام – فصدقناه وآمنَّا به ، واتَبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نُشْرِك به شيئًا ، وحرَّمنا ما حرم علينا ، وأحلَلْنا ما أحل لنا ، فعَدَا علينا

قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحلَّ ما كنا عليه من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . قالت :

فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء ؟ قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال النجاشى فاقرأه على ، قالت : فقرأ عليه صدرًا من « كهيعص » . قالت :

فبكى والله النجاشى ، حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال النجاشى :

إن هذا والذى جاء به عيسى ، ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

قالت : فلما خرجا من عنده ، قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غدًا عنهم بما استأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة – وكان أنقى الرجلين فينا – لا تفعل فإن لهم أرحامًا ، وإن كانوا قد خالفونا ، قال :

والله لأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله ، قالت :
ثم غدا عليه من الغد .

فقال له : أيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولاً عظيمًا ، فأَرسِلْ إليهم فَسَلْهُم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم ، ليسألهم عنه . فقالت :

ولم ينزل بنا مثلها قط ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا :

نقول : – والله – (فيه) ما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنًا فى ذلك ما هو كائن .
قالت : فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قالت : فقال له جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ :

هو عبد الله ورسوله ، وروحه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، قالت :
فضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عودًا ثم قال :
والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود ، قالت :

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال .

وإن نخرتم .. والله ، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى – والشيوم : الآمنون – من سبكم غَرِم ، ثم قال :

من سبكم غَرِم ، ثم قال : من سبكم غَرِم : ما أحِبُّ أنَّ لى دبرا من ذهب ، وأنى آذيت رجلاً منكم .

قال ابن هشام :

ويقال دبرى من ذهب ، ويقال : فأنتم شيَوم ، والدبر بلسان الحبشة الجبل – ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها .. قالت :

فخرجا من عنده مقبوحَين ، مردودًا عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

« المهاجرون وانتصار النجاشى »

قالت : فوالله ، إنا على ذلك إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه فى ملكه ، قالت :

فوالله ، ما علمتُنَا حَزِنا حُزْنًا قط ، كان أشدَّ علينا من حُزْنٍ حَزِنَّاه عند ذلك ، تخوُّفًا أن يظهر وذلك الرجل على النجاشى ، فيأتى رَجلٌ لا يعرفُ من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه ، قالت :

وسار إليه النجاشى ، وبينهما عرض النيل (النيل الأزرق) .

قالت : فقال أصحاب رسول الله ﷺ :

من رجلٌ يخرج حتى يحضُرَ وقيعة القوم ، ثم يأتينا بالخبر ؟

قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا ..

قالوا : فأنت – وكان من أحدث القوم سنا – قالت : فنفخوا له قربة ،فجعلها فى صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم ، قالت : فدعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه ، والتمكين له فى بلاده ، قالت : فوالله إنا لَعَلَى ذلك متوقعون لما هو كائن ، إذ طلع الزبير ، وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول :

ألا أبشروا فقد ظَفِرَ النجاشى ، وأَهلَكَ الله عدوه ، ومكَّن له فى بلاده .

قالت : فوالله ما علمتنا فَرِحنا فرحةً قط مثلَها .

قالت : ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوَّه ، ومكّن له فى بلاده ، واستوثق عليه أمر الحبشة ، فكنا عنده فى خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ ، وهو فى مكة[1] .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

كان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة ، حتى أسلم عمر بن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه ، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة ، قال عبد الله بن مسعود :

إن إسلامَ عمر كان فتحًا ، وإن هجرته كانت نصرًا ، وإن إمارته كانت رحمة .

ولقد كنَّا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلَم عمر ، فلما أسلم ، قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه ، قال ابن إسحاق :

وكان إسلامُ عمر – فيما بلغنى – أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نُعيم بن عبد الله النَّحام من مكة ، رجل ، من بنى عدىّ بن كعب قد أسلم ، وكان أيضًا يستخفى بإسلامه فرقًا من قومه ، وكان خبَّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوما متوشحًا سيفه ، يريد رسول الله ، ﷺ ، ورهطا من أصحابه ، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ ، عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبى قُحافة الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نُعيم بن عبد الله ، فقال له :

أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمدًا هذا الصابئ ، الذى فرّق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله ، فقال له نعيم :

والله لقد غرتك نفسُك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمدًا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ . قال : وأى أهل بيتى ؟

(١) الروض الأنف جـ ٣ ص ٢٤٤ – ٢٤٩ .

قال : خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك : فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدًا على دينه ، فعليك بهما ، قال : فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بت الأرت-معه صحيفة ، فيها : « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب فى مخدع لهم – أو فى بعض البيت – وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهينمةُ[1] التى سمعت ؟

قال : ما سمعت شيئًا ؟

قال : بلى والله لقد أخْبِرتُ أنكما تابعتما محمدًا على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها ، فضربها فشجها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنهُ :

نعم قد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ، فلما رأى عمر ما بأخته من الدَّمِ ، ندم على ما صنع ، فارعوى ، وقال لأخته :

أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفًا : انظر ما هذا الذى جاء به محمد ؟ وكان عمر كاتبًا ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته :

إنا نخشاك عليها ؟

قال : لا تخافى ؛ وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها ، فلما قال ذلك ، طمعت فى إسلامه ، فقالت له :

يا أخى ، إنك نجس ، على شركك ، وإن لا يمسها إلا الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها : (طه) ، فقرأها فلما قرأ منها صدرًا ، قال : ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرَمَه !! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له :

يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خَصَّك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بنَ الخطاب ... فاللّهَ اللّهَ يا عمرَ ... فقال له عند ذلك عمر :

فدلنى يا خبَّابُ على محمد حتى آتيه ، فأسلم فقال له خباب :

هو فى بيت عند الصفا ، معه فيه نَفر من أصحابه .

---

(١) الهينمة : الصوت الخفى .

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عَمَدَ إلى رسول الله ﷺ ، وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، فنظر من خلال الباب ، فرآه متوشحًا السيف ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب :

فأذن له ، فإن كان يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ :

ائذنَ له . فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله ﷺ ، حتى لقيه فى الحجرة ، فأخذ بُحجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه[1] به جبذة شديدة ، وقال :

ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ، ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة . فقال عمر :

يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، قال : فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة ، عَرَف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ ، أن عمر قد أسلم .

وحديث إسلام عمر ، وإن كان من أحاديث السير ، فقد خرجه الدارقطنى فى سننه ، غير أنه خرج أيضًا من طريق أنس أن أخت عمر قالت له :

إنك رِجْسٌ ، ولا يمسه إلا المطهَّرون . فقم فاغتسل أو توضأ ؛ فقام فتوضأ ، ثم أخذ الصحيفة ، وفيها سورة طه .

ففى هذه الرواية : أنه كان وضوءا ، ولم يكن اغتسالا .

وفى رواية يونس : أن عمر حين قرأ فى الصحيفة سورة طه انتهى منها إلى قوله : ﴿لِتُجْزَى كل نفسٍ بما تسعى﴾[2] .

فقال : ما أطيب هذا الكلام وأحسنه ! وذكر هذا الحديث بطوله ، وفيه :

أن الصحيفة كان فيها مع سورة طه : ﴿إذا الشمس كُوِّرَت﴾ وأن عمر انتهى فى قراءتها إلى قوله : ﴿علمَتْ نفسٌ ما أحْضَرَتْ﴾[3] .

---

(١) جبذه : جذبه .

(٢) طه آية : ١٥ .

(٣) انظر الروض الأنف جـ ٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

عن عمر :

عن عبد الله بن هشام قال :

« كنا مع النبى ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر :

« يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى » ، فقال النبى ﷺ :

« لا ، والذى نفسى بيده ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك » ..

قال عمر : فأنت الآن – والله – أحبُّ إلىّ من نفسى ..

فقال النبى ﷺ : « الآن يا عمر »[١] ..

قال عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر »[٢]

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ قال لأصحابه العرب فى الشام – وهم كبار الصحابة ، وقادة الفتح الإسلامى ، وقد عابوه ببعض صنيعه – تواضعه – الذى لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة – : « إنكم كنتم أذلَّ الناس فأعزكم الله بالإسلام ، فمتى تطلبوا العز بغيره يذلكُم الله » ..

وكان عمر صاحب فراسة :

عن عبد الله بن عمر قال :

« ما سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لشىء قط : إنى لأظن كذا وكذا ، (إنى لأظنه كذا) إلا كان كما يظن » ..

وعن عبد الله بن عمر قال :

« ما سمعت عمر رضى الله عنه يقول لشىءٍ قط : « إنى لأظنه كذا » إلا كان كما يظن ، بينما كان عمر جالسًا إذ مر به رجل جميل فقال : لقد أخطأ ظنى ، أو أن هذا على دينه فى الجاهلية ، أو لقد كان كاهنهم ... علىَّ الرجل ، فَدُعى له ، فقال له عمر : لقد أخطأ ظنى ، أو إنك على دينك فى الجاهلية ، أو لقد كنت كاهنَهم .. فقال : ما رأيتُ كاليوم استُقْبِلَ به رجلٌ مسلم ، قال : فإنى أعزم عليك إلاَّ ما أخبرتنى .. قال : كنت كاهنَهم فى الجاهلية[٣] .

---

(١) الوفا جـ ١ ص ٣٨٢ .

(٢) البخارى فى الصحيح .

(٣) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٥ تحقيق عبد الرحمن عثمان ط : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

وعن ابن عمر قال :

بينما عمر رضى الله عنه جالس إذ رأى رجلا فقال : قد كنت مرة ذا فراسة ، وليس لى رأىٌ إن لم يكن قد كان هذا الرجل ينظر ويقول فى الكهانة ، ادعوه لى ، فدعَوْه ، فقال : من أين قدمت ؟ .. قال : من الشام .. قال : فأين تريد ؟ .. قال : أردت هذا البيت ولم أكن أخرج حتى آتيَك ، فقال عمر : ألا تخبرنى عن شيء أسألك عنه ؟ .. قال : بلى .. قال : هل كنت تنظر فى الكهانة شيئًا ؟ .. قال : نعم ..

عبد الله بن سلام

عن يحيى بن عبد الله ، عن رجل من آل عبد الله بن سلام ، قال :

كان من حديث عبد الله بن سلام حين أسلم ، وكان حَبرًا عالمًا قال :

لما سمعت رسول الله ﷺ ، وعرفت صفته واسمه وهيئته ، والذى كنا نتوقف له ، فكنت مُسرًا لذلك ، صامتًا عليه ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف ، فأقبل رجل منى حتى أخبر بقدومه ، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة . فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ ، كبَّرْت ، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زاد ؟ قال قلت : لها أى عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه : بعث بما بعث به ، قال فقالت : يا ابن أخى ، أهو النبى الذى كنا نُخْبَر به ، أنه يُبْعَثُ مع بَعث الساعة قال : قلت لها نعم ، قالت : فذاك إذًا .. قال : ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ ، فأسلمت ثم رجعتُ إلى أهل بيتى فأمرتهم ، فأسلموا ، وكتمت إسلامى من اليهود ، ثم جئتُ رسول الله ﷺ ، فقلت :

إن اليهود قوم بُهتٌ ، وإنى أحب أن تُدخِلنى فى بعض بيوتك : تغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنّى ؛ فيخبرونك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامى ؛ فإنهم إن علموا بذلك ، بهتونى وعابونى ، قال : فأدخلنى بعض بيوته ، فدخلوا عليه فكلموه ، وسألوه ، قال لهم : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، وابن سيدنا ، وحَبْرُنا ، وعالمنا .

قال : فلما فرغوا من قولهم ،خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة ،

اسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله ، وأؤمن به ، وأصدقه وأعرفه ، قالوا : كذبت .. ثم وقعوا فيّ .

قال : فقلت يا رسول الله ، ألم أخبرك أنهم قوم بُهْتٌ ؟ أهل غدر ، وكذب ، وفجور ؟ قال: فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمتْ عمتى ابنة الحارث فحسن إسلامها »[1] .

❑❑❑

وهذه رواية أخرى عن إسلام عبد الله بن سلام لا تناقض الأولى وإنما تؤيدها وتفسرها .

سمع به (برسول الله ﷺ) عبد الله بن سلام وهو فى نخل لأهله يخترف لهم[2] منه ، فعجل أن يضع التى يخترف[3] فيها ، فجاء ، وهى معه فسمع من نبى الله ﷺ ، ثم رجع إلى أهله فقال نبى الله ﷺ : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ قال : فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى ، وهذا بابى . فقال : اذهب فهيئ لنا مقيلا ، فذهب فهيأ لهما مقيلا ثم جاء فقال : يا نبى الله ، قد هيأت لكما مقيلاً ، قومًا على بركة الله فقيلا .

قال : فلما جاء نبى الله ﷺ ، جاء عبد الله بن سلام رضى الله عنه : فقال :

أشهد أنك رسول الله حقًا ، وإنك جئت بحق ، ولقد علمتْ يهود أنى سيدُهم ، وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فسَلْهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ؛ فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت ، قالوا فيّ ما ليس فيّ ، فأرسل نبى الله ﷺ إليهم ، فدخلوا عليه ، فقال لهم نبى الله ﷺ : يا معشر يهود ، ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقًّا ، وإنى جئتكم بحق ، أسلموا !!

قالوا : ما نعلمه ، فأعاد ذلك عليهم ثلاثًا ، ثم قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذلك سيدنا ، وابن سيدنا ، وأعلمنا ، وابن أعلمنا .

قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاش لله ، ما كان ليسلم .

قال : يا ابن سلام ، أخرج عليهم ! فخرج عليهم ، فقال : يا معشر يهود ، ويلكم ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقًا ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : « كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ[4] .

---

(١) انظر دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٣ .
(٢) اخترف التمر : جناه .
(٣) الآنية التى يجنى فيها الثمر .
(٤) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

وعن الترمذى وابن نافع وغيرهما بأسانيدهم : أن عبد الله بن سلام قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب[1] .

❑❑❑

زيد بن سعنة وعلامات النبوة

قال عبد الله بن سلام : إن الله عز وجل ، لما أراد هدى زيد بن سعنة ، قال زيد بن سعنة : إنه لم يبق من علامات النبوة شيء ، إلا وقد عرفتها فى وجه محمد ﷺ ، حين نظرت إليه ، إلا اثنتين لم أخبُرْهُمْا منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا ، فكنت أتلطف له ، لأن أخالطه فاعرف حلمه وجهله . قال : فخرج رسول الله ﷺ ، يومًا من الحجرات ومعه على بن أبى طالب ، فأتاه رجل على راحلته كالبدوى . فقال : يا رسول الله ، إن قرية بنى فلان قد أسلموا ودخلوا فى الإسلام ، فكنتُ حدثتهم : أنهم – إن أسلموا – أتاهم الرزق رغدا ، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث . وإنى أخشى يا رسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به ؟ قال فنظر رسول الله ﷺ ، إلى رجل إلى جانبه أراه عليًّا ، فقال : ما بقى منه شيء يا رسول الله ، قال زيد بن سعنة : فدنوت إليه ، فقلت له يا محمد ، هل لك أن تبيعنى تمرًا معلومًا من حائط بنى فلان إلى أجل كذا وكذا ؟ فقال : لا يا يهودى ، ولكن أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجل كذا وكذا ، ولا أسمى حائط بنى فلان . قال فقلت نعم ، فبايَعنى فأطلقت هميانى فأعطيته ثمانين مثقالا ، من ذهب فى تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا ، فأعطى الرجل ، وقال : اعجل عليهم وأغثهم بمالِ زيد بن سعنة ، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، فخرج رسول الله ﷺ ، فى جنازَة رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فى نفر فى أصحابه ، فلما صلى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس إليه ، أتيته فأخذت بجوامع **قميصه** وردائه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : ألا تقضينى يا محمد حقى ، فوالله ، **ما علمتكم** يا بنى عبد المطلب إلا لمطل ، وقد كان لى بخالطتكم علم ، قال فنظر إلىَّ عمر بن **الخطاب** وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ، ثم رمانى بطرفه وقال : يا عدوَّ الله ، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع ؟ وتفعل به ما أرى ؟ فوالذى بعثه بحق ، لولا ما أحاذر قوته ، لضربت بسيفى رأسك : ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى سكون وتؤدة وتبسم . ثم قال : أنا وهو كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التقاضى : اذهب به يا عمر فاقضِهِ حقه ، وزده عشرين صاعًا مكان ما رعته .

---

[1] الشفاء ص ٢٠٧ .

قال زيد فذهب بى عمر فقضانى حقى ، وزادنى صاعًا من تمر ، فقلت ما هذه الزيادة ؟ فقال أمرنى رسول الله ﷺ ، أن أزيدك ، مكان ما رعتك ، فقلت : أتعرفنى يا عمر ؟ قال : لا ، فمن أنت ؟ فقلت : أنا زيد بن سعنة ، قال : الحَبر .. قلت : الحبر . قال فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت ، وتفعل به ما فعلت ؟ قلت يا عمر ، كل علامات النبوة قد عرفت فى وجه رسول الله ﷺ ، حين نظرت إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا . فقد اخبْرتُهما . فأشهدك يا عمر أنى قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيا ، وأشهدك أن شطر مالى – فإنى أكثرها مالاً – صدقةٌ على أمة محمد ﷺ ، فقال عمر أو على بعضهم ، فإنك لا تسعهم كلهم : قلت : أو على بعضهم . قال : فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ ، فقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، فآمن به وصدقه وتابعه ، وشهد مع رسول الله ﷺ ، مشاهد كثيرة . ثم قتل فى غزاة تبوك : شهيدًا مقبلاً غير مدبر رحمه الله .

سلمان الفارسى رضى الله عنه

عن محمد بن إسحاق قال : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد ، عن ابن **عباس قال** : حدثنى سلمان الفارسى قال :

كنت رجلاً من أهل فارس ، من أهل أصبهان من قرية يقال لها : « جى » ، وكان أبى **دهقان** أرضه[1] ، وكان يحبنى حبا شديدًا : لم يحبه شيئًا من ماله ولا ولده . فمازال به حبه إياى حتى حبسنى فى بيت كما تحبس الجارية ، واجتهدت فى المجوسية ، حتى كنت قاطن النار الذى يوقدها ولا يتركها تخبو ساعة ، فكنت كذلك : لا أعلم من أمر الناس شيئًا إلا ما أنا فيه ، حتى بنى أبى بُنيانًا له ، وكانت له ضيعة فيها بعض العمل ، فدعانى فقال : أى بنى ، إنه قد شغلنى ما ترى من بنيانى عن ضيعتى هذه ، ولابد من اطلاعها ، فانطلقْ إليها ، فمرهم بكذا وكذا ، ولا تحتبس عنى ، فإنك إن احتبست عنى ، شغلتنى عن كل شىء ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا هؤلاء النصارى يصلون ، فدخلت أنظر ، فأعجبنى ما رأيت من حولهم ، فوالله مازلت جالسًا عندهم حتى غربت الشمس ، وبعث أبى فى طلبى فى كل وجه حتى جئته حين أمسيت ، ولم أذهب إلى ضيعته ، فقال أبى : أين كنت ؟ ألم أكن قلت لك لا تحتبس عنى ، فقلت :

---

(١) أى سيد أهل بلده ص ٣٥٨ دلائل النبوة .

يا أبتاه ! مررت بناس يقال لهم : النصارى ، فأعجبنى صلاتهم ودعاؤهم فجلست أنظر كيف يفعلون ؟

فقال : أى بنى ، دينك ودين آبائك خير من دينهم .

فقلت : لا والله ، ما هو بخير من دينهم ، هؤلاء قوم يعبدون الله ، ويدعونه ويصلون له : ونحن إنما نعبد نارًا نوقدها بأيدينا ، إذا تركناها ماتت فخافنى ، فجعل فى رجلى حديدًا ، وحبسنى فى بيت عنده ، فبعثت إلى النصارى ، فقلت لهم :

أين أصلُ هذا الدين الذى أراكم عليه ؟ فقالوا : بالشام ، فقلت : فإذا قدم عليكم من هناك ناس فأذنونى ، فقالوا : نفعل ، فقدم عليهم ناس من تجارهم ، فبعثوا إلى أنه قد قدم علينا تجار من تجارنا فبعثت إليهم إذا قضوا حوائجهم وأرادوا فأذنونى بالخروج فقالوا : نفعل ، فلما قضَوْا حوائجهم وأرادوا الرحيل ، بعثوا إلىّ بذلك ، فطرحت الحديد الذى فى رجلى ، ولحقت بهم ، فانطلقت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها سألت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ فقالوا : الأسقف صاحب الكنيسة ، فجئته ، فقلت له : إنى أحببت أن أكون معك فى كنيستك ، وأعبد الله فيها معك ، وأتعلم منك الخير ، قال : فكن معى . قال : فكنت معه ، وكان رجل سوء : كان يأمرهم بالصدقة ، ويرغبهم فيها ، فإذا جمعها إليه اكتنزها ولم يعطها المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، فأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيت من حاله ، فلم ينْشَبْ أن مات ، فلما جاءوا ليدفنوه قلت لهم : إن هذا رجلُ سوء ، وكان يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ، حتى إذا جمعتموها إليه ، اكتنزها ولم يعطها المساكين فقالوا : وما علامة ذلك ؟ فقلت : أنا أخرج لكم كنزها ، فقالوا : فهاته ؛ فأخرجت لهم سبع قلال مملوءة ذهبًا وَوَرِقًا ، فلما رأوا ذلك . قالوا : والله لا يدْفَنْ أبدًا . فصلبوه على خشبة ورموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه فلا والله – يا ابن عباس – ما رأيت رجلاً قط لا يصلى الخمس ، أرى أنه أفضل منه وأشد اجتهادًا ولا زهادة فى الدنيا ، ولا أدأب ليلاً ونهارًا منه ، ما أعلمنى أحببت شيئًا قط قبله حبه ، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة ، فقلت : يا فلان قد حضرك ما ترى من أمر الله ، وإنى والله ما أحببت شيئا قط حبك ، فماذا تأمرنى ؟ وإلى من توصينى ؟ فقال لى : أى بنى ، والله ما أعلمه إلا رجلاً بالموصل فأته ، فإنك ستجده على مثل حالى ، فلما مات وغيب ، لحقت بالموصل فأتيت صاحبها فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهادة فى الدنيا ، فقلت له : إن فلانًا أوصى بى إليك أن آتيك وأكون معك ، قال : فأقم أى بنى ، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة ، فقلت له : إن فلانًا أوصى بى إليك وقد حضر لك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصينى ؟

قال : والله ما أعلمه أى بنى ، إلا رجلاً بنصيبين ، وهو على مثل ما نحن عليه فألحق به ، فلما دفناه لحقت بالآخر ، فقلت له : يافلان ، إن فلانًا أوصى بى إلى فلان وفلان أوصا بى إليك ، قال ، فأقم يا بنى ؟

فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضرته الوفاة : فقلت له : يافلان ، إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى ، وقد كان فلان أوصى بى إلى فلان ، وأوصى بى فلان إلى فلان ، وأوصى بى فلان إليك ، فقال : أى بنى ، والله ما أعلم أحدًا على مثل ما نحن عليه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم ، فأته ، فإنك ستجده على مثل ما كنا عليه ، فلما واريته خرجت حتى قدمت على صاحب عمورية ، فوجدته على مثل حالهم ، فأقمت عنده واكتسبت حتى كانت لى غُنيمَةٌ وبقرات ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت : يافلان إن فلانًا (كان) أوصى بى إلى فلان ، وفلان إلى فلان ، وفلان إليك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله (تعالى) فإلى من توصينى ؟ قال : أى بنى ، والله ما أعلمه بقى أحد على مثل ما كنا عليه ، آمرك أن تأتيه .. ولكنه قد أظلك زمانه نبى يُبْعَثُ من الحرم ، مهاجره بين حَراتين إلى أرض سبخة ذات نخيل ، وإن فيه علامات لا تخفى : بين كتفيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل ، فإنه قد أظلك زمانه .

فلما واريناه ، أقمت حتى مر بى رجال من تجار العرب من كلب ، فقلت لهم تحملوننى معكم إلى أرض العرب ، وأعطيكم غُنَيْمَتى هذه وبقراتى ؟ قالوا نعم ، فأعطيتهم إياها وحملونى ، حتى إذا جاءوا بى وادى القرى ، ظلمونى فباعونى عبدًا من رجل من يهود بوادى القرى ، فوالله ، لقد رأيت النخل وطمعت أن يكون البلد الذى نُعِتَ لى من صاحبى ، وما حقت عندى حتى قدم رجل من بنى قريظة من وادى القرى ، فابتاعنى من صاحبى الذى كنت عنده ، فخرج بى حتى قدم بى المدينة فوالله ، ما هو إلا أن رأيتها فعرفت نعتها ، فأقمت فى رقى مع صاحبى ، وبعث الله رسوله ﷺ بمكة ، لا يذكر لى شىء من أمره ، مع ما أنا فيه من الرق ، حتى قدم رسول الله ﷺ قباء وأنا أعمل لصاحبى فى نخلة له ، فوالله إنى لفيها إذ جاء ابن عم له فقال : يافلان ، قاتل الله بنى قيلة[1] والله ، إنهم – الآن – لفى قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة ، يزعمون أنه نبى ، فوالله ، ما هو إلا أن سمعتهما ، فأخذتنى العرواء – يقول الرعدة – حتى ظننت لأسقطَنَّ على صاحبى ، ونزلت أقول : ما هذا الخبر ؟ . ما هو ؟ فرفع مولاى يده فلكمنى لكمة شديدة ، وقال : مالك ولهذا ؟ أقبلْ على عملك ، فقلت : لا شىء ، إنما سمعت خبرًا فأحببت أن أعلمه ، فلما أمسيتُ –

---

(١) هم الأوس والخزرج ص ٣١٢ دلائل النبوة .

وكان عندى شىء من طعام - فحملته وذهبت إلى رسول الله ﷺ ، وهو بقباء ، فقلت : إنه (قد) بلغنى أنك رجل صالح ، وأن معك أصحابًا لك غرباء - وقد كان عندى شىء من الصدقة . فرأيتكم أحقَّ مَن بهذه البلاد به ، فها هو ذا فكلْ منه ؟ . فأمسك رسول الله ﷺ يده ، وقال لأصحابه : كلوا ، ولم يأكل ، فقلت - فى نفسى - هذه خلة مما وصف لى صاحبى ، ثم رجعت ، وتحول رسول الله ﷺ ، إلى المدينة ، فجمعت شيئا كان عندى ثم جئته به ، فقلت : إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية وكرامة ليست بالصدقة ، فأكل رسول الله ﷺ وأكل أصحابه ، فقلت : هذه خلتان ، ثم جئت رسول الله ﷺ ، وهو يتبع جنازة وعلىَّ شملتان لى ، وهو فى أصحابه ، فاستدرت به لأنظر إلى الخاتم فى ظهره ، فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته ، عرف أنى استثبت شيئا قد وصفَ لى ، فوضع رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه ؛ كما وصف لى صاحبى ، فأكببت عليه أقبله وأبكى ، فقال لى : تحول يا سلمان ، هكذا .. فتحولت فجلست بين يديه ، وأحب أن يسمع أصحابه حديثى عنه ، فحدثته يا ابن عباس كما حدثتك ، فلما فرغت ، قال يا رسول الله ﷺ : كاتب يا سلمان صاحبى على ثلثمائة نخلة أحييها ، وأربعين أوقية ، وأعاننى أصحاب رسول الله ﷺ بالنخل : الرجل بثلاثين ودية[1] وعشرين ودية وعشر ، كل رجل منهم على قدر ما عنده ، فقال لى رسول الله ﷺ فقر[2] لهما ، فإذا فرغت فآذنى ، حتى أكون أنا الذى أضعها بيدى ، ففقرتها وأعاننى أصحابى - يقول : حفرت لها حيث توضع - حتى فرغنا منها ، ثم جئت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، قد فرغنا منها فخرج معى حتى جاءها ، وكنا نحمل إليه الودى ، ويضعه بيده ويسوى عليها ، فوالذى بعثه بالحق ، ما ماتت منها ودية واحدة ، فأديت النخل وبقيت على الدراهم . فأتاه رجل من بعض المعادن بمثل البيضة من الذهب ، فقال رسول الله ﷺ : أين الفارسى المسلم المكاتب ؟ فَدُعِيت له فقال : هذه يا سلمان ، فأدها مما عليك ، فقلت : يا رسول الله ، وأين تقع هذه مما على ؟ قال فإن الله تعالى سيؤدى بها عنك ، فوالذى نفس سلمان بيده ، لَوَزَنتُ لهم منها أربعين أوقية فأديتها إليهم ، وكان الرق قد حبسنى ، حتى فاتنى مع رسول الله ﷺ : « بَدْرٌ » و « أُحُدٌ » ، ثم عُتِقْتُ ، فشهدْت : الخندق ، ثم لم يفتنى معه مشهد »[3] ا . هـ .

وقال النضر بن الحرث لقريش : قد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا أرضاكم فيكم ،

---

(١) الودية بكسر الدال وتشديد الياء الفسيلة الصغيرة .

(٢) فقر بتشديد القاف : حفر لزرع مسائل النخل .

(٣) راجع النص فى دلائل النبوة جـ ١ من ص ٣٥٨ إلى ٣٦٤ .

وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر[1] .

أخرج الواحدى ، عن مقاتل ، قال :

كان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، يكذب النبى ﷺ فى العلانية ، فإذا خلا مع أهل بيته ، قال : ما محمد ﷺ من أهل الكذب ، ولا أحسبه إلا صادقًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿قد نعلَم إنَّه لَيَحزُنُك الذى يقولون فإنهم لا يُكَذبونك﴾[2] .

عن أنس بن مالك ، قال :

« بينما نحن جلوس مع النبى – ﷺ – فى المسجد ، دخل رجل على جمل ، فأناخه فى المسجد ، ثم عقله ، ثم قال لهم : أيكم محمد ؟ .. والنبى ﷺ متكئ بين ظَهْرانيهم ، فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكئ .. فقال له الرجل : ابن عبد المطلب ؟ .. فقال النبى – ﷺ – قد أجبتك ، فقال الرجل للنبى – ﷺ – : إنى سائلك ، فمشدد عليك فى المسألة ، فلا تجد على فى نفسك ،

فقال سل عما بدا لك .. فقال : أسألك بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ .. فقال : اللهم نعم ..

قال : أنشُدُكَ بالله ، آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة ؟ .. قال : اللهم نعم .

قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال : اللهم نعم ..

قال : أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقَةَ من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ .. فقال النبى – ﷺ – اللهم نعم .

فقال الرجل : آمنتُ بما جئت به ، وأنا رسولٌ ، من ورائى قومى وأنا ضمِام بن ثعلبة : أخو بنى سعد بن بكر » .

❑❑❑

---

(١) الشفاء ص ١٠٥ وروى هذا بصورة أكثر استفاضة وإن كان الجوهر واحدًا .
(٢) الأنعام : آية ٣٣ .

﴿لكــن الله يشهد بما أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الحادي عشر عن :

مواقف

مواقف[1]

- ١ -

الجهر بالدعوة

عن ابن عباس قال : لما أنزلت : ﴿وأَنْذِرْ عشيرتَك الأقربين﴾[2] . صَعَد رسول الله ﷺ ، على الصفا فقال : « يا معشَر قُريش » . فقالت قريشٌ : محمد على الصفَا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا : ما لك يا محمد ؟ قال :

« أرأيتُكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونى » ؟ قالوا : نعم . أنت عندنا غيرُ متهم ، وما جربنا عليك كذبًا قط ، قال :

« فإنى نذيرٌ لكم بين يَدىْ عذابٍ شديد ، يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زُهرة ، حتى عدد الأفخاذ من قريش :

« إن الله أمرنى أن أنذِرَ عشيرتى الأقربين . وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعةً ، ولا من الآخرة نصيبًا ، إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله »[3] .

□□□

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قام رسول الله ﷺ ، حين أنزل الله عز وجل : ﴿وأنذِرْ عشيرتَك الأقربين﴾ قال : يا معشر قريش ، أو كلمة نحوها : اشترُوا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئًا ، يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئًا . ويا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت محمد[4] سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئًا »[5] . ا هـ .

---

(١) هذه المواقف التى نذكرها هنا تبين اليقين المطلق عند الرسول صلى الله عليه وسلم برسالته ، وتبين قوة ثقة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسول ، وقوة إيمانهم بالرسالة ، وهى إجابة عن سؤال هرقل : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

(٢) الشعراء : آية ٢١٤ .

(٣) الطبقات : ١٨٤ .

(٤) صلى الله عليه وسلم كذا فى اليونانية من غير رقم لا تصحيح .

(٥) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٧ - ٨ جـ ١ الشعب .

الاستمرار في الدعوة :

تتحدث كتب السيرة عن سَعْى قريش إلى أبى طالب ؛ لينهى محمدًا ﷺ ، عن الاستمرار فى الدعوة .

ولما التقى القريشون به ، قالوا : يا ابا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتَنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آباءَنا ، فإما أن تكُفَّه عنا ، وإما أن تخلىَ بيننا وبينه - فإنك على مثل ما نحن عليه من خِلافه - فنكفيكه ؟ قال لهم أبو طالب ، قولاً رفيقًا ، وردهم ردًا جميلاً فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ﷺ ، على ما هو عليه : يظهر دين الله ، ويدعو إليه ، ثم شرى الأمر بينه وبينهم ، حتى تباعد الرجال ، وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها ، فتذامروا فيه ، وحضّ بعضهم بعضًا عليه ، ثم إنهم مشَوْا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنا ، وإنا والله ، لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفَّه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلِكَ أحدُ الفريقين ، أو كما قالوا له . ثم انصرفوا عنه . فعظم على بن أبى طالب فراقُ قومه وعداوتهم ولم يَطِبْ نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه .

❑❑❑

فبعث إلى رسول الله ، ﷺ فقال له : يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءنى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى كانوا قالوا له ، فأبْقِ علىَّ ، وعلى نفسك ، ولا تحمّلْنى من الأمر ما لا أطيق :

فظن رسول الله ، ﷺ ، أنه قد بدا لعمِّه فيه بُدُو ، وأنه خاذله ومسلمُهُ ، وأنه قد ضعف عن نُصرته والقيام معه ، قال رسول الله : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته » .

قال : ثم استعبر رسول الله ﷺ ، فبكى ، ثم قام ، فلما ولىّ . ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخى ، قال : فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال : اذهَبْ يا ابن أخى ، فقل ما أحببتَ ، فوالله ، لا أسلِمُك لشىءٍ أبدًا .

الرسول ﷺ فى الطائف :

لما تُوُفِّى أبو طالب ، اجترأت قريش على رسول الله ﷺ ونالت منه ، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة ، وذلك فى ليالٍ بقية من شوال سنة عشر من حين نُبىء رسول الله ﷺ . فأقام بالطائف عشرة أيام : لا يدَع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه ، ومحمد دعاهم إلى الإسلام أخوة ثلاثة ، وهم سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم عبد ياليل ، ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله ، وكلمهم لما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال أحدهم : هو — يعنى نفسه — يَمْرُط ثيابَ الكعبة إن كان الله أرسلك : وقال الآخر : أما وجد الله أحدًا أرسله غيرك ؟ . وقال الثالث : والله ، لا أكلمك أبدًا .. لئن كنتَ رسولا من الله — كما تقول — لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف .. وأغْروا به سفهاءهم وعبيدَهم : يسبونه ويصيحونه به ، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه .

فَعَمَد إلى ظل حُبلة[1] من عنب فجلس فيه ، وابنا ربيعة : ينظران إليه ، ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن قال فيما ذكر : « اللهم إليك أشكو ضَعْف قوّتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيدٍ يتجهمنى ، أم إلى عدو ملّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى .. ولكن عافيتك هى أوسعُ لى ، أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات ، وصلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنزلَ بى غضبَك أو يحّل على سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوة إلا بك »[2] .

فلما رأى ابنا ربيعة : عتبةُ وشيبةُ ما لَقى ، دعَوَا غلامًا لهما نصرانيا يقال له : عدَّاس فقالا له : خذ قِطْفًا من هذا العنب ، فضَعه فى ذلك الطبق ، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجل ، فقل

---

(١) الحبلة : الكرمة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ ٢ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ط الحلبى .

له يأكلُ منه ففعل ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده ، قال : بسم الله ، ثم أكل .

فنظر عَدَّاس إلى وجهه ، ثم قال : والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذا البلد .

فقال له رسول الله ﷺ : ومن أى البلاد أنت ؟ وما دينك ؟

قال : أنا نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال له رسوله الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى ؟

قال : ذاك أخى ، كان نبيًا ، وأنا نبىّ .

فأكب عدَّاس على رسول الله ﷺ ، فقبل رأسه ويديه ورجليه .

قال : يقول ابنا ربيعة : أحدهما لصاحبه :

أما غلامُك ، فقد أفْسَدَهُ عليك .

فلما جاءهما عدَّاس قالا له : ويلك ياعدَّاس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدى ما فى الأرض خيرٌ من هذا الرجل . لقد أخبرنى بأمرٍ لا يعلمه إلا نبى[1] .

— ٤ —

أشجع الناس :

عن أنس رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ أحسنَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ليلة ، فخرجوا نحو الصوت ، فاستقبلهم النبى ﷺ ، وقد استبرأ الخبر ، وهو على فرسٍ لأبى طلحة عُرْىٍ ، وفى عُنقه السيف ، وهو يقول : لم تُراعوا ، لم تُراعوا .

ثم قال : وجدناه بحرًا ، أو قال : إنه لبحر »[2] .

— ٥ —

فاطمة رضى الله عنها :

أخبر علىّ أن فاطمة عليها السلام ، اشتكت ما تلقَى من الرَّحى ، مما تطحن ، فبلغها أن رسول الله ﷺ ، أُتىَ بِسَبْىٍ ، فأتته تسألُه خادمًا ، فلم توافقه ، فذكرت لعائشة ، فجاء النبى

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٢١٣ ، ٢١٤

(٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٤٧ .

ﷺ ، فذكرت ذلك عائشة له ، فأتانا ، وقد دخلنا[1] مضاجَعَنا ، فذهبنا لنقوم ، فقال مكانكما ، حتى وجدت برْد قدَميه على صدرى ، فقال :

ألا أدلكما على خيرٍ مما سألتماه : إذا أخذتمـا مضاجعكمـا ، فكبرا الله أربعًا وثـلاثين ، وأحمداه ثلاثًا وثلاثين ، وسبحاه ثلاثا وثلاثين . فإن ذلك خيرٌ لكما مما سألتماه »[2] .

— ٦ —

فى حفر الخندق :

عن أنس رضى الله عنه قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة ، وينقُلون التراب على متونهم (ظهورهم) ، ويقولون :

نحـن الذيـــن بايعـوا محمدًا   على الجهـاد[3] مـا بقينا أبدًا

والنبى ﷺ يجيبهم ويقول : « اللهم إنه لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة : فبارك فى الأنصار والمَهاجِرة »[4] .

❑❑❑

عن البراء رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ ، يوم الأحزاب ، ينقل التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول :

اللهم لو لا أنتَ ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن[5] سكينة علينا ، وثبت الأقدامَ إن لاقينا . إن الألَى قد بَغَوْا علينا ، إذا أرادُوا فتنْةً أبَيْنَا »[6] .

— ٧ —

الله المانع :

عن جابر بن عبد اللهِ قال : غزونا مع رسول الله ﷺ ، قبل نجد ، فلما قفل رسول الله ﷺ ، قَفَلْتُ معهم ، فأدركتْه القَائلة فى وادٍ كثير العضاه[7] ، فنزل أصحاب رسول الله ﷺ ، تحت الشجرة ، ونزل رسول الله ﷺ ، تحت سَمُرة ، فعلَّق بها سيفه .

(١) أخذنا .
(٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٢٠ ط .
(٣) وفى رواية : على الإسلام .
(٤) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣١ ط الشعب .
(٥) فأنزل السكينة .
(٦) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣١ ط الشعب .
(٧) العضاه : شجر عظيم له شوك .

قال جابر : فنمنا نومة ، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فجئناه ، فإذا أعرابى عنده جالس ، فقال رسول الله ﷺ :

إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم ، فاستيقظتُ وهو فى يده صَلْتا[1] . فقال لى : من يمنعك منى ؟ قلت : الله ، وها هو ذا جالس ، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ [2] .

– ٨ –

ابن مظعون يؤثر جوار الله :

لما رأى عثمان بن مظعون . ما فيه أصحاب رسول الله ، ﷺ من البلاء ، وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله ، إنّ غدوِّى ورَواحى آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك – وأصحابى ، وأهل دينى يلقون من البلاء والذى فى الله مالا يصيبنى – لنقصٌ كبير فى نفسى ، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا ابا عبد شمس ، وفَتْ ذمَّتُك ، قد رددتُ إليك جوارَك . فقال له : لِمَ يا ابن أخى ؟ لعله آذاك أحدٌ من قومى ؟ قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا اريد أن أستجير بغيره ؟

قال : فانطلِقْ إلى المسجد فارددْ علىَّ جوارى علانية ، كما أجرتُك علانية . قال : فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى .

قال : صدق ، قد وجدتُه وفيًّا كريم الجوار ، ولكنى قد أحببت أن لا أستجير بغير الله ؛ فقد رددتُ عليه جواره ، ثم انصرف عثمان ، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب فى مجلس من قريش يُنشدهم ، فجلس معهم عثمان ، فقال لبيد : « ألا كل شىء ما خلا الله باطل » .

قال عثمان : صدقت ، قال :

« وكل نعيم لا محالةَ زائل »

قال عثمان : كذبت ، نعيمُ الجنة لا يزول .

قال لبيد بن ربيعة : يا معشر قريش ، والله ما كان يؤذىَ جليسُكم ، فمتى حَدَث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفيهٌ فى سُفهاءَ معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تَجِدنَّ فى

---

(١) صلتا : مجردًا من غمده ، بمعنى مصلت .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى ﷺ جـ ١ ص ٣٢٦ والحديث أخرجه البخارى ومسلم .

نفسك من قوله ، فردّ عليه عثمان حتى شَرِى أمرهما ، فقام إليه ذلك الرجل ، فَلَطمَ عينه ، فخضرها ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال :

أما والله يا ابن أخى ، إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

قال يقول عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما اصاب اختها فى الله . وإنى لفى جوار هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس ، فقال له الوليد : هلم يا ابن أخى ، إن شئت فعدْ إلى جوارى ، فقال : لا »[1] .

— ٩ —

أبو بكر رضى الله عنه وابن الدغنة :

التقى ابن الدَّغْنة ، بأبى بكر فى الطريق خارج مكة ، فقال ابن الدغنة : أين يا ابا بكر ؟ قال : أخرجنى قومى وآذَونى ، وضيَّقوا علىّ .

قال : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتُعين على النوائب ، وتفعلُ المعروف ، وتكسب المعدم ، ارجع وأنت فى جوارى ، فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة ، قام ابن الدغنة فقال :

يا معشر قريش ، إنى قد اجرتُ ابن ابى قحافة ، فلا يعرضَنَّ له أحد إلا بخير : فكفوا عنه ، وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جُمح ، فكان يصلى فيه ، وكان رجلاً رقيقا ، إذا قرأ القرآن استبكى . قالت : فيقف عليه الصبيان ، والعبيد والناس ، يعجبون لما يرون من هيئته . فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة ، فقالوا له :

يا ابن الدغنة ، إنك لم تجر هذا الرجل ، ليؤذَينا .. إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يَرق ويبكى ، وكانت له هيئة ونحْو (مظهر كريم) فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأتِه فُمرهُ أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء .

فمشى ابن الدغنة إليه ، فقال له : يا أبا بكر ، إنى لم أجرك لتؤذىَ قومَك إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخُل بيتك ، فاصنع فيه ما أحببت ، قال :

أوَ أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله ؟ قال : فاردُد علىّ جوارى : قال : قد رددتُه عليك ، قالت : فقام ابن الدّغنة . فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أبى قحافة قد ردّ علىّ جوارى ، فشأنكم بصاحبكم . قال ابن اسحاق : وحدثنى عبد الرحمن بن القاسم : عن أبيه

---

(١) الروض الأنف جـ ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

القاسم بن محمد قال : لقيه سفيه من سفهاء قريش ، وهو عامد إلى الكعبة ، فحثا على رأسه ترابًا ، قال : فمرّ بأبى بكر الوليد بن المغيرة ، أو العاص بن وائل ، قال : فقال أبو بكر : ألا ترى إلى ما مع هذا السفيه ! .

قال : أنت فعلت ذلك بنفسك . قال : وهو يقول :

أى رب !! ! ما أحلَمَكَ ؛ أى رب !! ! ما أحْلَمك ، أى رب !! ! ما أحلمك[1] .

— ١٠ —

بلال رضى الله عنه :

هل أتاك حديث أمية بن خلف ، وقد علم بإسلام عبده بلال ، فلم يكن له من هم إلا التفنن المخجل فى إذاقته العذاب ألوانًا ؟

لقد أحاط عنقه بحبل من ليف النخيل الخَشِن ، وأسلمه إلى أيدى الصبيان الذين لا سبيل للرحمة إلى قلوبهم ، فأخذوا يعبثون بجره كحيوان ، يجرونه إلى الإمام ، ويجرونه إلى الوراء ؛ يجرونه يمنًا ويجرونه شمالاً ، والحبل يَحُزُّ فى عنقه ، حتى حَفَرَ فيه مجرى داميًا ، غير أن بلالاً ، رَغْم كل ذلك لم يبدُ عليه التأثر ، فما كان من أمية إلا أن منع عنه الطعام والشراب ، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحُه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضعُ على صدره ، علة هذا الرمل الذى جعلته حرارة الشمس ، كالجمر ، كان يلقى أميةُ بلالاً ويقول له : « لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » .

تُجَاه كل هذا كان بلال الصبور : يكتفى برفع سبابته إلى السماء مكررًا « أحَدٌ أحَدٌ » . يظهر بذلك احتقاره لسيده الذى بلغت به الجُرْأةُ أن جعل لله شركاء ، بزعمه من خشب أو حجارة ، وكان تأكيد الأحدية لله تعالى ، يثير فى روعه : أنه شهيد الإيمان ، ويبعث فى نفسه عذوبةً فائقة الوصف ، فلا يشعر معها بأليم العذاب .

وكان ورقةُ بن نوفل يمرّ به وهو يُعذَّب ، فلا يفتر عن قوله : أَحَد أحدٌ ، فيقول ورقة : أحدٌ أحدٌ ، والله يا بلال . ثم يقبل على أمية بن خلف ، ومن يصنع ذلك به من بنى جمح ، فيقول : أحلِفُ بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنَّه حنانًا .

وشاءت الأقدار أن يمرّ أبو بكر بالرمضاء ، حيث كان يُعذَّبُ بلال ، ويشهد هذا المنظر

---

(١) الروض الأنف جـ ٢ ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

البشع ، فقال فى اشمئزاز : ألا تخشى عقاب الله يا أمية حينما تذيق هذا المسكين العذاب ألوانًا ؟ فأجاب فى برودٍ صارخ : إنّك أنت الذى أفسدته ، فأنقذه بما ترى .

قال أبو بكر : عندى غلام أسود أقوى منه وأجلَدُ ، وهو على دينك ، أعطيكه به ؟ قال : قبلت ، هو لك .

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه(1) .

— ١١ —

أول صحابى جهر بالقرآن :

قال ابن اسحاق : وحدثنى يحيى بن عروة بن الزبير ، عن أبيه ، قال : كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ ، بمكة ، عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهَرُ لها به قط ، فمَن رجل يُسمِعهمُوه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه ، قال : دونى فإن الله سيمنعنى ، قال فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام ثم قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم » رافعًا بها صوته . ﴿الرحمن علم القرآن﴾ . قال : ثم استقبلها يقرؤها ، قال : فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ قال : ثم قالوا إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه ، وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك ، فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا ، قالوا : لا . حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

— ١٢ —

إسلام عمرو بن عبسة :

عن عمرو بن عبسة قال : « أتيت رسول الله ﷺ ، فى أول ما بعث ، وهو بمكة ، وهو مستخف ، فقلت : ما أنت ؟ فقال : أنا نبى ، فقلت : وما النبى ؟ قال : رسول الله ، قلت : آلله أرسلك ؟ قال نعم ، قلت : بم أرسلك ؟ قال : بأن نعبد الله ونكسِرَ الأوثان ، ونصل الأرحام ،

---

(1) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : نعْمَ ما أرسلك به ، فمَنْ تبعك على هذا ؟ قال : حر وعبد ... يعنى : أبا بكر وبلالاً .
قال : وكان عمرو يقول : لقد رأيتنى – وأنا رابع أسلام ، قال : فأسلمت ، قلت : فأتبَعُك يا رسول الله ؟ قال لا ، ولكن الحَقْ بقومك ، فإذا أخْبِرتَ أنى قد خرجت فاتْبعنى .

هذا حديث رواه جماعة عن أبى أمامة وأخرجه مسلم من حديث شداد بن عمار(١) .

– ١٣ –

إسلام خالد بن سعيد :

عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان . قال : « كان إسلام خالد – يعنى ابن سعيد بن العاص – قديمًا ، وكان أول إخوته أسلم . وكان بُدُوُّ إسلامه : أنه رأى فى النوم : أنه وُقِفَ به على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله تعالى أعلم به ، ويرى فى النوم كأن أباه يدفعه فيها ، ويرى رسول الله ﷺ ، أخذ بحقويه لا يقع ، ففزع من نومه ، وقال : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبا بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه ، فذكر ذلك له . فقال أبو بكر : أُرِيدَ بك خيرٌ : هذا رسول الله ﷺ ، فاتَّبِعْه ، فإنك ستتَّبِعه ، وتدخل معه فى الإسلام . إنه يأخذ بحجزك أن تدخل فيها ، وأبوك فليقع فيها ، فلقى رسول الله ﷺ – وهو بأجياد – فقال : يا محمد إلام تدعو ؟ فقال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وتخلعُ ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع ، ولا يدرى مَن عَبَده مِمَّن لم يعبده . قال خالد : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه . وتغيَّب خالد ، وعلم أبوه بإسلامه ، فأرسل فى طلبه ، فأُتىَ به ، فأنَّبه وضربه بمقرعة فى يده حتى كسرها على رأسه ، وقال : والله ، لأمنعنَّكَ القوتَ . فقال خالد : إن منعتنى فإن الله يرزقنى ما أعيش به . وانصرف إلى رسول الله ﷺ وكان يلزمه ويكون معه »(٢) .

– ١٤ –

حمزة بن عبد المطلب :

عن محمد بن إسحاق ، قال : حدثنى رجل من أسلم – وكان داعيةً – أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا ، فأذاه ، وشتمه ، ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، فذكر ذلك لحمزة بن عبد المطلب ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس ، فضربه بها ضربة

(١) راجع ص ٤٢١ ، ٤٢٢ جـ ١ دلائل النبوة .
(٢) ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ دلائل النبوة .

شجَّه منها شجةً منكرة ؛ وقامت رجال من قريش من بنى مخزوم إلى حمزة ، لينصروا أبا جهل منه ، فقالوا : ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت .

فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه ؟ أنا أشهد أنه رسول الله ، وأن الذى يقول حق ، فوالله ، لا أنزع ، فامنعونى إن كنتم صادقين .

فقال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنى والله ، لقد سببت ابن أخيه سبا قبيحًا ، فلما أسلم حمزة ، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ ، قد عزَّ وامتنع ، فكَفوا عن بعض ما كانوا يتناولونه منه ، وقال حمزة فى ذلك شعرًا .

قال ابن إسحاق : ثم رجع حمزة إلى بيته ، فأتاه الشيطان ، فقال : أنت سيد قريش ، اتبعت هذا الصابئ ، وتركت دين آبائك ؟ لَلْموت خير لك مما صنعت ، فأقبل على حمزة بثه ، فقال : ما صنعت ؟ اللهم إن كان رشدًا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجًا .

فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى : إنى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على ما لا أدرى ، أرشدٌ هو أم غىٌّ شديد ؟ فحدِّثْنى حديثًا فقد اشتهيت يا ابن أخى أن تحدثنى ؟ .

فأقبل رسول الله ﷺ ، فذكَّره ووعظه ، وبشَّره ، فألقى الله فى نفسه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ ، فقال : أشهد أنك لَصَادقٌ ، شهادة الصدق ، فأظهر يا ابن أخى دينك . فوالله ، ما أحِب أنَّ لى ما أظلته السماء ، وأنى على دينى الأول .

فكان حمزة رضى الله عنه ممن أعز الله به الدين »[1] .

— ١٥ —

هجرة صهيب :

عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ ، رأيت دارَ هجرتكم سبخة بين ظهرانى حرة ، فإما أن تكون هجر ، وإما أن تكون يثرب ، قال : وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وخرج معه أبو بكر رضى الله عنه ، وكنت قد هممت بالخروج معه فصدّنى فتيانٌ من قريش فجعلت

(١) انظر ص ٤٥٩ ، ٤٦٠ من كتاب دلائل النبوة للبيهقى .

ليلتى تلك أقوم لا أقعد ؟ فقالوا : قد شغله الله عنكم ببطنه ، ولم أكن شاكيًا ، فناموا فخرجت فلحقنى منهم ناس بعد ما سرت بريدًا ، ليردونى . فقلت لهم :

هل لكم أن أعطيكم أواقىَ من ذهب وتخلُّوا سبيلى ، وتوثَّقوا لى الله ففعلوا ، فسقتهم إلى مكة ، فقلت : احفِرُوا تحت اسكفةِ الباب ، فإن تحتها الأواقى ، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحليين وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ فى قباء ، قبل أن يتحول منها ، فلما رآنى قال : يا أبا يحيى ربح البيع ، ثلاثًا ، فقلت : يا رسول الله ! ما سبَقنى إليك أحد ، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام »[1] .

- ١٦ -

هجرة عمر وقصة عياش معه :

خرج عمر بن الخطاب ، وعيَّاش بن أبى ربيعة المخزومى ، حتى قدما المدينة فحدثنى نافع مَوْلى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر ، عن أبيه عمر بن الخطاب ، قال : اتعدت ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا وعيَّاش بن رَبيعة (واسمه : عمرو ويُلَقَّبُ : ذا الرمحين) ، وهشام بن العاص بن وائل السهمِّى ، التَّناضبَ من أضاة بنى غِفَار ، فوق سَرِف ، وقلنا : أينا لم يُصْبح عندها ، فقد حُبس ، فَلْيَمْض صاحباه ؟

قال : فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبى ربيعة عند التَّناضب ، وحُبِس عنا هشام ، وفتن فافتتن ، فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوفٍ بقُبَاء ، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبى ربيعة ، وكان ابنَ عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قَدِمَا علينا المدينة ، ورسول الله ﷺ ، بمكة فكلَّماه ، وقالا : إن أمَّك قد نذرت أن لا يمس رأسَها ، مُشْطٌ حتى تراك ، ولا تستظلَّ من شمسٍ حتى تراك ، فرق لها فقلت له : يا عَيَّاش ، إنه والله إن يريدك القومِ إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرْهم ، فوالله لو آذى أمَّك القملُ لامتشطت ، ولو قد اشتدَ عليها حر مكةَ لاستظلت . قال : فقال : أَبرُّ قَسَمَ أمِّى ، ولى هنالك مال فآخذُه . قال : فقلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً ، فلك نصفُ مالى ولا تذهب معهما .

قال : فأبى على إلا أن يخرج معهما ، فلما أبى إلا ذلك ، قال : قلت له : أما إذ قد فعلتَ ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فإنها ناقة نَجيبة ذلول فالْزَمْ ظهرها ، فإن رابك من القوم ريبٌ ،

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

فانج عليها : فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل : يا ابن أخى ، والله لقد استغلظتُ بعيرى هذا ، أفلا تُعْقبنى على ناقتك هذه ؟ .

قال : بلى . قال : فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استوَوْا بالأرض عَدَوَا عليه ، فأوثقاه ورَبَطَاه ، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن .

قال ابن اسحاق : فحدثنى به بعض آل عيّاش بن أبى ربيعة : أنهما حين دخلا به مكة ، دخلا به نهارًا ، موثقًا ، ثم قالا : يا أهل مكة ، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا[1] .

— ١٧ —

الوليد بن الوليد ، وعياش ، وهشام :

قال ابن هشام : حدثنى من أثق به : أن رسول الله ﷺ ، قال وهو بالمدينة : مَنْ له بعيَّاش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ؟ .

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج إلى مكة فَقَدِمها مستخفيًا ، فلقى امرأة تحمل طعامًا ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الله ! قالت : أريد هذين المحبوسين تُعينهما — فتبعها حتى عَرَفَ موضعهما وكانا محبوسين فى بيت لا سَقْف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مَرْوة ، فوضعها تحت قيدَيهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه : « ذو المَرْوة » لذلك ، ثم حملهما على بعيره ، وساق بهما فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دَميتِ　　فى سبيل الله مــا لَقِيتِ

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ[2] . ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ ، فى فترة من الفترات فى صلاته ، أن يقول : اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين .

— ١٨ —

آل ياسر :

عن هشام بن أبى عبد الله ، عن خالد : أن رسول الله ﷺ ، مرَّ بعمّار وأهله وهم يعذبون ، فقال : أبشروا آل عمار أو آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة .

---

(١) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٧٠ ، ١٧٢ .

عن سفيان عن منصور عن مجاهد ، قال : أولُ شهيدٍ في الإسلام استشهد : أم عمار ، سُمية ، طعنَهَا أبو جهل بحربة فى قلبها .

— ١٩ —

الزبيرة :

عن هشام بن عروة عن أبيه ، أن أبا بكر ، أعتق ممن كان يعذب فى الله سبعة ، نذكر منهم ، الزبيرة ، قال : فذهب بصرُها . وكانت ممن يعذَّبُ في الله على الإسلام ، فتأبى إلا الإسلام ، فقال المشركون : ما أصاب بصرَها إلا اللات والعُزَّى ، فقالت : كلاّ والله ، ما هو كذلك . فرد الله عليها بصرها .

— ٢٠ —

النضر بن الحارث :

عن عِكرمة ، عن ابن عباس . قال : قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى ، فقال : يا معشر قريش ، إنه والله ، لقد نزل بكم أمرٌ ما ابتليتم بمثله .. لقد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا : أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغيه الشيبَ وجاءكم بما جاءكم ، قلتم : ساحر ، لا والله ، ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة ونفثهم وعَقْدَهم ، وقلتم : كاهن ... لا والله ، ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وحالهم وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ؛ لا والله ، ما هو بشاعر .. لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ، وقريضه ، وقلتم : مجنون ، ولا والله ، ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه .

يا معشر قريش ، انظروا فى شأنكم ، فإنه والله ، لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان النضر من شياطين قريش ، وكان ممن يؤذى رسول الله ﷺ ، وينب له العداوة »[1] .

يسمعون القرآن مستخفين :

عن ابن إسحاق قال : حدثنى الزهرى قال : حُدِّثتُ : أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى بالليل فى بيته ،

(١) ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ جـ ١ دلائل النبوة .

وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر ، تَفرَّقوا ، فجمعتهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

فلما كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق . فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد : لا نعد ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق . أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة ، عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، فقال الأخنس : وأنا ، والذى حلفت به .. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ : أطعَمُوا فأطعمنا ، وحَمَلوا فحملنا ، وأعطَوْا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرَسَىْ رِهان . قالوا : منا نبى يأتيه الوحْىُ من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدًا ، ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس بن شريق »[1] اهـ .

سيتم الله أمر دينه :

عن بيان بن بشر وإسماعيل بن أبى خالد ، قالا : سمعنا قيسًا يقول : سمعت خبابًا يقول : أتيتُ رسول الله ﷺ ، وهو متوسِّد برده فى ظل الكعبة ، ولقد لقينا من المشركين شدةً شديدة ، فقلت : يا رسول الله !! ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد ، وهو مخمر وجهه فقال : إن من كان قبلكم لَيُمَشَّطُ أحدهم بأمشاط الحديد ، ما دون عظمه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضعُ المنشار على مفرِق رأسه ، فَيُشَق باثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ولَيُتمَّنَّ الله هذا الأمر ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضْر موتَ ، لا يخاف إلا الله عز وجل (زاد بيان) : والذئبَ على غنمه .

هجرة مصعب بن عمير

يقول صاحب الروض الأنف :

ذكر هجرة مصعَب بن عمير : وهو المقرئ ، وهو أول من سمى بهذا – أعنى المقرئ ،

(1) ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ جـ ١ دلائل النبوة .

يكنى : أبا عبد الله ، كان قبل إسلامه من أَنْعَمِ قريش عيشًا وأعطرهم ، وكانت أمه شديدة الكلف به ، وكان يبيت وقعب الحَيْسى[1] عند رأسه : يستيقظ فيأكل ، فلما أسلم ، أصابه من الشدة ما غير لونَه ، وأذهبَ لحمه ، ونهكتْ جسمه ، حتى كان رسول الله ، ﷺ ، ينظر إليه ، وعليه فروة قد رفعها ، فيبكى لما كان يعرف من نَعْته ؛ وحلفت أمه حين أسلم وهاجر : ألا تأكلَ، ولا تشرب ولا تستظِلَّ بظل حتى يرجعَ إليها ، فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشيا عليها ، وكان بنوها يحشون فاها بشجارٍ[2]، وهو عود فيصبون فيه الحساءَ، لئلا تموت .

وكان رسول الله ﷺ يذكره ، فيقول : « ما رأيتُ بمكة أحسَن لِمَّةً ولا أرَقَّ حُلّةً ، ولا أنْعم نِعمةً مِن مصعب بن عُمير » . ذكره الواقدى ، وذكر أيضًا بإسناد له قال :

كان مصعب بن عمير ، فتى مكة : « شبابًا وجمالاً وسِنا . وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب ، وكان أعْطرَ أهلِ مكة : يلبس الحَضرمىَّ من النعال »[3] .

وذكر أن منزَله كان على أسعد بن زُراره « منزل بفتح الزاى ، وكذلك كل ما وقع فى هذا الباب ، من منزِل فلان على فلان ، فهو بالفتح ، لأنه أراد المصدر ، ولم يرد المكان »[4] .

فقد روى الدارقُطنى ، عن عثمان بن أحمد بن السماك ، بسنده عن عُبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : أذن النبى ﷺ ، بالجمعة قبل أن يهاجر ، ولم يستطع رسول الله ، ﷺ ، أن يجمع بمكة ، ولا يبدىَ لهم ، فكتب إلى مصعب بن عمير .

« ... فإذا مال النهار عن شطره عند الزَّوال من يوم الجمعة ، فتقربوا إلى الله بركعتين قال : فأولُ من جمَّع : مصعب بن عُمير ، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فجمع عند الزوال من الظهر ، وأظهر ذلك »[5] .

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير

قال ابن اسحاق : وحدثنى عبيد الله بن المغيرة مُعيَقب ، وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم : أن سعد بن زُرارة ، خرج بمصْعَب بن عمير ، يريد به دار بنى الأشهل ،

---

(١) القعب : القدح الضخم الجافى ، والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديدًا ، ثم يندر منه نواه ، وربما جعل فيه سويق .

(٢) أصله : عود يجعل فى فم الجدى لئلا يرضع ، وحديث بكاء الرسول ﷺ حين كان يرى مصعبًا رواه الترمذى بسند ضعيف .

(٣) نسبة إلى حضر موت ، وهى نعال غالية الثمن .

(٤) انظر : الروض الأنف جـ ٤ ص ٩٧ – ٩٨ .

(٥) انظر : الروض الأنف جـ ٤ ص ١٠١ – ١٠٢ .

ودار بنى ظفر ، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيْد بن الأشهل بن خالد أسعد بن زُرارة ، فدخل به حائطًا من حوائط بنى ظفر .

قال ابن هشام : واسم ظفَر : كعب الحارث بن الخزْرج بن عميرو بن مالك بن الأوس ، قالا : على بئر يقال لها : بئر مَرَق ، فجلسا فى الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم . وسعد بن معُاذ ، وأسيد بن حُضير ، يومئذ سيدا قومهما من بنى الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به ، قال سعد بن معاذ لأسَيْد بن حضير : لا أبا لك ، انطلِق إلى هذين الرجلين قد أتيا دارينا لِيسَفها ضُعفاءنا ، فازْجرهما وانهَهما على أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أنَّ سعد بن زرارة من حيث قد علمت ، كفيتك ذلك : هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدّما ، قال : فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة ، قال لمصعب بن عمير : هذا سيِّد قومه قد جاءك ، فاصدُق الله فيه[1] .

قال مصعب : إن يجلس أكلمه ، قال : فوقف عليهما متشتما[2] ، فقال : ما جاء بكما إلينا : تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمرًا قبلته ، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره ؟ .

قال : أنصفت ، ثم رَكَزَ حَرْبته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن فقالا فيما يذكر عنهما : والله لعرفْنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم : فى إشراقه وتسهله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله : كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهر ، وتطهِّرُ ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلاً ، إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً ، قال :

أحلف بالله لقد جاءكم أسيْدٌ ، بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادى قال له سعد : ما فعلت ؟

قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأسًا وقد نهيتهُما ، فقالا : نفعل ما أحببت ،

---

(١) انظر الروض الأنف جـ ص ٧٥ - ٧٦ .
(٢) كاشر الوجه .

وقد حُدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك ، قال :

فقام سعد مُغضبًا مبادرًا ، تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة فأخذ الحربة من يده ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئًا . ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشمتًا ، ثم قال لأسعد بن زرارة :

يا أبا أمامة ،لولا ما بينى وبينك من القرابة : مارمت هذا منى ، أتغْشانا فى دارينا بما نكره ؟ – وقد قال أسعد بن زُرارة لمصعب بن عمير : أى مصعب ، جاءك والله سيِّد مَنْ وراءه من قومه .. إن يتبعْك لا يتخلف عنك منهم اثنان – قال :

فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيتَ أمرًا ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عَزَلْنا عنك ما تكره ؟

قال سعد[1] : أنصفت ، ثم ركَزَ الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قائلا : عرفنا والله فى وجهه الإسلام ، قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما قال : كيف تصنَعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟

قالا : تغتسل فتطهَّرْ وتُطَهِّرْ ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين . قال : فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ، ومعه أسيد بن حضير .

قال : فلما رآه قومه مقْبلاً ، قالوا : نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم . فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيًا ، وأيمننا نقيبةً .

قال : فإن كلامَ رجالكم ونسائكم علىَّ حرام ، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله . قالا : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة ، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة ، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام[2] .

إسلام عمرو بن العاص رضى الله عنه

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : لما انصرفنا مع الأحزاب فى الخندق ، جمعتُ رجالاً من قريش ، كانوا يرون مكانى ، ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلمون والله إنى لأرى أمر محمد يعلو الأمور عُلوا كبيرًا ، وإنى قد رأيت رأيًا فما ترون فيه ؟ قالوا : وما رأيت ؟

---

(١) انظر الروض الأنف جـ ٤ ص ٧٦ – ٧٧ .

(٢) انظر الروض الأنف جـ ٤ ص ٧٧ – ٧٨ .

قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا ، كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدَىْ محمد ، وإن ظهر وقومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خَير ، فقالوا : إن هذا : الرأىُ . قال : فقلت لهم : فاجمعوا لنا ما نهدى له ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدمًا كثيرة . ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ؛ فوالله : إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه . قال : فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية ، لو قد دخلت على النجاشى فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد ، قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحبًا بصديقى ، أهديت من بلادك شيئًا ؟ قال : قلت : نعم أيها الملك ، أهديت لك أدمًا كثيرًا . قال : ثم قدمته إليه فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك ، إنى قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ؛ قال : فغضب ثم مدّ يديه فضرب بهما أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقًا منه ، ثم قلت : أيها الملك ! والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك ، فقال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لنقتله ؟ قلت : أيها الملك ! أكذاك هو ؟

قال : ويحك يا عمرو ، أطعِنى واتَّبعه ، فإنه والله ، لعلى الحق ، ولَيَظْهَرَنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال : قلت : فتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم فبسط يده وبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابى ، وقد حال رأيى عما كان عليه ، وكتمت أصحابى إسلامى ، ثم خرجت عامدًا لرسول الله ﷺ ، فلقيت خالد بن الوليد — وذلك قبيل الفتح — وهو مقبل من مكة ، فقلت : إلى أين يا أبا سليمان ؟ قال : والله لقد استقام الميسم ، وإن الرجل لنبى أذهب ولله أُسْلِمُ . قلت : والله ما جئتُ إلا أسلم .. فقدمنا على رسول الله ﷺ ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فقلت : يا رسول الله : إنى أبايعُك على أن يُغفَر لى ما تقدم من ذنبى ، ولا أذكر ما تأخر .

فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو ، بايعْ ، فإن الإسلام يجب ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها ، فبايعته ثم انصرفت ، رواه الإمام أحمد[1] .

(١) جامع كرامات الأولياء الشيخ يوسف النبهانى جـ ١ ص ٩٨ ، ٩٩ .

ومن حكماء العرب
أكثم بن صيفى بن ربَاح

وكان من حديثه – كما ذكر الألوسى – أنه لما ظهر النبى ﷺ بمكة ، ودعا إلى الإسلام ، بعث أكثم ابنه حُبيشًا ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال : يا بنى تميم ، لا تحضرونى سفيها : فإنه مَنْ يسمع يَخل[1] . إن السفيه يوهن مَن فوقه ، ويثبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له : كبرت سنى ، ودخلتنى ذلة ، فإذا رأيتم منى حَسْنًا فقبلوه ، وإن رأيتم منى غير ذلك فَقومونى أستقم .

إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه : يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران .. وقد حلف (عَرَفَ) ذوو الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه .

إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره ، أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقًا ، فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه ، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله ، وسمى ابنه محمدًا .. فكونوا فى أمره أولاً ، ولا تكونوا آخرًا : ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .

إن الذى يدعو إليه محمد : لو لم يكن دينًا ، لكان فى أخلاق الناس حسنًا ، أطيعونى واتبعوا أمرى ، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدًا ، وأصبحتم أعزَّ حىٍّ فى العرب وأكثرهم عددًا ، وأوسعهم دارًا ؛ فإنى أرى أمرًا لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز ، إن الأول لم يدع للآخر شيئًا ، وهذا أمر له ما بعده ومن سبق إليه غَمَرَ المعالى : اقتدى به التالى ، والعزيمة حزم « والاختلاف عجز » .

فقال مالك بن نويرة : قد خَرِف شيخكم .

فقال أكثم : ويل الشجىّ من الخلىّ ، ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى : « فذهب مثلاً »[2] ثم قال لمالك : ما آسى عليك على العامة . يا مالك ، إن الحق إذا قام رفع الباطل ،

---

(١) « من يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع فى نفسه عليهم المكروه » . عن جمع مجمع الأمثال للميدان .
(٢) التفكير الفلسفى للدكتور عبد الحليم محمود جـ ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

فتبعه مائة نفس ، وخرج إلى رسول الله ﷺ . فلما كان فى بعض الطريق ، عمد حبيش إلى رواحلهم فنحرها ، وشقَّ ما كان معهم من مزاده وهرب ، فجهر أكثم العطش ، فمات ، وأوصى مَن معه باتباع رسول الله ﷺ ، وأشهَدَهم أنه أسلم فأنزل فيه : ﴿ ومَن يخرجْ من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقعَ أجره على الله ﴾[1] و[2] .

أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفى ليقنع رسول الله ﷺ ، بالعودة إلى المدينة حينما جاء مكة معتمرًا ، فلما عاد عروة خاطب قريشًا قائلاً : يا معشر قريش : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ، ما رأيت ملكًا قط : يعظمه قومه ، كما يعظم أصحاب محمد محمدًا ولقد رأيت حوله قوما لن يسلموه لسوء أبدًا .. فانظروا رأيكم » اهـ .

إنهم أصحاب محمد ﷺ ، وانظر إن شئت فى التاريخ ؛ فستجد الكثير من أصحاب الأنبياء والرسل ، كان موقفهم على النقيض من ذلك .

❑❑❑

---

(١) سورة النساء : آية ١٠٠ .
(٢) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٩٣ .

﴿لكـــن الله يشهـد بمـا أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمــــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الثانى عشر عن :

مواقف لبعض الغربيين

كان من الممكن أن نذكر الكثير من آراء الغربيين فى الرسالة الإسلامية ورسولها . ولكننا سبق أن كتبنا فى ذلك ، بشىء من الاستفاضة فى كتابنا : « أوربا والإسلام » ونكتفى فى ذلك بما يلى :

برنارد شو
يكرم نبى الإسلام

يقول الأستاذ عز الدين فرج فى كتابه (نبى الإسلام) :

« لا نعدُّ برنارد شو كاتبًا وفيلسوفًا إنجليزيا عظيما فحسب ، بل هو فى طليعة المفكرين والفلاسفة فى العالم أجمع .

ومن أخص خصائص هذا الفيلسوف الكبير : أنه جرىء إلى أبعد حد ، وصريح إلى أبعد حدود الصراحة ، فإذا أبدى رأيا فى يوم من الأيام ، فهو رأى يؤمن به كل الإيمان ، ويعتقد بصحته وصوابه إلى حد كبير ..

وفى أثناء سياحته فى بمباى بالهند ، كتب رسالة أوضح فيها رأيه فى صلاحية الدين المحمدى لجميع الأمم فى كل زمان ومكان ، وأشاد بفضل هذا الرسول ، وعظمته وعبقريته قائلاً :

« لقد وضعت دائمًا دين محمد موضع الاعتبار السامى ، بسبب حيويته العظيمة ، فهو الدين الوحيد الذى يلوح فى أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة ، بحيث يستطيع أن يكون جذابًا لكل زمان ومكان » .

ثم استطرد يقول : « لا مشاحة فى أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ، لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوربا فى الغد القريب ، وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم ، ولقد صور أكليروس القرون الوسطى ، الإسلام بأحلكِ الألوان : أمَّا بسبب الجهل ، أو بسبب التعصب الذميم .

ولقد كانوا – فى الواقع – يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه . وكانوا يعتبرونه خصمًا للمسيح ..

ولقد درستُه – باعتباره رجلاً عظيمًا – فرأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يُدعى : منقذ الإنسانية .

وإنى لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث ، لنجح فى حل مشكلاته ، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما .ولقد أدرك فى

القرن التاسع عشر مفكرين مخلصون ، أمثال كارلايل وجوته وجيبون ، القيمة الذاتية لدين محمد ﷺ .

وهكذا وُجِدَ تحولٌ حَسَنٌ فى موقف أوربا من الإسلام ، ولكن أوربا – فى القرن الراهن – تقدمت فى هذا السبيل كثيرًا . فبدأت تعشق عقيدة محمد ، وفى القرون القادمة ، قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك ، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها ، بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى .

وفى الوقت الحاضر ، دخل كثير من أبناء قومى من أهل أوربا فى دين محمد ، حتى ليمكن أن يقال : إن تحولَ أوربا إلى الإسلام ، قد بدأ » .

هكذا وصف أكبر كاتب إنجليزى الإسلام ونبيه الكريم .

وهكذا شهد له أكبر فلاسفة أوربا .

لقد سجل برنارد شو كلماته هذه ، بعد بحث وتفكير وروية ، وبعد أن عَرَف أن دين هذا النبى ، وضَع لكل مشكلة – اجتماعية واقتصادية – الحل المناسب لها الذى يصلح لكل زمان ومكان .

لقد سجل هذا الكاتب الكبير كلماته ، بعد دراسة عميقة لقواعد هذا الدين وما فيه من آيات بينات ، ولولا أنه درس هذا الموضوع دراسة عميقة وافية ، لما قال :

« لقد بدأتْ أوربا الآن ، تتعشق الإسلام ، ولن يمضى القرن الحادى والعشرون ، حتى تكون أوربا قد بدأت تستعين به فى حل مشاكلها » .

لقد نظر برنارد شو إلى العرب قبل الدعوة المحمدية ، فوجدهم فى فساد وفوضى ، ووحشية وهمجية ، وحرب وقتال دائم : يقتلون البنات ، وينظرون إلى النساء نظرة احتقار وسخرية ، ورآهم أشدَّ الأمم تباهيًا بالأنساب وتساميا بالآباء ، فكانت كل قبيلة تزعم أنها الفريد فى مفاخرها ، وقد غَلَوْا فى هذا الاتجاه ، حتى جعلوا لإبِلِهِمْ وخيولهم أنسابًا يرفعونها بها على سائر الخيول والإبل ، فما بالك بمن بَعُدَ عنهم من القبائل والشعوب ، واختلف معهم فى اللغة والتقاليد ؟ ثم نظر إليهم بعد دعوة هذا النبى الكريم فوجدهم خلقا جديدًا ، لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ووجدهم فى تقدم ورقى وحضارة : تمتد أطرافها فى الشرق والغرب ، ورأى كيف دانت لهم الممالك والأمصار فى سهولة ويسر ، وكيف رضيت به الشعوب على اختلاف أجناسها ، وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم ، ورأى كيف أضحت المرأة إنسانًا محترمًا : له ما للرجال من احترام وحقوق ..

لقد درس برنارد شو أمة محمد ﷺ ، فوجدها قائمة على الأصول والمبادئ الأخلاقية ، لا على الأمور المعيشية والمطالب المادية ، كما هو الحال فى المدينة الأوربية ، فرأى بذلك أول أمة فى تاريخ العالم ، قامت على مبادئ عالية ، وقواعد سامية ، و أسس روحانية .

لقد رآها أمة ديمقراطية بأوسع معانى الكلمة ... رآها ديمقراطية ؛ لأنها لم تعترف بالفروق الطائفية والامتيازات الاستقراطية ، رآها لا تفرق بين ذكر وأنثى ، وبين سيد ومولى ، إلا بالخير والعمل الصالح المنتج ... رآها أمة تؤمن بتكافؤ الفرص ، وتفتح الباب أمام العاملين من كل بيئة وجنس ولون ؛ لكى ينال قصبَ السبقِ كل من سمت همته وعلت كفايته .

لقد درس برنارد شو أمة هذا النبى ، فوجدها دستورية ؛ لأن الحكومة قُيدت فيها بكتاب إلهى : لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهذه أعظم صفات الأمم الدستورية ، وقد حقق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية ، فجعل الحكم شُوريا ، وحذف الامتيازات الفردية والطائفية والجنسية ، ومحا الفوارق فى الحقوق والواجبات بين مختلف الطبقات ، وأخضع الجميع لمبادئ واحدة : لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وأبيضَ وأسود ، وذكر وأنثى .

هذه هى الأمة التى قامت على الدعوة المحمدية .

ألا يحق لبرناردشو أن يصفَ هذا النبى الكريم بأنه منقذ الإنسانية ؟

ألا يحق له بعد هذا كله أن يقول :

« إننى أعتقد أن رجلاً كمحمد ، لو سلم زمام الحكم فى العالم ؛ بأجمعه ؛ لتم له النجاح فى حكمه ؛ ولقاده إلى الخير ، وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة » .

❑❑❑

درس برنارد شو الحياة الإسلامية ، وأدرك أنها قائمة على التكافل والتضامن والتعاون بين الأفراد والشعوب ، ورأى فى ذلك سر النجاح .

فالمرأة والرجل متكافلان فى الحياة الدنيا من نفس واحدة ، بعضهما من بعض: يتمم كل منهما الآخر ، وأساس الصلة بينهما المودة والرحمة ، والرجال أنصاف تلتمس أنصافها الأخرى فى كنف النساء، ومن تزوج، فقد عصم نصف دينه، وفى كل هذه المعانى يقول القرآن الكريم:

﴿ومِن آياتِهِ أن خلَق لكم من أنفسِكم أزواجًا لتَسْكُنُوا إليها ، وجعل بينكم مودَّةً ورحمة﴾[1] .

---

(١) الروم : ٢١ .

وفى موضع آخر :

﴿ومن يعملْ من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى ، وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظْلَمون نَقِيرًا﴾[1] .

﴿مَن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمِنٌ فَلَنُحْيِينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾[2] .

والغنى والفقير ، والعامل والمعمول : متكافلون فى هذه الحياة الدنيا ، يشد بعضهم أزر بعض ، ويتعاونون على البر والتقوى ، فللفقير حق معلوم فى مال الغنى ، وفى ذلك دَعْمٍ للمجتمع أولا ، والأسرة ثانيًا ، والدولة ثالثًا ، وأكبر الكبائر فى الإسلام : أن يبيت الرجل شبعانَ وجاره جائع : وأجر العامل حق مكفول . ومن ظلمه إياه أو آخرَه عنه ، فقد أتم إثمًا عظيما ، وتعرَّض لعقاب الدنيا وخزيِ الآخرة ، وعلى الفقير والعامل أن يصدقا وينصَحَا ويؤديا عملهما كاملاً ؛ فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه .

والحاكم والمحكوم متكافلان : على الحاكم العدل والمساواة والرعاية ، وعلى المحكوم الطاعة والنصيحة والمعاونة .

﴿إن اللّهَ يأمرُكم أن تُؤدوا الأماناتِ إلى أهلِهَا ، وإذا حَكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[3] .

﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾[4] .

هكذا كان التكافل وحسن التعامل قوام الحياة الاجتماعية : التى جاء بها الإسلام الحنيف ، فماذا فعلت المطامع والأهواء والنظم الأرضية المادية التى طلعت بها أوربا على الناس يوم أن انتهت إليها قيادةالبشرية ؟ بدلت نعمة الله كفرًا ، وأحلت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون ، وفَشلت فى تحقيق العدالة والإخاء والسلام على وجه الأرض .

ألا يحق بعد هذا كله : أن يسجل (برنارد شو) كلمته الخالدة وقوله : « وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث ، لنجح فى حل مشكلاته ، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة والطمأنينة التى هو فى أشد الحاجة إليها .

---

(١) النساء : ١٢٤ .
(٢) النحل : ٩٧ .
(٣) النساء : ٥٨ .
(٤) النساء : ٥٩ .

وهذه الصيحة التى أطلقها برنارد شو عن الإسلام ونبيه ، تتفق إلى حد كبير مع خطبة (المستر كان تلر) التى ألقاها فى حفل كبير جامع ، قال : « يمتد الدين الإسلامى الآن ، من مراكش إلى أنقرة ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو – فى داخل أفريقيا – خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة ، وقد خطا بنفسه وثبتت قدمه فى الكونغو التى صارت بلدًا إسلاميًّا (وبخاصة السودان وهى أشد بلاد الكونغو بأسًا) .

أما فى الهند فإنَّ التمدن الغربى – الذى كان يهدم أركان الوثنية – يمهد الطريق للدين الإسلامى لا غير ؛ فأهلُ الهند البالغ قدرهم ٢٥٥ مليون نسمة[1] منهم الآن (٥٠ مليون مسلم ، وسكان أفريقيا بأجمعهم ، أكثر من النصف منهم مسلمون ، وهذا يدل على أن الإسلام فى تزايد وانتشار » .

ثم استطرد يقول :

« لقد أفاد الإسلام التمدن أكثر من النصرانية ، ونشر راية المساواة والأخوة ، وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين الإنجليز ، وعما كتبه أغلب السياح من النتائج الحسنة التى نتجت من الدين الإسلامى ، وظهرت آياتها منه ، فإنه عندما تتدين به أمة من الأمم السودانية تختفى بينها – فى الحال – عبادة الأوثان ، واتباع الشيطان ، والإشراك بالعزيز الرحمن ، وتحرم أكل لحم الإنسان ، وقتل الرجال ووأد الأطفال ، وتضرب عن الكهانة ، ويأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحب الطهارة ، واجتناب الخبائث والرجس والسعى نحو إحراز المعانى ، وشرف النفس .

ويصبح عندهم قِرَى الضيف من الواجبات الدينية ، وشربُ الخمر من الأمور البغيضة ، ولعبُ الميسر والأزلام محرمًا ، والرقص القبيح ، ومخالطة النساء – اختلاطًا دون تميز – بغيضًا ويحسبون عفة المرأة من الفضائل ، ويتمسكون بحسن الشمائل .

أما الغلو فى الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية – فلا تجيزه الشريعة الإسلامية ، والدين الإسلامى ، هو الدين الذى يعمِّم النظامَ بين الورى ، ويقمع النفسَ عن الهوى ، ويحرم إراقة الدماء ، والقسوة فى معاملة الحيوان والأرقام ، ويوصى بالإنسانية ، ويحض على الخيرات والأخوة .

ويقول بالاعتدال فى تعدد الزوجات ، وكبح جماح الشهوات .

---

(١) حسب تعداد ذلك الوقت .

ويذكر الأستاذ الندوى رأى جين ويعلق عليه :

ويقول جين : « لم ينجح فى الإمتحان العسير ، رسول من الرسل الأولين – من بداية أمره كما نجح محمد ﷺ ، حين عرض نفسه – بادئ ذى بدء – بصفته رسولاً يوحى إليه على الذين عرفوا ضعفه البشرى ، وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم فعرض رسالته على زوجه وعبده العتيد ، وابن عمه ، وصديقه القديم الذى لم يتحول عنه ولم يخذله ، وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الإيمان بنبوته ، إن نصيب الأتقياء انقلب فى حق محمد ، وتغير عما كان عليه ، فيمن مضى من الرسل .. فلم يكن محمد غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه » فهذه الشهادات ، على أن من كان أعرف الناس برسول الله ﷺ ، وأقربهم إليه ، كان أشدَّهم إيمانًا برسالته ، وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغرباء الذين لم يعرفوهم إلا قليلا ، وهم الذين سبَقوا إلى الإيمان بهم ، وتأخر عن الإيمان بهم وتلكأ : ذووهم وأهل بيوتهم ، والذين كانوا أكثر معرفة بهم .

وهكذا كان المؤمنون برسالة محمد ﷺ ، هم أعرفَ الناس بحقيقته ، وأكثرهم إطلاعًا على أخلاقه وسننه وهديه ، وقد لقىَ كل منهم – فى سبيل هذا الإيمان ، – بلاءً عظيمًا ، وامتُحِن امتحانًا شديدًا ، حتى إن خديجة : زوجَ النبى ﷺ ، قضت معه ثلاث سنوات محصورة فى شعب أبى طالب : تقاسى معه الجوع والظمأ والفاقة المهلكة .

وأبو بكر صحبَ النبى ﷺ ، يوم ضاقت به أرض مكة ، فخرج معه مرتديًا ظلام الليل : خائفًا يترقب ، والعدو فى أثرهما يتعقب مواطئ أقدامهما ، فقام أبو بكر بحق الصحبة ، وكان الوفىَّ بعهد الصداقة .

أما علىٌّ ، فبات على فراش الرسول الذى كان المشركون قد بيتوا الفتك به . وعبده زيد حل من النبى الكريم محل الولد : بعطفه عليه ورأفته به ، فلما جاء أبوه الذى وُلِدَ من صلبه يطلب ردَّ ابنه عليه ، خيره رسول الله ﷺ بين أن يصحب أباه أو أن يبقى تحت جناحين من عطف الرسول ورأفته ، فاختار صحبة النبى ﷺ ، على الرجوع مع أبيه إلى قبيلته .

تولستوى

ويقول الأستاذ عز الدين فرج :

لقد كان هذا الفيلسوف الروسى كاتبًا منصفًا . فعندما رأى تحامُلَ أهل الأديان الأخرى على الدين الإسلامى ، هزَّته الغَيَرةُ على الحق إلى وضع عجالة عن نَبىٍّ الإسلام ، وبعض تاريخ حياته فقال فيها :

« وُلِدَ نبيَ الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين ، وكان – فى حداثة سنه – راعيًا يميل إلى العُزْلة والانفراد فى البرارى والصحارَى ، متأملاً فى الله خالق الكون ..

لقد عبد العرب المعاصرون له أربابًا كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها ، واقاموا لها العبادات ، قدموا لها الضحايا المختلفة .

وكان – كلما تقدم به العمر – ازداد اعتقادًا بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلهًا واحدًا حقيقيًا ، لجميع الناس والشعوب .

وقد ازداد إيمانُ محمد بهذه الفكرة . فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته ، معلنًا : أن الله اصطفاه لهدايتهم ، وعهد إليه إنارةَ بصائرهم ، وهدم دياناتهم الباطلة ، وراح يعلن عن عقيدته وديانته .

وخلاصة هذه الديانة التى نادى بها هذا الرسول : هو أن الله واحد – لا إله إلا هو – ولذلك لا يجوز عبادة غيره ، وأن الله عادل ورحيم بعباده ، وأن مصير الإنسان النهائى ، متوقف عليه وحده ، فمن آمن به ، فإن الله يؤجره أجرًا حسنًا . وإذا ما خالف شريعة الله ، وسار على هواه ، فإنه يعاقبُ فى الآخرة عقابًا أليمًا ، وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضًا ، ومحبة الله تكون بالصلاة ، ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السراء والضراء ، وإن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ينبغى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية ، والابتعاد عن الملذات الدنيوية . وإنه يتحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها . ومحمد لم يقل عن نفسه إنه نبى الله الوحيد ، بل اعتقد أيضًا ، بنبوة موسى وعيسى . وقال : إن اليهود والنصارى لا يُكْرَهون على ترك دينهم .

وفى سنى دعوته الأولى ، احتمل كثيرًا من اضطهادات أصحاب الديانات القديمة ، شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق ، ولكنَّ هذه الاضطهادات لم تثن من عزمه ، بل ثابر على دعوة أمته .

وقد امتاز المؤمنون كثيرًا عن العرب : بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا ، وحب العمل والقناعة ، وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين : عند حلول المصائب بهم .

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل ، حتى أصبح الناس المحيطون بهم : يحترمونهم احترامًا عظيمًا ، ويعظمون قَدْرهم ، وراح عدد المؤمنين يتزايد يومًا بعد يوم !!

ومن فضائل الدين الإسلامى : أنه أوصى خيرًا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم ، فقد

أمر بحسن معاملتهم ، وقد بلغ من حسن معاملته لهم : أنه سَمَحَ لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى ، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ، ما فى هذا من التسامح العظيم » ثم ختم كلمته قائلا :

« لا ريب أن هذا النبىَّ ، من كبار الرجال المصلحين : الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخرًا : أنه هَدَى أمته برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء ، وتقديم الضحايا ، ويكفيه فخرًا : أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم ، وهذا عمل عظيم : لا يفوز به إلا شخص أُوتِىَ قوةً وحكمةً وعلمًا . ورجل مثله ، جدير بالإجلال والاحترام » .

محمد عبده وتولستوى :

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، فكتب لهذا الفيلسوف يقول :

« أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى » :

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكنا لم نُحَرم التعارفَ مع روحك . سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقَتْ فى آفاقنا شموس من آرائك . أَلفَتْ بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التى هَدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود ؛ لِيَنْبُتَ بالعلم ، ويثمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعبًا ترتاح به نفسه ، وسعيًا يبقى ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس ، لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، ولما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعَدوا بها فيما كدَّر راحتهم وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت نظرةً فى الدين : مزقت حجبَ التقاليد ، ووصلتَ بها إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديًا للعقول ، كنت بعملك حاثًا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدى بها الضالون ، كان مثالك فى العمل إمامًا يقتدى به المسترشدون ، وكما كان جودك توبيخًا من الله للأغنياء ، كان مددًا من عنايته للضعفاء الفقراء .

وإن أرفع مجدٍ بلغته ، وأكبرَ جزاءٍ نلته – على متاعبك فى النصح والإرشاد – هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد فليس ما حصل لك من رؤساء الدين ، سوى اعترافٍ

منهم أعلنوه للناس : أنك لست من القوم الضالين ، فاحمدِ الله على أن فارقوك فى أقوالهم ، كما كنت فارقتهم فى عقائدهم ..

هذا ، وإن نفوسنا لشيِّقةٌ إلى ما يتجدد من آثار قلمك ، فيما تستقبل من أيام عمرك . وإنا نسأل الله أن يمدَّ في حياتك ، ويحفظ عليك قواك ، ويفتَحَ أبواب القلوب لفهم قولك ، ويسوقَ النفوس إلى التأسى بك فى عملك .

والسلام ...

عن كتاب « نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى »

ويقول بعض سادتنا الأفاضل :

إخوانى ، أريد أن ألفت أنظاركم إلى أمر آخر : إن الرسول ﷺ لم يمض حياته كلها بين أحبابه واصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره فى مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها من مشركى قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم فى أمور الحياة ليل نهار ، وهى الحياة اليومية وما تنطوى عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء ، فيتبين للناس فسادها وصلاحها ، وهى عيشة طويل طريقها ، كثيرة منعطفاتها ، وعرة مسالكها : تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد ، وأكل مال بالباطل ، وعقباتٌ من الخديعة والخيانة ، وتطفيف الكيل ، وبخس الحقوق ، وإخلاف الوعد .

وإن الرسول ﷺ ، اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة ، وخلص منها سالمًا نقيا : لم يصبه شىء مما يصيب عامة الناس ، حتى لقد دعوه « الأمين » .

وإن قريشًا — بعد بعثته وإعلانه النبوة — كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمتم أنه — ﷺ — لما هاجر من مكة خلف فيها عليا ، ليردَّ ما كان لديه من الودائع إلى أهلها ، فقريش خالفته أشد الخلاف في دعوته ، ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك إلا سلكوه ، فقاطعوه ، وعاندوه وصدوا عن سبيله ، وألقوا عليه سلى أحشاء جذور وهو يصلى ، ورمَوْه بالحجارة ، وأرادوا قتله ، وكادوا له كيدهم ، وسموه ساحرًا ، ودعوه شاعرًا ، وفَنَّدُوا آراءه ، وسخفوا حلمه ، لكنهم لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئًا فى أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب غليه الكذب فى القول أو إخلاف الوعد ، أو إخفار الذمة ، أو نقض العهد .

وإن من ادعى النبوة وقال إن الله يوحى إليه فكأنه أدعى العصمة والبراءة من جميع المفاسد ، ومساوئ الأعمال .

ألم يكن يكفى قريشًا - ردهم على الرسول - أن يذكروا أمورًا عمل فيها الرسول بغير الحق ، وأن يشهدوا عليه بأن أخلفهم وعدًا ، أو خانهم فى أموالهم ، أو كذبهم فى شىء مما قاله لهم ؟

إن قريشًا أنفقوا أموالهم وبذلوا نفوسهم فى عداوة الرسول ، وضحوا بفلذات أكبادهم فى قتاله ، حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستطيعوا أن يدنسوا ذيله الطاهر ، ولا أن يصموه بشىء فى عظيم أخلاقه .

وكانت أحوال الرسول وشئونه وهديه : ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم استوى فى ذلك أحبابه وأعداؤه ، ولم يخفَ عليهم شىء من أمره .

كان عظماء قريش مجتمعين ذات يوم فى ناديهم فجرى ذكر الرسول ﷺ ، وفيهم النضر بن الحارث . وكان رجلاً داهية محنكًا ، وعالمًا بالأخبار ، فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد أعياكم أمر محمد ، وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأيًا لما اصابكم به ، إن محمدًا قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال ، وكان أحبَّ الناس إليكم ، وأصدقهم فيكم ، واتخذتموه أمينًا ، فلما وخطه الشيب ، وعرض عليكم هذا الأمر ، قلتم : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون . تالله ، لقد سمعتُ كلامه ، فليس فيه شىء مما ذكرتم .

وأبو جهل كان أشد الناس عداوة للرسول ، وقد قال له ذات يوم : يا محمد ، إنى لا أقول إنك كاذب ، لكنى أجحد الذى جئت به ، وما تدعوا إليه ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿قد نعلمُ إنه ليحزنكَ الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾[1] .

ويقول الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوى :

« وقد أحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، تصوير البعثة المحمدية وفضلها وإنتاجها فى كتابه : « الجواب الصحيح » يقول رحمه الله :

« وسيرة الرسول ﷺ : من آياته ، وأخلاقه واقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلْمُ أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالحى أمته من آياته » .

ولم يزل قائما بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها ، من : الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ

(١) سورة الأنعام ٣٣ - تراجع ص ٧٦ فى سبب نزول هذه الآية .

له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد ، ولا عذر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو – على ذلك كله – ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب : التى كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، ولايعرفون آخرة ولا معادًا ، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدْيَنَهم وأعْدَلهم وأفضلهم : حتى إن النصارى لما رأوهم – من حين قدموا الشام – قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وهذه آثار علمهم وعملهم فى الأرض ، وآثار غيرهم : يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

ولما تلقى الرسول ﷺ أمرَ ربه بأن يدعو ذوى قرباه إلى الإسلام وينذر عشيرته الأقربين صعِدَ الجبل ، ونادى : يا معشر قريش ، فلما اجتمعوا قال : هل كنتم مصدِّقِّى إن قلت : إن جيشًا قد بلغ سفح هذا الجبل ؟ قالوا : ما جرَّبنا عليك كذبًا قط .

« صحيح البخارى : سورة تبت »[1] .

يقول صاحب « الرسالة المحمدية » :

كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن على رحمه الله يصدر فى (بتنه) قبل خمسين عامًا مجلة (نور الإسلام) ، وقد قال فى جزء منها : إن صديقًا له من البراهمة قال له : إنى أرى رسول الإسلام ، أعظم رجال العالم وأكملهم . فقال له الأستاذ حسن على :

وبماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فأجاب : لأنى أجد فى رسول الإسلام خلالاً مختلفة ، وأخلاقًا جمة ، وخصالا كثيرة : لم أراها اجتمعت فى تاريخ العالم لإنسان واحد فى آن واحد : فقد كان : ملكًا دانت له أوطانه كلها : يصرف الأمر فيها كما يشاء ، وهو – مع ذلك – متواضع فى نفسه : يرى أنه لا يملك من الأمر شيئًا ، وأن الأمر كله بيد ربه ، وتراه فى غنى عظيم : تأتيه الإبل موقرة بالخزائن إلى عاصمته ، ويبقى مع ذلك محتاجًا ولا توقد فى بيته نار لطعام الأيام الطوال ، وكثيرًا ما يطوى على الجوع ، ونراه قائدًا عظيمًا : يقود الجند القليل العدد ، الضعيف العدد : فيقاتل بهم ألوفًا من الجند المدجج بالأسلحة الكاملة ، ثم يهزمهم شر هزيمة ، ونجده مُحِبًّا للسلام مؤثرًا للصلح ،

---

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى ص ٧٢ – ٧٣ .

ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن ، وجأش هادئ ؛ ومعه ألوف من أصحابه : من كل شجاع باسل ، وصاحب حماسة وحميته تملأ جوانحه . ونشاهده بطلاً شجاعًا : يصمد وحده لآلاف من أعدائه ، غير مكترث بكثرتهم .

وهو مع ذلك رقيق القلب ، رحيم رءوف ، متعفف عن سفك قطرة دم ، وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها ، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ، ولا من أمور الفقراء المسلمين ومساكينهم ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم ، وبالجملة إنه إنسان يهمه أمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل إلى الله ، منقطع عن الدنيا ، فهو فى الدنيا وليس فيها ؛ لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله ، لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير ، ويريد لهم الخير ؛ لكنه لا يعفو عن أعداء الله ، ولا يتركهم ، ولا يزال ينذر الذين قد صدروا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم . تراه زاهدًا فى الدنيا عابدًا يقوم الليل لذكر الله ومناجاته ، كما تتصور من شمائله : أنه الجندى الباسل المقاتل بالسيف ، وتراه رسولاً حصيفًا ،ونبيًا معصومًا ، فى الساعة التى تتصوره فيها : فاتحًا للبلاد ظافرًا بالأمم ، وإنه ليضطجع على حصير له من خوص ، ويتكئ على وسادة حشوها من ليف ، حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب ، وننادى به ملكًا على بلاد العرب .

ويكون أهل بيته فى فاقة وشدة ، عقب استقباله الأموال العظيمة : آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية ، فتكون فى فناء مسجده أكوامًا ، وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة : تشكو إليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى ، حتى مجلت يدها وأثرت القربة فى جسمها والرسول – يومئذ – يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها ، فلا تنال بنته من ذلك ، إلا دعاءه لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربها .

وجاءه ذات يوم صاحبه عمر ، فأجال بصره فى الحجرة ، فلم يجد إلا حصيرًا من خوص قد اضطجع الرسول عليه وأثر فى جنبه ، كل ما فى البيت صاع من شعير فى وعاء ، وعلى مقربة منه شنٌّ معلق على وتد ، هذا كل ما كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب .

فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دموع تذرفها عيناه ، فسأله رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : مالى لا أبكى ، إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدنيا وينعمان بنعيمها ، وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى ، فقال له الرسول – ﷺ – « أما ترضى ياعمر ، أن يكون ذلك نصيب كسرى وقيصر من نعيم الدنيا ، وتكون لنا الآخرة خالصةً من دون الناس » ؟

وعندما أحدق النبى ﷺ : بجيوشه ليفتح مكة ، قام أبو سفيان إلى جانب العباس عن النبى ﷺ ، ينظران إلى المجاهدين من المسلمين : تقدمهم الأعلام الكثيرة ، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للإسلام ، فراعه ما أرى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى إليهم من القبائل المسلمة ، وأنهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف : لا يَصُده صادٌ ، ولا يمنعه شىء ، فقال لصاحبه : يا عباس ، إن ابن أخيك أصبح ملكًا عظيمًا ، فأجابه العباس – وهو يرى غير الذى يراه أبو سفيان – ليس هذا من المُلْكِ فى شىء يا أبا سفيان .. هذه نبوة ورسالة .

وعدى الطائى – وهو ابن حاتم الذائع الصيت الذى تضرب به الأمثال فى الجود والسخاء – كان سيد طيىء ، وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم ، وهو لا يزال على المسيحية ، فشاهد إعظام الصحابة للرسول ، وعليهم عدة الجهاد من الأسلحة والأسلحة للدفاع ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان ، تساءل فى نفسه : أهذا ملكٌ من الملوك ، أم رسول من رسل الله ؟ وفيما هو كذلك ، جاءت إلى النبى ﷺ امرأة فقيرة من إماء المدينة ، وقالت له : أريد يا رسول الله ، أن أسِرَّ إليك شيئًا فقال لها » : أنظرى فى أى سكك المدينة شئت أخلو لك » . ثم نهض معها وقضى لها حاجتها ، فلما رأى ابن حاتم الطائى هذا التواضع العظيم من الرسول العظيم – وهو بين أصحابه فى مثل عظمة الملك –انجلى عنه ظلام الباطل ، وتبين له الحقُّ واضحًا ، وأيقن أن هذا الأمر من رسالات الله ، فَعَمَد إلى صليبه فنزعه عنه ، ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ ، فى نور الإسلام .

وفى الجملة : إن كل ما ذكرته آنفًا ، ليس من الإغراق فى الثناء ، ولا من المبالغة فى المدح ، بل هو من حقائق الواقع : التى سجلها التاريخ بأصح ما استطاع أن يسجل به حقائقه[1] .

❑❑❑

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى ص ٧٦ – ٨٩ .

﴿ لكــن الله يشــهـد بمـا أنــزل
إليك أنزلـه بعلمــه والمـــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شهيـدًا ﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الثالث عشر عن :

محمد صلى الله عليه وسلم
بشــرًا . . . رســولا

محمد الرسول البشر

وهذه مجموعة من النصوص والأبحاث ، تنتهى بإعطاء صورة عن رسول الله ﷺ ، فى الجانب الجسمانى والروحى .

روى الإمام أحمد بسنده – عن أبى أمامة – قال :

قلت : يا رسول الله ... ما كان أول بدء أمرك ؟ ..

قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه خرج منها نورٌ أضاءت به قصور الشام :

يفسر ذلك قول الله سبحانه وتعالى – فيما ذكر عن إبراهيم عليه السلام – فى سورة البقرة الآية (١٢٩) .

﴿ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ .

وقوله سبحانه : ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدىَّ من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمدُ ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ ، « سورة الصف الآية ٦ » .

وعن أبى موسى – فيما رواه البيهقى – قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال : « أنا أحمد ، ومحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى التوبة والملحمة » .

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحْشَرُ الناس على قدمه ، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد » ، رواه البخارى فى الصحيح عن أبى اليمان ، ورواه مسلم عن عبد بن حميد عن أبى اليمان ، وأخرجه مسلم من حديث ابن عيينة وعقيل عن الزهرى والبخارى من حديث مالك بن أنس عن الزهرى .

من صفاته :

عن البراء رضى الله عنه ، قال كان رسول الله ﷺ ، أحسن الناس وجها ، وأحسنه خَلقًا . ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير . أخرجاه فى الصحيح .

يقول البـراء بن عازب قال : « كان رسول الله ﷺ » مربوعًا ، بعيد ما بين المنكبين ، يبلغ شعره شحمة أذنيـه ، عليه حلة حمـراء ، مـا رأيت شيئًا أحسن منـه » رواه البخـارى فى الصحيح عن أبـى عمر حفص بن عمر ، وأخرجه مسلم من حديث غندر عن شعبة »[1] .

ويقول : « كان رسول الله ﷺ مربوعًا ، بعيد ما بين المنكبين ، أعظم الناس وأحسَن الناس : جُمّته إلى أذنيه ، عليه حلة حمراء ما رأيتُ شيئًا قط أحسن منه » أخرجه فى الصحيح من حديث شعبة »[2] .

« أما كلامه فهو فصل لا فضول ولا تقصير . وكان ﷺ دمِثًا : ليس بالجافى ولا المهين : يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئًا » .

وعن أبى هريرة ، قال : « ما رأيتُ شيئًا أحسن من النبي ﷺ : كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدًا أسرع فى مشيه منه ، كأن الأرض تُطوى له ، إنا لنجتهد ، وإنه غير مكترث[3] .

عُجلت لهم طيباتهم .

عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب فى القصة[4] . قال : « فجلست فرفعت رأسى فى البيت ، فوالله ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر ، إلا أُهُبٌ ثلاثة فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى فقال : أفى شك أنت يا بن الخطاب أولئك قومٌ عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا ، فقلت : « استغفر الله يا رسول الله »[5] .

لم يكن فاحشًا :

عن عبد الله بن عمر يقول : « إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ، وإنه كان يقول : « إن خيارَكم أحسنكم أخلاقًا » – رواه مسلم فى الصحيح –[6] .

---

(١) دلائل النبوة ص ١٦٧ .
(٢) دلائل النبوة ص ١٧٨ .
(٣) دلائل النبوة ص ١٥٩ .
(٤) قصة زيارته الرسول ﷺ وتألمه لقلة ما رآه عنده من متاع الدنيا .
(٥) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٤٩ .
(٦) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٣٥ .

لا يجابه :

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقول : « مال بال أقوام يقولون كذا »[١] . فكان لا يسميهم بأسمائهم حتى لا يسبب لهم حرجًا .

من وصف أبى هريرة له :

عن أبى هريرة قال : « ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه » ، (أخرجه البخارى فى الصحيح من حديث سفيان الثورى وشعبه وأخرجه البخارى ومسلم من حديث الثورى)[٢] .

يبتسم :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يبتسم » .

رحيم بالأطفال :

عن أنس بن مالك قال : « ما رأيت أحدًا كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ » وذكر الحديث .

عن أنس بن مالك قال : « كان رسول الله ﷺ من أفْكَهِ الناس مع صَبى »[٣] .

لم يكن فاحشًا :

روى الترمذى بسنده عن عائشة رضى الله عنها : إنها قالت عن خلُق رسول الله : (لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ، ولا سخَّابًا[٤] فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، أو قال يعفو ويغفر) – شك أبو داود – ورواه الترمذى من حديث شعبة وقال : حسن صحيح .

وعن مسروق عن عبد الله بن عمرو[٥] قال : (لم يكن النبى ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا) ، وكان يقول : (إن خياركم أحسنكم أخلاقًا) ورواه مسلم من حديث الأعمش به[٦] .

---

(١) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٣٧ .
(٢) رواه مسلم فى الصحيح .
(٣) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٤٦ .
(٤) السخاب : الذى يرفع صوته لسوء خلقه .
(٥) الحديث فى صحيح البخارى ١٣٢/٣ جـ ١ الأميرية : حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبى حدثنا الأعمش ، قال : حدثنى شفيق عن مسروق . قال : كنا جلوسا مع عبد الله بن عمرو يحدثنا إذ قال ... . إلخ .
(٦) شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير ص ٢٠ – ٢١ ط الحلبى .

أنس ووصف الـــرسول ﷺ :

عن أنس قال : (كان الرسول ﷺ من أجمل الناس ومن أجود الناس ومن أشجع الناس) . رواه البخارى فى الصحيح عن سليمان بن حرب ، ورواه مسلم عن سعيد بن منصور .

وقال : « لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا ولا فحاشًا ولا لعانًا كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ما له تربت جبينه » رواه البخارى فى الصحيح عن محمد بن سنان .

بعثت داعيًا ورحمة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما خُير رسولُ الله ﷺ ، بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثمًا . فإن كان إثمًا ، كان أبْعَد الناس منه وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهَكَ حرمةُ الله تعالى فينتقم بها .

ورویَ أن النبی ﷺ ، لما كُسِرَت رباعيته وشُجَّ وجهُه يوم أحُدٍ ، شق ذلك على أصحابه شديدًا ، وقالوا : لو دعوت عليهم ، فقال : « إنى لم أبْعَثْ لعَّانًا ولكنى بُعثتُ داعيًا ورحمة .. اللهم اهْدِ قومى ، فإنهم لا يعلمون » .

ورُوى عن عمر رضى الله عنه : أنه قال فى بعض كلامه : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه ، قال : ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا﴾ ولو دعوت علينا مثلها هَلَكْنا من عند أخرنا وطىء ظهركُ وأدْمى وجهك ، وكُسِرَت رباعيتُك ، فأبيتَ أن تقول إلا خيرا . فقلت : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

– قال القاضى أبو الفضل – وفقه الله – انظر ما فى هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الإحسان ، وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم .. إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا وشفع لهم فقال : « اغفر » أو « اهد » ثم أظهَرَ سبب الشفقة والرحمة بقوله : « لقومى » ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال : « فإنهم لا يعلمون » .

من وصف السيدة عائشة :

عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ ، ضرب خادمًا له قط ، ولا ضرب امرأة له قط ، ولا ضرب بيده شيئًا قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيلَ منه شىء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن يكون لله ، فإذا كان لله انتقم له ، ولا عُرض عليه أمران إلا أخذ الذى

هو أيسر إلا أن يكون إثمًا ، فإن كان إثمًا ، كان أبعد الناس منه » . رواه فى الصحيح عن أبى كريب عن أبى معاوية[1] .

ينتصر للحق :

لا تغضبه الدنيا وما كان لها . فإذا تُعُوطى الحق ، لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصرَ له ، لا يغضَب لنفسه ولا ينتصر لها[2] .

أبلغونى حاجة الضعفاء :

قال : وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه – ثبَّت الله قدميه يوم القيامة .

عمله ديمة :

عن علقمة قال : سألت عائشة رضى الله عنها : كيف كان عمل رسول الله ﷺ ؟ هل كان يخص شيئًا من الأيام ؟ قالت : « لا ، كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ ، يستطيع ؟ » رواه مسلم فى الصحيح .

ويقول صاحب دلائل النبوة :

وجمع له ﷺ ، الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستنفره وجمع له الحذر فى أربع :

أخذه بالحسنى – قال سعيد والعلوى – : بالحسنى لِيُقْتدى به ، وتركه القبيح لينتهى عنه ، وفى رواية العلوى لِيتناهى عنه ، واجتهاده ، الرأى فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة ، وفى وراية العلوى : والقيام لهم فيما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة « ﷺ »[3] .

قال ابن إسحاق ، كان يسمى : الأمين . « بما جمع لله فيه من الأخلاق الصالحة »[4] .

أدب القرآن :

عن عطية العوفى فى قوله (تعالى) : ﴿وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾ قال : (أدب القرآن)[5] .

---

(١) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٣٣ .
(٢) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢١٤ .
(٣) دلائل النبوة جـ ١ ٣١٧ .
(٤) الشفاء ص ١٠٤ .
(٥) دلائل النبوة جـ ١ ص ٢٣٢ .

أجود الناس :

عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس . وكان أجودَ ما يكون فى رمضان ، حين يلقاه جبريل . وكان جبريل عليه السلام يلقاه فى ليلة من رمضان فيدارسهُ القرآن . قال : فَلَرَسُول الله ﷺ ، أجودُ بالخير من الريح المرسَلة » ، رواه البخارى فى الصحيح »[١] .

حليم :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كنت أمشى مع رسول الله ﷺ ، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجَذَبه جذبةً شديدة ، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبى ﷺ قد أثَّرت به حاشية الرداء ، من شدة جذبته ، ثم قال : « مُرْ لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء » – فى جـ ٧ ص ١١٥ .

وروى أن أعرابيًا جاءه يطلب منه شيئًا ، فأعطاه ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى لا ، ولا أجملت ، فغضِب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كُفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه ﷺ ، وزاده شيئًا ، ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيرًا ، فقال له النبى ﷺ : « إنك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شىء فإن أصبتَ فقل – بين أيديهم – ما قلت بين يدىّ ، حتى يذهبَ ما فى صدورهم عليك ، إن هذا الأعرابى قال : نعم ، فلما كان الغداة ، أو العشى ، جاء فقال ﷺ : « إن هذا الأعرابى قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى أكذلك ، قال نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا ، فقال ﷺ : مثَلى ومَثَل هذا مثل رَجُلٍ له ناقة شردت عليه ، فأتبعها الناسُ ، فلم يزيدوها إلا نفورًا ، فناداهم صاحبها : خلّوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفَقُ بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيثُ قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار[٢] .

شجاع :

عن شعبة عن أبى إسحاق : قال رجل للبَرَاء بن عازب رضى الله عنهما : « أفررتم عن رسول الله – ﷺ ، يوم حنين ؟ قال : لكن رسول الله ﷺ .. لم يفر .. إن هوازن كانوا قومًا رماة وإنا لما لقيناهم ، حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم ، واستقبلونا

(١) دلائل النبوة .
(٢) الشفاء ص ٩٦ ، ٩٧ .

بالسهام .. ، فأمَّا رسول الله ﷺ ، لم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان (ابن الحارث) أخذ بلجامها ، والنبى يقول .. أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب » . (خ) .

عن البراء رضى الله عنه قال له رجل : « يا أبا عمارة ، وليتم يوم حنين ؟ قال لا والله ، ما ولى النبى ﷺ ، لكن ولّى سرعان الناس . فلقيهم هوازن بالنبل ، والنبى ﷺ على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها ، والنبى ﷺ يقول : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

جوهر خلق رسول الله ﷺ :

ومع كل ما سبق ، فإننا نحب – بتوفيق الله – نحدد الصفة التى تحلى بها رسول الله : فكانت الأساس والمصدر لكل خلقٍ كريم :

لقد سئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها ، عن خُلُق رسول الله ﷺ ، فقالت : (كان خلقه القرآنَ) .

ومع أن هذا الوصف – من أم المؤمنين – واضح وضوحًا لا لَبْسَ فيه ، فإننا – مع ذلك – نحاول له تحديدًا ، نراه ضروريًا . وبيانًا نراه حتما :

ذلك أن الأخلاق القرآنية : تحدد الخلق الكريم فى حده الأدنى ، وترسم الفضيلة ، فى درجاتها الأولى ، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك ، وإنما يرسم القمم من مكارم الأخلاق ، ويوجه إلى السَّنَام منها ، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقربين :

إنه يتحدث عن « المقتصد » وعن « السابق بالخيرات ... إنه يتحدث عن أصحاب اليمين » ويتحدث عن « المقربين » ، ويبين أن المقربين ، أقل عَددًا من أصحاب اليمين ، فهم ثُلَّة من الأولين وقليل من الآخرين .

أما أصحاب اليمين ، فإنهم ثُلَّة من الأولين وثلة من الآخرين ، على حد التعبير – عن أصحاب اليمين وعن المقربين – فى سورة الواقعة .

ولنضرب لذلك مثلاً :

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل .

يقول الله تعالى : ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلُها﴾[1] .

---

(١) الشورى : ٤٠ .

ولكن القرآن – مع بيان عدالة هذا – يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم تلك هى : درجة « كظم الغيظ » .

وهذا الذى – مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة – بكظم غيظه ، أسمى فى ميزان الأخلاق الكريمة ، من الذى يقابل السيئة بالسيئة .

ولا يقف القرآن عند هذا الحد ، ذلك أنه يرسم درجة ثالثة من الخلق الكريم ، وذلك أنه يتجاوز « مقابلة السيئة بالسيئة » . « وكظم الغيظ » إلى « العفو » .

والعفو – مع المقدرة – أسمى من « مقابلة السيئة بالسيئة » وأسمى من « كظم الغيظ » ثم يتجاوز القرآن كل ذلك ، إلى الدرجة العليا ... درجة المقربين : وهى الإحسان . يقول تعالى : ﴿وجزاءُ سيئةٍ سيئة مثلُها ، فمن عَفَا وأصلحَ فأجره على الله﴾ .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿والكاظمينَ الغيظ ، والعافينَ عن الناس ، والله يحب المحسنين﴾ ، إنها درجات من الخلق الكريم ، كلها كريمة ، بيد أنها تتفاوت ، فيما بينها ، من كريم إلى أكرم ، كتفاوت الناس فى الشرف : من شريف إلى أشرف .

ويحق لنا الآن أن نتساءل :

أتريد السيدة عائشة رضى الله عنها ، حينما تصفه ، ﷺ بأن خلقه القرآن : تريد الخلق القرآنى الكريم فى حده الأدنى ؟

أم تريده فى حده الأوسط ؟ أم هل تريده فى حده الأسمى ؟

ويحل لنا القرآن هذه المسألة ، فيحدد – بصورة عامة وبطريقة مجملة – الدرجة التى وصل إليها الرسول ، ﷺ ، من الخلق القرآنى : فيقول سبحانه لرسول الله ﷺ ، ﴿ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيم﴾ .

يقول صاحب الشفاء : « أثنى عليه بما منحه من هباته ، وهداه إليه وأكد ذلك ، تتميما للتمجيد بِحَرْفَى التأكيد ، فقال تعالى : ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾ .

قيل : القرآن : وقيل : الإسلام : وقيل : الطبع الكريم . وقيل : ليس له همة إلا الله اهـ .

قال الواسطى : « أثنى عليه بحسن قبوله لِمَا أسداه إليه من نِعَمِه ، وفضَّلَه بذلك على غيره ؛ لأنه جبله على ذلك الخلقِ » اهـ .

وقد تحدث الصحابة والتابعون عن هذه الآية الكريمة :

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : معناه : « لا دين أحبُّ إلى الله ، ولا أرضى عنه منه ، وهو دين الإسلام » .

وقال قتادة : « هو ما كان يأتمر به من أوامر الله ، وينتهى عنه ، من نهى الله تعالى ، والمعنى إنك على الخلق الذى أمَرَك الله به فى القرآن » اهـ .

ومع ذلك ، ومع كل ما قيل فى هذه الآية الكريمة ، من أنها تكريم وتمجيد ، ومدح ، وثناء ، ومع إيماننا بأنها تتضمن كل المعانى الكريمة التى قيلت ، والمعانى الشريفة التى ستقال - فإننا نرى أن الأمر ما زال بحاجة إلى بيان الدرجة بيانًا تاما .

فقد يتساءل بعض الناس عن هذا الخلق العظيم ، أكان يشارك رسولُ الله ﷺ ، فيه نبىٌّ مكْرَم ؟ أكان يشاركه فيه رسول مجتَبىً ؟ أكان يشاركه فيه ملَك مُقَّرب ؟

ألم يكن سيدنا إبراهيم على خلق عظيم ، وهو الحليم الأوَّاه المنيب ؟

ألم يكن سيدنا إسماعيل على خلق عظيم ، وكان عند ربه مرضيًا ؟

ألم يكن سيدنا عيسى ، على خلق عظيم ، وقد جعله الله مباركًا أينما كان ؟

على نبينا وعليهم جميعًا الصلاة وأزكى التسليم .

والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . ومنهم جبريل وميكائيل وحملة العرش - أليسوا على خلق عظيم ؟

أيشارك أحد من هؤلاء رسول الله ﷺ فى درجته ؟

إيما يكون رسول الله ، ﷺ فى الخلق العظيم ؟

ويسعفنا القرآن الكريم بهذا التحديد ، إسعافًا يرضى التطلعَ إلى المعرفة ،ويشرح صدور المحبين لرسول الله ﷺ .

إن القرآن يحسم الأمر حسمًا ، لا يدع فيه مجالاً للبس ، ويسفر عنه إسفارًا لا يَدَعُ مجالاً لريب ..

يقول الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿قل إنّ صلاتى ونسكى ومحياىَ ومماتى للهِ ربِّ العالمين . لا شريك له وبذلك أمِرت وأنا أوَّل المسلمين﴾[1] .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

هذه الآية القرآنية الكريمة ، تحدد درجة الأخلاق القرآنية التى وصل إليها الرسول ﷺ : إنها ذروتها وسَنامها .

ولقد بعثَ ﷺ ، ليتمم مكارمَ الأخلاق .

إنه ﷺ ، بعِث ليتمم المكارم الأخلاقية :

ليتممها بذاته ، بسلوكه ، وليتممها ، بقوله ، برسالته .

إنه لم يبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب ، وإنما بعث ليتمم مكارمها ومكارم الأخلاق لم تكن – قبل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه – قد تمت ، إن أولَ المسلمين لم يكن قد وجد بعد ، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصةً ، كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق ، وهى إسلام الوجه الله : إسلامًا تامًّا .

إن الكائنات لم تكن قد وصلت – لا فى نبى مرسل ، ولا فى ملك مقرب – إلى الذروة من إسلام الوجه لله . والذورة من إسلام الوجه لله أو أول المسلمين – والتعبيران سواء – إنما هو الذروة من مكارم الأخلاق .

إن الكائن الربانى : إن أول المسلمين ، أولهم بإطلاق ، أولهم بالنسبة للملائكة ، وأولهم بالنسبة لبنى آدم – أولهم قديمًا ، وأولهم حديثًا ، وأولهم إلى الأبد ... إن أولَ المسلمين لم يكن قد وجد بعد .

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة ، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة .

كان الكون ناقصًا : مادة ومعنى ، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد ، وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح ، وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة : يكمل الله به الدين ، ويتم به النعمة ، ويرضى رسالته دينا عامًا خالدًا للإنسانية جمعاء : هو إسلام الوجه لله ، وينزل القرآن محددًا إسلام الوجه لله وسائل ، ومحددًا إسلام الوجه لله غاياتٍ ... محددًا إسلام الوجه لله طرقًا وأساليب ، ومحددًا له بواعث وأهدافًا .

ومن أجل أن الإسلام هو إسلام الوجه لله ، والتسليم له ،والاستسلام لما يحبه ويرضاه :

كان من يبتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه .

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله ؟ .

إن إسلام الوجه لله ، هو جوهر التدين .. إنه دين القَيِّمَة .. إنه الدين الوحيد .

والنص الوحيد : النص الإلهى الفريد فى العالم كله ،الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله – إنما هو القرآن .

وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله ، كان بذلك فى ذروة الإنسانية ، وفى الذروة من مكارم الأخلاق .

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله ، لابد من أن يكون أحدهم الأول ، فكان رسول الله ، ﷺ ، أولهم بإطلاق مطلق .

﴿قل إنَّ صلاتى ونُسُكِى ومحيايَ ومماتِى لله ربِّ العالمين . لا شريك له وبذلك أُمِرت وأنا أوَّل المسلمين﴾ « الأنعام ١٦٢ » .

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصًا آخر غير الرسول ﷺ ، ولو لم يوجد أول المسلمين المتمم لمكارم الأخلاق – ذلك الذى كانت صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين – لو لم يوجد هذا الكائن الربانى – لظل العالم مستشرفًا إليه ليكملَ به ، ولظل العالم ناقصًا مادةً وروحًا ...

فلما وجد ، ﷺ ، انتهت حكمة الله بوجوده ، وبرسالته إلى ما بيَّنه الله تعالى بقوله : ﴿اليومَ أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نِعْمَتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[1] .. صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

وما من شك فى أن الأخلاق الكريمة : التى حث عليها القرآن الكريم ، وتابعها الرسول ﷺ : متناسقًا مع الحث عليها – لا تكاد تحصى ، منها مايلى :

عن أنس عن النبى ﷺ ،قال « ثلاث من كنَّ فيه وَجَدَ بهن حلاوة الإيمان ؛ من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يجب المرء : لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعودَ إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه – كما يكره أنَ يقْذَفَ فى النار » .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن عبد ، حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ – قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويَدِهِ ، والمهاجر من هجر ما نَهى الله عنه » . (خ)

---

(١) المائدة : ٣ .

عن أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه » . (خ)

حدث شعبة عن زبيد ، قال : سألت أبا وائل ، عن المرجئة ، فقال : « حدثنى عبدالله أن النبى – ﷺ – قال : « سِبَاب المسلم فُسوقٌ ، وقتاله كفر » . (خ)

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، قال : « كل سلامى من الناس عليه صدقة » كل يوم تطلع فيه الشمس : تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته ليحمل عليها ، أو ترفع له عليها صدقه . (خ جـ ٧ ص ٤٣) .

عن أبى مسعود عن النبى – ﷺ – قال : « إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها ، فهو له صدقة » . (خ)

حدثنا الحكم بن نافع ، قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى ،قال : حدثنى عامر بن سعد عن سعد بن أبى وقاص : أنه أخبره أن رسول الله ﷺ ، قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى (فم) امرأتك » . (خ)

عن عبدالله بن عمرو ، قال : رسول الله ﷺ : « أربعٌ من كنَّ فيه ، كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خلة منهن ، كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها :إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فَجَر » .

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

المسئولية :

عن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : « سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته ، والإمام راع ومسئول عن رعيته ،والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته – قال : وحسبت أن قد قال : والرجل راع فى مال أبيه » . (خ)

وكان الصحابة لا يرفعون صوتهم فوق صوته ﷺ .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك عِلمه ، فأتاه فوجده جالسًا فى بيته منكِّسًا رأسه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال

شر كان يرفع صوته فوق صوت النبى ﷺ ، فقد حبط عمله وهو من أهل الأرض فأتى الرجل فأخبره أنه قال كذا وكذا ،فقال موسى بن أنس فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : اذهب إليه فقل له :إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة[1] .

موقف الصحابة من الرسول ﷺ

يقول صاحب الرسالة المحمدية :

تأثير عاطفة الحب وسر تفانى الصحابة فى طاعة الرسول : لأن الطاعة الكاملة المخلصة ، والتخلق بأخلاق الرسول ؛ والانصباغ بصبغته ، وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف ، وبذل المهجة والنفس والنفيس فى سبيل دعوته – لا يتأتى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب ، والحب العميق الذى يملك على الإنسان مشاعره ، ويستولى على قلبه ، ولذلك قال تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤُكم وإخوانكم وأزواجُكم وعشيرتكُم وأموالٌ اقْتَرَفتُمُوها وتجارة تخشَوْنَ كَسَادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من اللّهِ ورسولِهِ وجهادٍ فى سبيله فَتَرَبَّصُوا حتى يأتِيَ الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾[2] .

ولذلك ؛ كان الصحابة رضى الله عنهم ؛ من أحرص الناس على طاعته ، وأسرعهم إليها ؛ وأنشطهم فيها ، وأصبرهم عليها ، ولهم فى ذلك القِدح المُعَلّى والنصيب الأوفر ، إلى يوم القيامة .

ومنهم أبو بكر الصديق، الذى كان رسول الله ﷺ أكرم عليه وأحب إليه من نفسه وحياته ، وصحته أعز عليه من حياته وصحته ، وقد ضَرَبه عتيبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين وبِحَرْفهما لوجهه، ونزا على بطنه ، حتى مايعرف وجهه من أنفه ؛ وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب لا يشكون فى موته ، ولما تكلم آخر النهار قال: ما فَعَل رسول الله ﷺ؟ ولما قيل له : إنه سالم صالح ، قال : إن لله علىَّ ألا أذوقَ طعامًا ولا أشربَ شرابًا أو آتى رسول الله ﷺ[3].

ومنهم المرأة الأنصارية التى كان الناس يخبرونها بشهادة (استشهاد) أعز أقاربها : أبيها

---

(١) صحيح البخارى جـ ٨ ص ٢٥٤ – ٢٥٥ ط الشعب .

(٢) سورة التوبة : ٢٤ .

(٣) البداية والنهاية :جـ ٣ ص ٣٠ .

وأخيها وزوجها يوم أحد ، فقالت ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا خيرًا ،هو بحمد الله كما تحبين ؛ فلما رأته قالت .. كل مصيبة بعدك جلل[1] .

خصائص هذه الحضارة وسماتها :

إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية : لا تعرف الوثنية والشرك ، ولا تسمح به فى لون من الألوان ، فى أى مكان وزمان : فكل دعاء إبراهيم وأكبر همه :

﴿واجنبنى وبَنىَّ أن نعبدَ الأصنام﴾[2] .

وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعًا : ﴿فاجتَنِبُوا الرجس من الأوثان واجتَنِبُوا قولَ الزور . حنفاءَ لله غَيْرَ مشركين به﴾[3] .

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات ، والتكالب على حطام الدنيا ، والتناحر على جيف المادة ، والتقاتل فى سبيل الحكومات والمناصب .

إنها دعوة لم تزل عقيدتها :﴿تلك الدارُ الآخرةُ نجعلَهُا للذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين﴾[4] .

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان ، والتمييز بين الألوان والأوطان ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى :

﴿يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لِتَعَارَفُوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[5] . وقد قال خاتم الرسل ﷺ : « ليس منَّا من دَعا إلى عَصَبية ؛ وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية[6] » وقال لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين : « دعوها فإنها فتنة »[7] .

إنها حضارة : تُعْرَفُ فى العقيدة : بالتوحيد ؛ وفى الاجتماع : باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها ،وفى دائرة الأخلاق والمنهج : بتقوى الله والحياء والتواضع ، وفى ميدان الكفاح : بالسعى للآخرة والجهاد لله ، وفى ساحة الحرب : بالرحمة والعاطفة

---

(١) ابن اسحاق والبيهقى .
(٢) سورة ابراهيم : ٣٥ .
(٣) سورة الحج : ٣٠ ، ٣١ .
(٤) سورة القصص : ٨٣ .
(٥) سورة الحجرات : ١٣ .
(٦) رواه ابن داود .
(٧) رواه البخارى .

الإنسانية ، وفى أنواع الحكومات : بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية ، والخدمة على الاستخدام : وتعرف فى التاريخ : بخدمة الإنسانية المخلصة وإنقاذها من براثن الجاهلية والدعوات الطاغية ، وفى العالم : بآثارها الزاهرة الزاهية ، وخيراتها المنتشرة الباقية .

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله ؛ وقامت على أساس الإيمان . فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينى واللون الربانى والروح الإيمانى[(١)و(٢)] .

أدب الغلمـان

حتى الغلمان :

عن سلمة بن الأكوع ، رضى اللهعنه قال : مرَّ النبى ﷺ على نفر ممن أسلم ينتضلون ،فقال النبى ﷺ : « ارمُوا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميًا ، ارموا وأنا مع فلان . قال فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال الرسول ﷺ : مالكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ قال النبى ﷺ : ارموا فأنا معكم كلكم »[(٣)] .

ويقول صاحب كتاب الشفاء :

وكانت شعرات من شعره فى قلنسوة خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر .

وكانوا متبركين بحمل شىء من آثاره :

كانت فى قلنسوة خالد بن الوليد ، شعرات من شعر الرسول ﷺ ؛ فسقطت قلنسوته فى بعض حروبه ، فشد عليها شدة أنكر عليه أصحاب النبى ﷺ كثرة من قُتِل بها فقال : لم أفعلها بسبب القلنسوة ، بل لما تضمنته من شعره ﷺ ، لئلا أُسْلَبَ بركَتها ، وتقع فى أيدى المشركين .

ورؤى عمر واضعًا يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر ؛ ثم وضعها على وجهه – ولهذا كان مالك رحمه الله ، لا يركب بالمدينة دابة ، وكان يقول أستحيى من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة[(٤)] .

وفى الصحيح عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها : أنها أخرجت جبة طيالة وقالت : كان رسول الله ﷺ يلبسها ، فنحن نغسلها للمرضى : يستشفى بها ، وأخبر القاضى أبو على

---

(١) رسالة (ملة ابراهيم وحضارة الإسلام) للمؤلف بتغيير يسير ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .
(٢) النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن ص ٧٦ – ٧٨ .
(٣) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٤٥ – ٤٦ .
(٤) الشفاء ص ٤٨ ق ٢ .

عن شيخه أبى القاسم بن المأمون قال : كانت عندنا قصعة من قصاع النبى ﷺ ، فكنا نجعل فيها الماء للمرضى فيستشفون بها[1] .

وعن ابن سيرين قال :قلت لعبيدة : عندنا شعر النبى ﷺ ، أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس .. فقال : لأن تكون عندى شعرة منه ، أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها ... (خ) .

وعن ابن سيرين عن أنس ، أن رسول الله ﷺ ، لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول من أخذ من شعره ... (خ) .

ازدادت المحبة فى الآثار النبوية :

ووصل الأمر فى حب التبرك بالرسول ﷺ إلى هذه الصورة التالية :

عن عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال :

« رأيت رسول الله ﷺ فى قبو حمراء من أدَمَ ، ورأيت بلالاً أخذ وضوء رسول الله ﷺ ؛ ورأيت الناس يبتدرون ذاك الوضوء ؛ فَمَن أصاب منه شيئًا تمسح به ، ومن لم يصب منه شيئًا أخذ من بلل يد صاحبه .

ويأتون إليه بآنياتهم :

عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله ﷺ – إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنياتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه ، فربما جاءوه فى الغداة الباردة فيغمس يده فيها .

رواه مسلم فى الصحيح .

وبعد فقد روى الإمام البخارى بسنده :

عن أنس قال النبى ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » (خ)

وهل أتاك حديث جلجل أم سلمة ؟

عن عثمان بن موهب قال :

كان عند أم سلمة جلجل من فضة ضخم فيه شعر الرسول ﷺ وكان (فكان) إذا أصاب إنسانًا الحُمَّى ، بعث إليه فخضخضته فيه ، ثم ينضحه الرجل على وجهه . قال : بعثنى

---

(1) الشفاء ص ٢٧٨ .

أهلى إليها فأخرته فإذا هو هكذا وأشار إسرائيل – للراوى – بثلاثة أصابع وكان فيه شعرات حمر .. رواه البخارى فى الصحيح عن مالك بن إسماعيل عن إسرائيل[1] .

وفيما روى البخارى عن الوضوء :

عن أبى جحيفة قال :

« خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة ، فأُتِىَ بوضوء ، فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فَضْلِ وضوئه فيتسمون به » .. (خ)

وقال عروة : عن المسور وغيره يصدق كل واحد منهما صاحبه ، وإذا توضأ النبى ﷺ ، كادوا يقتتلون على وضوئه . (خ)

روى البخارى بسنده :

عن عقبة بن عامر أن النبى ﷺ خرج يومًا فصلى على أهل أحُد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال :

« إنى فَرَطُكُم[2] وأنا شهيد عليكم ،إنى والله لأنظر إلى حوضى الآن وإنى قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض ، وإنى والله ، ما أخاف بعدى أن تشركوا ؛ ولكن أخاف أن تنافسوا عليها » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يقتسم ورثتى دينارًا » : ماتركت – بعد نفقة نسائى ومؤنة عاملى – فهو صدقة » (خ) .

عن عمرو بن الحارث ختن رسول الله ﷺ – أخى جويرية بنت الحارث فقال :

« ما ترك رسول الله – ﷺ – عند موته درهمًا ولا دينارًا ، ولا عبدًا ولا أمة ، ولا شيئًا ، إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضا جعلها صدقة » (خ) .

عن أبى بردة قال : أخرجت لنا عائشة رضى الله عنها كساء ملبدًا ، وقالت : فى هذا نزع روح النبى ﷺ ، وزاد سليمان عن حميد عن أبى بردة قال : أخرجت إلينا عائشة إزارًا غليظًا مما يصنع باليمن ، وكساءً من هذه التى يدعونها[3] الملبدة[4] .

---

(١) دلائل النبوة ص ١٧٦ .
(٢) أى متقدمكم لأهيئ لكم .
(٣) تدعونها .
(٤) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٠١ .

قال رسول الله ﷺ :

أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسُوا ، لواء الحمد بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر[1] .

عن أنس بن مالك قال : كان النبى ﷺ أحسن الناس (وجهًا) وأجود الناس ؛ وأشجع الناس . ولقد فزع أهل المدينة ليلة فركب فرسًا لأبى طلحة عريان فخرج الناس فإذا هم برسول الله ﷺ قد سبقهم إلى الصوت ، قد أستبرأ الخبر ، وهو يقول : لن تراعوا ؛ وقال النبى ﷺ : لقد وجدناه بحرًا (أو) إنه لبحر » قال حماد : وحدثنى ثابت – أو بلغنى عنه – قال « فما سُبِقَ ذلك الفرس بعد ذلك قال : وكان فرسًا (يبطأ) رواه البخارى فى الصحيح[2] » .

وقال على رضى الله عنه : إنا كنا إذا حمى البأس . ويروى – اشتد البأس – واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ – وهو أقربنا إلى العدو – وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا ، وقيل كان الشجاع هو الذى يقرب منه ﷺ ، إذا دنا العدو ، لقربه منه[3] .

ويقول الإمام ابن كثير :

وذكرت فى التفسير عن بعض السلف : أنه استنبط من قوله تعالى : ﴿فقاتِلْ فى سبيل الله لا تُكَلَفُ إلا نفسك وحَرِّض المؤمنين﴾[4] أن رسول الله ﷺ كان مأمورًا : ألا يفر من المشركين إذا واجهوه ، ولو كان وحده من قوله « لا تُكَلَّفُ إلا نفسك » .

وقد كان ﷺ من أشجع الناس ، وأصبر الناس ، وأجلدهم ، ما فَرَّ قط من مُصَافٍ ولو تولى عنه أصحابه .

قال بعض أصحابه : كنا إذا اشتد الحرب ، وحمى الناس ، نتَّقى برسول الله ﷺ .

ففى يوم بدر ، رمى ألف مشرك بقبضة من حصى فنالتهم أجمعين حين قال : « شاهت الوجوه » .. وكذلك يوم حنين كما تقدم ، وفر أكثر أصحابه يوم أحد ، وهو ثابت فى مقام لم يبرح منه ولم يبق معه إلا اثنا عشر ، قتل منهم سبعة وبقى الخمسة ، وفى هذا الوقت قتل أبى بن خلف لعنه الله فعجله الله إلى النار .

---

(١) الشفاء ص ١٦٨ .
(٢) دلائل النبوة ط ص ٢٤٢ .
(٣) الشفاء ص ٨٩ .
(٤) النساء : ٨٤ .

ويوم حنين ولى الناس كلهم ، وكانوا يومئذ اثنى عشر ألفًا ، وثبت هو فى نحو من مائة من الصحابة ، وهو راكب يومئذٍ بغلته وهو يركض بها إلى نحو العدو ، وهو ينوه باسمه ويعلن بذلك قائلاً : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » حتى جعل العباس وعلى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، يتعلقون فى تلك البغلة ، ليبطئوا سيرها خوفًا عليه من أن يصل أحد من الأعداء إليه .

وما زال كذلك حتى نصره الله وأيده فى مقامه ذلك .

وما تراجع الناس إلا والأشلاء مجندلة بين يديه ﷺ .

النصوص لا تعدل

وعند النوم :

عن البَرَاء بن عازب قال : قال النبى « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل :

« اللهم أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ... ، اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت ؛ ونبيك الذى أرسلت » فإن مت من ليلتك ، فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به . قال : فرددتها على النبى ﷺ ، فلما بلغت : اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت .. قلت ورسولك ... قال لا .. ونبيك الذى أرسلت » ..

وكان من دعائه :

اللهم إنى أسألك رحمة تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى وتلم بها شعثى ، وتصلح بها غايتى وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى وترد بها أُلفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء . اللهم إنى أسألك الفوز فى القضاء ، ونُزُلَ الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء[1] .

النبى العابد

ألف النسك والعبادة والخلـ ـوة طفلاً وهكذا النجبـــاء
وإذا حلَّت الهـــداية قلبًا نَشِطَت فى العدة الأعضاء

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هى :

(١) الشفاء ص ٦١ .

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾[1] ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوضعها ،ومفهومها وجوها – شعارًا عاما وتوجيهًا شاملاً ، فما كنت تعنى بروحها ، القراءة فحسب ، وإنما كانت تعنى : أنه – منذ هذه اللحظة – يجب أن يكون كل أمر باسم الله : فعلاً كان هذا الأمر أو تركًا .

ولقد تأكد هذا الاتجاه وأصبح سافرًا فيما بعد ، بل لقد أصبح من الأوامر المفوضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿قل إن صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ؛ لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[2] .

على أن المسألة : أشمل من ذلك وأعم ، إذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا .

إن الله سبحانه قد أخبر فى قرآنه الكريم : أنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة ، يقول سبحانه :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[3] .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ؛ والثمرة التى يجب أن يعمل الإنسان على تحقيقها إذن إنما هى العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة :

﴿أقم الصلاة لدلُوك الشمس إلى غَسَق الليل ، وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا ، وقل رب أدخلنى مُدْخل صدق ، وأخرجنى مُخرجَ صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرًا﴾[4] .

﴿واسجد واقترب﴾[5] .

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾[6] .

﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾[7] .

---

(١) العلق ١ .
(٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) الذاريات : ٥٦ .
(٤) الإسراء ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .
(٥) العلق ١٩ .
(٦) الحجر ٩٩ .
(٧) الطور ٤٨ ، ٤٩ .

وما من شك فى أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة ؛ إنه سبحانه الغنى المطلق ، والمعطى المطلق ، إنه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغنى ، إنه القائم بنفسه وغيره هو المحتاج .

وما كانت العبادة إلا لأجل تكميل الإنسان ، فمن فضل الله على عباده ، أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة ؛ ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه ، فضلاً من الله ورحمة ، إنها راجعة إليه فى الدنيا ، وراجعة إليه فى الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ؛ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[1] .

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية ، وبرسوله الكريم : أن أول كلمات الوحى من الوحى : كانت توجيهًا للرسول وللمسلمين ، بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلاً أو شربًا مثلاً .

واستجاب الرسول ﷺ لهذا لتوجيه السامى ، الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ؛ واستمر طيلة الوحى .

إن الرسول ﷺ حينما فاجأه الوحى ،فعاد يرجف فؤاده إلى منزله الطاهر وقال : « زملونى زملونى » ، ونزل عليه قوله تعالى :

﴿يأيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾[2] .

وكذلك الشأن فى كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل :

﴿فاصبر على ما يقولون ، وسبِّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبِّح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾[3] .

وهنا علق سبحانه الرضى ، وطمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد ، على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ، ويشير الله إلى ذلك أيضا فيقول :

---

(١) النحل ٩٧ .
(٢) المزمل ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٣) طه :١٣٠ .

﴿فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾[1] .

واستجاب الرسول ﷺ استجابة كاملة ، للتوجيه الإلهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ، إذ أنه كان يعملها بسم الله ، لقد جعل صلاته ؛ ونسكه ؛ وجعل حياته بأكملها ؛ بل ومماته أيضًا لله رب العالمين ؛ لقد جعل كلامه ؛ وصمته ؛ وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته ؛ بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه فكان ذلك توجهًا به إلى الله فكان عبادة له ، وهذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أول المسلمين .

أولهم منذ خلق الله العالم إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها باعتبار أن الدين عند الله - منذ الأزل إلى الأبد إنما هو : الإسلام .

لقد صير الرسول ﷺ الحياة كلها عبادة لا تفتر .

وإذا ما استحالت إلى عبادة ، فقد استحالت إلى قوة ؛ أرأيت حينما تجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ومن العلم عبادة ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى على المعاش عبادة ، ومن ؛ ومن ... هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ ، وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ وهل يسعدون أم يشقون ؟ .

ومهما يكن من شيء ، فقد استجاب الرسول ﷺ استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذكرًا لها ، فقال سبحانه :

﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ، ونصفه وثلثه﴾[2] .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصور هذا الجانب من حياة الرسول ﷺ ، ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته ﷺ أهداف :

١ - تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة .

٢ - رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة ، من الناحية النفسية ، فليس هناك علاج للشك والحيرة والتردد يعادل فى نفاسته العبادة ، والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك إنما هى « صلِّ » .

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى ، بل للاضطراب النفسى أيا كان .

---

(١) ق : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) المزمل : ٢٠ .

ومتى وجدت النفس المطمئنة – والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة – فإن الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول بإقرار أطباء الأجسام أنفسهم ، ثم إنه – بإقرار أطباء الأجسام أيضًا – لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية .

٣ – وهذه الأسوة بالرسول ﷺ التي نرجوها : ستكون سببًا في تفريج الضيق المادى .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[١] .

﴿ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٢] .

وهذه الأحاديث التي نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف ، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال ؛ فإنا قد تحرينا تحريًا كاملاً ألا نذكر فيما يلى – إلى آخر الكتاب – حديثًا ضعيفًا .

الصلاة

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « أن النبى ﷺ ، كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يارسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ !

قال : أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا » !

أما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

صليت مع النبى ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به ؟

قال : أجلس « وأدعه » .

ولعل لابن مسعود عذره ، فقد كان ﷺ ، يقرأ الركعة الأولى مثلاً : سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، وفى الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ؛ ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك ؛ حينما كان يفعله منفردًا فى جوف الليل ، أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف .

---

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) النحل : ٩٧ .

وقد ورد فى السنة الصحيحة إطالة الرسول ﷺ القراءة فى الركعات التى يصليها فى الليل ، وبسبب هذه الإطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة .

« عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى ﷺ يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجيء المؤذن فيؤذنه » ؟

وكان الرسول ﷺ : يستغرق فى صلاته الليلة ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

أتيت النبى ﷺ : وهو يصلى ولجوفه أزيز المرجل يعنى يبكى » .

وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول ﷺ بقوله :

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وكان ﷺ يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ ، يتوضأ لكل صلاة ، قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث » .

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول ﷺ فى الصلاة : كان عند الإقامة يقول : « أقامها الله وأدامها » . « وكان ﷺ إذ قام إلى الصلاة طأطأ رأسه » .

قالت عائشة رضى الله عنها : (لم يكن ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتى الفجر) .

عن سماك بن حرب قال : (قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم كثيرًا ، كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى منه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام) .

(وكان ﷺ يدخل فى الصلاة ، فيريد أطالتها فيسمع بكاء الصبى فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه) .

(وكان ﷺ يقرأ بسورة « الجمعة » فى الركعة الأولى ، وبـ « إذا جاءك المنافقون » فى الثانية) عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بسورة « الطور » .

وكان ﷺ يقرأ فى المغرب بسورة « والمرسلات عرفا » وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ﷺ .

وعن أم هاشم بنت حارثة بن النعمان قالت : (ما أخذت « ق والقرآن المجيد » إلا عن لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس) .

كان ﷺ يقرأ فى صبح الجمعة : « ألم . تنزيل .. » السجدة ، و« هل أتى على الإنسان حين من الدهر » رواه الشيخان .

من حديث أبى هريرة ، وإنما كان يقرؤهما كاملتين ، وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة : بسورة « سبح اسم ربك الأعلى » وسورة « هل أتاك حديث الغاشية » .

وكان « يكثر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

« وكان ﷺ ، يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ؛ وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » .

« وفى السجود يقول ﷺ . اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، ولا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

« وعن حذيفة ، كان يقول ﷺ فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده ، سبحان ربى الأعلى » .

« وعن عائشة رضى الله عنها : كان ﷺ يكثر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده ؛ (سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى) يتأول القرآن » رواه مسلم ومعنى يتأول القرآن : يعمل بما أمر به ، كما فى قوله تعالى : ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا﴾[1] . فكان ﷺ ، يقول هذا الكلام البديع فى الجزالة المستوفى ما أمر به فى الآية .

الصيام

أما إذا جئنا إلى رمضان وإلى الصيام ، على وجه العموم .. فالأحاديث التالية ، توضح بعض الأمر : كما أن أحاديث الصلاة التى رويناها ، إنما بينت إشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام .

فرض صوم رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، فتوفى سيدنا رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات .

---

(١) النصر : ٣ .

عن عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ : إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ؛ وأيقظ أهله وجد وشد المئزر » .

وعنها قالت : « كان ﷺ يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخير ما لا يجتهد فى غيرها » .

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى » .

« كان النبى ﷺ ، يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يومًا » .

« إذا دخل العشر الأخير طوى فراشه ؛ واعتزل النساء ، واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحورًا » .

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا ، قالوا : إنك تواصل ، قال : « لست كهيئتكم إنى أظل أطعم وأسقى » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ لا يفطر الأيام البيض فى حضر ولا سفر ، وهى ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبى ﷺ يدعهن : صيام عاشوراء ، والعشر – أى تسع ذى الحجة – والأيام البيض من كل شهر ، وركعتا الفجر » .

« كان صلوات الله عليه وسلامه ، يتحرى صيام يوم الأثنين والخميس » .

« كان النبى ﷺ ، يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر » .

ومن العبادة الذكر

روى مسلم وأحمد عن النبى ﷺ : « لا يقعد قوم ، يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان صلوات الله وسلامه عليه . يذكر الله على كل أحيانه » .

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره : مثل الحى والميت » وأفضل الذكر قراءة القرآن :

« ومن قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن : كالبيت الخرب » .

« اقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وبينما جبريل عليه السلام ، قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك : « فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » .

ولأنّ لا إله إلا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على أنحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه :

« أفضل الذكر لا إله إلا الله » .

عن أبى موسى رضى الله عنه قال « قال لى رسول الله ﷺ : ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة » .

فقلت : بلى يا رسول الله .

قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

« قال رسول الله ﷺ لقيت إبراهيم ﷺ ، ليلة أسرى بى ، فقال يا محمد أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غرسها . سبحان الله . والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وكان ﷺ يقول بأعلى صوته : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون » .

وقال : « من قال : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » .

وقال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه لا مبيت لكم ولا عشاء ، فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله . قال الشيطان أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه . قال : أدركتم المبيت والعشاء » .

وقال : « الطهور . شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله ، تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ؛ فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » .

وقال : « إن أحب الكلام إلى الله . سبحان الله وبحمده » .

وقال : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » .

وقال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ؛ ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

❑❑❑

الدعـاء

وقال صلوات الله عليه وسلامه : « الدعاء هو العبادة » .

أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم » .

قيل لرسول الله ﷺ : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » .

« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل »

« لايزال يستجاب للعبد » ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول ، قد دعوت الدعاء فلم أره يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة إلا أتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، فقال رجل من القوم : إذن نكثر ، قال : الله أكثر » .

« كان ﷺ ، يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك » . ومن جوامع دعائه ما يلى :

« أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول ، حين أسأل ربى ؟

قال : « قل اللهم اغفر لى وارحمنى ، وعافنى ، وارزقنى ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك » .

ومن جوامعه ﷺ :

« اللهم إنى أسالك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار » .

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ ، بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئًا .

قلت : يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئًا :

فقال : « ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟ . تقول : اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ ، وأنت المستعان ،وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بك » اهـ .

« اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والأهواء » .

« اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى » .

عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة رضى الله عنها ، يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول ﷺ إذ كان عندك ؟

قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » اهـ .

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى ، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر » .

« اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

« اللهم اجعل فى قلبى نورًا ، وفى بصرى نورًا ، وفى سمعى نورًا ، وعن يمينى نورًا ، وعن يسارى نورًا ، وتحتى نورًا ، وأمامى نورًا ، وخلفى نورًا ، واجعل لى نورًا » .

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه : الصلاة :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه قال لرسول الله : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى .

قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول بين السجدتين : « اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى » .

« عن معاذ رضى الله عنه ، أن الرسول ﷺ أخذ بيده وقال : يا معاذ ، والله ، إنى لأحبك ، ثم أوصيك : يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة ، أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وعند الإفطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت » .

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم » .

عند الكرب :

« يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » .

وعند الكرب أيضًا :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما إذا كان الكرب شديدًا فيحسن أن يكرر الإنسان دعاء الرسول ﷺ عند عودته من الطائف وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ؛ ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وإذا خاف قومًا قال : « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » .

لسداد الدين :

« ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ؟ لو كان عليك مثل جبل دينًا أداه الله عنك ، قل : « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك » .

وعند الخروج من البيت :

« عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قال – إذا خرج من بيته – بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله : يقال له هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

عند النوم واليقظة :

« إذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا ، وإذا استيقظ قال الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

عند الأكل :

« الحمد لله الذى أطعمنى هذا ، ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة » .

عند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .

وإذا رأى الهلال :

« اللهم أهلَّه علينا بالأمن والإيمان ، والسلام والإسلام ، ربى وربك الله ، هلال رشد وخير » .

وعندما ينتهى المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

وعندما يودع شخصًا :

« كان رسول الله ﷺ يودعنا فيقول : « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » .

ويقول السيد سليمان الندوى :

ومن أفضل سيرته وأعلاها : أنه – بعد ما أوحى إليه – لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به ، فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته ، ولو راقبت حياته نفسها

لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة ، لأنه لم تكن تمضى عليه ساعة من نهار أو ليل إلا ويذكر الله بقلبه ويحمده بلسانه ، فكان لسانه رطبًا بذكر الله : لا يفتر عنه طرفة عين ، فإذا أكل أو شرب ، ذكر اسم الله ، وإذا فرغ من ذلك ، حمد الله ، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ، ذكر الله ، وإذا نهض أو جلس ، سبح الله أو حمده ، وإذا لبس جديدًا ، شكر الله ، حتى إن أذكاره ودعواته التى حفظها الناس عنه – فى مختلف الأحوال – شغلت فراغًا واسعًا من كتب الحديث ، وجمعت فى كتاب (الحصن الحصين) الذى يبلغ مائتى صفحة ، ومن قرأ هذه الأدعية يقضى العجب ويوقن بأنه ﷺ كان يحب الله ويخشاه ويهاب جلاله ، فكان كما وصف الله فى القرآن عباده الصالحين ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جُنُوبهم﴾(١) وكما شهدت عائشة بأنه ﷺ ، كان يذكر الله ولا يغفل عن ذكره أبدًا .

وأمر الناس بالصلاة وحضهم على إقامتها والمحافظة عليها أشد المحافظة .

فماذا تحسبون الرسول كان يعمل فى نفسه بما كان يأمر به غيره ؟

إنه ﷺ ، كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها ، أكثر من غيره ، كان المسلمون يقيمون الصلوات المفروضة خمسًا ، وكان ﷺ يتطوع بالزيادة على ذلك فى صلاة الضحى ، وصلاة الإشراق ، وصلاة التهجد ، وكان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم ، وكان هو ﷺ ، يصلى فى اليوم والليلة خمسين إلى إلى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل ، لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجد بعدما فرضت عليهم الصلوات الخمس ، لكن الرسول كان يقوم الليل ويصلى صلوات لا تقل عن حسنهن وطولهن ، حتى كانت قدماه تتورمان من طول القيام ، فقالت له عائشة يومًا – وقد رأت ما يعانى ﷺ فى قيام الليل – : إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما بالك يا رسول الله تلقى العناء وتتعب هذا التعب الشديد ؟ فأجابها ﷺ « أفلا أكون عبدًا شكورًا » ؟ وكان فى هذه الصلوات معنى محبة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف ، فكان يطيل الركوع حتى يخيل إلى من يراقبه أنه ربما قد نسى السجود . وكان يقيم صلاته من بدء الوحى فى فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه . ويؤذونه إيذاءً شديدًا ، وقد هجم عليه بعض المشركين – وهو فى الصلاة – فلم يترك صلاته خوفًا منهم .

وكان جنباه يتجافيان عن المضجع ، وكان قليلاً من الليل ما يهجع ، ويبيت ساجدًا أو قائمًا والناس نيام ، وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقى الجمعان فى ساحة الحرب

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

والسيوف مصلتة والرماح مشرعة والقلوب واجفة ، ومع ذلك فإنه إذا حان وقت الصلاة والحرب كما وصفنا ، اصطف المسلمون للصلاة ونبيهم إمامهم ، فيتناوب بعضهم الصلاة وبعضهم الحرب وإمامهم ثابت – فى الحالين – إلى أن يؤدوا فريضة الله : لا يمنعهم عنها مانع[1] .

وأمر المسلمين بالصوم ، وليس على المسلمين إلا صوم رمضان ، ولكن ما ظنكم بالرسول ﷺ وصومه ؟

إنه قلما كان يمر به شهر ، أو أسبوع من شهر ، إلا كان يصوم فيه .

تقول عائشة :

كان ﷺ يصوم حتى يظن أنه لن يفطر ، ونهى المسلمين عن صوم الوصال ، لكنه يواصل الصوم يومين ، بل ثلاثة أيام متوالية لا يأكل فيهن ولا يشرب ، وذلك الذى يقال له صوم الوصال . وكان بعض الصحابة يحب أن يقتدى به فى ذلك ، فيقول ﷺ ، « لست كأحدكم ، أيكم مثلى ؟ إن ربى يطعمنى ويسقينى » .

وربما كان يصوم شهرين متواليين : شعبان ورمضان ، وكثيرًا ما يصوم الأيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كل شهر ، وكان يصوم ستة من شوال ويوم عاشوراء من المحرم ، وكثيرًا ما كان يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس من كل أسبوع ، كذلك كان دأبه وهديه فى الصوم .

وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة وإنفاق المال فى الخير ، لكنه بدأ ذلك بنفسه ، وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له فى ذلك ، يوم قالت له : إنك تحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق ، وتكسب المعدم ، إنه لم يأمر الناس أن يتبعوه فى ترك الدنيا ، ولم يقل لهم ضحّوا بكل ما فى أيديكم من أموال ، ولم يخبرهم بأن ملكوت السموات موصدة أبوابها فى وجوه الأغنياء ؛ وإنما الذى أوصاهم به أن يتصدقوا ببعض أموالهم كما قال عز وجل . ﴿ومِمَّا رزقْنَاهم يُنفقون﴾[2] .

هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدخر من المال شيئًا فى بيته ، كان ينفق فى سبيل الله جميع ما كان يملكه ، ولم يكن قليلاً ما كان يأتيه من خمس الغنائم من ذهب وفضة ومتاع وغيره من عرض الدنيا ، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين .

---

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوى ص ١٠٧ – ١٠٩ .
(٢) السجدة : ١٦ .

ولم يكن يتمتع هو ولا أهل بيته بمتع الحياة الدنيا ، فكان حظه وحظ أهل بيته من الدنيا : الفقر والتعفف .

وكان سننه بعد أن فتحت أرض خيبر – أن يوزع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عامًا ، لكنه قبل أن ينقضى العام ، كان ينفد ما وزعه على أزواجه فيمسهم الجوع والسغب ، لأنه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده فى بيوت أزواجه .

يقول عبد الله بن عباس : إن رسول الله ﷺ ، كان أسخانا وأجودنا ، وهو أسخى ما يكون فى شهر رمضان ، ولم يقل لسائل « لا » قط طول حياته ، ولم يأكل شيئًا وحده مهما كان قليلا ، بل يشرك فيه أصحابه ، وقد آذن الناس أن « من مات وعليه دَين فدينه علىّ أقضيه عنه ، وما ترك من ميراث فميراثه لورثته » .

جاءه يومًا أعرابى ، فقال : يا محمد ؛ إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك فأوقر منه جملى ؛ فحمله رسول الله ﷺ من الشعير والتمر ، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول ، ثم قال : إنما أنا قاسم وخازن والله هو المعطى .

يقول أبو ذر : كنت يومًا أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرة المدينة ، فاستقبلنا جبل أحد ، فقال : أبا ذر ؟ قلت : لبيك يا رسول الله . قال : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبًا تمضى علىّ ثلاث ليال وعندى منه دينار ، إلا شىء أرصده لدين[1] .

النبى المجاهد

إن رسول الله ﷺ الذى كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام ، هو الذى يقول : « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » .

إن النبى العابد . هو : النبى المكافح ، وإن نبى الرحمة ، هو نبى الجهاد ؛ وما كان الجهاد قط فى الإسلام ، إلا فى سبيل الله ، فإذا ما خرج عن سبيل الله لم يكن إسلاميا ، وكل ما فى سبيل الله إنما هو رحمة .

---

(١) الرسالة المحمدية ١٠٩ – ١١١ .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردًا وترتيبًا وتفصيلاً ، وإنما نذكر منها عبرًا ، حتى تنتهى إلى فتح مكة :

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد : لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون ، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانًا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات ، لا يتزحزح عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه ، وقد ثبت فى مكانه فى غزوة أحد التى غلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه .

ووقف ثابتًا فى غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم إذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل فى الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟

ولقد كان واضحًا فيه صلوات الله وسلامه عليه ما يقوله سيدنا على وهو من هو – بطولة وفروسية – : « كنا إذا حمى الوطيس – أى الحرب : اتقينا برسول الله ﷺ : أى احتمينا به وفيه ، فيكون أقربنا إلى العدو » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع التجائه إلى الله تعالى : يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه وعده بالنصر : يحكم الأمر إحكامًا ، بحيث لا يدع فيه ثغرة ، هكذا كان أمره فى جميع أموره ، لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيمًا محكمًا ، ثم اتجه إلى الله يدعوه ، وكان دائمًا متفائلاً ، كان متفائلاً حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر : ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون بإذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد : شذوذًا فى القاعدة ، وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا – متأولين – أوامر الرسول ﷺ ، غير أن تفاؤله صلوات الله عليه وسلامه : لم يفارقه لحظة ؛ إذ أنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، بلَم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورًا ، لخوض المعركة من جديد .

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه ، أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ؛ يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الإسلام فى المدينة ، ليقضوا عليه دينًا ، وليقضوا عليه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالاً ، وقد كان المسلمون : يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ، ومنعًا من وصول العدو إليهم فى اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه – القصة التالية – حسبما رواها الإمام أحمد – « أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ

فيها المعاول ، فشكونا إلى رسول الله ﷺ فجاء ثم هبط إلى الصخرة . فأخذ المعول وقال بسم الله ، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ؛ والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا ، ثم قال : بسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ؛ وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . ثم قال : بسم الله ، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر : فقال ، الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان فى المسلمين وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : إن محمدًا يعدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة فى الله لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة .

ومن أمثلته البينة : ما قاله صلوات الله وسلامه عليه لأبى بكر وهما فى الغار عند هجرتهما إلى المدينة : لقد كان سيدنا أبو بكر حزينًا ؛ خوفًا على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهى على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، يملؤه ثقة وتفاؤلاً : « لا تحزن إن الله معنا » ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التى تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال : لو نظر أحدهم إلى موقع قدميه لأبصرنا ، ويبسم رسول الله ﷺ ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .

الجهــاد

ويقول صاحب كتاب (الروض الأنف) :

نزول الأمر لرسول الله ﷺ فى القتال :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام ، قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن محمد بن إسحاق المُطّبى : وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تُحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل .

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونَفوهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون فى دينه ، ومن بين مُعذّب فى أيديهم ، وبين هارب فى البلاد

فرارًا منهم : منهم مَنْ بأرض الحبشة ، ومنهم مَنْ بالمدينة ، وفى كل وجه ؛ فلما عَتَتْ قريش على الله عز وجل ، وردّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذّبوا نَبِيَّه ﷺ ، وعذبوا ونَفوا من عبده ووحّده ، وصدّق نبيه ، واعتصم بدينه – أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ فى القتال ، والانتصار للمسلمين ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب ، وإحلاله له الدماء ، والقتال لمن بغى عليهم ، فيما بلغنى عن عُروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى : ﴿أُذِنَ للذين يقاتَلُون بأنهم ظُلمُوا وإن الله على نصرهم لَقَدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفْعُ الله الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَرُ فيها اسم الله كثيرًا ولينصُرنَّ اللهُ مَن ينصُرُهُ إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكنَّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكَرِ ولله عاقبةُ الأمور﴾[1] ، أى أنى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس ، إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، يعنى النبى – ﷺ – وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فِتْنَةٌ﴾ : أى : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه : ﴿ويكونَ الدين لله﴾[2] ، أى حتى يُعْبَدَ الله : لا يعبدون غيره[3] .

وبعد ، فقد كان رسول الله ﷺ وهو من كبار المجاهدين لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر .

ومن أحاديثه فى الجهاد :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (والذى نفسى بيده ، لولا أنَّ رجالا من المؤمنين لا تطيبُ أنفسهمُ أن يتخلفوا عنى ، ولا أجد ما أحملهم عليه – ما تخلفتُ عن سَرِيَّة تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده ، لوَددْت أننى أُقْتَل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أُقْتَل ، ثم أحيا ثم أُقْتَلُ ، ثم أحيا ثم أُقْتَلُ)[4] .

عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (رباط يومٍ فى

---

(١) الحج : ٣٩ – ٤١ .
(٢) البقرة : ١٩٣ .
(٣) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٤٦ – ١٤٧ .
(٤) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٢١ ط الشعب .

سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . وموضع سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والرّوْحة يروحها العبد فى سبيل أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها)[1] .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (انتدب الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة .. ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية أبدًا ، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ..) (خ) .

عن سالم أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله – وكان كاتبًا له – ؛ قال : « كتب إليه عبد الله ابن أبى أوفى رضى الله عنهما فقرأته : أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام فى الناس خطيبًا قال (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ثم قال :

« اللهم منزل الكتاب ، ومُجْرِىَ السحاب ؛ وهازم الأحزاب ، اهْزِمْهُم وانصرنا عليهم »[2] .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٤٣ ط الشعب .
(٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٦٢ .

مواقف فى غزوة بدر

١ - رؤيا عاتكة :

كانت عاتكة بنت عبد المطلب ساكنة بمكة ، وهى عمة رسول الله ﷺ ، وكانت مع أخيها العباس بن عبد المطلب ، فرأت رؤيا قبل بدر ، وقبل قدوم ضمضم عليهم ، ففزعت منها ، فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب من ليلتها ، فجاءها العباس ، فقالت : رأيت الليلة رؤيا قد أشفقت منها ، وخشيت على قومك الهَلَكة قال : وماذا رأيت[1] ؟

قالت : لن أحدثك حتى تعاهدنى أنك لا تذكُرُها ، فإنهم إن سمِعوها آذوْنا وأسمَعُونَا ما لا نحب . فعاهدها العباس ، فقالت :

رأيت راكبًا أقبل من أعلى مكة على راحلته ، يصيح بأعلى صوته : يا آل غُدَرْ ، اخرجوا فى ليلتين أو ثلاث ، فأقبَل يصيحُ حتى دخل المسجدَ على راحلته ، فصاح ثلاث صيحات ، ومال عليه الرجال والنساء والصبيان ، وفزع له الناس أشد الفزع ، قالت : ثم أراه مَثَلَ على ظهر الكعبة على راحلته ، فصاح ثلاث صيحات ، فقال : يا آل غُدَرْ ويا آل فُجَر ، اخرجوا في ليلتين أو ثلاث ، ثم أراه مَثَلَ على ظهر أبى قبيس كذلك يقول : يا آل غُدَرْ ، ويا آل فُجْر ، حتى أسْمَعَ مَنْ بين الأخْشَبين من أهل مكة ، ثم عمَد إلى صخرة عظيمةٍ فنزعها من أصلها ، ثم أرسلها على أهل مكة ، فأقبلت الصخرة لها حِسٍ شديد ، حتى إذا كانت عند أصل الجبل ، ارفضت فلا أعلم بمكة دارًا ، ولا بيتًا ، إلا قد دخلتها فلقةٌ من تلك الصخرة ، فقد خشيت على قومك .. ففزع العباس من رؤياها ، ثم خرج من عندها ، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة من آخر تلك الليلة ، وكان الوليد خليلاً للعباس ، فقص عليه رؤيا عاتكة ، وأمره ألا يذكرها لأحد ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة وذكرها عتبة لأخيه شيبة ، فارتفع الحديث حتى بلغ أبا جهل بن هشام ، واستفاض فى أهل مكة .

فلما أصبحوا ، غدا العباس يطوف بالبيت ، فوجد فى المسجد أبا جهل ، وعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأمية ؛ وأبى بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وأبا البحترى فى نفر من قريش يتحدثون ، فلما نظروا إلى العباس ناداه أبو جهل ، يا أبا الفضل ، إذا قضيت طوافك فهلم إلينا .

---

(١) رواه البخارى فى الصحيح عن الحميدى وأخرجاه من أوجه أخر ، انظر دلائل جـ ٢ ص ٥٦ ، ٥٧ .

فلما قضى طوافه جاء فجلس إليهم ، فقال أبو جهل : ما رؤيا رأتها عاتكة ؟ فقال : ما رأت من شيء .

فقال أبو جهل : أما رضيتم يا بنى هاشم بكذب الرجال ، حتى جئتمونا بكذب النساء ؟ إنا كنا وإياكم كفرسى رهان فاستبقنا المجد ، فلما تحاكت الركب ، قلتم : منا نبى فما بقى إلا أن تقولوا : منا نبية ، فما أعلم فى قريش أهل بيت أكذَب امرأةً ولا رجلاً منكم .. وآذاه أشد الأذى .

وقال أبو جهل : زعمت عاتكة ؛ أن الراكب قال : اخرجوا فى ليلتين أو ثلاث ، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت قريش كذبكم ، وكتبنا سجِلاً : إنكم أكذبُ أهل بيت فى العرب : رجلاً وامرأة !!

أما رضيتم يا بنى قصىّ ، أنْ ذهبتم بالحجابة والندوة والسقاية واللواء والرِّفادة ؛ حتى جئتمونا بنبى منكم ؟ !

فقال العباس : هل أنت منتهٍ ؟ فإن الكذب فيك ، وفى أهل بيتك .

فقال من حضرها : ما كنت يا أبا الفضل جهولاً ولا خَرِقًا .

ولقى العباس من عاتكة فيما أفشى عليها رؤياها أذى شديدًا[(١)] .

فلما كان مساء الليلة الثالثة من الليلة التى رأت عاتكة فيها الرؤيا ، جاءهم الراكب الذى بعث به أبو سفيان ، وهو ضمضم بن عمرو الغفارى فصاح فقال : يا آل غالب بن فهر ، انفِروا فقد خرج محمد وأهل يثرب يعترضون لأبى سفيان فاحرزوا عيركم ، ففزعت قريش أشد الفزع ، وأشفقوا من رؤيا عاتكة .

٢ - امض يا رسول الله لما أردت :

أتى رسول الله ﷺ ، الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله ﷺ الناس ، فقال أبو بكر فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله : امض لما أمرت به ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ، ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ، ودعا له به ، ثم قال : أشيروا على أيها الناس ، وإنما يريد

---

(١) دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٧٣ ، ٣٧٥ .

الأنصار ، وذلك أنهم عدد الناس ؛ وكانوا حين بايعوه بالعقبة ، قالوا يا رسول الله !! إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت فى ذمامنا : نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا ؛ فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرته إلا بالمدينة وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بغير بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، قال سعد بن معاذ : والله لكأنكَ يا رسول الله تريدنا . قال : أجل .

قال سعد بن معاذ : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به حق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا : على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت .. فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .. ما تخلف منا واحد .. وما نكره أن نلقى عدونا غدًا .. إنا لصبرٌ عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك .. فسر بنا على بركة الله ..فسرَّ بذلك رسول الله ﷺ ، ثم قال : سيروا وأبشروا ، فإن الله عز وجل ، قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله ، لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم .

٣ - أشرت بالرأى :

نزل الرسول بدرًا ؛ فسبق قريشًا إليه ، فلما جاء أُدنى ماء من بدر ، نزل عليه فقال له الحباب بن المنذر : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزَلَكَهُ الله ؛ ليس لنا أن نتعداه ، ولا نقصر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال رسول الله ﷺ : بل هو الرأى ، والحرب ، والمكيدة .

فقال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، ولكن انهض حتى تجعل القُلبَ (الآبار) كلها من وراء ظهرك ، ثم غور كل قليب بها إلا قليبًا واحدًا ، ثم احفر عليه حوضًا فنقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ؛ فقال : قد أشرت بالرأى ، فَفعلَ ذلك فغورت القلب ؛ وبَنَى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية ؛ وأقبلت قريش حين أصبحت ؛ يقدمها عتبة بن ربيعة على جمل له أحمر .

فلما رآهم رسول الله ﷺ ينحطون من الكثب قال : اللهم هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها : تحادُّك وتكذب رسولك ، اللهم فأَحِنْهم[1] الغداة .

---

(١) أى أصبهم بالإحن ، وهى المصائب والهزائم . انظر دلائل النبوة جـ ٢ ، ص ٣١٩ ، ٣٢١ .

٤ – من عواطف الشباب :

عن عبد الرحمن بن عوف قال : « إنى لواقف يوم بدر فى الصف ، فنظرت عن يمينى وشمالى ؛ فإذا أنا بين غلامين من الأنصار : حديثة أسنانهما ؛ فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما ؛ فغمزنى أحدهما فقال : يا عم ، أتعرف أبا جهل ؟ فقلت : نعم ، وما حاجتكَ إليه ؟ قال : أخبِرْت .. إنه يسب رسول الله ﷺ ؛ والذى نفسى بيده ، إن رأيته لا يفارق سوادى سوادَه حتى يموت الأعجَل منا ، فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخــر فقال لى مثلها ؛ فلم أنشِبْ أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى النــاس ؛ فقلت : ألا تريان !! هذا صاحبكما الذى تسألان عنه ، فابتدراه بسيفيهما ، فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى النبى ﷺ ؛ فأخبراه فقال : أيكما قتله ؟ قال كل واحد منهما : أنا قتلته ، قال مسحتما سيفيكما ؟ قالا : لا ، قال : فنظر فى السيفين فقال : كلا كما قتله ؛ وقضى بسلبه لمعاذ بن عمر ؛ والآخر معاذ بن عفراء »[1] .

٥ – سواد :

أخذ رسول الله ﷺ ؛ يعدل جيشه كتفًا بكتف ، فى صفوف متلاصقة كالبنيان المرصوص ، وأخذ يكبح شكيمة هؤلاء المتهورين ، الذين يريدون أن يتقدموا الجمع إلى القتال ، فيلاقوا ، بلا شك ؛ مصرعهم دون فائدة تعود على المسلمين من ذلك .

من هؤلاء سواد بن غزية ، فقد برز من صفه ، فضربه رسول الله بقدح[2] كان بيده ، وقال : استَوِ يا سواد .

فقال : يا رسول الله ، أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقدنى[3] ، فقال رسول الله : اقتصّ منى ، فقال سواد : كيف وقد ضربتنى على بطنى العريان ؟ فكشف له رسول الله ؛ ﷺ ، عن بطنه ، وقال : استَقِدْ يا سواد ، فاعتنقه سواد فقبل بطنه . فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال يا رسول الله ؛ حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ، ﷺ ، بخير[4] .

---

(١) رواه البخارى فى الصحيح ، رواه مسلم عن يحيى بن يحيى . انظر دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
(٢) القدح : السهم .
(٣) اقتص من نفسك .
(٤) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . للمؤلف .

٦ - إلى جنة :

وجاء المشركون لملاقاة المسلمين يوم بدر ، فقال رسول الله ﷺ ، لا يقدمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكونَ أنا دونه ، فدنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ ، « قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض » قال : يقول عمر بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله : جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : نعم .

قال : بخٍ ، بخٍ .

فقال رسول الله ﷺ ؛ ما يحملك على قولك : بخ ، بخٍ ؟

قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاءة أن أكون من أهلها .

قال : فإنك من أهلها ؛ فأخرج ثمرات من قرنه[1] ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل ثمراتى هذه ؛ إنها لحياة طويلة قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل »[2] .

مواقف

ابن عمر وغزوة بدر :

عرِضت على رسول الله ﷺ ؛ يوم بدر ؛ فاستصغرنى فلم يقبلنى ، فما أتت على ليلة قط مثلها من السهر والحزن والبكاء ، إذ لم يقبلنى رسول الله ﷺ ، فلما كان فى العام المقبل عرِضْت عليه ؛ فقبلنى ، فحَمِدت الله على ذلك .

لو كان غير الجنة :

عن سليمان بن بلال ؛ رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ ، لما خرج إلى بدر ، أراد سعد بن خيثمة وأبوه - جميعًا - الخروج معه ، فذكِرَ ذلك للنبى ﷺ : فأمر أن يخرج أحدهما ، فاستهما ، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رضى الله عنهما : إنه لابد لأحدنا من أن يقيم ، فأَقِمْ مع نسائك .

فقال سعد : لو كان غيرَ الجنّة لآثرتكَ به ، إنى أرجو الشهادة فى وجهى هذا فاستهما ، فخرج مع رسول الله ﷺ ، إلى بدر فاستشهد .

(١) أى جعبة النشاب .

(٢) رواه مسلم فى الصحيح ، انظر دلائل النبوة جـ ٢ ص ٣٠٧ .

من آثار غزوة بدر :

جلس عمير بن وهب الجمحى ، مع صفوان بن أمية ، بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الحجر بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ، ويلْقَوْن منه عناءً وهو بمكة ، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر .

قال ابن هشام : أسره رفاعة بن رافع أحد بنى زريق .

قال ابن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير قال : فذكر أصحاب القليب ومصابهم ، فقال صفوان : والله ، ما فى العيش بعدهم خير ، قال له عمير : صدقت والله ، أما والله لولا دَيْن علىّ ، ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى – لركبت إلى محمد حتى أقتُلَه ، فإنّ لى قِبَلَهم علّةً : ابنى أسيرٌ فى أيديهم ، قال : فاغتَنَمَهَا صفوان ، وقال : علىَّ دينك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم .

فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب – حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف – فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا بشرّ ، وهو الذى حرَّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدرَ .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ ، فقال : يا نبى الله ، هذا عدو الله عمير بن وهب : قد جاء متوشحًا سيفه ! قال : فأدخِلْه علىّ قال : فأقبلَ عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها ؛ وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار ؛ ادخلوا على رسول الله ﷺ ، فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث ، فإنه غيرُ مأمون . ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرْسِلْهُ يا عمر ، ادْنُ يا عمير ، فدنا ثم قال : أنعِموا صباحًا ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله ﷺ .

قد أكرمَنَا الله بتحيةٍ خيرٍ من تحيتك يا عمير ، السلام : تحية أهل الجنة ، فقال : أما والله يا محمد إن كنتُ بها لحديثُ عهد ، قال : فما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسِنوا فيه .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ .

قال : قبّحها الله من سيوف ! وهل أغنَتْ عنا شيئًا ؟

قال : أصدُقْنى ، ما الذى جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك ؟

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دينٌ على ، وعيال عندى ، لخرجت حتى أقتل محمدًا ، فتحمَّلَ لك صفوان بدَيْنكَ وعيالك ، على أن تقتلنى له .. والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ﷺ ، قد كنا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحْى ، وهذا أمرٌ لم يحضُره إلا أنا وصفوان ، فوالله ، إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ ، فقهوا أخاكم فى دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأطلِقوا له أسيره ؛ ففعلوا ، ثم قال : يا رسول الله ، إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ،وأنا أحب أن تأذَن لى ، فأقْدُمَ مكة ، فأدعُوَهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم فى دينهم ، كما كنت أوذى أصحابَكَ فى دينهم ؟

قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة . وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب ، يقول : أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن ، فى أيام تنسيكم وقعة بدر .

وكان صفوان يسأل عنه الركبان ، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبدًا ، ولا ينفعه بنفع أبدًا .

قال ابن إسحاق فلما : قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديدًا ، فأسلم على يديه ناس كثير .

الشباب فى المعركة :

تدافع الشباب فى سن الخمسَ عشرةَ سنةً فأكثر ، على رسول الله ﷺ ، يريد كل منهم أن يظفَرَ بالإذن له فى المساهمة فى شرف العمل فى سبيل الله .

لقد جاء إليه ﷺ سمرة بن جندب ، وجاء إليه رافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرةَ سنة ، فردهما . فقيل : يا رسول الله إن رافعًا رامٍ ، فأجازه ، فلما أجاز رافعًا قيل له : يا رسول الله إن سمرة يصرع رافعًا ؛ فأجازه ، ولكنه ﷺ رد : أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، أحد بنى مالك بن النجار ؛ ورد البراء بن عازب أحد بنى حارثة ،

وعمرو بن حزم ؛ وأسيد بن ظهير ، رد جميع هؤلاء لصغر سنهم ، على الرغم من أنهم كانوا فى شوق شديد لخوض المعركة ... معركة الشرف فى سبيل الله .

ولقد بلغت فرحتهم أقصاها حينما أجازهم ﷺ شرف المساهمة فى غزوة الخندق .

أما من كان أكثر من خمسَ عشرة سنةً ، وكان فى حالة تمكنه من الحرب ، فقد أجازه رسول الله ﷺ .

الشيوخ فى المعركة :

(أ) لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد ، رفع حسيل بن جابر وهو اليمان : أبو حذيفة بن اليمان ، وثابت بن وقَشْ فى الآطام مع النساء والصبيان ، قال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران : لا أبا لك ، ما تنتظر فوالله ما بقى لواحد منا من عمر إلا ظمْء[1] حمار ... وإنما نحن هامة[2] اليوم أو غد .. أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ ؟ لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ !! فأخذ أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا فى الناس . ولم يَعلَم بهما .

فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون ، وأما حسيل بن جابر ، فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتلوه ولا يعرفونه ، فقال حذيفة : أبى ، فقالوا : والله إن عرفناه[3] وصدقوا . قال حذيفة : يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين . فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه ، فتصدّق حذيفة بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيرًا .

(ب) كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسْد : يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، فلما كان يوم أحد ، أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله عز وجل ، قد عذرك .

فأَتَى رسول الله ﷺ ، فقال : إن بَنيَّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه ، والخروج معك فوالله ، إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذرك الله ، فلا جهاد عليك .

---

(١) الظمء : مقدار ما يكون بين الشربتين ، وأقصر الأظماء ظمء الحمار لأنه لا يصبر عن الماء فضرب مثلا لقرب الأجل .

(٢) الهامة : طائر يخرج من رأس القتيل – فيما تزعم أساطير العرب – إذا قتل فلا يزال يصيح اسقونى اسقونى : حتى يؤخذ بثأره فضربته العرب مثلا للموت .

(٣) أى ما عرفناه .

وقال لبنيه : ما عليكم أن لا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل يوم أحد .

فدائيون فى المعركة :

كان كل هم المشركين أن يقتلوا رسول الله ﷺ ، فلما انكشف المسلمون فى المعركة – معركة أحد – حاول المشركون أن ينتهزوها فرصة فتدافعوا نحو الرسول ﷺ فى كثرة كثيرة تريد قتله .

فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الأنصار ، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ ، رجلاً ثم رجلاً : يُقتَلُون دونه ، حتى كان آخِرَهم زياد ، فقاتل حتى أثبتته الجراح . وترمى دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه : يقع النبـل فى ظهره وهو مُنْحنٍ عليـه حتى كثر فيه النبْل .

وقاتلتْ دون رسول الله ﷺ ، أم عمارة وهى نسيبة بنت كعب ، تقول أم سعد بنت سعد بن الربيع : دخلتْ علىّ أم عمارة فقلت لها : يا خالة ، أخبرينى خبرك ؟ .

فقالت : خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سِقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو فى أصحابه والدولة والريح[1] للمسلمين .

فلما انهزمَ المسلمون ، انحزتُ إلى رسول الله ﷺ ، فقمت أباشر القتال ، وأذبُّ عنه بالسيف ، وأرمى عن القوس ، حتى خَلَصَت الجراح إلىّ .

قالت أم سعد ، فرأيت على عاتقها جرْحًا أجوفَ له غَوْرٌ فقلت : من أصابك بهذا ؟ .

قالت : ابن قمئة ، أقمأه الله .

ثم تابعت حديثها قائلة : لما ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ ، أقبل ابن قمئة يقول : دلونى على محمد ، فلا نجوت إن نجا ... فاعترضت له أنا ومُصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ ، فضربنى هذه الضربة ولكن لقد ضربته على ذلك ضربات ، لكنَّ عدوَّ الله كانت عليه درعان .

ثم جاء المسلمون فأجلَوا المشركين عن رسول الله ﷺ ، ولقد قال رسول الله ﷺ عنها : ما التفت يمينًا ولا شمالاً ، إلا وأراها تقاتل دونى .

---

(١) أى أن النصر لهم .

يوم كله لطلحة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك يومٌ كله لطلحة رضى لله عنه ، ثم أنشأ يحدث فذكر الحديث ، وفيه : فانتهينا إلى رسول الله ﷺ ، وقد كُسِرَت رباعيَّته ، وشُجَّ فى وجهه ، وقد دخل فى وجنته حَلْقَتَان من حَلَقِ المِغْفَرِ ، قال رسول الله ﷺ : عليكما صاحبكما .

يريد طلحة رضى الله عنه ، وقد نزف ، فذكر الحديث وفيه : ثم أتينا طلحة رضى الله عنه ، فى بعض تلك الحفار ، فإذا بضع وسبعون : بين طعنة ورمية وضربة . وإذا قد قطعت أصبعه فأصلحنا شأنه .

ريح الجنة :

عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ ، يوم أحد ؛ لطلب سعد بن الربيع رضى الله عنه ، وقال : إن رأيته فأقرئه منى السلام وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ ، كيف تجدك ؟

قال : فجعلت أطوف بين القتلى فوجدته وهو فى آخر رمق ، وبه سبعون ضربة ، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم ، فقلت له : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ ، يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرنى كيف تجدك ؟ .

قال : على رسول الله السلام ، وعليك السلام : قل له ، يا رسول الله ، أجدنى أجد ريح الجنة ، وقل لقومى الأنصار : لا عذرَ لكم عند الله ، أن يخلص إلى رسول الله شيء يكرهه وفيكم عين تَطْرِف .

غسلته الملائكة :

دخل حنظلة بن أبى عامر على زوجته أول ما دخل بها ، فنودى بالجهاد فى غزوة أحد ، من ليلته .

فخرج مسرعًا إلى المعركة وأظهر ضروبًا من البسالة والشجاعة ، حتى أتاه سهم مفاجئ فاستشهد ، وبعد المعركة قال الرسول ﷺ : « لقد رأيت حنظلة بن أبى عامر : تُغَسِّلُه الملائكة بماء المزن فى صحائف الفضة بين السماء والأرض » .

فذهب الصحابة إليه وهو فى القتلى فوجدوا شعره يقطر ماءً .. فقالوا لرسول الله ﷺ ،

فقال : اذهبوا إلى زوجته فاسألوها . فذهبوا إليها فقالت : إنه أعرس بى أول ليلة فقط ، ولما سمع الداعى إلى الجهاد ، خرج مسرعًا وهو جنب ، فرجعوا إلى النبى ﷺ فأخبروه فقال : « من أجل ذلك غسلته الملائكة » .

كل مصيبة بعدك هينة :

عن سعد بن أبى وقاص قال : مَر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار ، وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها مع رسول الله ﷺ بأحُد فلما نُعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيرًا يا أم فلان ، وهو بحمد الله كما تحبين ؛ قالت : أرونيه حتى أنظرَ إليه ؟ قال فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل ! تريد صغيرة .

غزوة أحد والثقة فى نصر الله :

شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى ، أن يُغْلَبَ المسلمون فى أحد . حكمةٌ لله فى كل ما يحدث ، وهو سبحانه – يبتلى بالسراء كما يبتلى بالضراء . وكل شيء عنده بمقدار ، وما إن انتهت المعركة وأصاب المشركون من المسلمين ما أصابوا ، حتى عاد أعداء الله راجعين ، وظن المسلمون أنهم إنما رجعوا قاصدين المدينة ليدمروها ، ويُنَكِّلوا بمن فيها من الرجال ويأسروا النساء والأولاد ، فشق على المسلمين ذلك ، فلم توهن الهزيمة من عزيمتهم ولم تفت فى عضدهم ، وكان إيمانهم الذى لا يتزعزع ، وثقتهم فى نصر الله ، وتوكلهم عليه سبحانه وتعالى ، – كان ذلك – دافعًا لهم أن يوطنوا أنفسهم على أن يسبقوهم إلى المدينة ، لينازلوهم فيها ، فقال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه :

اخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده ، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم ، ثم لأناجزنهم فيها ، قال : على : فخرجت فى آثارهم ، انظر ماذا يصنعون ، فجنَّبوا الخيل وامتطَوُا الإبل ، وواجهوا مكة .

ولكن المشركين بعد أن ساروا فى طريق مكة ، تلاوموا فيما بينهم ، فقال بعضهم : لم تصنعوا شيئًا ! « أصبتم شوكتهم وحدهم ، ثم تركتموه وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم ، فارجعوا حتى نستأصلَ شأفتهم .

وقال البعض الآخر : لا محمدًا قتلتم ، ولا الكواعبَ أردفْتم ... بئسما صنعتم ... ارجعوا ؛ وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فندب المسلمين إلى الذهاب لملاقاتهم ، والسير

وراءهم ، ليرعبهم ويريهم أن بالمسلمين قوة وجلدًا ، وبلغت ثقة رسول الله ﷺ فى نصر الله : أنْ لم يأذن بالذهاب لملاقاة العدو ، إلا لمن حضر الموقعة فقط ، اللهم إلا جابر بن عبد الله الذى قال لرسول الله ﷺ :

« يا رسول الله ، إنى أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنتُ معك » .

وأجاب المسلمون دعوة رسول الله ﷺ ، ولبوا نداءه ، وساروا فى طريق القوم ، حتى بلغوا حمراء الأسد .

ولما علم المشركون بذلك ، قالوا : نرجع من قابل ، وساروا فى طريقهم إلى مكة .

وأنزل الله سبحانه : ﴿يَسْتَبْشِرُون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استَجَابوا لِلّه والرسول من بَعْدِ ما أصابهم القَرْحُ ، للذين أحْسَنوا منهم واتقوْا أجرٌ عظيم ﴾[1] .

❑❑❑

مَرَّ بأبى سفيان – وكان حينئذ قائد المشركين – ركْبٌ من عبد القيس ، فقال لهم أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة قال : فهل أنتم مُبَلِّغون عنى محمدًا رسالة أرْسِلكم بها إليه وأحمل لكل – فى مقابل ذلك ، زبيبًا بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم . قال : إذا وافيتم محمدًا فأخبروه أنا قد جمعنا المسير إليه ، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

ومر الركب برسول الله ﷺ – وهو بحمراء الأسد – فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما صوره الله تعالى بقوله : ﴿الذين قال لهم النَّاسُ إن الناسَ قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم فَزَادهم إيمانًا وقالوا حسبنا اللَّهُ ونعم الوكيل . فانقَلَبُوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يَمْسَسهُم سوءٌ واتَّبَعُوا رضوان الله واللّهُ ذو فضل عظيم﴾[2] .

بعض من أصابهم القرح :

عن أبى السائب رضى الله عنه أن رجلاً من بنى عبد الأشهل قال : شهدت أحدًا وأخ لى ، فرجعنا جَرِيحين . فلما أذَّن مؤذن رسول الله ﷺ ، بالخروج فى طلب العدو ، قلت لأخى أو قال لى : أتفوتُنا غزوة مع رسول ﷺ ؟ والله ، ما لنا من دابة نركبها ، وما منا

(١) آل عمران : ١٧١ ، ١٧٢ .
(٢) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسرَ جُرْحًا منه ، فكان إذا طُلِب : حملته مرة ومشى مرة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

أجد ريح الجنة :

عن أنس رضى الله عنه قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبتُ عن أول قتال قاتلْتَ المشركين .. لئن اللّهُ أشهَدَنى قتال المشركين ، ليرين اللّهُ ما أصنع .

فلما كان يومُ أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إنى أعتذر إليك عما صنع هؤلاء ، يعنى أصحابه ، وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء ، يعنى المشركين . ثم تقدّم فاستقبله سعد بن مُعاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنةَ وربّ النضر : إنى أجد ريحها من دون أحد .

قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما نصنع . قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رميةً بسهم ، ووجدناه قد قُتل ، وقد مَثَّل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أختُه ببنانِه . قال أنس : كنا نَرى ، أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : ﴿مِنَ المؤمنين رجال صَدَقوا ما عَاهَدُوا اللّهَ عليه ...﴾ إلى آخر الآية »[١] .

لله العزة ولرسوله :

سمع عبد الله بن عبد الله بن أبى : أن والده قال : لئن رجعنا إلى المدينة لَيخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ؛ فلما قدموا المدينة ، قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال : أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ ؟ . والله لا يأويكَ ظلها ، ولا تأويه أبدًا ، إلا بإذن من الله ورسوله . ولم يسمح له بالدخول ، حتى أرسل إليه رسول الله ، ﷺ ، يأمره بأن يخْلِّىَ سبيله »[٢] .

يقول صاحب كتاب « النبوة والأنبياء » معلقًا على ذلك ، باعتباره شعورًا عاما عند الذين أخلصوا وجوههم لله من الصحابة : أنصارًا ومهاجرين : « ولذلك كله ، استطاعوا أن يضَعُوا رءوسَهم ومهجهم على أكفِّهم وراحاتهم ، وهانت عليهم الحياة ، وطابت لهم هجرة الأوطان ، وهجْرُ الإخوان ، والشهادة فى سبيل الله . ولذلك استطاعوا أن يقولوا ، عند وقعة بدر : إن أمرَنَا تَبَع لأمرك ، فوالله ، لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان ، لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر ، لخضناه معك »[٣] .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٢٣ ط الشعب .

(٢) تفسير الطبرى .

(٣) قاله سعد بن معاذ (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) . انظر النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن ص ٨٠ ، ص ٨٢ .

بين الأبوة والنبوة

ولم يجد أبو سفيان – رغم دهائه ولباقته – عونًا من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة ، زوجة رسول الله ﷺ ، التى بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله ﷺ ، حتى لا يجلسن عليه أبوها ، فلما سألها – مستفسرًا : أرغبتْ بهِ عن الفراش ، أم رغبت بالفراش عنه . قالت : هو فراش رسول الله ، وأنتَ مشرِك نجس . فانصرف مغضبًا قائلا : « والله لقد أصابك من بعدى شَر » . وأخطأ أبو سفيان ، فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك ، ولكنها المحبة القوية العميقة لرسول الله ، ﷺ .

عز الدين وعز الملك

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما مر الجيش بأبى سفيان بعد أن أمنه العباس ، رضى الله عنه . قال ، بعقليته الجاهلية ، للعباس :

يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما .

فقال العباس بعقليته الإسلامية : ويحك ، إنه ليس بملك ، ولكنها نبوة .

قال أبو سفيان : نعم .

عفو القادر

وحينما اجتمعت قريش إليه نظر إليهم وقال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟

فقالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم !

فقال – وهو يبكى – : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . أقول لكم ما قاله ، أخىيوسف لإخوته : ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾[1] .

التبرع بالمال بعد النفس

وحض رسول الله ﷺ أهل الغنى على النفقة فى سبيل الله وأعلن رسول الله ﷺ ، أن

---

(١) يوسف : ٩٢ .

مَنْ جهَّز جيش العسرة ، فله الجنة ، فتسابق المسلمون رجالاً ونساء فى التبرع : النساء بحلِيِّهن وبمالهن ، والرجال بما يستطيعون .

ها هو ذا أبو بكر الصديق يأتى بكل ماله ، وكان أربعة آلاف درهم ، ويسأله رسول الله ؛ ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئًا ، فيقول رضى الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله .

ويجىء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب الخالص .

ويجىء سيدنا عثمان بثلاثمائة بعير ، وبألف دينار ، ويضع الدنانير فى حجر رسول الله ﷺ ، فَيُسَرُّ الرسول بها ، ويدخل يده فيها يقلبها ويقول : اللهم ارضَ عن عثمان ، فإنى عنه راضٍ ، ويقول : ما على عثمانَ ما عمل بعد اليوم .

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن ابن ياسين بن عمير بن كعب النضرى لقى أبا ليلى وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟

قالا : جئنا رسول الله ﷺ ، ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنَا عليه وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروج معه ، فأعطاهما ناضحًا له فارتحلاه ، وزوّدهما شيئًا من تمر ، فخرجا مع النبى ﷺ . زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال :

وأما علية بن زيد فخرج من الليل ، فصلى من ليلته ما شاء الله ، ثم بكى . وقال : اللهمّ إنّك أمرتَ بالجهاد ورغبت فيه ؛ ثم لم تجعل عندى ما أتقوّى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمةٍ أصابنى فيها مال أو جسد أو عرض ..

ثم أصبح مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : وأين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يقمْ أحد ، ثم قال : « أين المتصدق ؟ فليقم » .. فقام إليه فأخبره فقال رسول الله ﷺ : « أبشِرْ ، فوالذى نفسى بيده ، لقد كتبت فى الزكاة المتقبلة » .

وإن كان عَمرًا :

عن كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه ، قال : لما كان يومُ الخندق ، خرج عمرو ابن عبدِ وُدٍّ معلمًا ليرى مشهده ، وهو مقنع بالحديد فنادى : من يبارز ؟

فقام علىٌّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه فقال : أنا لَهَا ، يا نبى الله ﷺ .

فقال إنه عمرو ... اجلِسْ .

ثم نادى عمرو : ألا رجل يبارز ؟ فجعل يؤنبهم ، ويقول أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دَخلَهَا ؟ أفلا تبرزون إلىَّ رجلاً ؟ .

فقام على رضى الله عنه قال : أنا يا رسول الله .

فقال : إنه عمرو ... اجلِسْ .

ثم نادى الثالثة .

فقام على رضى الله عنه فقال : يا رسول الله أنا .

فقال : إنه عمرو .

فقال : وإن كان عمرًا فأذن له رسول الله ﷺ ، فمشى إليه وهو يقول : إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز ، من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز .

فقال له عمرو : من أنت ؟

قال : أنا علىّ .

قال : ابن عبد مناف .

قال : أنا على بن أبى طالب .

فقال : يا ابن أخى ، مِن أعمامك من هو أسنُّ منك ، فإنى أكره أن أهريق دمك .

قال على رضى الله عنه : ولكنى والله ، لا أكره أن أهريق دمك ، فغضب ، فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو على رضى الله عنه مغضبًا ، واستقبله علىٌّ بحربته ، فضربه عمرو فى بيضته فقدَّها ، وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأسه فشجه ، وضربه على رضى الله عنه على حَبْل عاتقه فسقط ، وسمع رسول الله ﷺ التكبير ، ثم أقبل علىٌّ رضى الله عنه ، نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل : فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه : هلا استلبت درعه ؟ فإنه ليس للعرب درع خير منها .

قال : ضربته فاتقانى بسوءته ، فاستحييت أن أسلبه .

❑❑❑

إنها عمة الرسول ﷺ :

عن عبَّاد قال : كانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن ، قالت : فمر رجل من اليهود ، فجعل يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة المسلمين ، وقطعت ما بينها وبين الرسول

ﷺ من عهود ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله ﷺ وأصحابه فى نحور عدوهم : لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا ، إن أتانا آتٍ ..

فلما رأت اليهودى يطوف بالحصن ، قالت : إنى والله ، ما آمَنُهُ أن يدل على عورتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شُغِلَ عنا رسول الله ﷺ وأصحابه .

قالت : فأخذت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه ، فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغتْ منه ، عادت إلى الحصن ، ولم تأخذ من سَلَبه شيئًا ، وقالت : لم يمنعنى من سلَبه ، إلا أنه رجل .

اللهم أخبر عنا نبيك

يقول الإمام البخارى :

باب : هل يستأسِر الرجل ؟ ومن لم يستأسِر ، ومن ركَعَ ركعتين عند القتل : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال أخبرنى عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جارية الثقفى ، وهو حليف لبنى زُهرة ، وكان من أصحاب أبى هريرة : أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ عشرةَ رهط سَرِية عينًا[1] ، وأمر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصارى جد عاصم بن عمر ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة – وهو بين عسفان ومكة – ذُكِرُوا لحى من هُذَيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبًا من مائتىْ رجل ، كلهم رامٍ فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدفدَ وأحاط بهم القوم ، فقالوا لهم : انزلوا وأعْطُونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدًا ، قال عاصم بن ثابت أمير السرية : أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصمًا فى سبعة ، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصارى ، وابن دثنه ، ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قِسيهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم ، إن هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه ، فانطلقوا بخُبَيْبٍ وابن دثنه ، حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر ، فابتاع خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب هو الذى قَتَلَ الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرًا ، فأخبرنى عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته ، فأخذا ابنًا لى

(١) يستطلعون أخبار العدو .

وأنا غافلة حين أتاه ، قالت : فوجدته يجلِسُهُ على فخذه والموسى بيده ، ففزعْتُ فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال : تخْشَين أن أقتله .. ؟ ما كنت لأفعل ذلك .. والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خُبَيب ... والله لقد وجدتُه يومًا يأكل من قِطف عنب في يده ، وإنه لموثَق في الحديد ، وما بمكة من ثمر ، وكانت تقول : إنه لرزق من الله رزقه خُبيبًا ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال خبيب : ذَروني أركَعْ ركعتين فتركوه فركع ركعتين ، ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها ... اللهم أحصِهْم عددًا :

ولست أبالي حين أقتل مسلما ... على أي شِق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ ممزّع

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو الذي سَنَّ الركعتين لكل امرئ مسلم ، قتل صبرًا ، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبرَ النبي ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا .

وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم – حين حدثوا أنه قتل ؛ ليؤتوا بشيء منه يعرف به ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر – النحل – فحمته من رسولهم ، فلم يقدر على أن يقطَعَ من لحمه شيئًا .

(خ جـ ٧ ص ٨٢ ، ٨٣)

﴿لكــن الله يشهـد بمـا أنـزل
إليك أنزله بعلمـه والمــلائكـة
يشهدون وكفى بـالله شـهيـدًا﴾

[صدق الله العظيم]

سورة النساء الآية : ١٦٦

الفصل الرابع عشر عن :

الخاتمة

من توجيهات القرآن

– ١ –

(أ) يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنينَ ، إذ بَعَث فيهم رسولاً من أنفسِهم يَتلو عليهم آياتهِ ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتابَ والحكمة وإن كانوا من قبل لِفى ضلالٍ مبين﴾(١) .

وآيات القرآن كثيرة فى هذا المعنى ، تؤكد كلها : أن بعثة الرسول ﷺ ، كانت نعمة عظمى من الله – سبحانه – على جميع المؤمنين ، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى ، إنما هو منة كريمة من لدَن رب كريم .

ذلك أن هذا الرسول ﷺ إنما هو لسان صدق ، فى تبليغ آيات الله ، فهو يتلوها على المؤمنين .

إنه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ووعاها وتشربتها روحه ، فانطبع بها وعاشها .

ومن أجل ذلك ، كان هذا الرسول ﷺ مصدر تزكية لهم ، إنه وقد أصبح طابعه آيات الله ، أصبح – من أجل ذلك – مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسى للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، وقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ويحياها . فهو يبشر بها : بقوله ، أو بتلاوتها . ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها . وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب : إنه لا يتلو فحسب ، وإنما يعلم أيضًا ، إنه يشرح ويفسر ، ويطبق ويقوم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا . وإنه يعلم القرآن .

وهو يعلّم القرآن بعد أن انطبع به ، وبعد أن أصبح هو قرآنًا .

لقد أصبح فكره قرآنا ، وأصبحت عواطفه قرآنا ، وأصبحت إرادته قرآنا ، ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة ، رضوان الله عليها ، خير تعبير وأخصره ، حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت رضوان الله عليها : « كان خُلُقهُ القرآن » .

وما كان يتأتّى أن يكون غير ذلك ، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها ، إنما هى

(١) آل عمران : ١٦٤ .

كلمة بدهية عند كل متبصر : فالقرآن ، كان يظل مبادئ : يعتقد الناس أنها مجرد مبادئُ نظرية ، يستحيل تحقيقها فى الخارج – لو لم تطبق فعلاً ، ولو لم تتحقق واقعيا ، وكان لابد من أن تتحقق بالفعل ، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيها هذه المبادئ : تتمثل فيها ذاتيا ، وتتمثل فيها جهة تطبيقها على الغير ، وقيادة الغير إلى الأخذ بها فى صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة .

ولو لم يكن الأمر كذلك : لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ .

(ب) بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق – كما يحب الله سبحانه لبنى الإنسان – قد تحققت بالفعل : حققها رسوله الكريم ﷺ ، وحققها فى ذاته ، وحققها فى مجتمعه : حققها سلوكًا ، وحققها واقعيا – هو فى نفسه – على أكمل ما يكون التحقيق ، تطبيقًا فى مجتمعه ، على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع .

ونقول : على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع ؛ لأن لكل نظام من النظم ، حدا أدنى : لا يتأتى أن يكون النظام بدونه ، وحدا أسمى : يتسامى نحوه المخلصون .

ولقد تحققت الصورة الإسلامية – فى حدها الأسمى – فى الرسول ﷺ وكان بذلك – بنص القرآن أولَ المسلمين .

وترسم الآيات القرآنية :

كيف ؛ ولم كان الرسول ﷺ أولَ المسلمين ؟ يقول الله تعالى :

﴿قل إنّ صَلاتى ونُسُكى ومَحْيَاىَ ومماتِى لله ربِّ العالمينَ . لا شريكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المسلمينَ﴾[1] .

لقد كانت أعماله وحياته كلها – بل ومماته – لقد كان كيانه كله – حركة وسكونًا ، حياة وموتًا – لله رب العالمين فكان بذلك أول المسلمين .

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدها الأدنى ، فى آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وُجِدَ المجتمع الإسلامى بالفعل :

ولقد انْتَفَتْ بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا فى الماضى – أو يرون فى الحاضر – أن الإسلام مبادئ لا تطبق ؛ مبادى نظرية ، مبادئ خيالية ، يستحيل تطبيقها .

---

(١) الأنعام : ١٦٣ ، ١٦٤ .

لقد تحقق الإسلام بالفعل ، فأصبح مجتمعًا أسلم نفسه لله ، وإن مجتمعًا يسلم نفسه لله ، لا يتأتى أن تتمخض الإنسانية عن خير منه .

هذا المجتمع الذى وجد . إنما كان ثمرةً من ثمار جهاد الرسول ﷺ وكفاحه ، فى أن يخرج بالفعل ، الصورة التى أوحاها الله إليه لقد كان أثرًا لتلاوة الرسول ﷺ آيات الله ، ولتزكية الرسول ﷺ لمن حوله بمثله القرآنى ، ولتعليمه صلوات الله وسلامه عليه القرآن لمن حوله .

وتشربت روح رسول الله ﷺ القرآن وامتلأت به ، وصَفَت بصفائه ، وتزكت بزكائه ، واستنارت بنوره ، ففاضت بالحكمة أثرًا من آثار الهداية التامة ، ونتيجة للنور يغمر القلب ، وللسناء يتلألأ فى الفؤاد فكان الرسول ﷺ يعلم الكتاب ، ويعلم الحكمة ، وما الحكمة إلا أحاديث الرسول ﷺ : ينير بها قلوبًا ، ويرشد بها عقولاً ، ويقرب بها عباد الله إلى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فإن الحكمة أيضًا من عند الله ، يقول الله تعالى :

﴿وأَنْزَلَ الله عَلَيكَ الكتابَ والحكمةَ وعلمك ما لم تكن تَعْلم وكَانَ فَضْلُ الله عليك عَظيما﴾[1] .

وما كان رسول الله ﷺ ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحىَ . فآيات الله يتلوها ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمة التى أنزلها على قلبه ، يعظ بها .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة . فسمعتُ من أرضى من أهلِ العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله وهذا يشبه ما قال . والله أعلم .

لأن القرآن ذكر أتبعته الحكمة . وذكر الله منته على خلقه : بتعليمهم الكتاب والحكمة . فلم يجز – والله أعلم – أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله .

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله ، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره ، فلا يجوز أن يقال لقول : فرض إلا لكتاب الله ، ثم سنة رسوله ؛ لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقرونًا بالإيمان به .

وسنة رسول الله ، مبينة عن الله معنى ما أراد ، دليلا على خاصة وعامة ، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

(جـ) هذه الصورة التى ترسمها الآية الكريمة التى صدرنا بها هذا المقال – هى الصورة

---

(١) النساء : ١١٣ .

التى تمناها سيدنا إبراهيم ودعا الله سبحانه بها حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل فقال عليه السلام :

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1] .

ولقد صادفت دعوة سيدنا إبراهيم ماقدره الله أزلاً ، لقد وافقت التقدير الإلهى الأزلى الذى أراد سبحانه به أن يكمل الدين ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان ، هو الدين ، الأزلى الخالد الذى لا دين سواه ، والذى يرضاه الله ولا يرضى غيره وهو الإسلام .

﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[2] .

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[3]

ولا يتأتى فى عرف المنطق وفى منطق الحق وفى بداهة العقول أن يكون الدين الخالد شيئًا آخر غير إسلام الوجه لله .

وما دام الرسول ﷺ أول المسلمين وما دام الدين عند الله هو الإسلام ، فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق : إنه وصل إلى الدرجة التى سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره ، وسبق بها من سيأتى بعده ، إنه أول المسلمين فى الماضى البعيد والماضى الذى يبتدئ منذ بدء الإنسانية .

وما من شك فى أن آدم عليه السلام كان مسلمًا ولكنه لم يكن أول المسلمين ، ولقد كان نوح مسلمًا ولكنه لم يكن أول المسلمين وهكذا . كان الأنبياء جميعًا صلوات الله وسلامه عليهم ، من المسلمين . ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين ، لأن الدين الذى جاءوا به صلوات الله عليهم وسلامه – وإن كان إسلامًا – فإن الصورة الكاملة التامة للإسلام إنما هى : القرآن .

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه﴾[4] .

يقول سبحانه : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾[5] .

---

(١) البقرة : ١٢٩ .
(٢) المائدة : ٣ .
(٣) جزء من آية ١٩ آل عمران .
(٤) المائدة : ٤٨ .
(٥) الزمر : ٥٥ .

وهو أول المسلمين فى الحاضر ، وهو أولهم فى المستقبل ، إلى أن تتبدل الأرض والسموات ، وإلى ما بعد ذلك من آيات الله السرمدية ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

– ٢ –

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الإسلامية وعن طابع الرسول ﷺ : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1] .

لقد كان إرسال الرسول ﷺ ، رحمة ، إذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية ، وكان إرساله رحمة إذا نظرنا إلى شخصيته . يقول ، صلوات الله وسلامه عليه : « إنما أنا رحمة مهداة » .

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة ، وكان رحمة مهداة من حيث الذات .

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه إلى الرحمن رسالة ، وينتسب إلى الرحمن صفات ، وكان ينتسب إلى الرحيم رسالة ، وينتسب إلى الرحيم صفات ، إنه رسالة وصفات ، يسير فى حياته باسم الله الرحمن الرحيم ، مبشرًا « باسم الله الرحمن الرحيم » ، إنه نبى الرحمة ، وإنها رسالة الرحمة ، والله سبحانه وتعالى قد ربَّى رسوله على عينه ، واصطنعه لنفسه ، فنشأه على الرحمة فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده .

وإننا إذا أردنا تعبيرًا مجملاً جامعًا لمعانى الرحمة التى اتصف بها نبى الرحمة ، فإننا نجده فى وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول ﷺ ، حينما فاجأه الوحى وحدثها به ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسى » .

فقال رضى الله عنها ، فورًا : « كلا والله ما يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

إن هذا الوصف الصادق للرسول ﷺ إنما يعبر فى كل جملة من جمله عن الرحمة « وهو وصف اتسم به الرسول ﷺ طيلة حياته » والآية القرآنية : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ لا تخصيص فيها ، لا من ناحية نوع الرحمة ، ولا من ناحية موضوع الرحمة ، ويشرح هذه الآية فى شمولها وعمومها ، يشرحها فى دقة وفى عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى : لقد كان الرسول ﷺ يتحدث عن الرحمة ويدعو إليها ويعرف بمنزلتها من الدين . فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : « إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا » .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

فلم يرض هذا القول رسول الله ﷺ لأنه فهم قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عاما شاملاً ، إنه تقييد المطلق ،ولذلك رد عليه الرسول ﷺ بقوله : « ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة العامة » . وما من شك فى أن من الرحمة : الأزواج والأولاد والأهل ، وقد حث على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن ما أراده الرسول ﷺ إنما هو أن تتغلغل الرحمة فى الكيان الإنسانى كله ، حتى تصبح وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته ، فيكون الإنسان وكأنه قبس من الرحمة الإلهية ينثرها إذا سار ، وينثرها إذا جلس ، وينثرها أينما كان ، وينثرها حيثما حل .

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية : رحمة للعالمين .

ولقد حقق الرسول ﷺ ، هذا الطابع بقوله : وحققه بفعله ، ولقد كانت الرحمة – وهى طابع للرسالة الإسلامية – هى الطابع لتصرفاته وانظر إلى الحادثة التالية ، الحادثة التى نزل فيها قوله تعالى : ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة﴾[1] .

وهى : لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، استشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليا . فقال أبو بكر : يا نبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا ، فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : والله ما أرى ما أرى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان (قريب لعمر) فاضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه (يعنى العباس) فيضرب عنقه . حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة « أى ميل » للمشركين .

أما رأى الرسول ﷺ فقد كان معروفًا يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه وعرف له هذا بطابع الرسالة الإسلامية ، أنه أخذ الفدية ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه أمثل الناس فى الاقتداء برسول الله ﷺ ، فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ﷺ .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه بل زاده عليه حيثما خير رسوله فيما بعد بأنه إذا وضعت الحرب أوزارها فله أن يمنّ وله أن يأخذ الفداء : ﴿فإما منّا بعد وإما فداء﴾[2] .

وقبل بدر أخذ الرسول ﷺ الفداء فقد فادى فى سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام .

---

(١) الأنفال : ٦٧ .
(٢) محمد آية : ٤ .

فلما كانت بدر سار رسول الله ﷺ على سنته ، وتصرف مستلهمًا طابع الرسالة التى أرسله الله بها ، ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية وأخذ فى تقديره وزنا وكيلاً وقيمة ومقدارًا وكما وكيفًا ، وأخذ فى تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر ، إن بعض الصحابة نظر إلى المسالة نظرة مادية ، فنزل قول الله سبحانه وتعالى ، مصححًا الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الأمور فى وضعها الصحيح ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلهى :

يقول الخطيب القسطلانى فى كتابه « المواهب اللدنية » فى ذلك : « فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال : ما كان لنبى غيرك » ا هـ .

ويقول القاضى بكر بن العلاء : « أخبر الله تعالى نبيه فى هذه الآية أن تأويله وافق ماكتب له من إحلال الغنائم والفداء » أ هـ .

والتوجيه الإلهى فى خاتمة رسالات السماء أنها رسالة ، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها ، وما كان لنبى من قبل نبى الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، فلما كانت رسالة الرحمة ولما كان نبى الرحمة أباح الله له التصرف بحسب الرحمة وهو الفداء ، ثم زاده تكريما على تكريم حيث زاده رحمة ، فجعل له الخيار بين المن والفداء :

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لا ترى ولا تحس ولا تشعر بالجانب المادى ؛ ولكنكم يا هؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياسًا ، إنه ليس بمقياس ، إن المادة ليست فى موازين الله مقياسًا ، فإن الله يريد الآخرة ، ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله ﷺ : ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة﴾[1] وإنه لمن أفضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل : « أسوة » وحسب وإنما قال : « أسوة حسنة » : وقال سبحانه : ﴿أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾ .

ثم إن الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ، وما كان أيسر ذلك ولم ينقض الله سبحانه ما أبرمه رسوله المبرأ عن أن يسير إلا على بصيرة ، والمنزه عن أن يهدى إلا إلى الصراط المستقيم صراط الله .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول ﷺ على أن يكافح طيلة حياته فى غير فتور ولا هوادة لبداية الإنسانية وإسعادها ، لقد كان ﷺ يشق على نفسه فى سبيل ذلك ويحملها من الأمور ما لا تطيق ، حتى لقد قال الله له : ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾[2] .

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردى فى نار يتهافتون على الاحتراق فيها ، ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحيمة التى يستعملها الرسول ﷺ فى سلوكه مع الناس ، وهى إن كانت خاصة برجل معين فإنها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم .

جاءه أعرابى يومًا يطلب منه شيئًا فأعطاه ﷺ ، ثم قال له مستفسرًا متوددًا : أحسنت إليك ؟ فقال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم الرسول ﷺ أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده ، ثم قال : « أحسنت إليك » ؟

فقال الأعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا ، فقال النبى ﷺ : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

وتحدث الأعرابى إليهم ، وطابت أنفس أصحاب رسول الله ﷺ بقول الأعرابى ، فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع :

« وإن مثلى ومثل هذا الأعرابى : كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورًا فناداهم صاحب الناقة : أن خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونًا هونًا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها .

---

(١) فاطر : ٨ .
(٢) الكهف : ٦ .

وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار ا هـ .

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ ، رحيمة حتى مع الأعداء .

لقد قيل له يوم أحد وهو فى أشد المواقف حرجا لو لعنتهم يارسول فقال : صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا »

وكان إذا مثل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهداية والصلاح ، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف فيما بينهم . سئل مرة : أى الناس أحب إليك ؟ فقال : أنفع الناس للناس . وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « إدخال السرور على المؤمن » وقال : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » .

وكانت رحمته . صلوات الله وسلامه عليه عامة شاملة ، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم ، لقد قال – يحث على الشفقة بالحيوان – « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش ، فنزل بئرًا فشرب منها . ثم خرج منها فإذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى من شدة العطش) فقال : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا يارسول الله : وإن لنا فى البهائم أجرًا ؟ قال : « نعم لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وقال ﷺ : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها فلاهى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

لقد كان ﷺ رحمة ، وكان رحمة للعاملين .

– ٣ –

يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا » .

إن الإنسان الذى خصه الله بالوحى ، واجتباه لرسالته ، واصطفاه ليكون – باسمه سبحانه – بشيرًا ونذيرًا ، إن هذا الإنسان الذى فضله الله على العالمين : يجب أن نعرف له مكانته ونتزله فى الشرف الذى أنزله الله فيه .

إن هذا السراج المنير ، إن هذا الرءوف الرحيم : ينبغى ألا يُدعى كما يدعى زيد وعمر : بمعنى ؛ لاتنادوه باسمه : فتقولوا : يا محمد ، ولا بكنيته فتقولوا : يا أبا القاسم ، بل نادوه

وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير ، بأن تقولوا : يارسول الله ، يانبى الله ، يا إمام المرسلين ، يارسول رب العالمين ، ياخاتم النبيين ، وغير ذلك .

واستفيد من هذه الآية – كما يقول الشيخ الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالالين – من أنه لا يجوز نداء النبى بغير ما يفيد التعظيم ، لا فى حياته ، ولا بعد وفاته .

فبهذا يعلم أن من استخف بجنابه – ﷺ – فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة » اهـ .

ويقول الله سبحانه فى أوائل سورة الحجرات : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تُقَدِّموا بين يدى الله ورسوله﴾ أى لاتتقدموا بأمر من الأمور ، قولا كان أو فعلا ، إلا إذا أذن الله ورسوله ، وكل أمر – قولا كان أو فعلا – أتاه الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لا يقع على السنن المستقيم .

يقول الضحاك : هو عام فى القتال وشرائع الدين ، أى لا تقطعوا أمرًا دون الله ورسوله . واتقوا الله إن الله سميع عليم .

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تَرْفعوا أصواتكمْ فوق صوت النبى ، ولا تجْهَروا له بالقول كجهر بعضِكمْ لبعض ﴾

(فإنكم إذا فعلتم ذلك يخشى عليكم) أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون .

﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امْتَحَنَ الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ .

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأعراب الأجلاف فى غلظة وفى جفاء فإنهم ناقصو العقول . ﴿ إن الذين يُنَادونك من وراء الحُجرات أكثرهمْ لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرًا لهم والله غفور رحيم ﴾

على أن مجرد الرغبة فى الحديث إلى رسول الله ، ﷺ يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة .

يقول تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجَيتمْ الرسول فقدموا بين يَدَى نجواكم صدقةً : ذلك خير لكم وأطهر ، فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾

وتدل الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم ، لأن من لم يجد الصدقة ، فإن موقف الله سبحانه منه – لعدم قدرته – المغفرة والرحمة ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم أتاه الإنسان ، وكان عدم توفر الاستطاعة سببًا فى مغفرة الله سبحانه : ﴿ أأشفقتم أن تقَدموا بين يَدَى نجواكم صدقات﴾ وحملكم خوف الفقر على ألا تفعلوا ثم ندمتم واستغفرتم

فتداركوه حتى يتوب الله عليكم ، وأثبتوا حسن نيتكم ، وصفاء سريرتكم : بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل ، وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم ، وتطيعوا الله ورسوله فى الصغير والكبير . وما من ريب فى أن الله سبحانه ، خبير بكل ماتعملون . يقول تعالى : ﴿أأشفقتم أن تُقدموا بين يَدَىْ نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا ، وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون﴾

ويقول الله تعالى : ﴿يأيها النبى إنَّا أرْسلناكَ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، وبشر المؤمنين بأنَّ لَهُمْ من الله فضلاً كبيرًا﴾ .

— ٤ —

قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يَدى اللهِ ورسولِهِ واتقوا الله إنَّ الله سميع عليم ، يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكمْ فوقَ صوتِ النبى ولا تجهروا له بالقول كجَهْرِ بعضِكم لبعضٍ أن تحْبَطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إنَّ الذين يغُضون أصواتَهمْ عند رسول اللهِ أولئكَ الذينَ امْتَحن اللهُ قلوبهمْ للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحُجرَات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صَبَروا حتى تخرجَ إليهم لكان خيرًا لهم والله غفور رحيم﴾ .

ليست هذه الآيات الكريمة إلا أنموذجًا لآيات كثيرة ، ذكرت فى القرآن الكريم لتبين قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أردنا أن نتحدث فى لمحات خاطفة ، عن قطرات من بحر فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا نقول فى إجمال مجمل وفى شمول شامل : إنَّ جماع الفضائل فيه — صلوات الله وسلامه عليه — أنه كان ربانيا : لقد أسلم وجهه لله تعالى إسلامًا كليا يتمثل فى الآية الكريمة التى يأمر الله رسوله فيها قائلا : ﴿قل إنَّ صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريكَ له وبذلك أمِرْتُ وأنا أول المسلمين﴾ . لقد خلصت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لله فكان كل ما يأتيه إنما هو لله ، وكل ما يدعه إنما هو لله : لقد كان إلهيا بمعنى أنه فنى فى الله فناء كاملا . فكانت إرادته من إرادته سبحانه وكان حبه من حبه سبحانه ، وكان بغضه من بغضه سبحانه ، فما أراد إلا لله ، وما أحب إلا لله ، وما أبغض إلا لله — كما ذكرنا فيما سبق .

وكان مظهر هذا الإسلام الكلى لله سبحانه ، أن كانت حياته كلها جهادًا فى سبيله .

والفناء فى الله ليس سلبيةً ، لا ولا قلامة ظفر : إن الفناء فى الله جهاد كله . وقد جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله بكل خلية فى جسمه وبكل فكرة فى نفسه .

لقد جاهد أخلاقيا مبتدئًا بنفسه ، ووصل فى ذلك إلى أن لم يكن للشيطان إليه من سبيل . وإلى أن كان صفاء صافيًا . عبر الله عنه فى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم بالنور :

لقد وصل رسول الله صلى الله عليه ، فى الصفاء إلى درجة استأهل أن سماه الله نورًا ، وسماه سراجًا منيرًا .

لقد وصل من شفافية النفس وصفاء السريرة وطهارة الروح إلى درجة من القرب عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله : ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾ .

لقد تخطى – صلوات الله وسلامه عليه – درجة سدرة المنتهى .

لقد تجاوز سدرة المنتهى ، أى الحدود الأخيرة التى بين عالم الكون والملأ الأعلى : بين عالم الدنيا وعالم الآخرة .

لقد تجاوز عالم الدنيا قبل انتهائه من عالم الدنيا . وارتفع عن عالم البشر الذى تحده سدرة المنتهى ، إلى عالم النور الذى يعبر عنه بقاب قوسين أو أدنى .

لقد انغمس فى عالم النور الذى لم ينغمس فيه ملك مقرب ولا نبى مرسل :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماءً ما طاولتها سماء !

ولقد جاهد اجتماعيا : آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر . فأوجد مجتمعا باع نفسه فى سبيل الله ، مجتمعا متآخيا ، مجتمعًا سادت فيه الفضيلة وكانت فيه كلمة الله هى العليا .

ولقد جاهد حربيا ، كما يقول البطل الكبير الإمام على : كنا إذا حمى الوطيس ، نتقى برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب للأعداء منه ..

لقد ثبت فى موقعة أحد : لم يتزحزح عن موضعه . وفى موقعة حنين : أخذ يتقدم حين تراجع الأبطال .. وهو القائل : والذى نفس محمد بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل !!

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله كلما أشرق النور .

وصلوات الله وسلامه عليك وعلى أتباعك الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أ .هـ .

وصلوات الله وسلامه عليك وعلى أتباعك الذين استشهدوا فى سبيل الله .

يقول الله تعالى : ﴿قُل إِنْ كَانَ آباؤُكم وَأَبناؤُكم وإخوَانكم وَأَزْواجُكم وَعَشيرتَكم وأَمْوَال اقترفتموها وتجارة تخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمسَاكِنُ تَرْضَونها أحبَّ إليكم مِنَ اللهِ ورسوله ، وجهادٍ فى سبيلِهِ ، فترَبصُوا حتَّى يأتيَ اللهُ بأمْرِهِ ، والله لا يهْدِى القوْمَ الفاسِقِين﴾ .

وفى معنى الآية الكريمة : يروى الإمام البخارى رضى الله عنه ، عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شيء إلا من نفسى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه . فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الآن يا عمر » أى : الآن – وقد صار الرسول صلى الله عليه وسلم ، أحب إليك من نفسك – فقد استقامت أمورُ الإيمان عندك ، وصرتَ إلى ما أحبَّ الله ورسوله .

ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتضمن – كشرط أساسى جوهرى – اتخاذه صلى الله عليه وسلم ، قُدْوَةً فى السلوك والعمل .

والدرجة الجوهرية فى القدوة به صلى الله عليه وسلم ، إنما هى متابعته فى إسلام وجهه لله سبحانه . لقد باع رسول الله ﷺ ، نفسه وماله لله سبحانه . وكان أول البائعين ، وكان أمثل البائعين ، وحقق بذلك –وحقق أصحابه ومن اتبع هديه متأسين به – قول الله تعالى : ﴿إِن اللّهَ اشترى مِن المؤمنين أنْفسَهمْ وأموالهمْ بأن لهم الجنةَ يقاتلونَ فى سبيلِ اللّه فيَقْتلُون ويقتلونَ وَعدًا عليه حقا فى التوراةِ والإنجيل والقرآن ، ومَن أوْفَى بعهدِهِ مِن الله فاستبشِروا ببيعِكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم﴾ [1] .

لقد اشترى الله فى عقد الإيمان النفس والمال ، بثمن هو الجنة ، فإذا بخل المؤمن بنفسه فى سبيل الله فقد أخل بعقد الإيمان ، وإذا بخل بماله فى سبيل الله فقد أخل بعقد الإيمان .

وحب رسول الله ﷺ إذن إنما هو إيثار ما يحب واتباع هديه والعمل بسنته فى الإيجاب والسلب وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم مما يحبه الإنسان من أشخاص أو من أشياء ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ ، فيما رواه البخارى رضى الله عنه .

(١) التورة آية : ١١١ .

« والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

فحب رسول الله ﷺ ، مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا ، تمثلت فيه ﷺ ، طيلة حياته ، والآية الكريمة والأحاديث الشريفة التى رويناها تدل كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية ، أو مع أمور الدنيا ، فإنه على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها ، يقول الإمام الرازى : إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين ، وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا .

أما بعد : فيقول صاحب الكشاف عن الآية التى صدرنا بها هذا الحديث ما معناه : وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنه من التصلب فى ذات الله ، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله ؟ أم أن الشيطان يغويه عن أجل حظ من حظوظ الدين ، فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره . ثم أما بعد : فإن الحب الصادق له ﷺ ، يتمثل ، فى حقيقته ، فى التزام صفاته ، ﷺ ، والعمل على سيادتها فى المجتمع .

– ٦ –

يقول الله تعالى : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهِم وأزواجه أمهاتهم ، وأولو الأرْحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرينَ إلاَّ أنْ تفعلوا إلى أوليائكمْ معروفًا ، كانَ ذلكَ فى الكتاب مسطورًا﴾ .

هذا هو البيان الإلهى فى ما يتعلق بصلة المؤمنين برسول الله ﷺ : أنه أحق بهم من أنفسهم : سواء وجدوا فى زمنه أم وجدوا بعد زمنه .

فمن واجبهم المفروض عليهم : أن يُفدوه – فى شخصه ، وفى تعاليمه سواء كانت أقوالاً أم أحوالا أثرت عنه ، أم أفعالا بين بها الدين – بأنفسهم ، وبكل ما يملكون . وطاعته مقدمةٌ على طاعة أنفسهم ، فى كل أمر من أمور الدين والدنيا .

هذا هو الإعلان الإلهى ، والبيان الربانى : يتبعهُ من أضاء الله قلبه بنور الإيمان ، وينحرف عنه من ليس له فى الهداية نصيب .

ولقد بين الله هذا المعنى فى القرآن ، فى غير موضع ، فلقد جعل سبحانه طاعة الرسول من طاعته : فقال :﴿منْ يطع الرسولَ فقد أطاع الله﴾ .

ولقد نفى سبحانه ، الإيمانَ عمن لا يُسلم إلى الرسول تسليما لا حرج فيه ولا تردد ، فى كل ما يهجس بنفسه من أمر ، وفى كل ما يثور بينه وبين غيره من خلاف .

﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجرَ بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويُسلموا تسليما ﴾ .

والتحكيم إذا كان للرسول ﷺ فى حال حياته ، فإنه لسنته وتعاليمه ، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ..

ولقد حفظت هذه السنّة وهذه التعاليم ، بصورة لا ريب فيها ، حتى إنه ليمكن أن يقال : إن الرسول ﷺ ، لم يمت ، وإنما هو بين أظهرنا : يعطر أريجه الزكى الأرجاء .

إنه ﷺ ، حى فى أقواله وأفعاله وأحواله : يقود من اتبع هديه والتزم سنته ، إلى فراديس الخلود .

والله سبحانه وتعالى ، يذهب فى هذه الأولوية إلى أبعد الحدود ، فيعلن أنه ﷺ ، أحق بهم من أنفسهم ، ومن كل ما يمت إليهم بصلة حتى فى الحب :

والذى يعلن ذلك ويسجله ، هو الله سبحانه وتعالى : الذى قرنه بنفسه فى هذه الأولوية فقال تعالى : ﴿قل إنْ كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشونَ كسادهَا ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمرِه ﴾ .

— ٧ —

ورسول الله ﷺ ، هو القدوة الحسنة ، إنه الأسوة الحسنة فى أقواله ؛ وأفعاله ؛ وأحواله :

يقول الله تعالى : ﴿لقدْ كان لكم فى رسولِ الله أسوةٌ حسنة لمنْ كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾(١) .

ويقول الشيخ الصاوى فى شرحه على تفسير الجلالين : الاقتداء برسول الله صلى الله

(١) الأحزاب آية : ٢١ .

عليه وسلم واجب فى الأقوال والأفعال والأحوال ؛ لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى ،بل جميع أفعاله ، وأقواله ، وأحواله عن ربه » . ولذا قال العارف :

وخصّك بالهـــدى فى كل أمـــر فلست تشاء إلا ما يشاء الله ا هـ .

والله سبحانه وتعالى يقول فى سورة النجم ، مؤكدا ما يقول ، بل ومقسما عليه : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلاَّ وحى يوحَى﴾ .

وإذا كان الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجبا ، فإن له شروطًا لا يتأتى الاقتداء الصحيح إلا بتحقيقها ،وقد ذكرت الآية الكريمة هذه الشروط .

والشروط الأولى منها : أن يرجو الإنسان الله سبحانه وتعالى ، ورجاء الله تعالى قد حدده الله سبحانه فى القرآن الكريم بقوله :﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يُشركْ بعبادة ربه أحدًا﴾ .

إن العمل الصالح : وعدم الشرك فى العبادة ، أمران لازمان لمن كان يرجو لقاء الله بصدق ..

ويقول الإمام ابن كثير فى ذلك : وهذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصًا لله ، صوابا على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن طاوس قال : قال رجل :يارسول الله ، إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت هذه الآية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾ ورجاء اليوم الآخر ، هو الشرط الثانى – للتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم – إنما يتمثل فى العمل لهذا اليوم ، حتى يلقى الله فيه وهو عنه راض .

ويصف الله سبحانه ، الذين لا يرجون لقاءه ، ولا يرجون اليوم الآخر ، فيقول :﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون : أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ .

وبعد ، فإن الشرط الأخير فى الوصول إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو : الذكر الكثير .. ولقد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : أن شرائع الإسلام كثرت علىَّ ، فأخبرنى بشىء أتشبث به : فقال صلى الله عليه وسلم : لا يزَل فوك رطبًا من ذكر الله ..

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾ .

– ٨ –

فى مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فى الآخرة : ثبت فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما – قال (أنا سيد الناس يوم القيامة .هل تدرون مم ذاك ؟ ! يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فينظرهم الناظر ، ويسمعهم الداعى ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس : ألاترون ما أنتم فيه إلام بلغكم ؟ ! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ ! فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ،فيأتونه فيقولون يا آدم : أنت أبو البشر : خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكةفسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ! ألا ترى إلا ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربى غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى . نفسى . نفسى ، اذهبوا إلى غيرى .اذهبوا إلى نوح .فيأتون نوحًا ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض . وقد سماك الله عبدًا شكورًا . ألا ترى ما نحن فيه ؟ ! ألا ترى ما بلغنا ؟ !

ألا تشفع لنا إلى ربك ، فيقول : إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى . نفسى . نفسى . نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : ألا إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى كذبت ثلاث كذبات ، نفسى . نفسى .نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون :يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها ، نفسى . نفسى . نفسى . اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم

يذكر ذنبًا ،نفسى . نفسى .نفسى . اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية (فيأتونى ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك . ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش ؟ فأقع ساجدًا لربى ، ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبل : ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : أمتى يا رب ، أمتى يا رب ، أمتى يارب ، فيقال : يا محمد أدخِلْ من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب .

ثم قال : والذى نفسى بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة : كما بين مكة وهجر . أو كما بين مكة وبصرى » .

وبعد فإنا نختتم هذا الكتاب بالآيات القرآنية الشريفة التالية :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[1] .

(تم بحمد الله تعالى)

---

(١) سورة الجمعة الآيات : ٢ ، ٣ ، ٤

فهرس الكتاب

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٨/١٩٩٨	
الترقيم الدولى	977-02-5549-1	ISBN

١/٩٠/٢١٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)